رواية لجين دوه

الجحيم اللذيذ

ممنوع من النشر



18+

"This page is intentionally left blank"

الجحيم اللذيذ

رواية لجين دوه

تحذير تحذير تحذير

بُنيت هذه الرواية على أحداث حقيقيّة متباعدة، وقد جرى تكثيفها لتناسب زمن الرواية، وتحتوي مشاهد صادمة ولغة حسّيّة مكثّفة وهي ليست للقلوب الضعيفة، وهي تناقش ثيمات غير مريحة مثل إيذاء النفس وإنهاء الحياة والإدمان، وهي غير مناسبة لمن لم يتمّ الثامنة عشر من العمر. كما أنّها تتضمّن تصويراً قد لا يكون دقيقاً لبعض الأمراض النفسيّة، فهي ليست مرجعاً طبّيّاً. أخيراً فإنّ الرواية تنقل بعض المقولات على لسان أبطالها دون أن يعني ذلك أنّ المقولات صحيحة، لا سيّما فيما يتعلّق بالتصوّر الشعبيّ عن الدين.

في حال كنت تعانين/تعاني من أي مشاكل نفسيّة، أو إدمان على موادّ محدّدة حتّى ذات الصبغة الأدبيّة منها، أو تراودك أفكار حول إيذاء النفس، أو لديك تساؤلات دينيّة، فعليك البحث في الإنترنت عن قنوات المساعدة الآمنة في منطقتك، وعليك التواصل معهم على خطوطهم الساخنة فورًا.

لاحقاً

تزحف حشرات الموت الدّقيقة من شقوق الكلمات المُخَبَّأة في سحّاب حقيبتها، والنّاس سيظنّون الموت أتى من الشّبّاك المفتوح. القفزة مجرّد أداة، ليست سبباً. الرّصيف في الأسفل ينتظر، رماديّ، أملس كظهر سمكة نافقة. تتخيّل أنّه بعد ساعات، سيمرّ الشّيخ إياد. سيتعثّر نعل صندله الجلديّ الثّقيل ببقعة العتمة التي خلّفها ركام جسدها. سيجهل تماماً حرارة فخذ عروسه التّقيّة الماثلة على ضلفة نافذة الألمنيوم. هكذا سيعرف خسارته لها في الدّنيا والآخرة.

أبوها يرتّل آيات العذاب في الغرفة المجاورة. صوته يشبه جوقة زوامير الشوارع في عَمَّان، ضجيج فقد وظيفته التّحذيريّة، استحال طنيناً أعمى، خلفيّة صوتيّة لحياة هامشيّة. النّبرة الثّابتة تعرّي جهله، آية الوعيد وآية البشارة تخرجان بذبذبة متطابقة، بالنّشاز ذاته. ربما يتهادى في خياله طيف ابنته تستغفر، يرسم لها صورة الفتاة الحالمة التي تبني بيت الزّوجيّة الموعود في رأسها. هي هنا تنسج أوراق النّهاية. ومع كلّ تشوّش في ذهنها، تعكف على جسدها، تستخرج منه جنّيّ الرّغبة المؤقّتة.

هذه الأوراق مسلخ سِرّيّ. ها هي "المُسْلِمة المثاليّة" تخلع جلدها ببطء شديد على عتبة الجحيم في رحلة تعرٍّ دقيقة. أوّل ما طبعته: "أترك لكم

هذا اللّحم المكتوب، انظروا إلى الحرام يتحوّل حطباً يشتعل عشوائياً في عتمة البيوت الطّاهرة!" تقذف وعيها نحو إحدى جلسات الشَّبَق القديمة، تبدأ من هناك، من تذمّر جسديّ خافت ابتلعته الجدران. تخرج من حاضرها وجسدها، تكتب عن نفسها غريبة مُتَلَصِّصة. هي بالفعل اليوم أنثى أخرى.

الفصل الأوّل : نافذة الجحيم

تحتاج أطراف أظافرها، أناملها العذراء من معادن الملاقط، لتلتقط شعرة شاردة نبتت كفكرة ممنوعة على صفحة وجهها الأسمر. والدها، المهندس جلال "أبو عُمَر" السّلفيّ، يحرس مسام وجهها من معصية النّمص. تلمّسها الحذر لتلك الشّعرة يحتاج رهافة توازي وخزة الشَّبَق الأولى لتسحب خيط القصّة الخفيّ، تلك الوبرة المستترة في طرف لحاف الخيال. تكشط حولها، تطارد طرفها الزّلق. تشعر به ينمو بين أصابع وعيها، تتضخّم، تستلّ خيط صوف خشن من كنزة عتيقة، تنسج منه خيالاً فاحشاً يلفظ برد الواقع، لباس سباحة صوفيّ يكشف اللّحم، تماماً كذاك الذي التهمت حروفه ذات ليلة على "واتباد" وتركها ترتجف.

طيلة السّنين الماضية، امتلكت قدرة فائقة على السّيطرة على جوعها، ولو بصورة مؤقّتة. أغلقت باب غرفتها بإحكامٍ خانق، تأكّدت من كتم السّتائر الثّقيلة للسرِّ. سحبت ملابسها القطنيّة النّاعمة، فانسكب جسدها الرّشيق. كانت تبدو طويلة، الثّياب تجعلها تبدو نحيلة، العريُ كشف منحنيات جسمها الملفوف، جلدها الحنطيّ الدّاكن موحّد اللّون، ظلّ محجوباً عن الشّمس خلف ستائر الغرفة. نفضت شعرها الكثّ خارج كنزة الصّوف الغليظ التي ارتدتها على لحمها مباشرة.

ارتعاشةٌ حادّةٌ سرت في جسدها وهي تُغمض عينيها، تستشعر نهش الصّوف لحلمتي صدرها النّافرتين. تخيّلت الصّبايا الغربيّات في تلك القصّة يغطسن في مياه المسبح الفيروزيّة، الماء البارد يُطفئ، أو يزيد، اللّهيب المشتعل في أطراف أجسادهنّ. أمسكت بكأس الماء بجوار سريرها وسكبته بجرأةٍ على صدرها. الصّوف المبلول التّصق بجلدها النّاعم كقُبلةٍ جليديّةٍ. حبست أنفاسها للحظة، تركتها تنفلت في زفرةٍ طويلة. صوت طرقٍ خفيفٍ على الباب كاد يوقف قلبها. "عائشة؟ هل أنتِ بخير يا ابنتي؟" صوت أمّها. "نعم يا أمّي، كلّ شيءٍ على ما يرام، أراجع بعض الدّروس الصّعبة". الكذبة تخرج طبيعية، وقلبها يطرق سقف حلقها بعنف. انتظرت تباعد خطوات أمّها، عادت إلى لذّتها المبتورة أكثرَ نَهَماً.

تشعر بامتنان بالغ لجهل أهلها بالإنجليزيّة التي تتقنها ببراعة. أبوها درس الهندسة في سوريّا عروبيّة التّوجّه وعمل في قطاع المقاولات، وأمّها تخرّجت في كلّيّة للإدارة تدرّس بالعربيّة. يظنّانها تغرق في مادّةٍ مفروضةٍ عليها في قسم الأدب الإنجليزيّ بالجامعة حين تنكبّ على تلك الكتب ذات الأغلفة الأجنبيّة. يكفي أن تستبدل الغلاف، تضع رواية رومانسيّة جريئة بين دفّتي كتابٍ لداعيةٍ إسلاميٍّ شهيرٍ يخطب بالإنجليزيّة، لتأمن نظرات الفضول وتنجو من اكتشاف عوالمها السّرّيّة المتفجّرة.

تتجنّب إطالة النّظر في المرآة. تلك عادة الصّبايا الخفيفات تنبذها المؤمنة الرّصينة. كانت في قرارة نفسها تدرك تشابهها مع كتبها: غلافٌ يوحي بالتّقوى، ومحتوىً يضجّ بالتّمرّد واللّهفة. هزّت رأسها طاردةً الفكرة، قامت تخلع كنزة الصّوف المبتلّة. برز ثدياها وازدادت استدارتهما السّفليّة. وقفت أمام المرآة الباهتة، تتفحّص الاحمرار الذي خلّفه الصّوف الخشن على نهديها. حلمتاها منتصبتان، قاسيتان، هما يدان تمتدّان وتطلبان المزيد. وخزها ضميرها. حرام. الكلمة سكينٌ بارد. هذا تعدٍّ، خطوةٌ واعيةٌ نحو الممنوع، نزوةٌ يقظة لا كالحلم المسموح. أمسكت ملابسها القطنيّة درعاً واهياً ضدّ مدٍّ صاعد. ظلّ ملمس الصّوف يلسعها، دفئاً متمرّداً تحت قماش التّقوى. بدا القطن كذبة، زيًّا لدورٍ سئمت أداءه دون جمهور. داعبتها فكرة احتكاك الصّوف ذاته بين فخذيها، تحوّلت ركبتاها إلى قالبي زبدةٍ يذوبان أمام حرارة الفكرة المتوهّجة.

استلقت على بطنها، شدّت الغطاء فوقها. اللّهاث يتصاعد، كنزة الصّوف محشورةٌ بين فخذيها، تحكّ بها خاصرتها بحركةٍ لا إراديّة تستخرج جنّيًّا شهوانيًّا من مصباح علاء الدّين. استدعت تفاصيل تلك القصّة من "واتباد"، صوراً حيّةً تجعلها تتعرّق من الدّاخل. الحرارة تتصاعد تحت احتكاك الصّوف بملابسها القطنيّة داخل البنطال. ارتبكت بسبب الرّطوبة الواضحة التي بلّلت ملابسها الدّاخليّة البيضاء عند ذلك المثلّث

الحميم. حاولت عبثاً إقناع نفسها بقدوم هذه الرّطوبة من الكنزة الصّوفيّة المبلولة، متجاهلة لعاب ذلك الفم الخفيّ المفتوح اللاهث بين رجليها.

عُمْر عائشة الآن عشرون سنة. تسكن مع عائلتها في الطّابق الثّالث من بناية عاليةٍ في أحد أحياء عَمَّان المعلّقة على سفوح الجبال. عَمَّان القرية التي كبرت في غفلة من الزّمان، تحتفظ بكثير من صفات القرية. تطلّ نافذة غرفتها بزاويةٍ ماكرةٍ على عمارةٍ مجاورة، تسمح لها باصطياد ومضاتٍ من حيواتٍ أخرى خلف بعض الشّبابيك. بين كلّ تلك الشّبابيك، نافذةٌ واحدة، نافذة جارها الشّابّ "إياد"، تفتح على عالمٍ يثير فيها فضولاً مَرَضِيًّا. علمت اسمه من زميلتها في الجامعة "نوال"، تلك التي تشاركها مقعد الحافلة صباحاً. همست لها ذات مرّةٍ وهي تشير برأسها نحو عمارة إياد: "هذا الشّابّ يسكن وحده. يقولون إنّه مهندسٌ مثل أبيكِ، مختلفٌ عنه طبعاً". كلمة "مختلف" كانت كافيةً لتشعل فتيل مشاهداتها من نافذتها.

غاب عن عائشة استغراب معرفة جارتها وزميلتها شيئاً عن إياد. سمعت ممّن حولها تميّز مدينتها بتشابك غريب، تضخّمت فجأة فجمعت النّقائض معاً. هذا يبرّر سلسلة يصعب إقناع الغرباء بحدوثها فعلاً، بعيداً عن افتعال كاتب انعقد لسانه وجفّ قلمه.

تدرس عائشة الأدب العربيّ. والدها وضع أمامها خيارين، مُعَلِّمة دينٍ إسلاميّ، أو مُعَلِّمة لغةٍ عربيّة، تحت امتعاض واضح من أمّها. حين اختارت الأدب العربيّ، قال لها بنبرةٍ تحذيريّة: "الأدب يا عائشة بحرٌ واسع، فيه الغثّ والسّمين. تمسّكي بدينكِ فهو العاصم، لا تجعلي هذه الكتب تبعدكِ عن الأصول". ارتاح ظاهريًّا لقرارها، ستظلّ ترجع إليه في أمور الدّين، لن تشكّل رأياً مستقلا يثير قلقه. رأت هي في الأدب مهرباً من رتابة حياتها، فرصةً لتعيش حيواتٍ أخرى بعيدةً كلّ البعد عن عالمها المُقَنَّن.

نشأت عائشة بلا إخوة مجايلين. ظلّت وحيدة أهلها زمناً، جاءت أختٌ صغيرة، "عبيدة"، يفصلها عنها ستّ سنوات، ثمّ أخٌ آخر، "عُمَر"، طفلٌ تفصله عن عبيدة ستّ سنواتٍ أخرى. سرّها ابتعاد أهلها عن نمط الأسر المتديّنة التي تعرفها في كثرة الإنجاب. غاب عنها حتّى سنين قريبة تطوّر تديّن أهلها الصّارم. والدها يقضي وقته اليوم متابعاً أخبار "إخوته في الدّين" خلال أحداث سوريّا، اختار "القبض على جمرة التّديّن" وهي طفلة بسبب صدمة نفسيّة تجهلها. بقيت لديه بعض التّفضيلات تفارق أغلب المتديّنين، شكّلت الحدّ الذي سمحت به علاقته المتوتّرة أحياناً مع والدتها، منى، المنحدرة من أسرةٍ يختلف نمط تديّنها عن المذهب الذي اختاره أبوها. خالات عائشة سافرات، يتحرّكن بحريّةٍ عرفتها عائشة

كغصّةٍ في الحلق، خيالاتٍ ترقص على صفحات القصص والرّوايات تثير فيها وخزاً من حنينٍ مجهول.

كلّ كتابٍ ذي غلافٍ مزخرفٍ بحروفٍ عربيّةٍ أصيلةٍ يمثّل كتاباً دينيًّا أو تراثيًّا عريقاً في عُرْف المهندس جلال. قراءاته للتّراث العربيّ اقتصرت على اطّلاعٍ عابرٍ عند الحاجة على حديثٍ هنا أو تفسيرٍ هناك. الكتب التي تستعيرها ابنته عائشة من مكتبة الجامعة هذه الأيّام، كجزءٍ من ديوان ابن الرّوميّ الصّاخب، أو مجلّدٍ من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ المليء بأخبار الجواري والقيان والمجون، تبدو في نظره في صلب تخصّصها الأكاديميّ البريء لا تثير لديه أيّ ريبة. شكلها الخارجيّ يطابق جزءاً من صحيح البخاريّ أو تفسير الطّبريّ.

أدركت عائشة في بداية سنتها الثّانية في الجامعة انفتاح البيئة العربيّة في عصر التّدوين، وما قبله بكثير، حريّةً تفوق ما يصوّره فيلم "الرّسالة" الذي شاهدته مراراً في صغرها بصورته النّقيّة حدّ الهشاشة. صدمتها المفارقة التي طرحتها الدّكتورة بسمة، أستاذتها في الأدب القديم، في إحدى المحاضرات بصوتها الهادئ الذي يحمل بحّةً مميّزة كأنّه يحمل غبار القرون: "الذين يحاولون اليوم عيش فيلم الرّسالة وتحقيق صورةٍ سينمائيّةٍ متخيّلةٍ عن الإسلام الأوّل يقفون خلف تفجيرات عَمّان التي قتلت مخرج هذا الفيلم، الشّهيد مصطفى العقّاد. ومن عجائب القدر قتل الجماعات

ذاتها للعقيد معمّر القذّافيّ بطريقة بشعة، وهو من ساهم في إنتاج الفيلم" . شعرت عائشة يومها بتشقق قشرةٍ صلبةٍ حول فهمها للعالم. الدّكتورة بسمة تلقي أحجاراً صغيرةً تحدث دوائر تتّسع في ماء تفكيرها الرّاكد، تضع بذور شكٍّ صحيٍّ وتفكيرٍ نقديّ في عقول تلاميذها.

استثارتها تلك الكلمات لتبحث بِنَهَمٍ عن حقيقة الحياة الاجتماعيّة في العهود السّالفة، بعيداً عن الصّورة المُتَخَشِّبة التي رُسمت لها تتناقض مع قراءاتها لتعيشه في الخيال. طلبت من الدّكتورة بسمة اقتراح كتب، فاجأتها الأستاذة بإعارتها نسخةً من جزءٍ من كتاب قائلةً بصوتٍ خفيضٍ وعينين لامعتين كأنّهما تحملان سِرًّا عتيقاً: "سأبدأ بما كانت تقصّه عليهم جدّاتهم... إليكِ هذا، واحرصي أن تعيديه سليماً، طبعةٌ نادرة، أخاف أن يمزّقه أحد الجهلة الذين يمسكون الدّين من ذيله يظنّون أنّهم يحسنون صنعاً" . امتدّت يد عائشة المرتجفة تتناول الكتاب، شعرت بثقل الورق الأصفر ورائحة الحبر القديم تغزو أنفها تستنشق عبق زمنٍ آخر. أمسكت لأوّل مرّةٍ بجزءٍ من "ألف ليلة وليلة" سمعت عنها كثيراً في برامج الأطفال. الأمر هنا يختلف، فتحت نافذةً سحريّةً على عوالم سحر وجنون وجنس صريح أحياناً، عوالم شهرزاد تروي الحكايات لتنجو بحياتها بإثارة شهوة الملك، شهوة الحياة ذاتها.

أنهت عائشة قراءة المجلّدات الضّخمة لـ"ألف ليلة وليلة" جزءاً بعد جزء. استمرّت عادتها في قراءة هذا الجانب المسكوت عنه في التّراث العربيّ زمناً لا بأس به، تحتطب وتجمع الحطب لتوقد ناراً عظيمةً داخلها تشعر بحرارتها تتزايد يوماً بعد يوم. لهيبٌ يتسلّل إلى أطراف أصابعها كلّما قلّبت صفحة، نارٌ تحتاج وقوداً متّصلاً لا ينقطع. عدم انقطاعها عن القراءة باللّغة الإنجليزيّة، خلال دراستها لمادّة الأدب المقارن، قادها طبيعيًّا لتغذية نار التّوق المتأجّجة في صدرها بأدبٍ مترجمٍ أكثر جراةً من الرّومانسيّة الصّبيانيّة: يوسا، أنييس نين، هنري ميلر. كلّ صفحةٍ تقرأها تزيد من سعير تلك النّار، تبني إدماناً لذيذاً وخطيراً، إدماناً يغدو متطلّباً، يطلب المزيد كوحشٍ صغيرٍ ربّته فاستأسد.

الأدب الذي يتضمّن لمساتٍ إيروتيكيّةً مواربة متواريةً بين عوالم غزيرةٍ وحبكاتٍ معقّدة قصر عن إشباع جوع "عيّوش" النّهِم. هكذا تسمح لصديقاتها المقرّبات وبعض زميلاتها في الجامعة مناداتها، كنوعٍ من الدّلال وقناعٍ آخر ترتديه. تكره مناداتها "عيشة" بطريقةٍ عاميّة، تودّ لو نطقوا اسمها كما يجب، تخجل من تعقيد طلبها فتهرب إلى تدليل نفسها بـ"عيّوش تكفي". بحثت عيّوش خلال سنتها الجامعيّة الثّانية بنشاطٍ عن مصدرٍ جديدٍ للحطب تطعمه نارها المستعرة حتّى عثرت على منصّة "واتباد". هناك في تلك المساحة المفتوحة حيث يكتب الهواة

والمحترفون قصصاً تتفلّت من رقابة النّاشرين التّقليديّين، بدأت ملامح دربها تتغيّر، تتلوّن بألوانٍ أكثر جرأةً ووضوحاً كلّما سارت أعمق. وجدت قصصاً تتحدّث بلغةٍ مباشرةٍ عن الرّغبة والجسد، قصصاً كتبتها فتياتٌ وشبابٌ من جيلها يشاركون خيالاتهم بلا خوف.

استخدامها اسماً مستعاراً بالإنجليزيّة على "واتباد" نزع عنها خجل وضع تعليقاتها النّقديّة على روايات من تتابعهم. تعلّق بلغةٍ إنجليزيّةٍ لا بأس بها مكتسبةٍ من قراءاتها. تقول شيئاً عميقاً في تحليل الحبكات وتطوّر الشّخصيّات نابعاً من فهمها للأدب المقارن وحساسيّتها المرهفة. ألقى كاتبٌ شابٌّ يتابعه الآلاف عود ثقابٍ في كومة حطب أخرى تراكمت في زوايا روحها بعد نقاشٍ حادٍّ بينهما في التّعليقات حول دوافع إحدى شخصيّاته. كتب لها: "تعليقاتكِ أعمق من القصّة نفسها! تبدين مثقّفةً جدًّا في أساليب الكتابة وتفهمين دوافع النّفس البشريّة. لماذا لا تكتبين لنا شيئاً؟ أظنّه سيكون رطباً وحارًّا كغابةٍ استوائيّة!"

قرأت عائشة التّعليق مرّة، ومرّتين، وعشراً. قلبها يدقّ بعنف، حرارةٌ تسري في وجهها، مزيجٌ من الخوف والإثارة والدّهشة جعل أنفاسها تتلاحق. "أنا؟ أكتب؟ وعن ماذا؟ هل يقصد ما فهمته؟ رطباً وحارًّا؟" تقلّبت في فراشها كأنّها على جمر، الكلمات ترقص أمام عينيها كشياطين صغيرة مغوية. لطالما كانت قارئة، مستهلكةً للقصص،

متلصّصةً على عوالم الآخرين تختبئ خلف الكلمات التي صاغها غيرها. فكرة خلق عالمٍ خاصٍّ بها، البوح بما يختلج في صدرها من صورٍ وخيالاتٍ ورغباتٍ حبيسة أقفاص الصّمت، بدت مرعبةً كالسّقوط في هوّة، جذّابةً كأوّل قُبلةٍ مسروقة.

مع خيوط الفجر الأولى المتسلّلة من بين شقوق السّتائر كأصابع تتلمّس طريقها، اتّخذت قراراً منطقيًّا حتّى النّخاع وخطراً حتّى الجنون: ستكتب باللّغة العربيّة. منطقيّ كونها لغتها الأمّ، لغة أحلامها الأولى، لغة القرآن الذي حفظته، لغة التّراث الذي بدأت تستكشف جرأته المخفيّة بين سطوره الوقورة. خطرٌ يعني مواجهةً مباشرةً مع كلّ ما تربّت عليه في بيئتها، مع كلّ المحرّمات المنقوشة على جدران روحها. للكلمات العربيّة حين تصف الجسد والرّغبة وقع كوقع السّيف، سكاكين حادّة تشرّح اللّحم الحيّ، تتجاوز اللّمس لتغوص وتكشف المستور بفظاظةٍ مقدّسةٍ أحياناً.

كلّما أمسكت بوبرة صوف الخيال بإظفريها الدّقيقين محاولةً نسج بدايةٍ لقصّتها، أفلتت منها حبكةٌ متماسكة. تفتح على نفسها أبواب خلق عوالم للشّخصيّات أكثر تعقيداً بكثيرٍ من مجرّد تأثيثٍ بسيطٍ تريده للمشاهد الحميميّة التي تتراقص في مخيّلتها كأشباحٍ ليليّةٍ لا تستحي. تذكّرت قول إحدى الكاتبات الجريئات عن "خلق المشاهد السّاخنة أوّلاً

ثمّ محاولة الوصل بينها بخيوطٍ قصصيّة". الفكرة بحدّ ذاتها بدت لها تمرّداً آخر. على الأقلّ، لتبدأ.

أغلقت باب غرفتها بإحكامٍ كأنّها تغلقه على سرٍّ عظيم. سحبت السّتائر حتّى غابت آخر خيوط النّور. جلست أمام حاسوبها المحمول فتحت صفحةً بيضاء بدت كصحراء تنتظر مطر الكلمات. رعشةٌ تسري في جسدها، تقف على حافّة جرفٍ سحيق وعتبة معبدٍ مهجورٍ سيكشف لها أسراره. تنفّست بعمق تستجمع شجاعة العالم. بأصابع مرتعشة وإصرارٍ جديد، كتبت العنوان الذي قفز إلى ذهنها فجأة يلخّص رحلتها وكلّ ما تأمل أن تصبح عليه من خلال هذه المغامرة الجريئة:

"سِفر التّكوين الشّخصيّ"

بزفرةٍ طويلةٍ تحرّر معها كلّ ما كان مكبوتاً، بدأت تكتب... ظلّ هذا الحال يوماً بعد يوم.

ما إن تُنهي عيّوش طقس الكتابة، حتّى ترتعش أصابعها تحفظ النّصّ في جوف السّحابة كمن يُودع سِرًّا ثميناً في بئرٍ عميقة. تُغلق نافذة المتصفّح الثّانويّ، ذلك الباب السّرّي لعالمها الموازي، تفتح على عجلٍ ملفًّا من ملفّات الدّراسة ستاراً واهياً تدّعي به الانشغال. يتزامن هذا غالباً مع أذان المغرب حين تمتلكها عادةٌ قديمة: الجلوس في عتمة غرفتها، وجهها قبالة

جبال عَمَّان الشّاهقة، تراقب ولادة الأضواء تباعاً في النّوافذ البعيدة كنجومٍ أرضيّةٍ تتناثر، تحاول حزر أيّها سيخذل الظّلام أوّلاً.

اللّيلة، كان شبّاك إياد هو السّبّاق. ومض ضوؤه كإشارة، انسرب بصرها عبر السّتائر الشّفيفة إلى الدّاخل. الرّجال العازبون قليلوا العناية بستائر غرفهم. هناك في تلك الغرفة التي صارت مسرحاً لخيالاتها المحمومة، رأت إياداً يحتضن من الخلف امرأةً تفكّ حجابها أمام مرآة كأنّها تتحرّر من قيد. رأت يديه تُكرمشان جلبابها المنسدل، ترفعانه ببطءٍ وقحٍ ليكشف عن ساقين عاريتين كأعمدة رخام تتوهّج في الضّوء الخافت. حين تجمّع القماش حول خصرها كغيومٍ مثقلة، هوى برأسه يغوص في طين دافئ ليصنع قناعاً من جلدها يتنفّس من خلاله. الفتاة أتمّت خلع إشارها وفكّ أزرار الجلباب العلويّة محرّرةً ذراعيها، تتلوّى كأفعى مسّتها نار اللّذّة تستجيب لما يفعله في ذلك المكان السِّرّيّ.

جمدت عيّوش. انغرز مسمار بارد من الخدر في أسفل عمودها الفقريّ. هربت نحو سريرها غائصة تحت البطّانيّة التي تعبق برائحة الغبار المحبوس. تحت الأغطية نضج جسدها فجأة كفاكهة سقطت للتوّ على تربة رطبة. النّبض في صدغيها يطرق كحذاء خشبيّ على درج حجريّ. انمحت صورة التّلميذة، انفرج الفخذان وارتفعت الرّكبتان لتصنعا خيمة صغيرة للسِّرّ. أصابعها تحوّلت إلى مخالب قطّة عمياء تبحث عن حليب في

العتمة، انزلقت سريعاً في تلك اللّزوجة المفاجئة التي نضحت كصمغ شجرة مجروحة.

حشرت إصبعها الأوسط. انقبضت العضلات حوله كحلق يبتلع لقمة صلبة. كلّ دفعة كانت تزيح طبقة من هواء الغرفة الثّقيل وتستحضر عروق ذراع إياد كجذور نبات يمتصّ ماءً آسناً. سحبت الفستان نحو صدرها ولهثتها تبلّل الوسادة. الفم السّفليّ ينبض، يمتصّ، يرفض، ثمّ يستسلم. احتكاك اللّحم باللّحم يصدر صوتاً لزجاً يشبه خفقان سمكة على بلاط المطبخ.

تجمّع الدّم كلّه في بقعة واحدة. ضغطت بأسنانها على باطن خدها حتّى تذوّقت طعم النّحاس. تيّار كثيف من الكهرباء السّاكنة تكوّر في حوضها كعنكبوت يستعدّ للقفز، ثمّ قفز. تشنّجت أصابع قدميها وانطوت على نفسها كقطعة بلاستيك أُلقيت في نار هادئة. رعشة طويلة خرساء أفرغت عمودها الفقريّ من النّخاع وتركتها تطفو على بركة من العرق البارد. تراجع اللّهاث ليعود السّرير مجرّد خشب وإسفنج.

همّت بالقيام أخيراً. خانها جسدها فاتّكأت على طرف السّرير، ثمّ على مكتبها الصّغير، قبل أن ترسو يدها المرتجفة على الشّبّاك تسترق نظرةً أخيرة كمدمنٍ يعود إلى جرعته. الضّوء مطفأٌ في غرفة إياد. يمارسان الحبّ

في عتمةٍ أشدّ حميميّة مكتفين بالإضاءة الخافتة المتسرّبة من شقوق السّتائر، يستمتع إياد بلمعة الضّوء الشّحيح على نهديها المتعرّقين وهما يهتزّان مع كلّ حركةٍ من حركاته. كسر شرودها نداء صلاة العشاء، صوتٌ جهوريٌّ يجلجل من الجامع القريب كأنّه توبيخٌ سماويّ، دعوةٌ للعودة.

استجمعت بقايا قواها وانسلّت من الغرفة لغسل يديها وتطهير ما لامس الخطيئة. في الحَمَّام الأقرب إلى غرفتها، راحت تفرك يديها بالصّابون، تركّز بشكلٍ لا واعٍ على إصبعها الأوسط تلفّ أصابعها الأخرى حوله. تقفز لذهنها صورة ما تفعله: تقلّد الإيلاج بيديها. ارتعشت هرباً من نجاسة الفكرة، عادت تفرك بقوّةٍ أكبر تهرب من قذارة يدها. سمعت صوت أمّها يقول لأختها عبيدة التي كانت تحاول فتح باب الحَمَّام: "أختكِ الله يرضى عليها تتوضّأ". نزلت عينها كمن صُفع إلى المغسلة تتابع قطرات الماء وهي تنساب، عجزت عن رفع رأسها لتنظر إلى وجهها في المرآة.

نظرت حولها ورأت المناشف مصفوفةً. قرّرت في لحظة يأسٍ الاغتسال، غمر جسدها بماءٍ باردٍ يذهب بهذه الأفكار الآثمة ويغسل هذا اللّهيب الذي لا يزال رماده متوهّجاً تحت جلدها. تغسل منطقتها الحميمة برفقٍ شديد كمن يحنو على جرحٍ حديث، تبعد رشاش الماء كلّما لسعتها

قطراته المتدفّقة بقوّة كأنّها تعضّ فرجها، تعود لتقرّبه في صراعٍ بين الرّغبة في التّطهّر والرّغبة في استعادة شيءٍ من تلك اللّسعة اللّذيذة. جعلت الماء أبرد ما يكون وسلّطت الدّوش على رأسها بقوّة حتّى شعرت ببرودةٍ قاسيةٍ تتسلّل إلى عظامها ويعود عقلها إلى شيءٍ من الصّفاء الموهوم.

"أستغفر الله... ما لنجمة لنجمة، وما لعائشة لعائشة!" همست بذلك وهي تتنشّف. لاحظت تقلص حلمتيها بفعل البرد فارتدت ثيابها السّاترة بسرعةٍ مبالغٍ فيها. خرجت من الحَمَّام "عائشة" التي يعرفها أهلها. ما إن رأتها عبيدة حتّى صاحت ببراءة الأطفال القاسية: "ماما... لم تكن تتوضّأ، كانت تستحمّ!" سألتها أمّها عن ذلك لاحقاً، أجابت بمواربةٍ تعلّمتها حديثاً: "ماما، لقد غفوتُ بعد صلاة المغرب وشعرتُ بالكسل!". فهمت أمّها استحمامهما لتستعيد نشاطها للدّراسة.

ارتدت ثياب الصّلاة متجنّبة النّظر نحو الشّبّاك كأنّ فيه شيطاناً يتربّص بها. كبّرت: "الله أكبر". ما أن أنهت الصّلاة حتّى وجدت خدّيها مبتلّين بالدّموع. دموعٌ ساخنة طعمها كالملح، حائرة بين دموع النّدم ودموع شيءٍ أعمق وأكثر تعقيداً. بررت لنفسها في سِرّها بصوتٍ خافتٍ تخشى سماعه من جدران الغرفة: "ما يحصل معي يجعلني أمضي أعمق في إيماني، أنا لم أرتكب معصيةً حقيقيّة، أحمي ذاتي بهذه الطّريقة، أفرّغ هذه الطّاقة في مكانٍ آمن!". الكلمات بدت جوفاء حتّى في أذنها كأنّها

تحاول إقناع طفلٍ بخرافة. تقنع نفسها بذهاب تلك الفتاة التي كانت بصحبة إياد لحضور درس دينيّ في الجامع بين المغرب والعشاء. هزّت رأسها بقوّة طاردةً الفكرة بسخريةٍ مريرة: "وأيّ درسٍ هذا!".

أسدلت ستائر غرفتها بإحكامٍ هذه المرّة. عادت إلى حاسوبها وفتحت ذلك المتصفّح المخفيّ بين أيقونات الملفّات الدّراسيّة، سجّلت الدّخول إلى السّحابة، عادت تقرأ آخر ما كتبته عن نجمة كمن يعود إلى ذاته الحقيقيّة:

"... ربما في الثّالثة عشرة، ذات ظهيرة صيف قائظ. المرآة المعلّقة على جدار غرفتي الطّينيّة، تلك التي أهدتها أمّي لجدّتي ثمّ ورثتها أنا، عجزت عن عكس وجه الطّفلة ذات الجديلتين. هناك شيءٌ يتغيّر، شيءٌ ينمو بصمتٍ تحت الجلد. أقف أمامها عاريةً إلا من خجلٍ شفّاف، أتأمّل هذا الانتفاخ الطّفيف الذي بدأ يستدير على صدري. ألمسه بأطراف أصابعي بحذرٍ شديد كمن يلمس جرحاً غامضاً لا يعرف هل سيؤلمه أم لا. لا يؤلم، يرسل رعشةً خفيفة سريعة تهبط إلى أسفل بطني وتختفي قبل أن أفهم كُنْهَها. هل هكذا تبدأ الأشجار في إخراج ثمارها الأولى؟ صغيرة، صلبة، تعد بالكثير. أحياناً، تحت قميص المدرسة الفضفاض، أشعر بهما يحتكّان بالقماش، إحساسٌ جديد غريب. أضعت خفّة الجري والقفز كأنّني أحمل سرًّا صغيراً ثقيلاً بعض الشّيء أخاف أن يراه الجميع أو أن يسقط منّي."

تحسّست عيّوش استدارة ثديها النّاضج الآن مقارنةً ببرعمَي نجمة الخجولين. عادت تطبع على لوحة المفاتيح بالأصابع ذاتها التي كانت قبل قليلٍ تمنح جسدها تلك اللّذّة المحرّمة المُشْتَهَاة. همست لنفسها: "كيف ستكون الحياة لو لم يكن لدينا أصابع نرضي بها عقولنا الثّائرة وأجسادنا الجائعة!". طردت الفكرة كأنّها ذبابةٌ مزعجة وعادت لتركّز لتغوص مرّةً أخرى في عالم نجمة، عالمها الآخر.

"... في غرفتي الطّينيّة، فقدت من أبوح له بهذا السّرّ الذي ينمو ويكبر. حتّى أمّي، كنت أخشى نظراتها الفاحصة التي قد تفهم ما لا أريد له أن يُفهم بعد. بدأتُ أطيل المكوث في الحَمَّام لأختلي بجسدي الذي بدأ يتمرّد على طفولتي. تحت بخار الماء الدّافئ، كنت أتحسّس ذلك الانتفاخ مرّةً أخرى أراقبه في مرآة الحَمَّام الصّغيرة المشقوقة عند طرفها، أرى تغييره شكل وقفتي وطريقة انسدال الثّوب عليّ. أحياناً، كنت أقفز عمداً أمام المرآة لأرى اهتزازهما بخفّة كعصفورين صغيرين يحاولان الطّيران لأوّل مرّة داخل قفص صدري. رعشةٌ جديدة مختلفةٌ عن تلك التي شعرت بها أوّل مرّة تسري فيّ. غادرت خانة الوخز الهابط إلى أسفل بطني لتصبح همسة ودعوةً غامضةً من جسدي لي لأفهم وأستكشف. في السّوق حين أرافق أمّي، بدأتُ ألاحظ نظرات الرّجال التي تجاوزت وجهي أحياناً لتحطّ على صدري بشكلٍ خاطف تربكني وتجعلني أضمّ ذراعيّ إليه كأنّني

أحميه من شيءٍ مجهول. هل يرون هم أيضاً هذا السّرّ الذي أحمله؟ هل هو ظاهرٌ للعيان إلى هذا الحدّ؟ صرتُ أمشي مطأطئة الرّأس كأنّني أحمل كنزاً ثميناً أخاف أن يُسرق أو يُشْتَهى.»

كانت نجمة الوجه الآخر لعيّوش، وجه البراءة التي تتلمّس طريقها نحو النّضج، عائشة التي تحاول فهم لغة جسدها المعقّدة. انعكاسٌ لأفكارها وهي تغادر عالم الطّفولة الآمن شيئاً فشيئاً إلى عالمٍ آخر، عالمٍ ترى فيه وجه إياد يغوص بين فلقتي تلك المرأة المجهولة وهي تتلوّى وتنتفخ بالشّهوة، عالمٌ جريءٍ متخيّل متحرّرٌ من كلّ القيود التي تشعر بها عائشة كلّ يوم.

«الله لا يحاسبنا على الأفكار!». هذه القناعة، هذا التّبرير الذي كان يبدو صلباً كالصّخر، بدأ يتآكل عند حوافّه. زيّن لعائشة ما تكتب ومنحها رخصة الغوص في هذه العوالم الممنوعة. فعل جسدها أمرٌ آخر، طريقتها لتستعيد وعيها وتظلّ الفتاة الرّصينة التي يعرفها الآخرون ولا تخذل توقّعاتهم. صوتٌ خفيٌّ كان يهمس: إلى متى؟ «سأكون طليقةً فقط في عالم الرّواية، وهناك سأدلق كلّ هذا الحبر الإلكترونيّ على أفكاري الخاطئة ورغباتي المظلمة لكي يخفيها ويطهّرها فلا تظهر أبداً على صورة تصرّفٍ مشينٍ على أرض الواقع.»

أخذت نفساً عميقاً، أكملت الكتابة عن نجمة كأنّها تكتب عن نفسها أو عن تلك التي تتمنّى أن تكون أو تخشى أن تصبح...

الفصل الثّاني : الحبر الحقيقيّ

يمضغ فكّ قاعة المحاضرات الوقت بأضراسه القاسية. تتساقط كلمات الأستاذة كقشور خشب جافّة فوق رؤوس طلبة يتثاءبون بانتظار رصاصة النّهاية. عائشة تحفر سنّ قلمها الأسود في حواف دفترها، ترسم بئراً قديمة بحجارة نافرة، تظلّل ما حولها بضربات حبر متوتّرة، غاضبة. في الزّاوية العليا، قمر يتستّر بلحاف غيم رمادي ثقيل، يراقب الأرض بعين نصف مغمضة.

بخط متعرّج، كأنّه نملة تهرب من قطرة ماء، كتبت بجوار الحافّة:

" في الرّابعة عشرة، ليلة مقمرة عند فوّهة البئر. أساعد أمّي في سحب الماء بعد انكسار شمس النّهار. القمر بدر مكتمل، يرمي فضّته السّائلة في قاع البئر العميق. سحبت الدّلو، فتطايرت قطرات باردة على عنقي. اللّيلة دافئة. القشعريرة التي تسلّقت عمودي الفقريّ جاءت استجابة لنداء آخر، رنين وتر حيوانيّ مشدود في خاصرتي يشبه ذلك الخدر الذي داهم صدري يوماً أمام المرآة. غادرت أمّي بالماء. بقيت وحدي أراقب انعكاسي. فككت عقدة منديلي الرّيفيّ الذي يلملم شعري، وفتحت أزرار فستاني حتّى المنتصف، تاركة صليبي الفضّيّ الصّغير يغفو على صدري العاري. تركت ضوء القمر يغسل بشرتي، يتلمّس تلك التّلال

الصّغيرة التي اكتسبت قسوة مفاجئة واستدارة وقحة. ضوء القمر أصابع باردة تتفقّد مسامي. أغمضت عينيّ. الدّم يقرع طبولاً صغيرة في أذنيّ. جسدي حقل يتهيّأ لالتهام شيء مجهول."

غاصت عيّوش في بئر نجمة. امّحت الجدران والمقاعد، تبخّر صوت الأستاذة، وتلاشت رائحة العرق الجامعيّ. يد باردة انسلّت فجأة لتسحب الدّفتر من تحت أصابعها. انخفض صوت الدّكتورة سمر إلى همس يخدش أذن عائشة وحدها: "هذا... مثير للاهتمام يا عائشة. فيه صدق خام. استمرّي، بعيداً عن وقت المحاضرة".

تجمّعت روح عائشة في أسفل بطنها ككتلة من الرّصاص السّاخن. جفّت حنجرتها وتسمّرت عيناها في شقوق الطّاولة الخشبيّة. الخوف حصاة مسنّنة ابتلعتها ووقفت في المريء. ماذا لو قرأت السّطور المتعطّشة؟ ماذا لو فضحت هذا العري الورقيّ أمام القاعة المكتظّة بالعيون المتربّصة؟ أعادت الدّكتورة الدّفتر بابتسامة باهتة: "لديكِ موهبة يا عائشة، لا تهمليها". استمرّت في مسيرها تتفحّص دفاتر البقيّة، تاركة عائشة تتنفّس هواءً شحيحاً، ورعشة رعب تتذبذب في ركبتيها كأوتار ممزّقة.

وقفت أمام باب مكتب الدّكتورة لفترة أفقدتها الإحساس بوزن جسدها. الممرّ الطّويل يفرغ من الطّلبة، ضوء النّهار ينسحب عن البلاط مستسلماً

لبرودة العتمة. بخطوات سريعة، ظهرت الدّكتورة سمر في آخر الممرّ. التقطت نظرة عائشة المربكة، فابتسمت وهي تدير المفتاح في قفل الباب: "أهلاً بكاتبتنا الواعدة!". تعثّرت الكلمات على شفتي عائشة، تساقطت الحروف قبل أن تشكّل جملة. ابتلعت ريقها الشّائك وتبعتها إلى الدّاخل بصمت ثقيل.

جمعت الدّكتورة أوراقها تتهيّأ للمغادرة. استلّت عائشة فتات صوتها بصعوبة: "أعتذر دكتورة، سأنتبه في المرّة القادمة. شكراً لكِ". ردّت الدّكتورة وهي تربّت على كتفها بلمسة أموميّة خفيفة: "عيّوش.. نحن نساء وعلينا حماية بعضنا. احذري خيالكِ الجامح في المحاضرات. هل محاضرتي تبعث على هذا الحدّ من الشّرود؟".

ماشتها في ممرّات الحرم الجامعيّ. دار حديث طويل حول استكشافات الكُتّاب الأولى، تلك النّصوص التي تُكتب لتُحرق، تجارب تنضّج الكاتب ليحمل عبء زمنه. وحين طلبت الدّكتورة أن تقرأ ما تكتبه، تجمّع الحرج الحارق بين فخذي عيّوش، قبضة خشنة من شوك تعتصر لحمها من الأسفل، تسحبها نحو الأرض. أضافت الدّكتورة مرخية تلك القبضة: "هذه المحاولة لكِ أنتِ. سأقرأ ما تكتبينه بعد إنهاء مرحلة الاستكشاف".

سقطت حصاة الخوف من حلقها. "مرحلة الاستكشاف" ضماد بارد على جرح مكشوف. تبخّر الحرج الحارق من بين فخذيها تاركاً مكانه تنهيدة طويلة أفرغت صدرها من غاز خانق. ابتسمت بشفتين مرتجفتين: "شكراً لتفهّمكِ دكتورة". ربّتت الدّكتورة على كتفها مجدّداً، ومضت نحو البوّابة: "كلّ كاتب بدأ بورقة ممزّقة. كوني صادقة مع نفسكِ. هذا هو الحبر الحقيقيّ المعاند للزّمن".

في حافلة العودة المزدحمة، تلاشت وجوه الرّكّاب الكالحة وتفكّكت أصوات محرّكات الشّوارع. الكلمات تتردّد في جمجمتها كبندول نحاسيّ. دفترها تخلّى عن دوره كوثيقة إدانة، واستحال بذرة. هي الآن تحفر في جسدها، تختبر رغباتها وتحوّلها إلى حروف. الخوف المقيّد لمعصميها كأصفاد صدئة بدأ يتساقط قشرة إثر قشرة. أستاذتها رأت العري وتجاهلت مقصلة الأخلاق.

في عتمة الغرفة، فتحت حاسوبها على "سفر التّكوين الشّخصيّ". العنوان اكتسب كثافة مادّيّة. الحروف تخلّت عن دورها كصمّام أمان لشهوة عابرة، استحالت "حبراً حقيقياً" ينزف من التّجربة. استدعت رسم البئر والقمر والصّليب الفضّيّ. أصابعها تضرب لوحة المفاتيح بصلابة من عثر على قفل بابه الضّائع.

" . . . في تلك اللّيلة، تمدّدت في فراشي. يدي تتحرّك بكسل غريب، تتسلّل تحت قماش قميص النّوم، تمسح تعاريج القفص الصّدريّ، وتهبط نحو أسفل البطن. هناك، حيث تكمن وعود الأمّهات ببلوغ الأنوثة، وجدت حرارة مكتومة ونبضاً خفيّاً. فضول نقيّ يدفعني لاكتشاف أرض رطبة، تربة تفوح منها رائحة ندى صيفيّ. أصابعي تحسّست بوّابة الجلد المنكمش، لزوجة خفيفة عالقة في الأطراف. سرّ يخصّني وحدي ينمو في العتمة" .

رفعت عائشة يدها عن فخذيها. تحاول تقمّص نجمة، وعيها اليقظ يفسد البراءة. كلّما طبعت كلمة، شعرت بظلّها الثّقيل يطمس خفّة المراهقة. العتمة ابتلعت زوايا الغرفة. قامت لتسدل السّتارة الثّقيلة، فاصطاد بصرها نافذة إياد.

خلف القماش الشّفيف، الفتاة تتلوّى بنصف ثيابها، وإياد ممدّد يداعب قضيبه بأشواط طويلة، عنيفة، منتظمة كآلة طحن غليظة. أدخلت عائشة يدها تحت بنطالها، دلّكت عقدة الرّغبة بإيقاع يتزامن مع حركة يد إياد. خيالها يحشر قضيبه الضّخم في بوّابتها الضّيّقة، يوسّع الدّائرة، يدهس اللّحم، يفرك الجدران الملساء. الاحتكاك يولّد حرارة تذيب أطرافها وتغيم رؤيتها.

وقبل سقوط جسدها في الهاوية البيضاء، ضربها تذكّر صلاة المغرب. سحبت يدها كمن لسعته أفعى مختبئة في الرّمل. "انهضي، توضّئي، اتركيهما يكملان الطّقس، تختنقين أنتِ بأشباح الرّغبة".

دخلت الحَمَّام. فتحت صنبور الماء البارد على فرجها المتورّم، تطفئ جمر المخيّم قبل اشتعاله. الجلد ينكمش تحت قسوة البرودة، ينبض باحتجاج صامت. جفّفت المنطقة بحذر شديد، خوفاً من احتكاك صغير يوقظ الكارثة ويوجب الغسل. رفعت البنطال، عقدت خيطه كحارس يقفل بوّابة قبو على كنز ملعون.

توضّأت. الماء يختلط بدموع ساخنة تلسع خدّيها وتترك مسارات ملحيّة. "ما لنجمة لنجمة، وما لعائشة لعائشة". في الممرّ، اصطدمت بأمّها. لفّتها ذراعا الأمّ: "الله يرضى عليكِ يا ابنتي". انكسر سدّ الدّموع. غمرت وجهها في كتف أمّها هرباً من عينين تقرآن الخطيئة فيهما، وهربت إلى سجّادة الصّلاة.

بكت في سجودها حتّى ابتلّ وبر السّجّادة، بقعة داكنة من الماء المالح تبتلعها الخيوط. تستغفر الله بيد، وتعقد صفقة باليد الأخرى: ستبقى الرّغبة مسجونة في الحبر، تفريغاً لطاقة تكاد تكسر أضلاعها وتثقب رئتيها. أنهت الصّلاة. التفتت نحو الحاسوب المطويّ. الاستمرار في

الكتابة مستحيل وجسدها يغلي كمرجل مغلق. الجوع يطلب لحماً، يرفض الورق، يرفض الكلمات.

أطفأت نور الغرفة. أزاحت السّتارة بضعة مليمترات. الفتاة في الغرفة المقابلة ساجدة على السّرير، وإياد خلفها يغرس قضيبه كوتد خشبيّ يثبّت خيمة في عاصفة رمليّة. يمسح اللّحم باللّحم بإيقاع وحشيّ يخترق زجاج النّافذتين، يتردّد صداه في حوض عائشة.

انسرب شهد عائشة على باطن فخذها، خطّ رفيع من الفضيحة يزحف نحو ركبتها. نظرت إلى سجّادة الصّلاة. ومضة صراع سريعة بين قداسة الصّوف ورائحة الرّغبة انتهت بهزيمة ساحقة ومطلقة للقداسة.

أغلقت باب الغرفة بركبتين تذوبان كالشّمع السّاخن. أسقطت بنطالها وقطعتها الدّاخليّة بارتباك أخرق، قماش يتكوّم حول كاحليها كقيد مهمل. وقفت عارية من نصفها السّفليّ فوق السّجّادة التي شربت دموع التّوبة قبل دقائق.

سجدت. نسخت وضعيّة الفتاة في النّافذة المقابلة. ركبتاها تغوصان في وبر السّجّادة، تحتكّان بخشونته المحبّبة. صرخت يدها بين فخذيها.

الشّفتان متورّمتان، محتقنتان بدم ثقيل يطلب الخلاص بأيّ ثمن.

ضربات متلاحقة من أطراف أصابعها تستدعي إيقاع إياد، تترجم المشهد البصريّ إلى احتكاك ماديّ يلسع أعصابها.

شهدها الكثيف غطّى أصابعها، خيوط شفّافة مطّاطيّة تمتدّ بين يدها ولحمها تعكس ومضات ضوء الشّارع. لعقت باطن يدها، تذوّقت ملوحة جسدها ونكهته المعدنيّة الصّدئة، طعم نحاس قديم ورطوبة أرض بكر. بصقت اللّعاب على أصابعها وأعادتها لتقتحم البوّابة.

إصبعان يغوصان في لزوجة دافئة، ينزلقان في رخاوة اللّحم المستسلم. تحفر جدرانها الدّاخليّة، تستكشف تشنّجات العضلات التي تقبض على أصابعها كحلق يختنق، تتنفّس حولها، تبتلعها وترفض إفلاتها.

الاحتكاك البطيء يسحب الهواء من الغرفة، يترك فراغاً يخنق الرّئتين. كلّ حركة دائريّة حول تلك البشرة المشتعلة ترسل تيّاراً من النّمل الأبيض تحت جلدها، يزحف صعوداً نحو حلمتيها. تسارعت حركة يدها. الأصابع تنبش عميقاً، تضرب وتراً مشدوداً في أقصى العتمة، تعزف لحناً جنائزيّاً للوقار. تقلّصت عضلات فخذيها، ارتفع حوضها وهبط استجابة لغريزة عمياء، تقوّس ظهرها كقوس صيّاد مستنفر. السّائل يغمر يدها، الجسم يصدر صوتاً رطباً، فاحشاً، يفضح صمت الغرفة، يشبه حذاءً يغوص في طين زلق. تلاشت عيّوش الكاتبة، اختفت التّلميذة، وتبقّت

أنثى تعوي بصمت، تعضّ على لحاف السّرير المتدلّي لتكتم لهاثها المتقطّع الذي يخدش حنجرتها.

الجمرة في أسفل بطنها تتضخّم، تتكوّر كشمس قزمة توشك على ابتلاع مجرّة. النّبض في بظرها يطرق كقلب عصفور مذعور محبوس في كفّ قاسية. كلّ دفعة من أصابعها المغمدة في طينها الدّافئ تدفعها نحو حافّة الهاوية. الغرفة تدور. الألوان تبهت. انقطع حبل الاحتمال. ضربة كهربائيّة عنيفة اجتاحت نخاعها الشّوكيّ، كصاعقة ضربت شجرة يابسة فشطرتها نصفين. صرخة خرساء ذابت في نسيج اللّحاف المبلّل بلعابها. تقوّست عضلاتها حتّى كادت أوتارها تتمزّق، تشنّجت أصابع قدميها على السّجّادة حافرة أظافرها في الصّوف، ثمّ انهارت دفعة واحدة. انفرط عقد عمودها الفقريّ، تبخّر الكالسيوم من عظامها، وترك جسدها رخواً كقطعة قماش منقوعة في ماءٍ دافئ.

بقيت ساجدة. الرّعشات الارتداديّة تنفض كتفيها كأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة. رائحة جسدها النّفّاذة تختلط برائحة صوف السّجّادة المعتّقة ورائحة الدّموع المجفّفة. أصابعها غافية في الدّاخل، محاطة بنبضات العضلات التي تهدأ تدريجيّاً، تنبض بوهن كذبيحة تحتضر. سحبت يدها ببطء شديد، راقبت اللّمعان يكسو جلدها في العتمة، كأنّها استخرجت لؤلؤة ذائبة من محارة مظلمة. استلقت على ظهرها فوق

السّجّادة الدّافئة، تحدّق في السّقف الأسود. لهاثها يتباطأ، ينسجم مع إيقاع ليل عَمَّان.

همست لنفسها وصوتها مبحوح: "الآن... أستطيع كتابة نجمة بحبر يقطر صدقاً". جلست. بقعة داكنة من الرّطوبة تلطّخ موضع سجودها على سجّادة الصّلاة، دائرة أغمق من لون الصّوف. المفارقة تصفعها ببرود: دموع النّدم ولزوجة الشّبَق شربتهما نفس الخيوط، امتزج الطّهر بالخطيئة في نسيج واحد. التّوهّج في عروقها خدّر إحساسها بالذّنب، شلّ قدرتها على المحاكمة الأخلاقيّة. دفنت الفكرة مؤقّتاً تحت طبقات الإرهاق اللّذيذ، وفتحت حاسوبها.

"... في الخامسة عشرة. حقول القمح المذهّبة. رائحة الحصاد والغبار تملأ رئتيّ، تجرح حلقي بخشونتها. أركض مع الفتيات. تعثّرت وسقطت بين السّنابل الطّويلة. اختفت السّماء خلف سيقان القمح المتشابكة كأسنان مشط. حرارة الأرض تتسرّب إلى ظهري، تحتضنني. أطراف السّنابل الخشنة تخدش ساقيّ العاريتين تحت ثوبي القصير. وخز أيقظ خلايا جلدي المخدّرة. حرّكت ساقيّ، فاحتكت السّنابل بجلدي بين الفخذين، في ذات البقعة التي تفقّدتها في اللّيلة المقمرة. شرارة قويّة لسعتني، لسعة نحلة محمومة. نهضت أنفض الغبار، والإحساس متسمّر في دمي كوشم سرّيّ. جسدي حقل ينتظر المحراث. القطط تتلوّى عند اللّمس،

والأزهار تفتح قلوبها المخمليّة للنّدى. هل أنتظر يداً تفركني وتخرج زيتي، أم شمساً تذيب قشرتي القاسية؟" .

أغلقت عيّوش المتصفّح. الإحساس بالجسد كحقل ينتظر الحصاد لم يكن ليولد لولا العاصفة التي ضربتها فوق السّجّادة، لولا أصابعها التي نبشت في طينها الخاصّ. شرارة السّنابل هي ذاتها صدمة الكهرباء في حوضها. لزوجة الكلمات مستعارة من لزوجة أصابعها المبلّلة، ثقيلة، تلتصق بالورق ولا تطير.

تلك هي تجارب الدّكتورة سمر التي تنضّج الكاتب، تسلخه عن مثاليّته وتلقي به في وحل الحقيقة. في هذه العتمة، هي تعبّر عن بركانها المكتوم، لا شيء سواه. التّناقض بين سجّادة الصّلاة وأصابع الشّهوة تجاوز كونه خطيئة، ليصبح هو الحبر الحقيقيّ. حبر مسحوب من اللّحم، من العرق، من الخوف والرّغبة معاً. الخطّ الفاصل بين عائشة ونجمة يذوب ويختفي كقطعة جليد في كوب شاي ساخن. تجربة عائشة السّرّيّة هي الدّم الحارّ الذي يجري في عروق نجمة المسيحيّة التي تكتشف جسدها في حقول القمح وتلمس صليبها بيد مبلّلة بالرّغبة.

أسندت ظهرها إلى الكرسيّ. إرهاق لذيذ يثقل جفنيها، يغلقها برفق. "مرحلة الاستكشاف" . طريق إجباريّ يفرض نفسه كقانون طبيعيّ. الحبر

الحقيقيّ الذي نزف اللّيلة، الذي تذوّقته بلسانها، هو الخطوة الأولى نحو نضج قد تشاركه يوماً مع الدّكتورة سمر. أغلقت الحاسوب. اللّيلة، بكلّ قذارتها وقداستها، أنجبت نصّاً يتنفّس، يمكن شمّه، ولمسه، والشّعور بنبضه تحت أطراف الأصابع.

الفصل الثّالث: دروس خصوصيّة

انطوى ظهر الجمعة على رائحة بهارات التّحمير. عائشة تتحرّك في المطبخ، تسند أمّها في تجهيز المائدة لـ "أبو عُمَر". ذهنها مغسول بماء العائلة الرّتيب، وملفّات "نجمة" محنّطة في سحابة إلكترونيّة لا يطالها البثّ. نامت ليلتها الفائتة نوماً ثقيلاً، فارغاً من خيالات اللّحم، فالأحلام التي لا تترك أثراً على الشّراشف لم تعبر العتبة.

وصل أبو عُمَر. تحلّقت العائلة حول المائدة. امتدّت يدا عائشة العاريتان من القفّازات لتسحب صينيّة الدّجاجة المشويّة من بطن الفرن. استلقت الدّجاجة على ظهرها، ساقاها مطويّتان ومفتوحتان في استسلام وقح لزيت الشّواء المحتدم. ومضت في رأس عائشة صورة اللّحم البشريّ المفتوح في نافذة إياد، فتزلزل صدرها بضحكة خافتة من فسق مكتوم. وفي غمرة هذا التّماهي، لسع معدن الصّينيّة المحموم إصبعها الوسطى في اليد اليسرى.

كتمت اللّسعة في حلقها، حشرت إصبعها في فمها تمتصّ الحرق. ملوحة لعابها المختلطة بالزّيت الدّافئ نبّهتها لمظهرها الفاضح أمام العائلة. سحبت إصبعها المبلّل، وجلست. اللّسعة تنبض، وتراً مشدوداً، ووشماً ناريّاً يربطها بالصّورة التي استدعتها الدّجاجة المحمّرة.

لقمة تتلوها لقمة. يمارس أبوها طقس الكلام كفريضة دينيّة. "تحدّثوا على طعامكم ولو بأثمان أسلحتكم". يلقي بالحديث كيفما اتّفق ليقتل مضغ الصّمت. قراءات عائشة المتراكمة حفرت في وعيها أصول اللّياقة، والعرب يمتصّون دسم أصابعهم باحتفاء غريزيّ. عجزت عن لعق إصبعها الملسوعة في يدها الشّمال، فالألم يطغى.

رفع أبو عُمَر عينين متفحّصتين نحو عبيدة: "يبدو تعديل المناهج الأخير صعباً على الطّلبة، هل تواجهين صعوبة يا عبيدة؟". مضغت عبيدة طعامها وهزّت رأسها. حاصرها أبوها بنبرة تحمل تحدّياً خفيّاً: "ولا حتّى في اللّغة العربيّة؟". ابتلعت عبيدة لقمتها، ورمت عائشة بنظرة جانبيّة مشبعة بالمكر: "ابنتكِ العلامة تساعدني في كلّ شيء!". تسلّقت نشوة انتصار ضئيل صدر عائشة، مغلّفة بخجل مربك، ترافقه وخزة سخريّة مبطّنة من كلام أختها تتلوّى في معدتها.

مرّ الغداء. أمّ عائشة أطفأت شاشة التّلفاز هرباً من مناظر القتل التي تلطّخ جدران البيوت منذ بدء الرّبيع العربيّ. رمى أبو عُمَر حجره: "أقترح عليكِ تجربة التّدريس الخصوصيّ. حفيد جارنا أبي راشد يعاني في العربيّة واللّغات. هو في الصّفّ السّادس، والتّأسيس حاسم. عدم فهم الأسئلة يعميه عن بقيّة المواد. فرصة تفيديه وتستفيدي".

نبض الحرق الخفيف في إصبع عائشة يذكّرها بوجوده، يناديها للعودة إلى عزلتها وعوالمها السّائلة. وافقت بسرعة ألجمت أباها. افترّ ثغره عن ابتسامة رضا: "الدّروس مجّانيّة. درسان أسبوعيّاً. إن تحسّن، سأصرف لكِ أنا ثلاثين ديناراً نهاية الشّهر!". اكتفت عائشة بالتّمتّمة: "أحتاج كتبه لأعرف من أين أبدأ وأحضّر الدّروس".

أيمن، حفيد أبي راشد. يعيش مع أمّه في شقّة عائليّة، والأب غائب في الخليج يزورهم مرّتين في السّنة. امرأة طيّبة، تزوّجت طفلة وسكنت في عباءة أبيها. هذا ما أفرغته الأمّ في أذن عائشة. جلبت عائشة الكتب. حضّرت درسها الأوّل المقرّر بعد يومين.

المهارات المطلوبة سطحيّة. اللّغة تستقيم بابتلاع الأدب، لا بمضغ القواعد والمهامّ المدرسيّة. وضعت الكتب جانباً. التفتت نحو شبّاك إياد. العرض لا يُبثّ يوم الجمعة. الأحد هو موعد الطّقس الدّنس. صعقة حادّة شطرت جمجمة "عيّوش": "سأُدَرِّس الولد في وقت العرض! تبّاً لأيمن، تبّاً لأمّه، تبّاً للجدّ أبي راشد ولأبي وأمّي! سأفقد محراب الشّهوة، سأُطرد من نافذة الجحيم اللّذيذ!".

أحالت غضبها إلى خطّة تحتال بها على أبيها: "اللّغة تحتاج نصوصاً عالية يا أبي، لا قشور الكتب المدرسيّة. الممارسة تجبره على الفهم". أشرق وجه

المهندس جلال: "الحمد لله الذي وهبني عائشة. عين العقل. الضّعف بالعربيّة يورّث ضعفاً في فهم القرآن، درّسيه شيئاً من كتاب الله".

استسلمت عائشة لأوامر أبيها. رمال "عيّوش" المتحرّكة تبتلعها نحو قاع مظلم. أقنعت نفسها بأنّها يد القدر، صفعة إلهيّة تبعدها عن الشّبّاك المحرّم، وتنقذ أصابعها من تقليب طيّات لحمها. "أستغفر الله". الكلمة قشرة رقيقة جدّاً تخفي بركاناً يغلي في أحشائها.

عصر الأحد. عادت من الجامعة، صلّت العصر، ووقفت أمام الشّبّاك. عيناها تلمعان بدمع الشّكر لهذا الخلاص الإجباريّ. تناولت كتب أيمن ونسخة من جزء عَمَّ، وخرجت. تمشي نحو العنوان الموعود، قلبها يقرع بين رجاء النّجاة وتوق الانتظار.

طرقت الباب. تراجعت خطوتين. انفرج الخشب عن امرأة بَضَّة، فارعة الطّول، ينحدر منها صوت يشبه انسكاب العسل الدّافئ: "أهلاً عيّوش. أهلاً حبيبتي". "أمّ أيمن" ترتدي فستاناً بيتيّاً طويلاً، أبيض تنبت عليه زهور ضخمة، يحتضن ثدييها المكتنزين كعاشق آثم. دعتها للدّاخل. الفستان غير مزرّر لنهايته، يكشف بداية ساقين محكومتين بعناية. جسدها الحيّ ينبض وسط أثاث قديم محفوظ كمتحف. المرايا الموزّعة بذكاء تضاعف حضور هذه الأنوثة الشهيّة.

اهتزاز أردافها تحت القماش يلوّح لكلّ وجه أن يدفن نفسه هناك. تعرّف جسد عيّوش على هندسة المرأة قبل أن ينطق العقل. هذه الانحناءات، هذا الحوض الممتلئ، هذا الثّقل المتبختر... إنّها ذات التّضاريس التي تتلصّص عليها في نافذة إياد! الصّدمة ألجمتها. "أليست هذه عشيقة إياد!". تسمّرت عائشة كمن رأى شيطاناً يتجسّد في الصّالون.

يد القدر التي سحبتها من الشّبّاك، رمتها في حضن العشيقة. حاولت عائشة استدعاء الآية الكريمة لردع الظّنّ. عبث. الهواء المحيط بالمرأة مشبع. رائحة العطر الكثيف المتسرّب من خلف أذنيها، من شقّ صدرها، يعضّ مسام عائشة. عطر ثقيل، مخدّر، عطر امرأة لا تجلس في البيت لانتظار ابنها، امرأة تتجهّز للقاء حميم، تتزيّن لافتراس وشيك.

بدأ الدّرس. أيمن يقرأ. ظهرت أمّ أيمن من غرفتها. الجلباب، الحجاب. الطّقم ذاته الذي رأته ينسلخ في نافذة إياد مرّات ومرّات. قالت بصوت يقطر اعتذاراً مبالغاً فيه: "كلّ ما تحتاجينه على السّفرة، وهذا الحَمَّام. اعذريني حبيبتي عيّوش، سأغيب قرابة نصف ساعة، وأعود قبل العشاء". نقرت شاشة هاتفها. رنّ هاتف عائشة. "رقمي. إن لم أجب فوراً، سأعاود الاتّصال".

غادرت. ذيل عطرها الفاضح عالق في هواء الغرفة كدليل إدانة. عيّوش تتلوّى وتصرخ داخل جمجمة عائشة: "الجلباب ذاته! الحجاب ذاته! تذهب لتنفجر نشوة على قضيب إياد، وأنتِ هنا تحرسين ابنها وتلقّنينه القرآن!". عائشة تصطنع التّركيز، إصبعها يتتبّع الكلمات، وعقلها يغوص في وحل الخيالات الرّطبة.

أيمن يتلو بصوت طفوليّ رفيع: (عَمَّ يتساءلون). تزنّ عيّوش: "أنا أعرف عَمَّ تتساءلين!". تتظاهر عائشة بتوجيه الصّغير. أمّ أيمن تعبر الشّارع الآن، تصعد الدّرج. هل يدفن إياد وجهه بين نهديها المرتويين أم بين أردافها المترجرجة؟ الجلباب يُرفع من الخلف، العُرى تُفكّ تحت حرّ قُبلة اللّقاء. (عَنِ النَّبَإِ العظيم). تصرخ عيّوش: "وأيّ نبأ أعظم من هذا الذي اكتشفته للتوّ!".

وضعت عائشة رجلاً على رجل. جمعت قماش جلبابها عند التقاء فخذيها، تعضّ شفتها. حرارة دبقة تتسرّب من أسفل بطنها، ذات الحرارة المرافقة للتّلصّص، تتضاعف الآن آلاف المرّات. هي شريكة في السّرّ. عطر أمّ أيمن يعربد في ستائر الصّالون، بصمات خفيّة لجريمة لذيذة تقع في هذه الثّواني بالذّات.

(الذي هم فيه مختلفون) . يتلعثم أيمن. تصحّح عائشة بهدوء مصطنع، وصوت عيّوش يقهقه: "مختلفون؟ طبعاً! هو ينهل من ينابيعها، وأنتِ تعلّمين صغيرها نطق كلام الإله الذي ينتهكانه الآن!" . الحرارة تخنق عائشة. سحبت دبّوس الحجاب، أرخته لتبتلع ريقها الشّائك. قطرة عرق باردة انزلقت بين لوحي ظهرها.

"أيمن حبيبي" . تقول وصوت عيّوش يصدح في فراغ جمجمتها: "حبيبكِ هناك، يضاجع أمّ الولد!" . "تحتاج تمرين لسانك. سأعطيك تمارين تحسين النّطق" . عيّوش: "الولد ليس سرِّ أمّه! لسانها يرقص الآن على مؤخّرة إياد!" . "كرّر معي: هذا المشمش مش مشمشنا" . "سيذهب اللّعينان بالمشمش كلّه!" . "روحي وروحك يا روحي روحين بروح، إن راحت روحك يا روحي روحي بتروح" . "هي بتروح... على دار إياد!" . انفلتت ضحكة عائشة كشهقة مختنقة، شرّيرة.

المشهد يكتسب كثافة سرياليّة. هي المُعَلِّمة الوقورة، وعقلها يدقّ طبول الشّهوة حول نار الخيانة. حرّكت رجلها تحت الطّاولة بإيقاع محموم. القماش يحتكّ بمثلّث الرّغبة المحتقن، المتورّم. الاحتكاك يزيد. الإيقاع يتسارع. لا مفرّ.

رسمت المشهد بكامل أبعاده العضويّة. كفّ إياد الخشنة تعتصر ثدي أمّ

أيمن، يرفع الحلمة لفمه، يمصّ اللّحم الطّريّ. قفزت عائشة نحو الحَمَّام، تاركة أيمن يتلعثم في نطق الحروف المتشابكة. "معنا وقت كافٍ، لن يحتاج باب الحديقة لطرق كثير حتّى يسيل بالنّدى".

أغلقت باب الحَمَّام. قلبها يقرع كقضيب يصفع بوّابة فرج. حَمَّام غريب، يحتلّه عبق المرأة البَضَّة. رائحتها تفوح من منشفة معلّقة، من بقايا رغوة على حافّة المغسلة.

زجاجة العطر الفاخر تنتصب كقضيب زجاجيّ على الرّفّ. مدّت عائشة يدها المرتجفة، رشّت رذاذاً خفيفاً على معصمها، على عنقها المكشوف تحت الحجاب المرتخي. استنشقت بعمق. "نعم، هذه رائحة الخطيئة". لمعت عيناها بضوء حيوانيّ خالص.

فتحت جلبابها من الأسفل. أسقطت بنطالها وقطعتها الدّاخليّة التي ضاقت عليها من فرط الخيال. القماش القطنيّ ينفصل عن شفريها الدّبقين بصوت خافت يشبه تمزّق ورقة مبلّلة. لا وقت للمقدّمات. جلست على حافّة المرحاض البارد. باعدت بين فخذيها. "هذا لكِ يا أمّ أيمن". خاطبت شبح المرأة السّابح في الغرفة. "سأريكِ كيف تكون العبادة الحقيقيّة".

أصابعها، أداة تلقين القرآن قبل ثوانٍ، تحوّلت لمخالب لذّة وقحة، شرسة. لم تعد ترى فرجها. هي تفتح ساقيها بجلد أمّ أيمن، بلحمها البَضّ.

تتخيّل شفرتيها المكتنزتين، أغمق لوناً، تفوح منهما رائحة أنوثة ناضجة مختمرة اختلطت بالعطر.

"هل هكذا يراكِ إياد؟" غرزت إصبعاً، ثمّ اثنين، في بئرها الرّطبة التي انفتحت بترحيب رخو. "هل يشتهي هذا التّجويف الحارّ كما أشتهيه أنا الآن فيكِ، من خلالي؟".

أغمضت عينيها. أمّ أيمن تفتح رجليها لفم إياد. اللّسان يتحرّك، الأصابع تدخل. حرّكت عيّوش أصابعها بعنف أخرق، تضغط وتسحب. خدر سريع يتسلّق ذراعها من فرط الاستعجال.

بدّلت ليدها اليسرى، تفرك بظرها بإصبعها الملسوع المحروق. نبض الحرق في إصبعها يتزامن مع نبض البظر، يندمجان في صعقة ألم ولذّة تذيب دماغها. تتخيّل لمسات إياد على جسد أمّ أيمن المتقمّص. تلاشت صورة إياد. تبقّت هي والمرأة. بل، تبقّت هي المرأة.

"أريد أن ألعق شهدكِ الذي يسيل على أصابعي". تئنّ عيّوش. تدفع الأصابع أعمق، بحركة دائريّة ثقيلة تغوص في جدرانها المطّاطيّة. "أريد أن أشعر بنبضكِ حولي، أن أسمع أنينكِ وأنتِ تستسلمين لي، لا له".

تتخيّل بشرة أمّ أيمن تحت لمساتها، ترتجف، تتقوّس. تتخيّل نهديها

العارمين في كفّيها هي، تعصرهما، تلعق حلمتيهما المنتصبتين بلون التّوت الدّاكن المهشّم.

تتسارع الأنفاس. تلعثم أيمن في الخارج يخترق الباب، يزيد لذّة الممنوع. كلّ "ميم" وحرف غنّة يتحوّل في رأس عيّوش إلى أنّة تنطلق من فم أمّ أيمن وهي تستقبل أصابع عائشة.

"نعم. هكذا. أيّتها الأمّ العاهرة اللذيذة". تلهث عيّوش. تزيد سرعة أصابعها. اليد اليسرى تعبث بكرزة فرجها النّاضجة التي تكاد تمزّق غلافها الجلديّ، واليمنى تغوص تستكشف الأعماق، تبحث عن سرّ المرأة في جوف امرأة أخرى. "أنتِ الآن أنا. نحن نزامن دفق شهوتنا منذ أسابيع".

الرّعشة تقترب. موجة حارقة تتجمّع في أسفل ظهرها كعنكبوت سامّ يستعدّ للوثب. فخذاها يرتجفان. عائشة وأمّ أيمن كيان واحد، بركان شهوة يثور في حَمَّام غريب، على إيقاع طفل يتلعثم بجمل سخيفة وقرآن كريم يحوج اللسان إليها.

كتمت الصّرخة بين أسنانها. تشنّج جسدها في رعشة طويلة، عميقة، كأنّ روحها تتفلّت من مسامها. قطرات العرق تغسل جبينها، وشهدها الخاصّ، الممزوج بشهد أمّ أيمن المتخيّل، يغرّق أصابعها ولحمها. بقيت

جامدة. تلهث. تستمع لصوت دمائها يهدأ. سحبت الأصابع الزّلقة ببطء. نظرت إليها بدهشة ورعب ورغبة لم تخمد. "يا إلهي. ماذا فعلتُ؟". تتمتم عائشة وتغسل وجهها ويديها. "بل ماذا سنفعل أيضاً!". تردّ عيّوش بابتسامة ماكرة.

تمسح نفسها بمحارم ورقيّة، تسحب ملابسها، وتستعدّ لمواجهة الطّفل وربّة البيت العائدة من لقاء يُفترض أنّه أقلّ إثارة ممّا عاشته في حَمَّامها.

فتحت الباب. رائحة العطر تملأ رئتيها، ممتزجة برائحتها هي، رائحة أنثى اكتشفت للتوّ أنّها لا تشتهي الرّجل في المرأة، بل تشتهي المرأة ذاتها.

طلبت من أيمن تأجيل التّدريب، وقراءة قصّة مدرسيّة، مشترطة وضوح الألفاظ لتستريح من ثقل الحدث.

يقرأ الصّغير بوعورة. حرمان الأب يلفّه. عيّوش تحسمها بصمت قاطع: احتفاء بالجسد، انتصار للرّغبة، لا تعويض عن حرمان. هي تعيش ما تتمنّاه لنجمة.

الوقت يزحف كقطرة عسل كثيفة. تتخيّل عودة أمّ أيمن. آثار قُبلات؟ عيون غائمة بالنّشوة؟ رائحة إياد الذّكوريّة الخشنة؟ نبض الحرق الخفيف يعود ليؤلمها. يخزُها كشهوة جديدة استيقظت، شهوة أن تحلّ مكان

المرأة، أو أن تكون مع المرأة ذاتها. الفكرة ترجفها. "اهدئي يا عيّوش. لا تزيدي الطّين بلّة". "أيّ بلّة؟ نحن نسبح في محيط اللّذّة الممكنة! الجدران تتساقط!".

صوت مفتاح في الباب. تجمّدت عائشة. قلبها يهوي. عادت "الشّيطانة"، أو "الملهمة". دخلت أمّ أيمن مبتسمة، منتعشة. لا آثار، لا غيوم. امرأة أنيقة أطرافها دافئة. تسأل عن الدّرس، تشكر عائشة. "هل كلّ شيء على ما يرام؟". نظرة دافئة غامضة. "نعم. أيمن ذكيّ ويتحسّن". الحرارة تصفع وجه عائشة. تصرخ عيّوش: "ذكاء أمّه أشدّ في اختيار العشّاق! عادت من الجنّة وأنتِ عائدة لشبّاك مطفأ".

جمعت عائشة جزء عَمَّ. توبّخ نفسها على لمس المصحف باليد الملوّثة. نظرات أمّ أيمن تلاحقها، دافئة، ترجمتها عيّوش لتواطؤ خبيث: "أنا أعرف ما تفكّرين به، وأنتِ تعرفين ما كنت أفعله". "لا يمكن أن تعرف. هذا جنون". "الجنون ألا تري الحقيقة العارية!".

تودّع عائشة المرأة وابنها. عند الباب. استدارت أمّ أيمن. صوت ناعم يحمل دعوة مواربة: "سجّلي رقمي باسمي: دلال. هل تأتين المرّة القادمة قبل الموعد بربع ساعة؟ ندردش قليلاً".

اتّسعت حدقتا عائشة. تدردش؟ عن حافّة المرحاض الباردة؟ عيّوش

ترقص: "البوّابة فُتحت! لا تكوني جبانة". أومأت عائشة برأسها: "إن شاء الله".

خرجت للشّارع. الأرض تميد كظهر قارب. يد القدر رمتها في محراب الشّيطانة بكامل إرادتها. الهواء البارد يضرب وجهها، لا يطفئ النّار. المارّة أشباح باهتة لا تقرأ تبدّلها. لم تعد متلصّصة. خطت قدمها داخل الجحيم اللّذيذ. رائحة العطر تتجدّد مع هبوب الرّيح. عيّوش تردّد "عَمَّ يتساءلون؟" بسخريّة. سيتساءلون عن عائشة المولودة من رحم هذا المساء.

في اللّيل، تقرأ ما كتبته: "*في السّادسة عشرة، أمام المرآة. جسدي اكتسب ملامح أوضح. الصّدر استدار، الخصر تحدّد. ألمسه بفضول جريء. النّظرات في السّوق تتسلّل لجسدي، تخلع ثيابي. أربكتني، ثمّ شربت تلك القوّة الغامضة. في ليالي الصّيف، أستلقي وأترك يدي تجول. الحديقة السّرّيّة لم تعد مجهولة. أداعبها، أستدعي موجات دافئة ترتعش وتنتهي بتنهيدة خافتة. لحن هادئ تعزفه أناملي على أوتار جسدي. صور ضبابيّة. فارس، أو يد قويّة حنونة تلمسني بعمق. حنين لشيء لا أعرف اسمه. سيأتي كالرّبيع، بوعود الدّفء والفيضان. سنوات تفتّح خجول، أبجديّة جسد أتعلّمها حرفاً حرفاً، قبل أن تشتعل نيران الرّغبة، وأبدأ كتابة ليالي الانتظار للقاء يفجّر البراعم في قلب عاصفة*".

فتحت هاتفها. نظرت للرّقم الغريب. كادت تطبع "دلال"، تذكّرت أهلها، فكتبت "أمّ أيمن". عقلها المستنفر يوقن تماماً أنّها لن تنسى أبداً اسم دلال.

الفصل الرّابع : في الانتظار

يزحف ذلك الأسبوع ببطء. الخيالات تلتصق بقشرة دماغ عائشة. تقلب صفحات كتاب جامعي يابس، وتصطدم فجأة بذاكرتها الرطبة في بيت أم أيمن. عائشة تجلد نفسها بصوت خفيض، وعيّوش تركل جدار التأنيب بضحكة مكتومة تتردد في القاع: "الدرس يحتاج تركيزاً يا بريئة! هل سألتِ نفسك ماذا كانت تفعل هي في تلك اللحظة؟".

شبح دلال يجلس في زاوية الغرفة. عمّ تريد أن تدردش؟ هل تطلب التستّر على خروجها؟ هي تخرج أصلاً ولم تحتج يوماً إلى غطاء. هل للأمر علاقة بأيمن؟ أم أنّها... بطريقة ما...؟ تدور الأسئلة، وتأكل ذيولها دون أن تتعثّر بإجابة تبرد الرأس القلِق.

تسير برفقة سارة في الجامعة. مساحة تتأرجح بين زمالة باردة وصداقة مفقودة. تقتربان من المصلى، ووجه سارة يطفح بصراع خفي: "أظنني سأذهب للوضوء!". عائشة ترد باستغراب حاولت بلعه: "لن أسأل عما استجد منذ تحدثنا قبل قليل. لا أريد أن أتورط". سارة تتطوع، وابتسامة مرهقة تشق شفتيها: "الله يتوب عليّ من أفكاري اللعينة! هذا ما استجد، ويستجد دوماً". الفضول يقرص جلد عائشة: "وسواس قهري؟". عينا سارة ترميان نظرة ذات ثقل معدني: "وسواس خنّاس!".

أيام طويلة مرت منذ جلست في حضرة دلال، المرأة التي كادت تبلل نفسها بسببها. تعجز الآن عن سلخ كلام سارة عن تلك الحرارة المتكدسة. تنظر إليها للمرة الأولى كأنثى بكل وزن الكلمة. جسم نحيل أبيض، شعر بني منثور يجف في الهواء بتجعيدة واحدة متمردة. تحت الخصل المنسدلة تظهر نظارة شفافة الإطار، وتحتها نمش يتناثر كذرات غبار ذهبي على بياض الوجه.

عيّوش تضحك مجارية سارة برنة جديدة: "من الجنة والناس!". تمط السين وتدلي شفتها السفلى كقاعدة مربع. سارة تمد سبابتها بنبرة مسرحيّة: "أشهد ألا إله إلا الله"، وتقربها، قبل أن تفرغ من تعويذتها، لتلامس شفة عائشة السفلى، وتهمس برائحة سر: "لا تخربي شفاهكِ!". عيّوش تود لو تقبل الإصبع وتلعقه، لكنها تكتفي بعضة وهمية تفلتها سريعاً: "يا الله، أنا بانتظارك ههنا"، قفزت الكلمة بنبرة تحمل تحدياً لعوباً.

عائشة تبتلع ريقها، تفكر في هذا التعليق المنفلت من لسانها. أهي متصلة بعالم آخر؟ لو سألتها سارة عن القصد لعجزت عن الشرح. عيّوش تتلمظ برصانة، تستطعم الإصبع وتسحب رائحة جلد سارة المحموم إلى رئتيها.

بعد أن انتهتا من صلاة الظهر، كان لم يزل ثمّة وقتٌ لا بأس به حتّى المحاضرة القادمة، آخر محاضرات هذا الأسبوع. فجلستا في ركنٍ بعيدٍ بين الأشجار، وتطوّعت عيّوش لتسأل، بصوتٍ يحمل فضولاً حقيقيّاً هذه المرّة: "سارة بصراحة، ما هو وسواسكِ الخنّاس؟" فقالت سارة، وابتسامةٌ عابثةٌ ترتسم على شفتيها: "لهذا أُحبّ رفقتكِ، براءتكِ لذيذةٌ بشكلٍ لافت." عرفت عائشة من سارة يومها أنّها لا تُصادق طالبات قسم الأدب الإنجليزيّ في كلّيّتها، لأنّها كانت ضحيّة شائعةٍ ترميها بأنّها مثليّة الجنس. فلم تملك إلا أن تتساءل بصوتٍ مرتفع، وقد شعرت بوخزة تعاطفٍ مفاجئة: "لهذا كلّما مررتِ بجانب زميلاتكِ يتهامسن!" لقد كانت تظنّ أنّ هذا الأمر متعلّقٌ بطبقيّةٍ تحسّها بين أقسام الآداب، أو شيءٌ متعلّقٌ فيها هي.

القصّة متعلّقةٌ ببرنامج الزمالة مع الطلبة الأجانب، إذ إنّ الطالبة التي عُيّنت شريكةً لها في برنامج الزمالة اللغويّة، الذي يجب أن يُساعد الطرفين على تقوية لغة كلٍّ منهما بالحوار مع الآخر، كانت لها تصريحاتٌ جريئة. "هي عاديّةٌ في ثقافتها، لكنّها هنا تُفهم على نحوٍ آخر!" تقول سارة، ثمّ تُردف وعيناها تلمعان بذكرى مُسلّية: "تخيّلي أنّها عندما طُلب منها أن تنقل للطلبة مثلاً من لغتها ليبحثوا عن مُكافئٍ له في العربيّة، قالت: مصّ لساناً تتعلّمْ لغته!" ضحكت عيّوش ملء رئتيها، ضحكةٌ صافيةٌ خرجت من

أعماقها! ولكنّها سألت مُكايدة، ونبرةٌ لعوبٌ في صوتها: "ألهذا لغتكِ الإنجليزيّة قويّة؟" كانتا تتمايلان بسبب الضحك المنهك، وسارة تشدّ ياقة جلباب عائشة العصريّ ثمّ تُرخي ساعدها دون أن تُفلت الياقة، فيقع معصمها على نهد عائشة، لمسةٌ خفيفةٌ لكنّها أرسلت تيّاراً كهربائيّاً خفيّاً في جسد عائشة.

تقول عيّوش لنفسها، وقلبها يخفق بقوّة: لو أنّ هذا المشهد في قصّةٍ على واتباد، لانتهى بقبلةٍ حارقة! وبقيت الفكرة عالقةً في ذهن عائشة لمدّةٍ كافيةٍ لأن تتسرّب إلى الحديث، بصوتٍ خرج أعمق ممّا قصدت: "سارة، وهل تعلمين ما الذي قوّى لغتي الإنجليزيّة أكثر فأكثر؟" فتردّ سارة، وعيناها ترقصان بمرح: "مصصتِ لسان شابٍّ أم فتاة؟" يضحكان أكثر، وتحسّ عيّوش بالدم يتجمّع حول جرحها الأزليّ إزاء تلك الفكرة، وبتلقائيّةٍ عجيبةٍ كأنّها تُلقي بسرٍّ خطير، أخبرتها: "واتباد!" غطّت سارة فمها بضحكٍ وخجل، وعيناها تتّسعان دهشة: "حيوانة!" ولمّا سمعت عائشة هذه الكلمة، شعرت بقوّةٍ غريبةٍ تسري فيها، وقالت بنبرةٍ فيها تحدٍّ وفخرٌ خفيّ: "أتعرفين أنّ كلمة حيوانٍ جاءت من الحياة! لأن أكون حيوانةً أفضل من أن أكون جماداً لا يشعر!" فأردفت سارة، وابتسامةٌ ماكرةٌ على شفتيها: "ولا يُداعب نفسه!"

ظلّ وهج الحديث مع سارة يُرافق عائشة إلى آخر الدوام، وصاحَبَها بابتسامةٍ خفيّةٍ تعتري وجهها، ومزاجٍ لا يُعكّر صفوه حتّى جلوس شابٍّ بجانبها في الحافلة. لم تكن عائشة بحذرها المعتاد، ولم تضع حاجزاً من الكتب بينها وبينه، ولم يحدث شيءٌ من الأصل. وهي من كانت تظنّ أنّها بمجرّد أن تنسى الانقباض على نفسها والتدرّع بالكتب أو الحقيبة، فإنّ الشباب سيحكّون أفخاذهم بفخذها! يبدو أنّ العالم ليس بالسوء الذي كانت تتخيّله، أو ربما هي التي بدأت تتغيّر.

لديها الآن من يمكن أن تُسمّيها صديقة، إنّه ليس في الوجود كلّه ما يجعل الحياة أسهل من ألا تحسّ نفسك غريباً في عالمك. وصلت البيت وأنهت ما يُتوقّع منها، وبقي أن تخلو بنفسها لتشعر أنّ يومها مرّ على الحقيقة ولم يُسرق من رفّ عمرها خلسة. ولمّا أغلقت باب غرفتها، وجدت رسالةً على هاتفها من سارة: "ابعثي لي حسابكِ على واتباد يا شقيّة!" هنا كانت عيّوش مُتشكّكة، ووساوسها بدأت تُطلّ برأسها: فماذا لو عرفت أنّ هذا الحساب لها، وظهر كلّ ما تقرؤه من قصصٍ تجعل اللعاب يسيل من كلّ فتحةٍ ممكنة! أمّا عائشة فكانت مُطمئنّةً بصورةٍ غريبة، كأنّ ثقةً جديدةً قد نبتت في قلبها، فأرسلته وهي تقول: "هذا حسابٌ أُتابعه، تفاعلي معه لتعرفي إن كان لي أم لا!" صفّقت عيّوش، والتقطت الحوار من هناك، وبمجرّد أن وصلتها المتابعة انقضّت على

حسابها تتصفّح تاريخ ذلك الحساب، كأنّها مُحقّقةٌ تبحث عن دليل إدانة.

ولم يطل بها الأمر لتعرف ما عنته سارة بالوسواس الخنّاس! إنّ سارة بالتأكيد كانت مُنجذبةً إلى فتاةٍ ما فعلاً، فهل هي هي؟ هل هي من تنقض وضوء سارة بقربها منها؟ هل بقي من عطر دلال شيءٌ بعد كلّ هذه الأيّام، هل شمّت سارة بقايا العطر الذي يجعل الكرز يتفتّح في الحديقة!

وقفت على الشبّاك والشمس تُؤذن بالغياب، تتفقّد شبّاك إياد المطفأ مُبتعدةً عن شبك الناموس الذي يحجب الرؤية العميقة داخل غرفتها. كانت تشعر أنّ وقفتها آنئذٍ مختلفةٌ عمّا اعتادته، إنّ فيها انتصاباً غريباً، كأنّ جسدها يستعدّ لشيءٍ ما. وفجأةً أضاءت غرفة إياد، وبدا خلال الستائر غير المغلقة بإحكام طيف شخصين، إياد ومعه فتاةٌ أقلّ حجماً من أن تكون دلال! وضعت يدها على فمها لدى هذا الكشف العجيب، لم يمرّ خمسة أسابيع على نشأة هذه العادة عندها، واكتشفت أنّه خائن! يا تُرى ماذا ستشعر دلال لو عرفت بهذا؟ هل هذا ما ستُدردشان حوله؟ أم أنّ الأمر أعقد من ذلك؟

دفعت المشاهد التي رأتها هذه الأفكار إلى قيعانٍ سحيقةٍ في وعيها. فها هو إياد لم يخلع ثياب الفتاة عنها بل رفع فستانها وهي تتّكئ بذراعيها

على التخت، وكان يتقوّس خلفها ويتحرّك بإيقاعٍ ينتظم شيئاً فشيئاً. وقبل أن يسحب مثلّثها الحميم كلّ الدماء من سائر أطرافها، رفعت هاتفها، وبيدٍ ترتجف قليلاً، أزاحت شبك الناموس قليلا، والتقطت صورةً مُقرّبةً تظهر فيها الفتاة وهي تُدير وجهها فوق كتفها نحو إياد. الصورة لم تكن واضحةً لدرجة أن تدلّ على هويّة الفتاة، لكنّها كانت أكثر من كافيةٍ أن تنفي أنّ هذه دلال! شعرت عائشة بوخزةٍ غريبة، مزيجٌ من الغضب والفضول وربما... الإثارة.

انحنت عائشة لتضع هاتفها على طرف المكتب ولم تستقم عيّوش بعدها. قلّدت وضع الفتاة بيدٍ ومدّت ذراعها الأخرى لتضغط ثديها الأيسر مُدخلةً كفّها في سروالها، وبدأت تُزامن حركة أصابعها مع إيقاع إياد وعشيقته الأخرى. كانت الفكرة التي تُسيطر عليها دون أن تُقال صراحة: بما أنّ إياد لا يعرف الإخلاص، فهل سأكون أنا من يخون عشيقاته معها يوماً ما؟ أم أنّني أصبحتُ جزءاً من هذه اللعبة المعقّدة؟

كانت رقبتها تتلوّى، فتضغط شعرها بين كتفها وصدغها، فتشعر أخيراً بشعور القطط عندما تحكّ نفسها بأرجل المارّة! تجمّدت مع هذا الشعور والرغبة تتراكم طبقةً فوق طبقة. فما إن رفعت رأسها حتّى رأت الفتاة تدفن وجهها في السرير، وإياد يُباعد ما بين ساقين ويغرز قضيبه عميقاً

بين ردفيها المشرئبّين للأعلى، نازلاً بثقل جسمه فيها وهو يتّكئ على ردفيها بيديه. ملأت عينيها من المشهد، ثمّ سارت إلى طرف السرير، وانحنت عليه مُنزلةً بنطالها إلى كاحليها كقيد، وركبتاها بالكاد تستقيمان. رصعت نهديها بين صدرها وبين الفراش، وقوّست ظهرها إلى الخارج، ومدّت يديها الاثنتين إلى ردفيها وكأنّها تدعو إياداً إلى أن يدخلها. ثمّ حاولت أن تُرضي نفسها بأصابعها بتلك الوضعيّة، فشعرت أنّها بحاجة أداةٍ تكون امتداداً ليدها.

بالتفاتةٍ سريعةٍ رأت مقبض فرشاة الشعر، فتناولتها ووضعت مقبض الفرشاة في فمها، ثمّ أمسكت بالفرشاة من الجهة الشائكة، وغمدت المقبض فيها. كانت تعرّجات المقبض كأنّها مطبّاتٌ هوائيّةٌ في رحلة لذّتها التي بلغت عنان السحاب. هذا يختلف عن كلّ شيءٍ عرفته. كانت عائشة تُراقب جسدها الذي يتصرّف من تلقاء نفسه، ورأت أنّ عليها أن تحتفظ بهذه الفكرة: هي لن تعرف حقيقة شيءٍ ما حتّى يدخلها!

كانت للحركة السريعة لمقبض الفرشاة داخلها شعورٌ آخر، إنّ جدرانها تتصلّب لتتحمّل كلّ هذه الرغبة، وكلّ هذه الخشونة. ولّما أرادت أن تحرّر ثديها المنسحق تحت جسمها قليلاً، ليكون بمقدور حلمتها أن تشعر بالحركة، مال المقبض داخلها بزاويةٍ أخرى، فرأت أنّها تقترب من منطقةٍ

جديدة، لقد اتحدت مع جدرانها الداخليّة، لقد تمدّد جرحها الأزليّ لتكون كلّها فرجاً.

حركتان بعد، وانتصبت ركبتاها رافعة حوضها المحنيّ، وإذ بها تهطل على الأرضيّة مطراً في دفقتين مُتقطّعتين. شعور البلل الشديد الذي بلغ يدها، وصوت الرشرشة التي سمعتها قطعا حبل شهوتها إلا قليلاً. نزلت لتلتصق بالسرير وتغرق فيه وفي بركة الماء الصغيرة التي أحدثتها.

استفاقت بعد دقائق، وهي تشعر بحاجةٍ مُلحّةٍ أن تزور الحمّام. ونظرت إلى رجليها لترى أنّها أمطرت على سجّادة الصلاة! خفق قلب عائشة بشدّة، كأنّ ملاكاً من ملائكة الرحمن يعتصره في كلّ نبضة، وأحسّت بفراغٍ عميقٍ داخلها. لقد دنّست كلّ شيء! وهنا أفاقت عيّوش من غشية اللذّة حينها لتقول بصوتٍ لا يخلو من شماتة: "وماذا في ذلك! اعتبريها صلاة استسقاءٍ مُستجابة!"

طردت فكاهة عيّوش الغضب منها قليلا، وجلست تُفكّر كيف سترتّب كلّ هذه الفوضى التي أحدثتها. وعيّوش تقول: "كلّه يهون في سبيل هذا الشعور العظيم. لكم تمنّيت لو أفرغتِ سحابتكِ على حوض إياد!" كانت عائشة تجلس على طرف السرير ورأسها مُدلّى بين ذراعيها، وفرشاة الشعر في يدها. وعندما همّت بإعادتها، قالت لها عيّوش بنبرة آمرة:

"أين لياقتكِ؟ أظهري امتنانكِ. قبّلي المقبض." لم تجادل عائشة، وقبّلت مقبض الفرشاة، وانتبهت حينها إلى الوخز الشديد في يدها.

طالعت عائشة الحفر المتراصّة المنتظمة التي حفرتها إبر الفرشاة في راحة يدها الغضّة، وعرفت أنّها بعد أن تتخلّص من كلّ هذه الفوضى عليها أن تُخفي يدها عن أهلها، وتتمنّى لو أنّ هذه الكدمات تشفى بانتهاء العطلة العطلة الأسبوعيّة. ورغم أنّها كانت نادمةً وهي تنظر إلى سجّادة الصلاة، رمز الطهارة في خيالها، وهي مُبتلّةٌ بمائها، كان النبض القادم من بين رجليها يشي بامتنانٍ يجعلها تبتسم. نعم، رغم كلّ ذلك ابتسمت عائشة!

قطعت هدأتها تلك رسالةٌ من سارة: "مسكينةٌ أنا عندما كنتُ أُعاتب نفسي على هذا الهوس المحبّب! يبدو أنّكِ ستكونين هوسي التالي!" فانتفضت عيّوش بضحك سرورٍ لم تعرفه عائشة من قبل. وقامت تُرتّب الغرفة وتستحمّ، وعادت لتُصلّي العشاء. كبّرت وقرأت الفاتحة، وعيّوش تتساءل عن اسم الفاتحة! "الفاتحة رجليها؟" ثمّ قرأت سورة الناس، فوجدت نفسها تتذكّر إصبع سارة وهي تقول: الناس، وتُطيل في همس السين في كلّ مرّة. وعندما سجدت خُيّل لها أنّ إياداً خلفها يصفق أبوابها، فانقبض جسمها وتراجعت كفّها اليمنى لتُحسّ البلل لم يزل

ماثلاً على السجّادة. "أيّ صلاةٍ هذه يا عائشة!" تقول في نفسها وهي تُسبّح باسم ربّها الأعلى، فتُجيبها عيّوش: "صلاة الشكر على استجابة الاستسقاء!" حرّكت جسمها عن موضع البلل، وأتمّت الصلاة حتّى التسليم.

أمسكت مسبحتها الموضوعة على الجوارير وهي تجلس بثياب الصلاة على طرف السجّادة، وأخذت تقرأ وردها اليوميّ من التسبيح. كانت خرزات سبحتها كبيرةً من حجارٍ كريمة يمكن النظر داخلها، أهداها لها والدها عندما أُعجبت بالحجار الملوّنة طفلة، كانت هديّة معلّقة بإنجاز. تراجعت عن فكرة أن تفكّها وأن تصنع منها أقراطاً، فكرات هذه المسبحة قد تشدّ أذنها إلى الأسفل كأقراط العبوديّة! وكانت في نهاية الورد عندما استفاقت على الفكرة التي قرّرت الاحتفاظ بها: لن تعرفي شيئاً حتّى يدخلكِ!

شدّت يدها على السبحة مُستغفرة، فسمعت صرير حجارتها في قبضتها. وقامت لشؤونها الأخرى، لكن قبل أن تتمكّن من الدراسة، أو حتّى تحضير درس تقويةٍ لأيمن، لا بدّ أن تكتب عن نجمة.

كتبت شيئاً لم تُراجعه بالقراءة، ولم تسرح فيه، وتذكّرت واجب الأدب المقارن الذي يجب أن تُسلّمه يوم الأحد. كانت قد قرّرت أن تُقدّم العرض

الختاميّ لها في مادّتها حول نقد أبي القاسم الشابيّ للشعر العربيّ، في محاضراته حول الخيال الشعريّ عند العرب.

قرأت الكتاب فوجدت أنّ أهمّ أبوابه باب "الخيال الشعريّ والمرأة في رأي الأدب العربيّ". أخذها الكتاب بعيداً عن كلّ ما حولها، عن شبّاك إياد، عن رسائل سارة، عن نجمة، عن دلال، عن نفسها هي. ولمّا أتمت خطّة العرض قامت لتنام. لكنّ سؤالاً ظلّ في بالها، سؤالٌ يُشبه وخزة ضميرٍ أو ربما بداية وعيٍ جديد: كيف قالوا لنا إنّ العرب أهل البلاغة والفصاحة، وإنّ الله جاء بمعجزته لغويّةً لذلك السبب؟ إذا كان هذا حال الشعر العربيّ في النظر للمرأة، فلا غرابة أنّ الإسلام، على كلّ ما فيه من كبتٍ لنا نحن معشر النساء، لهو أفضل بمئة مرّةٍ من الشعراء الذين تناولوا المرأة هذا التناول السطحيّ.

نامت ملء جفنيها، نامت ملء جسمها كلّه، ويدها التي لم تزل تخزها بسبب إبر الفرشاة نامت أيضاً ونام وخزها. ثمّ فجأةً استفاقت قبيل الفجر، وقرّرت أن تقرأ الرسائل التي كانت تطنّ في الهاتف المهمل أثناء دراستها.

سارة: "الكتّاب يطلبون آراءكِ فيما يكتبون!" "ملاحظاتكِ النقديّة عميقةٌ جدّاً!" "أحسنتِ قولاً: الفرق بين الإباحيّة والأدب الإيروتيكيّ هو المغزى!" "هل من عاقلة تكتب مثل هذا التعليق: قد قرأتُ هذه الرواية

بيدٍ واحدة ;) "، "للصدق هي فعلاً تقرأ بيد واحدة!" .

هنا استفاقت كلّيّاً! إنّ سارة تُصارحها بأنّها تلمس نفسها هي الأخرى . وأمام هذا الإدراك كانت رغبتها تتجدّد، لكنّها قرّرت أن تشكر الله على أنّه وضع في طريقها سارة لتكون صديقةً مُقرّبةً تفهمها، كتبت : "سارة، سأخوض معكِ هذا الحوار وجهاً لوجهٍ بعد غد . أنا لستُ بطلاقتكِ في الرسائل . ممتنّةٌ لوجودكِ!"

ظلّت عائشة تقبض يدها، أو تضعها في جيبها خلال اليومين اللاحقين، كأنّها تقبض على سرٍّ حميم. وأشرقت شمس يوم الأحد، فارتدت ملابسها وخرجت قبل أن يتشكّل الظلّ الصريح تحت الشمس الحامية، وكان واضحاً لها أنّه سيكون يوماً حارّاً.

في محاضرة الأدب المقارن في ذلك الأحد، قدّمت عائشة عرضها أمام الطلبة بكلّ جرأة، ذاكرةً أمثلةً تدلّ على نظرة العرب المنحطّة للمرأة، مُتجرّأةً على ذكر الألفاظ الصريحة التي كانت لتخجل منها قبل شهر، غير مُهملةٍ بعض الأمثلة المضيئة القليلة، وذكرت قول ابن الروميّ هنا :

"ليت شعري إذا أدام إليها ... كَرَّةَ الطَّرْفِ مُبدىءٌ ومُعيدُ

أهْيَ شيءٌ لا تسأمُ العينُ منهُ ... أم لها كلَّ ساعةٍ تجْديدُ

بل هي العيشُ لا يزالُ متى ... استعْرِضَ يملي غرائباً ويُفيدُ"

ولمّا تمثّلت قوله هذا كانت تُلقي برئتين مُتّسعتين، وكأنّها اكتسبت كلّ الثقة التي حرمتها منها التربية التقليديّة. ولم تستطع إلا أن تُفكّر حينها في دلال، دلال التي ستُدردش معها اليوم عن أمرٍ ما، وربما في سارة وهي ستقابلها بعد قليلٍ قبيل المحاضرة الأخيرة.

وبعد أن أتمّت الأمثلة من الشعر الفرنسيّ والإنجليزيّ وحتّى الأمثلة التي اجتهدت أن تُضيفها من الأدب الروسيّ، انتهت من العرض كأنّها راقصةٌ كانت تُعانق المجد بجسدها على المسرح، أو مُغنّية أوبرا ترفع الجمهور وتحطّه بصوتها المجلجل. قامت الدكتورة سمر من بين الطلبة مُبتدئة التصفيق الذي غلبت عليه الأنوثة في تلك القاعة، ولمّا بلغت المنصّة قالت بصوتٍ يحمل إعجاباً حقيقيّاً: "شكراً عائشة، هذا عرضٌ وافٍ لم يكتفِ بتكرار وجهة نظر الكاتب، بل أخذها ومدّدها وبحث عن أمثلةٍ مُساندة. أتمنّى لو أنّ كلّ من استغرب من تحصيل عائشة المرتفع كان هنا يسمع ويرى، لعرف السبب. ممتازٌ عائشة!"

تدفّق الدم إلى وجه عائشة كأنّه قلبها، وساعدتها سمرتها الخفيفة في إخفاء الخجل الظاهر. لم تستطع لشدّة ارتباكها أن تشكر الدكتورة. وعيّوش تهمس في أذنها وهي تعود إلى مكانها: "طيّب، هذا بعض ما عندكم، أو كلّه بفضلكِ معلّمتي، أو أنتِ من وضعني على أوّل الطريق... أيّ شيءٍ قولي شيئاً..."، وكانت تعلم أنّها لو قالت شيئاً لخرج بصوتٍ قطّعه الإحراج وأفسد دوزانه.

على باب المحاضرة، كانت عائشة تتحرّى الحديث مع الدكتورة سمر لتشكرها على الإطراء العلنيّ بصدقٍ ودود. وبعد أن يئس الطلبة الذكور الذين يُجادلون الدكتورة طمعاً في علامةٍ هنا، أو لتقبل عذراً من هناك، انفضّوا عن الدكتورة سمر فبادرت بوجهٍ مُشرقٍ عائشة بالتحيّة: "ما شاء الله عليكِ!" فأجابت عائشة، وقد استجمعت شجاعتها: "دكتورة كلّه بفضلكِ... بعد الله." قفزت هنا عيّوش، كعادتها، تُفسد اللحظات الجادّة: "وما دخل الله في القصّة! إنّ ربّكِ هذا لم يزد على أن جعلكِ من موجودات الجنّة كالأنهار والأطيار واللبن والخمر!" لكنّ عائشة وسمر تمكّنتا من إسكات عيّوش تحت وطأة حوارهما الذي تطرّق للأدب الذي يحترم المرأة، والأدب الذي يُهينها.

خلال الطريق الذي سارتاه بعيداً عن قاعة الدرس، تجرّأت عائشة وطرحت على الدكتورة أنّها كانت تودّ لو تحدّثت عن الأدب التجاريّ في الغرب الذي يُشيّئ المرأة ويُحولّها مادّة استمناءٍ للرجال، وأنّها لولا البيئة المحافظة التي تعيشان فيها لربما أنصفت العرب قليلاً أمام نقد الشابّيّ القاسي.

استمعت الدكتورة سمر إلى عائشة وهي تتحدّث بطلاقةٍ وحرّيّةٍ وتُؤشّر بيديها، وكلّما ارتفعت يدها التي لم تشفَ تماماً من وخز إبر الفرشاة، نادتها عيّوش: "أنزلي يدكِ! لا تنقصنا فضيحةٌ فوق ما تُصرّحين به!" لم يطل الأمر حتّى التفّت كفّ الدكتورة سمر لتصل كتف عائشة البعيد من الخلف، وتضغط على كتفها بكلّ تشجيع. لكنّ الدكتورة سمر قاطعت عائشة في بداية جملةٍ مُوقفةً إيّاها عن المسير: "دكتورة، الفكرة هي..." فقالت لها الدكتورة بابتسامةٍ دافئة: "سمر، سمر حافّ. مثلكِ تُنادي مثلي باسمها دون ألقاب." خجلت عائشة وكادت تذوب لهذا القرب، ثمّ تفاجأت بنفسها تُعانقها عناق ابنةٍ لأمّها الغائبة، وما إن ابتعدت عائشة قبل أن يُصبح العناق غريباً، حتّى لاحظت الدكتورة أنّ عائشة تبكي. "لا يا حبيبتي، ستتورّم عيناكِ هكذا!" قالت الدكتورة بحنان. فمسحت عائشة عينيها ومشت كأنّها تهرول في أولى خطواتها، فهي تخشى أن تستطرد في الكلام أكثر.

بعد أن ابتعدت عائشة مسافةً آمنة، وقفت تُراقب د. سمر وهي تبتعد، وقلبها يخفق مزيجاً من الامتنان والفرح الخالص. شعرت كأنّها طائرٌ صغيرٌ أُطلقت سراحه للتوّ، وأنّ أجنحتها التي بلّلها الندى صارت الآن أقوى، قادرةً على التحليق. لم تكن تتوقّع أن ينتهي عرضها التقديميّ بهذا الشعور بالانتصار، أو بهذا القرب الدافئ من أستاذتها. "سمر حافّ..." همست لنفسها، والابتسامة ترسم قوساً على شفتيها.

التفتت، تبحث بعينيها عن سارة. كانتا قد اتّفقتا على اللقاء بعد تلك المحاضرة، وها هي ذي اللحظة قد حانت. شعرت بوخزٍ خفيفٍ من التوتّر يُداعب معدتها، شيءٌ يُشبه رفرفة أجنحة فراشاتٍ خفيّةٍ طالما قرأت عنها في الروايات، لكنّه الآن حقيقيٌّ ومُربك. هل هذا ما تشعر به الشخصيّات قبل لقائهنّ الأوّل؟

هاتفها اهتزّ برسالةٍ جديدة. كانت من سارة: "أين أنتِ؟" فراسلتها: "سأكون في المصلّى. أراكِ بعد انتهاء الصلاة." ابتسمت عائشة. يا لسخرية القدر! المصلّى، "مكان الطهارة والسكينة"، هو ذاته المكان الذي شهد اعتراف سارة "بوسواسها الخنّاس"، وهو الآن سيكون نقطة انطلاقٍ للقائهما الذي تشعر عائشة بأنّه سيكون مختلفاً. "ربما كلانا بحاجةٍ للصلاة قبل هذا اللقاء،" همست عيّوش في أذنها بمكر: "أنتِ لتُطهّري

أفكاركِ منها، وهي لتُطهّر أفكارها منكِ... أو ربما تستعدّان لما هو آتٍ!"

دخلت عائشة المصلّى، توضّأت، وشعرت ببرودة الماء تزيد من حدّة حواسّها. وقفت في الصفّ، وكبّرت. حاولت أن تُركّز في صلاتها، لكنّ طيف سارة كان يمرّ في خيالها؛ ضحكتها، الطريقة التي شدّت بها ياقة جلبابها، نظراتها التي تحمل أسئلةً لم تُطرح بعد، رسائلها ذات التلميحات التي تصل عميقاً. "الله أكبر..." هل تُكبّر على صلاتها أم على هذه المشاعر الجديدة التي تتفتّح كورقةٍ رقيقةٍ خائفةٍ من قسوة الضوء؟

بعد الصلاة، لمحتها. كانت سارة تنتظر عند باب المصلّى، تتّكئ على الجدار، ويبدو على وجهها شيءٌ من الترقّب المشوب بالحذر، كأنّها هي الأخرى تشعر بأهمّيّة هذه اللحظة. تقدّمت عائشة نحوها، وكلّ خطوةٍ كانت تبدو أثقل من سابقتها.

"تقبّل الله،" قالت سارة بصوتٍ خفيضٍ حين اقتربت عائشة، وابتسامةٌ صغيرةٌ ترتسم على شفتيها. "منّا ومنكِ صالح الأعمال،" ردّت عائشة، وشعرت بأنّ الكلمات خرجت جافّة، لا تعكس العاصفة الصغيرة التي تدور في داخلها.

ساد صمتٌ غريبٌ للحظات، ذلك الذي يقولون عنه في الروايات: صمتٌ يمكن قطعه بسكين. لم يكن صمتاً عدائيّاً، بل صمتٌ محمّلٌ بالترقّب، بالأسئلة غير المنطوقة، وبشيءٍ من الحرج اللذيذ الذي يسبق اللقاءات المهمّة. كأنّهما غريبتان تلتقيان للمرّة الأولى، رغم كلّ الأحاديث والرسائل التي تبادلتاها.

"هل... نتمشّى قليلاً؟" اقترحت سارة أخيراً، مُشيرةً برأسها نحو الممرّ الخارجيّ الذي تصطفّ على جانبيه بعض الأشجار المتناثرة. فأشارت عائشة، وقد شعرت بحاجةٍ إلى مكانٍ أكثر ألفة: "مشيتُ كثيراً اليوم، هلا جلسنا في بقعتنا هناك." وهي تومئ إلى المكان ذاته الذي شهد بوحهما الأوّل. فقالت سارة بابتسامةٍ أوسع: "بقعتنا؟ يا سلام! وهكذا نسير قليلاً على الأقلّ نحوها."

سارتا جنباً إلى جنب. كانت عائشة تشعر بحرارةٍ غريبةٍ تسري في جسدها، رغم أنّ الجوّ بدأ يميل للبرودة مع اقتراب المساء. كتفها كاد يُلامس كتف سارة مع كلّ خطوة، وكانت تتساءل إن كانت سارة تشعر بالكهرباء ذاتها التي تسري فيها. وما إن جلستا، ربما أقرب هذه المرّة، حتّى شعرت عائشة بأنّ الهواء بينهما أصبح مشحوناً أكثر.

"إذن..." بدأت سارة الحديث بصوتٍ بدا وكأنّه يُحاول كسر طبقةٍ رقيقةٍ

من الجليد، وعيناها ثابتتان على عيني عائشة، "جاء وقت الاستجابة إلى رسائلي حول تعليقاتكِ على واتباد." توقّفت، ثمّ أضافت بابتسامةٍ خفيفةٍ تحمل تحدّياً لطيفاً: "أنتِ حقّاً شقيّةٌ كما قلتُ لكِ." ضحكت عائشة، ضحكةً خافتة، متوتّرة. "وهل اكتشفتِ كلّ أسراري هناك؟"

"بعضها ربما،" قالت سارة، ونظرت إليها نظرةً جانبيّة، فيها مزيجٌ من المرح والفضول العميق الذي جعل قلب عائشة يخفق أسرع. "خاصّةً تلك الرواية التي قلتِ عنها أنّها تُقرأ بيدٍ واحدة." احمرّ وجه عائشة قليلاً، رغم سمرتها. "سارة! لا تكوني وقحة! وأنت أقررت بأنّها كذلك!"

"أنا؟" ردّت سارة ببراءةٍ مصطنعة، وأكملتا حديثهما الذي يدور حول الزهرة ولا يلج بتلاتها، كأنّهما في مُداعبةٍ ذهنيّة، كلّ واحدةٍ منهما تتحدّى الأخرى بذكاءٍ وتلميح. ثمّ لمّا كرّرت عائشة اتّهام سارة بالافتراء، قالت سارة بنبرةٍ جادّةٍ فجأة، لكنّ عينيها لم تفقدا بريقهما: "أنا فقط أتساءل كيف استطعتِ أن تكتبي تعليقاً بتلك التفاصيل وأنتِ... مشغولة!"

استدارت عائشة لتُواجه سارة. كان قلبها يخفق بقوّة. شعرت بأنّ اللحظة قد حانت، بأنّ عليها أن تقول شيئاً، أيّ شيءٍ يكسر هذا التوتّر المتصاعد أو ربما يزيده اشتعالاً. نظرت في عيني سارة مباشرة، ورأت فيهما ذلك

المزيج من الجرأة والتردّد الذي يعكس حالتها هي. لقد استطاعت حواسّها أن تلتقط رائحة ندى سارة الذي يتزامن مع نداها! تحرّكت عائشة من جلستها مُنتبهةً إلى وقت المحاضرة الذي اقترب.

"سارة،" قالت عائشة، وصوتها اكتسب فجأةً نبرةً أعمق، فيها شيءٌ من التحدّي، وشيءٌ من الدعوة التي لا يمكن تجاهلها. "أعرفتِ لماذا اخترتُ أن أُصلّي قبل أن أراكِ اليوم؟"

لم تجبها سارة، لكنّ نظرتها كانت تحمل كلاماً لم يُقل، كلاماً فهمته عائشة، أو أرادت أن تفهمه بطريقتها. وفهمت أنّ سارة قد التقطت الإشارة، ذلك الخيط الخفيّ الذي يمتدّ بين جسدين بدآ يتجاذبان. شعرت عيّوش بانتشاءٍ خفيٍّ وهي ترى الارتباك اللذيذ يكسو ملامح سارة، كأنّ كلمات عائشة كانت مفتاحاً لبابٍ كانت كلتاهما تقفان أمامه، مُتردّدتين في طرقه. ربما تسرّبت رائحة الندى المتزامن لهما معاً.

ثمّ لمّا سارتا مُسرعتين نحو محاضرتيهما، كانت عائشة تشعر بانزلاقٍ ما بين فخذيها، وتُقسم أنّ سارة تشعر بمثل هذا الشعور، وأنّ شيئاً ما قد بدأ بينهما، شيئاً لا اسم له بعد، لكنّه قويٌّ وحقيقيّ.

الفصل الخامس : الدّردشة

خطوات عائشة العائدة من موقف الحافلات لا تطأ الإسفلت، بل تنزلق فوقه بخفّة لم تعهدها منذ زمن. الملامح الصّلبة التي كانت درعاً تخفي خلفه مناكفتها الدّائمة مع عيّوش قد لانت، وانزاح قناع الجمود الذي تعوّدت أن تتوارى خلفه. اليوم، هي تمشي دون أن تلقي بالاً لما يفيض من ملامحها. موجة التّوق الحارقة التي دهمتها أمام سارة خمدت الآن، ليس انطفاءً، بل تراجعاً كأنّ نسمة رقيقة جفّفت حبّات النّدى عن جلدها المحموم.

نفسيّتها تشبه صفحة ماء صافٍ راكد بعد عاصفة ثقيلة، ماء يعكس صفاء سماء تولد من جديد. وهج العلاقة الإنسانيّة النّاشئة مع سارة يلفّها بدفء خفيّ، يرفع معنويّاتها، وينتزع منها ذلك اليقين الموحش بأنّها تعيش على جزيرة معزولة. ثَمّة أرض أخرى تتشكّل في الأفق، أرض يمكن أن تطأها بقدمين أكثر ثباتاً، وأقلّ شعوراً بالخطيئة.

دخلت البيت، ألقت تحيّة عابرة على أمّها المنشغلة في المطبخ، ووضّبت أغراضها سريعاً. جهّزت كتب أيمن وجزء "عَمَّ"، ثمّ انسلّت إلى الحَمَّام. وقفت أمام المرآة للحظة. لم يكن وجهها يحمل ذلك التّوهّج المحتقن الذي يسبق أو يعقب لحظات انغماسها في عوالمها الخاصّة؛ بل كان هادئاً،

مستريحاً كأرض بعد المطر. بماء بارد قاطع، غسلت ما تسبّبت به سارة من دبق، ويداها تتحرّكان بحرص واعٍ ألا تستثير تلك التيارات الخفيّة الكامنة تحت الجلد. هي تدرك الآن أنّ تلك الطّاقة التي اختزنتها من جرأتها مع سارة لم تتبدّد، بل تجمّعت كينابيع جوفيّة تنتظر إشارة واحدة لتتصدّع وتتّفجّر.

توضّأت. برودة الماء تلامس بشرتها كتذكير حادّ باليقظة والصّفاء. وقفت على سجّادة الصّلاة، ولم تبتعد عن المواضع التي دنّستها بفيضانها من قبل. كبّرت، قرأت، ركعت، وسجدت، دون أن يخترق ذهنها أيّ من تلك الأفكار الملتوية حول أوضاع الجسم في الصّلاة. وفي السّجود الأخير، تركت ما يتردّد في سِرّها يجري على لسانها؛ شكرت الله الذي أرسل سارة إلى طريقها. لم تكن مجرّد صديقة، بل نافذة تطلّ على احتمال حياة أخرى، حياة فيها شيء من الفهم المتبادل، شيء من القبول غير المشروط. أطالت السّجود، وشعرت بأنّ الأرض تحتها ليست مجرّد خيوط صوفيّة لسجّادة، بل هي الأرض ذاتها التي تمشي عليها، والتي بدأت تبدو أكثر رحابة ممّا تصوّرت.

ما إن أنهت صلاتها وبدأت تصلح هندامها للخروج، حتّى اهتزّ هاتفها برسالة قصيرة. من دلال: "في انتظاركِ عيّوش، لا تتأخّري عن موعدنا. أيمن يسأل عنكِ :)". ابتسمت عائشة. وجه أيمن البريء، وتلك

الابتسامة المذيّلة في نهاية الرّسالة، كانا مجرّد ستار يخفي وراءه عالم دلال، ذلك العالم الذي بدأ يستدرجها بخطوات هندسيّة محسوبة. عادت في عجالة، أتمّت هندامها، وانطلقت إلى أيمن، أو بالأحرى، انطلقت تنقاد إلى دلال.

عاد صوت عيّوش يزنّ في رأسها كذبابة ملحّة: "ربما ستتركك وتذهب لإياد لتكسب شوطاً إضافيّاً معه!". ضحكت عائشة من الفكرة، وأكملت طريقها بخطوات مشدودة، ثمّ ردّت على عيّوش في حوار داخليّ صامت: "ليتها تفعل ذلك، فسارة تركتني على وشك الانفجار!". قالت عيّوش بمكر: "اتركيها لي، وسأنسيها إياداً!". قطع هذا الهذيان رنين هاتفها برسالة من سارة: "جدولي غداً فيه فراغات كثيرة، أحبّ أن نلتقي طويلاً!". علّقت عيّوش بلهفة تلهث: "يوم حظّ أخشى ألا يتكرّر". تجاهلت عائشة سارة وعيّوش معاً. وقفت أمام الباب، وطرقته برقّة، وكأنّها ترجو ألا تُسمع طرقتها وتنجو.

انفتح الباب. دلال تفتحه بنفسها، ولم تتأخّر خطوة إلى الوراء كعادة النّساء المحافظات، بل وقفت تملأ الإطار. أطلّت على وجهها تلك الابتسامة التي تجعل عائشة تشعر بأنّها تجرّد من كلّ دفاعاتها قطعة تلو الأخرى. كانت دلال ترتدي فستاناً بيتيّاً حريريّاً بلون أبيض شفيف، ينسدل على تضاريسها بوقاحة توحي بأن لا شيء تحته، بل إنّ عائشة

لترى بيقين أنّه لا شيء تحته. القماش يلتصق بحلمتيها النّافرتين، ويفضح لون المثلّث الدّاكن بين فخذيها. "فستانها أشفّ من ستائر إياد!" قالت عيّوش مازحة. وعائشة تطالع جسد دلال يتراقص أمامها، كلّ انحناءة فيه مهيّأة للمسة، كلّ طيّة قماش تبدو كفخّ.

شعرها الأسود الطّويل كان منسدلاً على كتفيها، وكأنّها تخفي به عشّاقاً منكبّين على تقبيل رقبتها في الخفاء. رائحة عطرها، ذلك المزيج الثّقيل الذي أصبح مألوفاً ومثيراً لعائشة، يشي بأنوثة ناضجة ومستعدّة، رائحة تسلّلت فوراً لتغلّف جدران رئتيها. "ناعمة ومستعدّة، كأنّها قربان يُزفّ إلى مذبح اللّذّة"، همست عيّوش في أذن عائشة التي شعرت بتوتّر حادّ يعود ليقبض على أنفاسها. "أهلاً عيّوش، تفضّلي. أيمن في غرفته ينهي بعض واجباته، سينضمّ إلينا بعد قليل." قادتها دلال إلى غرفة الجلوس. لم تستطع عائشة إلا أن تلمح باب الحَمّام المفتوح جزئيّاً، ذلك المكان الذي شهد قبل أيّام انفجارها العنيف الذي لم تكن تتوقّعه. "أتذكرين يا عائشة؟" سألتها عيّوش بسخريّة، "لا بدّ أنّها اشتمّت رحيقكِ في أجواء حَمّامها!". تجاهلت عائشة الصّوت، وجلست على حافّة الأريكة كعصفور يراقب صيّاده.

قدّمت دلال كوباً من الشّاي بالنّعناع. "أيمن تحسّن كثيراً بفضلكِ يا عيّوش،" قالت دلال وهي تجلس قبالتها، وتضع ساقاً فوق الأخرى بكشف

مدروس عن مساحة هائلة من فخذها الأبيض البَضّ. "أصبح يردّد تلك الجمل التي أعطيتها إيّاه بطلاقة مدهشة. حتّى أنّه صار يتحدّاني بها، ويقول لي إنّ لساني ليس برشاقة لسانكِ!". ضحكت دلال ضحكة رقيقة، تراها عائشة بريئة بينما تردّ عيّوش داخلها: "بالتّأكيد المشكلة ليست في لسانكِ، لكن ربما تركيزكِ الآن في مكان آخر، أو في حوض آخر!". لم تكن عينا دلال تغيبان عن وجه عائشة، تحفران فيه. "الولد ذكيّ، ما شاء الله"، قالت عائشة، وشعرت بحرارة الخجل تتصاعد إلى وجهها كلسعة نار. "بل أنتِ المُعَلِّمة الماهرة"، ردّت دلال، ثمّ أضافت بنبرة أعمق، ونظرة اخترقت دفاعات عائشة القطنيّة: "نادراً ما يحبّ أيمن من يأتين لتدريسه، لكن بعد التّمعّن فيكِ... أنا أوافقه الرّأي".

ورغم أنّ دلال كانت تقف على حافّة التّصريح بإعجابها الجسديّ بعائشة، تجاهلت عائشة ذلك، أو حاولت أن تظهر التّجاهل: "أيمن يحتاج فقط إلى التّشجيع". "كلّنا نحتاج إلى التّشجيع يا عيّوش"، قالت دلال، ونظرت إليها نظرة طويلة ثقيلة، كأنّها تحاول أن تقرأ أعمق أفكارها وتستخرج عصارتها. "أحياناً أتمنّى لو أنّني أكملت دراستي الجامعيّة". استطردت دلال، لكنّ كلماتها كانت تمهيداً لشيء أثقل. "تزوّجت مبكّرة كما تعلمين، وفاتتني تلك الحياة... حياة الصّبايا، المحاضرات، النّقاشات، الصّداقات التي تتكوّن في تلك الفترة. صحيح أنّ الزّواج

حلو، وفيه استقرار لا يُنكر، وله لذّاته الخاصّة جداً...» وهنا غمزت دلال بعينها بخفّة زلزلت كيان عائشة، «لكنّ الجامعة تبقى مرحلة مفقودة، كنزاً لم أكتشفه». عيّوش تترجم الشّيفرة: «إنّها تريد أن تعرف عن الفتيات، عن جرأتهنّ، عن خبايا لحمهنّ السّرّيّ».

وكلّما استمرّ الحديث، ظهرت عيّوش لتقول شيئاً مثل: «هي لا تسألكِ عن المحاضرات المملّة، بل عن فتيات فرائس يمكن أن تجد بينها ضالّتها!». صمتت دلال للحظة. كأنّها تمنح عائشة فرصة لالتقاط الأنفاس، رغم أنّ صخب دلال الشّهيّ كان يطغى على المكان. حضورها كان طاغياً، ليس فقط بجمالها الصّارخ، بل بتلك الثّقة التي تشعّ من مسامها، وذلك الذّكاء الذي يلمع في عينيها. شكّت عائشة، لا بل أيقنت، أنّ كلّ كلمة تقولها دلال تحمل وراءها طبقات من المعاني، وأنّ هذا الحديث «الهامشيّ» هو محور الفخّ كلّه.

«أخبريني عن هذا العالم يا عيّوش»، قالت دلال، وهي تقترب منها قليلاً. وضعت يدها على ذراع عائشة بحركة بدت عفويّة، لكنّها أرسلت قشعريرة خفيّة تسلّقت عمودها الفقريّ. «أخبريني عن صديقاتكِ، عن أحلامكنّ، عن تمرّدكنّ الصّغير. أشعر أحياناً بأنّني أعيش في فقّاعة، بعيدة عن كلّ هذا!». عطرها يصبح أكثف كلّما اقتربت، يضيّق مساحة التّنفّس. وبنبرة منخفضة، مختلفة عن سابقاتها، سألت: «هل هناك

فتيات... مميّزات؟ جريئات؟ يبحثن عن شيء مختلف؟". كانت دلال تسألها ببراعة، تستدرجها لتعرية حياتها الجامعيّة، والفتيات اللّواتي تعرفهنّ. لم يكن سؤالاً مباشراً يحمل ريبة، لكن فيه شيء جعل قلب عائشة يخفق بقوّة تدكّ الضّلوع.

كانت حواسّها كلّها متأهّبة. دلال تملك خطّة لهذه الدّردشة. لم تستطع عائشة إلا أن تلاحظ نظرات دلال تتفحّصها من الأعلى للأسفل، كيف تلتقط ذلك الانجذاب الذي لم تعد عائشة قادرة على إخفائه. تحدّثت عائشة، بحذر في البداية، ثمّ بشيء من الاسترسال، مدفوعة بالحضور الآسر، وبالرّغبة الخفيّة في أن تنال إعجاب هذه اللّبؤة. تحدّثت عن أحلام الزّميلات، عن شرارة التّمرّد في عيونهنّ، متجنّبة ذكر سارة كلّيّاً.

بعد قرابة السّاعة من هذا اللّعب على حافّة الهاوية، نهضت دلال برشاقة تبرز انحناءات خصرها. "عليّ أن أستعدّ للخروج الآن يا عيّوش، لديّ موعد مهمّ". لم تقل إلى أين، لكنّ عائشة عرفت والنّبض يجلد صدغيها. نظرت دلال إلى ساعتها، ثمّ إلى عائشة بابتسامة غامضة. "كان حديثاً ممتعاً. سنكمله في مرّة قادمة. سأدعكِ وأيمن... واقبلي منّي هذا". مدّت دلال ظرفاً مغلقاً. سألت عائشة بارتباك مفاجئ: "وما هذا؟". كانت دلال ترتدي عباءة سوداء فوق ثيابها التي لا تستر شيئاً، تاركة العباءة مفتوحة. "لا تفتحيه الآن. هديّة منّي. ألا تقبلين الهديّة؟".

"ولكنّني لم أعتد على..." . سيطرت دلال على جسد عائشة بحضورها الطّاغي، فتحت دلال حقيبة عائشة وقادت يدها لتضع الظّرف هناك. عائشة المسكينة تنظر في نهديها اللّذين يكادان يندلقان خارج الفستان والعباءة غير المزرّرة. استيقظ النّدى في حوض عائشة، وتعرّقت جدرانها الدّاخليّة أمام حرارة هذا المشهد.

لاحظت دلال أنّ وقفة عائشة لم تكن هادئة، فاقتربت وهمست في أذنها بصوت دافئ يذيب العظم: "بالله لا تزعلي منّي. ما بكِ؟ أتشكين من شيء؟" . تلعثمت عائشة، تخشى أن تلتقط دلال ارتعاشة فخذيها: "لا شيء، فقط أريد زيارة الحَمَّام!" . ضحكت دلال براحة، أشارت نحو الدّاخل: "البيت بيتكِ، وعلى فكرة، الحَمَّام الدّاخليّ أنظف، لقد انتهيت منه قبل أن تأتي. تفضّلي، وعندما تخرجين سيكون أيمن بانتظاركِ!" .

مشت عائشة نحو الحَمَّام رافضة أن تتلفّت، فهي تتصنّع ما لا يمكن الالتفات معه، مع أنّ علّتها شيء آخر. دلال أدخلتها مساحتها الخاصّة، عرينها السِّرّيّ. قبّلتها دلال قُبلة تحيّة على الخدّ، ووضعت يدها على خدّها المقابل. نهدا دلال يميلان نحوها، يرتطمان بصدر عائشة في قوس كهربائيّ ترك أثراً ملتهباً لا يمحى.

في الخطوات القليلة التي مشتها عائشة للحمّام لم تلاحظ ما ستراه فيما بعد. دلفت عائشة إلى رحاب حَمَّام دلال الخاصّ، الباب مغلق خلفها بهدوء يوحي بالثّقة. لم يكن مجرّد حَمَّام، بل بدا محرابَ للّذّة، صومعة نُذرت لطقوس الجسد. رخام ورديّ عارٍ يشعّ دفئاً خفيّاً، قوارير بلّور تحتضن خلاصات عطريّة تعد بسكر الحواسّ، مرآة ضخمة تتوسّط المكان كعرش. "هنا مملكة اللّبؤة"، همست عيّوش في وعي عائشة المتأجّج، "هنا تُخلع الأقنعة، وتُباح الأسرار، وتُسقى حدائق الرّغبة حتّى الغرق". قشعريرة تسري في أوصال عائشة. مزيج من الرّهبة والفضول يستبدّ بها.

تسمّرت في مكانها تصغي. قلبها وتر مشدود يعزف لحن اللّهفة. صوت باب الشّقّة الخارجيّ يُغلق برفق. انصرفت دلال. هي الآن وحدها في هذا الفضاء المشحون بعبق العشيقة، وحدها مع طفل في الخارج، وإذن صامت في الدّاخل. أسرعت وأقفلت المزلاج.

لا فسحة للتّراجع. موجة جرأة عارمة تتغذّى على الممنوع طغت على كلّ شيء. أسندت جسدها إلى الباب المصقول، وأطبقت جفنيها. أناملها تبدأ رحلة الاستكشاف. تتسلّل بخفّة فوق قماش فستانها، تهبط بثقة نحو المثلّث الملتهب الذي يئنّ بصمت تحت وطأة الانتظار. انغمست في عجينها المتلهّف، تدلّكه بحنو وعنف متناوبين. تستخرج منه عصارة الحياة، تستجدي الانفجار. في غمرة هذا الفيضان، استعادت ذكرى

الرّعشة الكونيّة بفرشاة الشّعر. توق جامح لأداة تفتح بوّاباتها السّحريّة استعر في كيانها.

فتحت عينيها باتّساع، وميض حيوانيّ يبحث بِنَهَم. أصابعها ترتجف وهي تفتح الأدراج المنضّدة بعناية. مستحضرات فاخرة، مناشف حريريّة... وفجأة، في قاع أحد الأدراج، تحت وشاح رقيق من الدّانتيل الأسود، اصطدمت أصابعها بشيء أملس، صلب، له شكل لا تخطئه عين أنثى. سحبته ببطء كأنّها تخشى تبخّره.

كان هو. الرّمز الصّريح للرّجولة، منحوتاً من مادّة عاجيّة اللّون، مصقولاً بعناية فائقة، ينبض ببرودة واعدة بالاشتعال، حجمه يثير الرّعب والشّهوة معاً. تجمّدت عائشة والقطعة الأثريّة في يدها. "دلال... يا لكِ من امرأة!" همست دون وعي. هل تجرؤ؟ "هيّا يا فتاة"، حثّتها عيّوش بصوت يقطر إغواء، "اللّبؤة تركت لكِ مفتاح عرينها. أيمن ينتظر وأنتِ تحترقين. ألا ترين أنّ هذا هو الحلّ الأمثل لسرعة الإنجاز؟". فكرة أيمن حسمت الأمر. من أجل السّرعة، من أجل إخماد النّار قبل أن تلتهمها.

بيدين ثابتتين، تأكّدت من إحكام الباب. انعكاسها في المرآة لامرأة غريبة تلمع عيناها بشرر التّحدّي. تخلّصت من ثيابها الدّاخليّة بحركة واحدة خاطفة. رفعت ساقاً، وضعت باطن قدمها على حافّة المرحاض البارد.

انكشف الممرّ السرّيّ، ينبض بلون أعمق، يقطر ندى التّوق. أمسكت التّمثال العاجيّ بيمناها. وجّهته نحو البوّابة المفتوحة التي ترتجف استقبالاً. لحظة صمت مشحونة، ثمّ بدفعة واحدة جريئة، واثقة، أولجته إلى مكمن دفئها. لم تصدّق أنّ جيبها أغمد تمثالاً بهذا الحجم. إحساس بالامتلاء المطلق، بالقوّة الغاشمة، بالقوام الصّلب الذي يحتكّ بجدرانها الدّاخليّة الرّطبة بقسوة لذيذة، أطلق تنهيدة طويلة من صدرها. في الشّوط الثّاني، كان فمها السّفليّ يمجّ التّمثال للدّاخل، انزلق بسرعة، وارتطمت قاعدته العريضة بمثلّثها الحميم كأنّها مقدّمة قطار تدهسها دهساً يكسر عظامها!

وهي على حافّة جرف النّشوة، صوت أيمن يناديها من الخارج: "آنسة عيّوش! أنا جاهز!". توقّفت الحركة بشكل لا إراديّ. تجمّد جسدها كأنّ صاعقة ضربتها. لكن، بقوّة استمدّتها من عمق اللّذّة المباغتة، أتمّت الشّوط الثّالث، ترسله لآخر نقطة داخلها، وصرخت بصوت صاف قويّ لا ارتباك فيه: "آتية!". في رأسها، دوّى صوت عيّوش كصدى ماكر يمتزج بالنّشوة: "آآآتية... آتية كطوفان!".

ومع الكلمة التي انطلقت من حنجرتها، انفجر السّدّ. نافورة من شهد حارق، رشقت بقوّة لم تعرف أنّها ممكنة. اختزلت الشّوق المكبوت، الرّغبة المؤجّلة، التّحدّي المستتر، في لحظة واحدة عنيفة، مطلقة. تهاوت

على جدار الحَمَّام، جسداً يرتعش، أنفاساً تتقطّع، وابتسامة انتصار ترتسم على شفتيها.

استعادت وعيها. مسحت آثار الخطيئة مع الصّنم، وأعادته لمكانه. دقائق، وكانت تجلس بجوار أيمن تستمع لتحدّي النّطق. جرحها المتّسع ينبض بين رجليها المضمومتين تحت جلباب التّقوى. أرخت دبّوس الحجاب لتتنفّس. طلب أيمن أن تناوله جزء "عَمَّ".

تجمّدت يدها. كتاب الله بيد ملوّثة لم تتطهّر. أساطير الإصابة بالشّلل أو المسخ إلى مخلوق غريب بعد لمس القرآن دون طهارة، القصص التي أرعبتها صغيرة لاحت لها.

لكنّها تناولته. عيّوش تستفيق من غيبوبة اللّذّة بابتسامة نصر دهست قصص الرّعب. ندم مكفهرّ خيّم عليها. كيف تجرؤ على فعلتها وطفل في الجوار! اشمئزاز حقيقيّ من ذاتها، لكنّ عيّوش ترفض الانكسار.

قرأ أيمن بطلاقة. تجاوز الآيات الأولى وعائشة مشغولة بتحسّنه. قرأ: (والجبال أوتاداً). عاد صوت عيّوش مرحاً منهكاً: "وأيّ أوتاد تلك! أيّ أوتاد!". انقبضت عائشة. قرأ أيمن الجملة الصّعبة: (وأنزلنا من المعصرات ماءً ثَجَّاجاً). في سِرّها: "الله يسترنا منكِ! لا تعلّقي!". نطقت عائشة التّلاوة الصّحيحة. طربت عيّوش: "الله عليكِ يا مُعْصِرة!". وسط الكركرة

الدّاخليّة، استمرّت عائشة برصانة كغلاف كتاب دينيّ يضمّ رواية فاحشة.

هربت في نهاية الدّرس لتمارين الكتابة، مهامّ نسخ مملّة لأيمن. قامت تتفقّد مسرح الجريمة. دلفت لمنطقة غرفة النّوم. سمحت لبصرها أن يجول بحريّة. اهتمام دلال بالجمال في كلّ زاوية. بذخ أنثويّ باذخ. أعادت تمثيل الجريمة في رأسها. وضعيّة التّمثال في الدّرج، القماشة التي تغطّيه. استنشقت الهواء لتتأكّد أنّ رائحتها تخامدت. وهي تهمّ بالخروج، صوت باب البيت يُفتح. تقاطعت مع دلال. دلال بابتسامة لغز: "عيّوش، لا تقولي أنّكِ خرجتِ الآن فقط من الحَمَّام!". ضحكت عائشة بخجل: "لا خرجت وعدت أكثر من مرّة، شربت الكثير من الشّاي! شايكم لذيذ". بادلتها دلال بابتسامة أوسع: "على حسابكِ الشّاي والحَمَّام والبيت وصاحبته!". عيّوش تستلم الزّمام بجرأة: "الله يخلّي له صاحبته".

وضعت دلال عباءتها جانباً. اقتربت، قبّلتها باحتضان حنون. عائشة تذوب في الجسد الباذخ، وفي الرّائحة المميّزة المختلفة عمّا غادرت به. رائحة لذّة مشوبة بعرق ذكوريّ. عيّوش تصرخ: "ثبت العيد! إنّها هي! عشيقة إياد الماجن!". غادرت عائشة هادئة مشيّعة بقُبلات دلال.

في طريق العودة، تحاول تذكّر مشيتها لتخفي أنّها كانت قبل قليل غلافاً لذاك الوتد الصّلب. تتصنّع عائشة المعتادة، لا "الثَّجَّاجَة". تعيش بثبات انفعاليّ، صخرة تتكسّر عليها موجات النّدم والاشتهاء والكوميديا السّوداء. في خلوتها فقط تتحوّل لخشبة عائمة تطفو على أعاصيرها لكي تنجو.

في غرفتها، تذكّرت المغلّف. خمسون ديناراً! عبثت تبحث عن هاتفها. بحثت عن "أمّ أيمن". الغضب يبطئ ذاكرتها. دلال تجيب بصوت يذيب الصّخر: "أهلين عيّوش حبيبتي". الكلمة تقطر صدقاً مريباً! عيّوش تستولي على اللّسان: "حبيبتي والله لا داعي لهذا! أتعابي تصل من أبي". دلال بنبرة قاطعة: "أعرف أنّ أبي الذي اتّفق مع أبيكِ بخيل قليلاً. هذا تعويض". تتساءل عائشة كيف تتحدّث امرأة عن أبيها هكذا. تتمّ عيّوش المكالمة: "بالعكس، كافٍ وزيادة". دلال بهيمنة دافئة: "هذه لكِ، سِرّ عن أهلكِ. ربما تذهبين إلى منتجع مع صديقة! تمّ الأمر. أهديتُ وقبلتِ. انتهى". انتهى النّقاش. عائشة مذهولة من سطوة دلال. هل اشترت صمتها؟

اغتسلت. صلّت بسلام غريب، انقشعت سحابة النّدم. لم تخشع حقّاً، لكنّها لم تصارع كلمة "ثَجَّاجاً". مشغولة بامرأة تنتقد أباها بانفتاح مطلق. جلست تلاعب خرزات المسبحة الكبيرة، تستشعر غلظتها في

أصابعها الرّقيقة. "سبحان الله". رسالة من سارة: "السّكوت علامة الرّضا؟". أبرقت: "طبعاً".

ليلاً، أمام الحاسوب، تعيد قراءة سفر نجمة:

"تحت زيتونة وحيدة، الشّرارة الأولى. في السّادسة عشرة. أواخر الصّيف، تميل الشّمس للمغيب. لم يكن الأمر خطّة، بل قدر ينسج في العتمة. 'هو، بدر. نظرات متبادلة منذ شهور. حمار أذنيه الخفيف وارتباك يديه يفضحانه. أجمع الحطب. هو يتّكئ على جذع الزّيتونة الوحيدة، ينتظر. الصّمت لغتنا المشحونة بالتّرقّب. سقط الحطب من يدي. تقدّم. المسافة تتقلّص لشبر من الهواء المرتعش. رائحته، عرق نهار، غبار حقل، وصابون غار، جعلت ركبتيّ ترتجفان. لا أعرف من بدأ. يده الحذرة، أم ميلة جسدي؟ أنفاسنا تختلط. قبّلني. قُبلة مرتبكة، جائعة، خشنة. شفاه متشقّقة حارّة. تصادم أسنان، ولهاث مكتوم. لذيذة لأنّها ممنوعة، لأنّها بدر.

يداي تمرّدتا. واحدة تشبّثت بقميصه، والأخرى تسلّلت لشعره الذّهبيّ الكثيف. يداه لم تصمتا. تشدّني لخصره، والثّانية تبحث تحت قميصي الفضفاض عن صدري. لمسة خرقاء باردة، اشتعلت حين مسّت الاستدارة النّاعمة. الحرارة تتجمّع أسفل بطني. دفعني لظهر الزّيتونة. اللّحاء

يضغطني. فمه يطبع قُبلات رطبة وعضّات على عنقي ترسل قشعريرة عنيفة! أريد..!. همس بصوت أجشّ. كنت أريد أيضاً.

تخبّطنا في الملابس. أزرار تعاندنا. جلده الصّلب الدّافئ يصدم نعومتي. فوضى مراهقة، رغبة عمياء في الظّلام. سقطنا على التّراب وأوراق الزّيتون. فوقي، ثقيل. رائحته تحيط بي. بدأ الاحتكاك. محاولات عمياء لجسدين يبحثان عن منفذ. بعض الألم. شرارة تهدّد بإحراق كلّ شيء. لغة لم نتعلّمها، فاكهة لم تنضج. صوت خطوات. سعال فلاح. تجمّدنا. بنفس السّرعة انتهى كلّ شيء. ابتعد، الهلع في عينيه. نجرجر ملابسنا بأيدٍ مرتعشة. الخجل يغلّفنا. اختفى الصّوت. نظرة سريعة مليئة بالأسئلة. ركض للقرية. جمعت الحطب ومشيت للاتجاه المعاكس. لم تكتمل التّجربة. لكنّها شرارة أشعلت ناراً تنتظر وقودها الحقيقيّ. جوع جديد لم أعرف له اسماً. بعض الحرائق تترك ندوباً لا تمحى، ورماداً يشتعل مع أوّل نسمة. غادر بدر القرية هرباً."

وعيّوش تقول في رأسها: "كلّ هذا ولم تكتمل التّجربة! سترنا الله من اكتمالها!". ضحكت عائشة بسلام لم تشعر به من قبل، ونامت وهي تضع يدها على جرحها الأزليّ دون أن تفعل شيئاً، ملقاة على بطنها منهكة من هذا اليوم الثّقيل، الممتلئ بكلّ احتمالات اللّذّة.

الفصل السّادس: بين السّطور والشّفاه

فتحت عائشة عينيها. صدى الخفقان لم يزل ينبض كجرسٍ خشبيّ في قاع حوضها. أوتار جسدها التي أنهكها "التّمثال العاجيّ" ليلة أمس ترتعش ببطء، ترفض العودة إلى سكونها. الجسد أفرغ حِمْله من حصباء الرّغبة، لكنّ الجمجمة تغلي. القبّة السّماويّة لوعيها تقذف الشّهب؛ طيف دلال يعربد كإعصار مبلّل بالعطر، ورسالة سارة الختاميّة: "السّكوت علامة الرّضا؟" تسقط كقطرة أسيد حارقة على صفيحة نحاس، تأكل معدن اليقين وتوسّع دوائر الشّكّ.

عيّوش تتثاءب بغوايةٍ وقحة، تمطّ كلماتها: "كم وضوءاً نقضتِ لها حتّى الآن؟ من يقاوم قارئةً نَهِمَة مثل سارة، هي تقلّب لحمكِ بيد، وتشعل فتيل التّوق باليد الأخرى! اليوم تلاقين ذات الخنّاس.. أيّ قناع سترتدين؟ وأيّ سِرّ ستتقيّئين؟".

ابتسامة ثقيلة، مخدِّرة، تسيل على شفتي عائشة وهي تنهض. مزيج من لهفة اللّقاء وخَدَر التّوتّر يندفع في أوردتها كخمرٍ أسود.

وقفت أمام المرآة الزّجاجيّة الباردة. هل وسّعت اللّيالي السِّرّيّة حدقتيها لتبتلعا ظلالاً أثقل؟ هل حفرت تلك اللّحظات المسروقة من عوالم الحلم

أثراً جديداً تحت الجلد؟ اختارت جلباباً بلون الغرق، أزرق داكن يشفّ عن عمق وسرٍّ، وحجاباً بلون رملٍ مسفوع بماء المدّ، يحيط وجهها كإطار للوحة خطرة. طبقة كحل كثيفة أثقلت رموشها، كرماد بركان نام للتّوّ. النّظرة فخّ يحمل وعداً مفترساً.

غادرت محاضرتها المبكّرة. الأروقة تضجّ بثرثرة باهتة. تمشي على وتر مشدود بين جحيمين. هل يشمّ المارّة رائحة الخديعة المتخمّرة في مسامها؟ وصلت إلى "بقعتهما". شجرة الكينا تسدل ستائرها الخشنة. جلست على الكرسيّ الإسمنتيّ الذي امتصّ حرارته من الظّلّ. القلب يقرع قفص الأضلاع كطير أعمى، ترحّب ببرودة الحجر تتسرّب من ثيابها لتلسع جلد فخذيها.

أقبلت سارة. خطوة واثقة، إيقاع يضبط فوضى المكان. شعر كستنائيّ تحرّكه النّسمات كأعشاب بحريّة، وابتسامة خفيّة تفترس الشّفتين. عيناها مسبار يحمل فضولاً متّقداً، وجرأةً تنتظر عود ثقاب.

"هنيئاً لي... لم تكتفي بالسّكوت، بل سبقتني للمقعد! أهلاً بكِ".

جلست سارة قريبة. أقرب من حدود التّنفّس المسموح. قُرْبٌ يرسل في أوصال عائشة رجفة كهربائيّة خالصة.

ردّت عائشة بحشرجة خفيفة: "وأهلاً بمؤرّختي التي تلاحق لعابي في كلّ تعليق! عموماً، مقعدي لم يدفأ بعد".

انزلقت كفّ سارة بوقاحة ناعمة، انحشرت تحت ردف عائشة تتحسّس برودة الإسمنت. ثِقَل اليد يدهس طبقات القماش، يطبع بصمة أصابعها على اللّحم. سحبتها سارة بابتسامة ماكرة. صمت مكهرب. نوتة أولى في أوركسترا جسديّة.

"إذن،" استأنفت سارة، عيناها تدرسان اتّساع البؤبؤ. "هل أشبعتِ ذلك النَّهَم الذي يلمع في عينيكِ؟ أم أنّ بعض النّصوص تحتاج أكثر من قارئ ليفكّ شِيفرة اللّحم؟".

انفلتت ضحكة صافية مزّقت التّوتّر. "سارة! ألا تملّين الألغاز؟".

"الألغاز ملِحُنا يا عائشة". مالت سارة نحوها، أنفاسها تضرب العنق من وراء قماش الحجاب. "والصّراحة، حين تأتي في وقتها، أشهى من تفّاحة محرّمة. أليس كذلك... يا صاحبتي؟". كلمة "صاحبتي" خرجت من الشّفاه لزجة، مثقلة بوعود سافلة.

شعرت عائشة بعيّوش تدفعها نحو حافّة الهاوية. "الصّراحة يا سارة تحتاج شجاعة لقولها، وشجاعة أكبر لاحتمالها".

"وهل تظنّينني أفتقر إليهما؟" مسبار سارة يحفر أعمق. "قرأت تعليقاتكِ. عوالم تختبئ خلف الحروف، عوالم حفظتُ دروبها. يوماً ما، يا عائشة، فتحتُ قلبي لشابّ.. حصان أبيض وهميّ استعرتُه من الورق. ارتبك وهرب. أختبر الماء بقدمي قبل أن ألقي بجثّتي في اليَمّ".

تعبث سارة في حقيبتها بابتسامة ساخرة: "خيالي يرسم العالم، ويدلّ عيني على ما يثبت جنونه.. بالمناسبة، أين العلكة الحقيقيّة؟".

تضحك عائشة. عيّوش تستحضر الماضي: "أبي يرى العلكة لا تليق بالمؤمنة! وما دخل الإيمان بحركة الفكّين؟".

حبّة علكة يتيمة ظهرت بين إصبعي سارة. تمنّعت عائشة بخجل مصطنع، تردّد المَثَل الشّعبيّ الذي يعني في الأصل لك: "بيدكِ!".

"نعم، بيدي!"، لكنّها قلبت معناه تماماً. وضعت سارة كفّها الحرّة بوزنها الكامل على فخذ عائشة. ثبّتت حركتها. أنامل سارة تقترب، تدفع العلكة بين شفتي عائشة. التهمتها برِضىً خاضع.

انفجر النّعناع كشظايا جليد في فم حارّ. "لم أذق كثافة كهذه من قبل".

"من يحرمنا التّجربة، يحرمنا الحياة!"، عينا سارة تشتعلان. "علاقات

الجبناء قصور رمل تهدمها أوّل موجة. وبالمناسبة، قرأت الرّواية التي قرأتِها أنتِ بيد واحدة".

ارتبكت عائشة. ضربتها سارة باليقين: الرّواية لا تحوي مشهداً ساخناً إلا ويكون بين فتاتين.

ابتسمت عائشة. كادت توضّح أنّها قرأت غيرها باليد ذاتها! لكنّ سارة تعرف. "أفهمكِ"، مدّت عائشة يدها تلامس كفّ سارة برفق، تواسي الجرح القديم.

"أفهم الخوف من الأقنعة. أنا أصارع أسئلتي. الأفكار لا نُحاسَب عليها.. لكنّ أجسادنا تستجيب. الله خلقها. أيخلق الاستجابات ثمّ يعذّبنا عليها؟ ماذا يريد منّا؟". تردّدُ الفكّين في مضغ العلكة أضحك سارة.

ابتسامة تمرّد وحكمة. "عيّوش.. لا أدّعي فهم قوالب السّماء. أصلّي، نعم. لكنّي أؤمن أنّه لم يخلقنا حجارة. نحن أرواح تتوق، أجساد تشتهي. هناك في عُمان حيث نشأت، الطّبيعة صارخة. العلاقات وإن كانت سرّيّة في مجتمع محافظ هناك، فهي تتدفّق بلا فلاتر بين الرّجال، وبين النّساء".

اقتربت سارة أكثر، بريق خطير يغرق عينيها. "يا شيخة عائشة.. ائتيني

بآية واحدة عمّا يدور بين النّساء؟ لماذا ذُكر قوم لوط وتجاهلنا؟ سهو إلهيّ؟ أم أنّه يستحي أن ينظر إلى بَلَلنا؟" .

الكلمات تجديف مرعب، لكنّ جسد عائشة يستجيب لهذا القُرْب الكافر.

تندفع سارة: "هذه اللّذّة، أتفسد نسباً؟ أتنشر مرضاً؟ في مدرستي الدّاخليّة، رأيت طقوس رغبة ليليّة بحثاً عن دفء مسروق في عالم جليديّ" .

"ولكن.. أليس الشّباب حلوين؟" تلهث عائشة، تبحث عن مخرج من هذه المتاهة الدَّبِقَة.

"استكشاف لكلّ ألوان الطّيف، لا أبيض وأسود" .

ينفكّ القيد عن صدر عائشة. "التّراث مليء بعشق النّساء. كبار الشّيوخ صنّفوا كتباً لا تذمّ بل تصف جمالاً من نوع آخر" .

"التّاريخ في صفّنا" .

المسافة تتبخّر. رائحة الياسمين والمسك تخدّر المنطق. لغة العيون تفترس المكان. تلفّتت سارة، تأكّدت من كون المكان فارغاً من المتربّصين. رفعت

ذقن عائشة. الوجه ينسحق بالوجه.

"سارة..." همسة ضائعة.

"أريد علكتي!".

أطبقت سارة شفتيها. تصادم لحم حيّ. لسان سارة ينزلق كأفعى رطبة، يقتحم الفم، يلتفّ حول العلكة، يخطفها من لسان عائشة. تبادل للّعاب والنّعناع والأنفاس. قلب عائشة يقرع كطبل تتريّ عند خطّ النّهاية. تذوب، تتلاشى. أنثى تتذوّق أنثى. سارة ترفع وجهها، تمجّ العلكة بوقاحة منتصرة.

"أنا..." ولم تستطع أن تتمّ، فقالت سارة: "أعرف.. وأنا أيضاً".

وقفت سارة. "تستخدمين تلغرام؟... توقّعي رسالتي". غمزت واختفت.

أكتب هذه السّطور اليوم، في زمن آخر، والمسافة تنهشني. الحنين لتلك الجلسات يقطر من مسامي كشمع حارّ. حنجرتي تبتلع غصّة لذيذة وأنا أستعيد طعم ذلك المساء. لم يكن مجرّد هاتف، لم تكن مجرّد مكالمة؛ كان ذلك أوّل تواصل روحيّ يبلّل جفاف عزلتي، أوّل حبّ ينمو في

العتمة ويتسلّق جدران غرفتي كشجرة لبلاب وحشيّة. أكتب، وأصابع الذّاكرة تتحسّس صوتها الذي ثقب وحدتي للأبد. سارة أنت تعرفين نفسك، إن لامستك هذه الرسالة فاعلمي أنّني كما عرفتني.

في ذلك المساء، عادت عائشة إلى البيت كمن يسير فوق غيمة من بخار الماء. انتظرت في غرفتها. الهاتف يضيء.

"أخبريني أنّكِ لم تريحي نفسكِ بعد، عيّوش قولي إنّكِ انتظرتني!". الأصابع ترتجف فوق الشّاشة: "أكلّمكِ الآن.. كوني بعيدة عن النّاس، نحتاج أصابعنا لأمر آخر غير الطّباعة!".

دقائق. رنين. فتحت الخطّ. صوت سارة الدّافئ، المنخفض، ينساب عبر الأثير، يصبّ في الأذن مباشرة كزيت محموم.

"جرأتكِ اليوم في استرداد العلكة.. مذهلة". قالتها عائشة بصوت يرتجف، يحمل إعجاباً وخجلاً يذوب بسرعة. ضحكة سارة خرير ماء في حديقة مغلقة: "عصفوران يطعمان بعضهما.. أليس هذا ما تفعله العصافير؟".

الصّوت ينزل من طبلة الأذن، يخترق النّخاع، ويستقرّ في قفل باب الحديقة.

انفجر السّدّ. منذ تلك البداية اللّعوبة، انسحب الغطاء عن كلّ الخيالات. حوار لم يُكتب، بل نُحت في الهواء بأنفاس متقطّعة. الهاتف الملتصق بخدّ عائشة تحوّل إلى شريان ينبض بلُعاب سارة.

"أين يدكِ الآن يا عيّوش؟". سألت سارة، وصوتها معجون بِلُهاث خفيف، حقيقيّ، غير مفتعل.

ابتلعت عائشة ريقها، يدها اليسرى تقبض على الهاتف، واليمنى تغوص تحت بطّانيّتها الصّيفيّة. "تحت حافّة القطن... أصابعي تلامس الرّطوبة".

تنهيدة عميقة من سارة زلزلت الميكروفون الصّغير. "مرّريها ببطء. أريد أن أسمع صوت اللّحم حين ينزلق عليه الماء. افتحي ساقيكِ أكثر".

كانت عائشة، التي اعتادت اجترار خيالاتها في صمت القبور، تجد نفسها فجأة في حضرة وعي آخر يستجيب لها. الكلمات تنمو لها أظافر وتخدش الجدران الدّاخليّة.

صوت احتكاك ناعم يصلها من هاتف سارة. سارة تلمس نفسها أيضاً! إدراك هذه الحقيقة جعل رأس عائشة يدور. امرأة أخرى تفيض لذّة، تتلوّى على سرير آخر في ذات المدينة، وتتشارك معها إيقاع هذا الانفجار.

"أنا أفركها الآن يا عائشة.. أتخيّل أنّ أصابعكِ هي التي تفعل ذلك. أصابعكِ التي أطعمتني النّعناع".

"آآه.. سارة". لأوّل مرّة، يخرج أنين عائشة من حلقها عالياً، لا تكتمه الوسادة. تشاركه مع أنثى تتذوّق طعمه عبر الذّبذبات.

هذا الحبّ الهاتفيّ كسر قوقعة عائشة. لم تعد "نجمة" وحدها من تعيش اللّذّة. اللّذّة الأثيريّة تحمل كثافة تدهس الاستكشاف المنفرد. سارة تقود وتنقاد.

"أدخلي إصبعاً يا عيّوش.. أخبريني كيف يبدو من الدّاخل".

"ضيق.. حارّ.. ينبض حول ظُفري".

تلهث سارة في السّماعة كحيوان جريح: "هل تشعرين بي يا عائشة؟".

تدفع سارة يد عائشة إلى لسانها، فينطق اللّسان بإجابة راجفة، تقطر شَبَقاً يشرعن هذا الحبّ الوليد: "أشعر بلسانكِ يأكل... محارتي. أشعر بكِ تغوصين فيّ".

تزامن الأنفاس. السّرعة تزداد. الاحتكاك المسموع عبر الهاتف يتحوّل إلى سيمفونيّة وحشيّة. كلّ تأوّه من سارة يضرب مركز الأعصاب في حوض

عائشة فيضاعف انقباضها، وكلّ شهقة من عائشة تزيد من وتيرة أصابع سارة. جسدان يفصلهما الإسفلت، ويوحّدهما سِلْك شفّاف من الرّغبة الخام.

الذّروة تتجمّع ككتلة معدن منصهر. التّصاعد يُفقد الكلمات معناها، يحيلها إلى مقاطع بدائيّة، همهمات غارقة في العرق والبَلَل.

"معي.. عائشة.. معي!".

"نعم.. آه!".

انسحاق واحد، متزامن. الصّرخة تكسر جدران الغرفتين. تشنّج طويل، عميق، أفرغ كلّ قطرة توق في جسديهما. هطلت الغيمة في اندفاع حارق غسل عائشة من وحدتها الأبديّة.

سكنت الموسيقى الماجنة. بقيت عائشة مستلقية، الهاتف ملتصق بأذنها، تستمع إلى لُهاث سارة يهدأ تدريجيّاً. هذا ليس مجرّد تفريغ، هذا اندماج. اللّذّة اخترقت قشرة الوعي، تسرّبت إلى جذورها العميقة.

حين عاد إليها بعض نشاطها، تركت الهاتف مضاءً بجوارها، ونهضت إلى حاسوبها. لم تغسل يديها المعجونتين برائحة الشّهوة المزدوجة.

أصابعها تنزلق فوق لوحة المفاتيح بلزوجة الخطيئة الكاملة، تطبع حروف "نجمة" بوعي امرأة عرفت التّشارك لأوّل مرّة.

"القسم الثّالث: ليلة اللّهيب

غرفتي الطّينيّة تنضح بحرارة التّرقّب. ضوء القنديل يطبع ظلالي المُشَوَّهَة على الجدران كفراشة تحترق ببطء. غداً سيعود بدر إلى البيت الأبيض. ليلى، صديقتي، تراقبني من زاويتها المُعْتِمَة.

همست ليلى بصوت يخدش صمت الغرفة: 'تمهّلي. هذا القلق سيأكل لحمك قبل أن يَطَأ بدر العتبة. هو من مِلّة أخرى، ودربه لا يتقاطع مع دربنا.

اندفعتُ نحوها. أمسكتُ كفّيها كغريق يغرز أظافره في خشب نجاة: 'سأعرف حين ألقاه. قلبي دليلي، وأنتِ بئرُ أسراري.

مسحت ليلى على شَعري المُتَمَرِّد. أنفاسها الدّافئة تلسع أذني: 'أخشى أن ترسمي ما تشتهين، ويكون القَدَر سِكّيناً يذبح هذا التّوق.

أغمضتُ عينيّ. استسلمتُ لهذيان محموم. بدأتُ أصف لليلى لقائي المُتَخَيَّل ببدر. كلماتي تخرج كترنيمة لاهثة، ألوّن هواء الغرفة بفرشاة

الرّغبة.

' يداه كألسنة لهب تجوب مُنْحَنياتي. سيوقظ الأفاعي النّائمة في دمي. أنيابه ستغوص في عنقي تترك وشوماً من شَبَق.

فتحتُ عينيّ. نظرة ليلى تفيض بتحدٍّ ويأس. ارتفعت يدها بجرأةٍ مباغتة. لامست عنقي بأطراف أناملها، تجسّد لمسة بدر المُتَوَهِّجَة. شَهَقْتُ. انزلقت يدها كحيّةٍ ماكرة فوق حرير قميصي، تحتلّ تُفّاحَتَي صدري. همست شفاه ليلى عند شحمة أذني:' أهكذا سيفعل؟ هل سيهتدي لينابيع شَهْدِكِ المَخْبوءة؟'.

الخيال يتخثّر، يتحوّل لكتلة حِسّيّةٍ حارقة. يد ليلى مغناطيس يسحب ذرّات دمي.

' أريده أعمق... أن يغوص..'. حَشْرَجَ صوتي. تلاشت الكلمات.

انقضّت ليلى. غرفتنا الضّيّقة تبتلعنا في ثقبٍ أسود من الأحاسيس المُتَفَجِّرَة. تراجعت الأقمشة عن جلودنا كقشورٍ ميّتة. يداها تحفظان خرائط جسدي. نار ليلى تذيب جليد روحي، وترتوي هي من نيراني المُوَجَّهَة أصلاً لبدر.

انزلقت ليلى بكامل ثقَلِها فوقي. غطاءً من حريرٍ ولحم. شفاهها، التي همست باسم بدر، صارت سيّدة الموقف. تنزل ببطء، نحلة مفترسة تتّبع الخطّ الوهميّ من صدري حتّى ملتقى فخذيّ، حيث تتجمّع حرارة الكون وتنتظر الصّاعقة.

تأوّهتُ. قيثارة تقطّعت أوتارها. أصابعي تعتصر خصلات شعرها. تقوّس ظهري يعلن هزيمة المقاومة.

لسان ليلى يتحرّك بلولبيّةٍ ماكرة، أفعى تداعب فريستها. يقتحم بوّابتي اللّؤلؤيّة. طقس وثنيّ، قربان تقدّمه ليلى لروحها الظّامئة. أغرق في محيط لذّة حادّة. استسلام لجسد يقرأ لغتي بلسانٍ من نارٍ ورطوبة. كلّ لعقة تسلخ طبقةً من جلدي، تعرّي روحي المُتَوَهِّجَة.

أتلوّى كسمكةٍ فضّيّة. ظهري يرتفع عن الفراش. أنّاتي تتحوّل لبكاء لذّةٍ مطلَقة. ليلى تتذوّقني، تبتلع جوعي وتحيله نشوةً كونيّة.

تسارعت أنفاسنا. تشنّجت أجسادنا نصارع ملائكة الشّهوة. صاعقة تجتاحني. جسدي يرتجف بعنف، وصرخة حادّة كتمتها كفّ ليلى. لحقت بي ليلى. تصلّب جسدها كتمثال رُخام، ثمّ ارتخى في تنهيدةٍ طويلة لفظت معها آخر أنفاس المقاومة.

حلّ سكون كثيف. عَرَق يغسل جباهنا، ورائحة أجسادنا تخنق زيت القنديل. فتحتُ عينيّ. ليلى تحدّق بي بذهول وامتنان.

'ليلى..!. همستُ.

أزاحت خصلةً مبلّلة عن جبيني: 'أنا معكِ. هنا.

صفاء مؤقّت يسبق الفجر، وعاصفة بدر التي لا تزال تنتظرني على التّل."

توقّفت أصابع عائشة عن الطّباعة. اللُّهاث يعلو صدرها في الغرفة المُعْتِمَة. أعادت قراءة ما طبعته بيديها الدَّبِقَتَين. النّدى يسيل على باطن فخذيها، يتبلور كقطراتٍ زجاجيّةٍ حارّة. أسلوبها يتخمّر، ينضج بحرارة التّجربة الحيّة مبتعداً عن رومانسيّة البدايات الهشّة. الحبر لم يعد مجرّد كلمات تُرَصّ على شاشةٍ باردة؛ الحبر صار لحماً ينبض، يُستَمَدّ من شرايين الجسد، ومن توق سارة الذي لا يزال يعضّ مسامها. ابتسمت بوقاحة امرأة تفكّ طلاسم شهوتها، غارقة في احتمالات اللّذّة، جاهزة للاحتراق.

الفصل السّابع : بذور في مرآة

مرّ يوم آخر أسلمت فيه عائشة روحها لسارة كسابقه في وضح النّهار، وسكبت جسدها كلّه في أذنها تحت جنح اللّيل، إذ يتحوّل جسداهما إلى إشارات أثيريّة تلتقي وتخدش سماء الرّغبة. ويوم الأربعاء، تنفّست عائشة هواء مكانهما المعتاد تحت أغصان الكينا التي تراقصت وتلوّت كشَعْر غجريّة سمراء مسفوعة بالشّمس، هواءً مشبعاً بألفة طازجة وحارقة، كأنّ قبلتهما اليتيمة تلك ومكالماتهما اللّيليّة المبحوحة قد نسجتا حولهما شرنقة من حرير الأسرار المشتركة. لم تعد المسافة بينهما تُقاس بالأشبار أو حتّى بحركة الأصابع، بل بانتظام النّبض الذي يكاد يُسمع، وبرعشة التّوق التي تسري بينهما كلمسة جنِّيّ خفيّة، كتيّار كهربائيّ يسلخ العتمة ويضيء ظلمة الرّوح بوهج القُرْب، وينبئ بانصهار وشيك يذيب العظم.

كانت عائشة تريد الاقتراب أكثر، اختراق مسام سارة، لكنّها تعلم أنّ هذا أقرب ما تسمح به الظّروف جسديّاً. أخرجت هاتفها، وفي صوتها بُحَّة لذيذة، عميقة، كأنّها ترتّل صلاة وثنيّة في محراب سرّيّ، قالت وعيناها تعضّان عيني سارة اللّتين وشتا بفضول لا يُروى: "تذكرين غابة الأمازون التي اقترحها ذلك الكاتب؟ سأقرأ لكِ شيئاً ممّا أكتبه". وبدأت

تقرأ، لا كمن يتلو نصّاً جامداً، بل كمن يعزف على عصب مكشوف وأوتار الرّوح لحناً دائم الخضرة. صوتها، ذلك النّهر من الطّين الحارّ، كان ينساب حاملاً صور "نجمة" وهي تتلمّس حدود لحمها، تستكشف "حديقتها السِّرّيّة" بدهشة الطّفلة وجرأة الأنثى النّاشئة في العتمة.

قرأت عن "ليلة اللّهيب"، عن كيف أنّ ليلى، تلك الصّديقة الوفيّة، تحوّلت في التّنّور اللّفظيّ وغمرة الخيال والكلمات الحارقة إلى تجسيد حيّ لبدر، أو جسد أثقل حقيقة منه، أكثر قرباً، أو أقول ربما كان بدر ظلالاً لها في عيني نجمة، تقرأ بصوت خفيض ينسلّ كإبرة تحت الجلد. وقبضت بكفّها فجأة على ركبة سارة بقسوة وهي تقول: "شعرت بأنّني أغرق، أغرق في محيط من لَذّة صافية، حادّة، لَذّة لم أعرفها من قبل، لا وحدي، ولا حتّى في أعنف خيالاتي عن بدر. كانت هذه لَذّة العطاء المطلق، لَذّة الاستسلام لجسد آخر يقرأ تضاريسي ولغة جسدي بلغة بريل من نار ورطوبة...".

عيناها، كبحيرتي عسل سدرٍ يغلي تحت شمس الظّهيرة، تظلان تنتقلان من شاشة الهاتف إلى عيني سارة اللّتين اتّسعت حدقتاهما كفم جائع بتركيز كثيف، كأنّها تشرب الحروف والكلمات بعينيها قبل أذنيها. كلّ كلمة عن لمسة في حكاية نجمة وليلى، كانت تليها نظرة أعمق بينهما

تفترس الأخرى وتستنطقها، نظرة تحمل أسئلة وأجوبة في آن واحد . وكلّ وصف لشهقة مكبوتة أو تنهيدة متحرّرة من النّصّ، كان يصاحبه تسارع حقيقيّ في إيقاع أنفاسهما المتناغم، كأنّهما تتنفّسان من رئة واحدة تضخّ هواءً مكهرباً، كأنّ الهواء بينهما أصبح موصلاً جيّداً لحرارة الرّوح واللّحم.

وضعت سارة يدها على ركبة عائشة، تلك اليد التي عرفت طريقها إلى هناك تحفظ جغرافيّة هذا الجسد المألوفة، وراحت أناملها الرّقيقة تضغط بشراسة وقوّة غير مألوفة على ركبتها كأنّها تشاركها طَلْق ولادة صامت، كأنّها تترجم الحِبْر السّائل على الشّاشة إلى ضغطات تعصر المفصل ولغة أخرى، لغة لا تحتاج إلى حروف، بل إلى جلد يستجيب، وإلى جرح أزليّ ينبض بانتظار الخَدْش ولمسة الفهم، كأنّها توقّع على النّصّ المسموع باستجاباتها الخاصّة.

لم يكن أحد في ذلك الفضاء الجامعيّ المفتوح ليلاحظ شيئاً أو يعي هذا العمى التّامّ؛ فهما في العَلَن مجرّد فتاتين تتهامسان، تتشاركان نصّاً يُقرأ من الهاتف، لكنّهما في الحقيقة كانتا تقيمان طقساً جنسيّاً مُقَنَّعاً، قُرباناً يُذبح ويُقدّم على مذبح الكلمات، لا يرى منه النّاظر إلا براءة السّطح، بينما الأعماق كانت بحاراً مائجة برغبة متبادلة، كأنّ وادي الرّغبة في

كلتيهما قد امتلأ بماء الحياة، وبوّابات الفردوس السُّفليّ في كلتيهما توشك أن تُخلع من مفصلاتها وتُفتح على مصراعيها.

عندما صمت صوت عائشة، ساحباً معه آخر همسات نجمة، كأنّ ستاراً ثقيلاً قد أُسدل على مسرح سحريّ، أطلقت سارة زفرة طويلة، عميقة، كغريق طفا للتوّ من حلم لذيذ ليصطدم بواقع أشدّ لَذّة، أو كمن خرج للتوّ من موجة بحر عاتية، تاركاً خلفه زَبَد اللّحظة يغطّي شاطئ الوعي. نظرت إلى عائشة، وفي عينيها بريق من فهم عميق ولمعة افتراس ودهشة محبّبة، كأنّها رأت للتوّ سرّاً من أسرار الكون يتكشّف أمامها ويفكّك العُقَد، وقالت بصوت يحمل نبرة الخبير العارف: "كتابتكِ... يا عائشة، ليست مجرّد حروف مصفوفة، إنّها كائن حيّ، تنبض وتتنفّس. كأنّها قطعة من أحشائكِ وروحكِ اقتطعتِها لترميها للعالم، لتعلني بها عن وجودكِ الخفيّ. وحين تنشرين هذه الرّواية يوماً ما، ستكون بذرة الواقع التي رعتها يد خيالكِ الخصب واضحة للعيان، كوشم يصرخ بهويّتكِ لا يمحى، كعلامة فارقة تدلّ عليكِ، تفضحكِ وتعرّيكِ تماماً أمام القارئ الفَطِن."

وأتمّت: "من منّا، يا صديقتي، لا يلحظ الكاتب مختبئاً عارياً بين سطوره، حتّى لو ظنّ أنّه يخفيه خلف ستائر المجاز وأقنعة الشّخوص؟

ألسنا نقرأ أرواحهم قبل أن نقرأ حروفهم وكلماتهم؟ ألسنا نلعق ونتلمّس جراحهم الخفيّة في ثنايا السّرد؟" .

مقاليع سارة الشّقيّة هدمت دروع عائشة القطنيّة الواهية، واخترقت حجارتها لتوقظ شكّاً قديماً نائماً من عمر تجربتها الطّفلة، شكّاً كانت قد وأدته تحت ركام التّبريرات أو كنسته تحت سجادة الرّغبة المتوهّجة التي افترشتها لخيالاتها. في طريق عودتها بالحافلة، ذلك الصّندوق المعدنيّ الذي يحمل غرباء المدينة ويبتلع الجثث المنهكة وأحلامهم المبعثرة، كأنّه تابوت جماعيّ لأرواح ضائعة، وبين ضجيج المحرّك الذي يطحن الجمجمة وصمت روحها الذي يضجّ بالأسئلة، وفي عتمة غرفتها ليلاً، حيث كانت الجدران ترشح وتحتفظ بأسرارها كصدى صوت في بئر مهجورة عمياء، كان السّؤال ينهشها كذئب جائع، كسوسة تنخر في خشب اليقين والرّوح: "هل كتابتي، كلّ هذا الفيضان من المشاعر والصّور، كلّ هذا الجهد في نسج العوالم، مجرّد انعكاس مرآة باهت لتجاربي، كأنّني صدى صوت يردّد نفسه دون جديد، كأنّني أعيد تدوير فتات روحي؟ هل أنا حبيسة غرفتي الطّينيّة أُسقطها على نجمة، فلا أرى العالم إلا من شقّ جدارها وما تسمح به جدرانها الأربعة، وأُلبِس شخصيّاتي ثوب ذاتي المحدودة؟" .

لم تنتظر عائشة إجابة تقبض عليها يد التّفكير المتطاولة في غيب الأسئلة. دفعت عنها الشّعور بالضّآلة، وألقت بنفسها غائصة في بحر الإنترنت، تبحث عن تفسير، عن مخرج للنّجاة. قرأت عن "الكتابة الانعكاسيّة"، عن "أدب الذّات"، عن الفارق بين أن يستلهم الكاتب من حياته، وبين أن تكون حياته هي مادّته الوحيدة الفقيرة. وجدت أنّ "ضحالة الثّقافة" هي غالباً ما تُتّهم به الأقلام التي تدور حول نفسها ولا ترى أبعد من ذاتها. هزّت رأسها بعنف، هي ليست كذلك.

مكتبتها الذّهنيّة متخمة وعامرة، قراءاتها لا تتوقّف. إذن، أين يكمن الخلل؟ شيئاً فشيئاً، كشمس تزيح ستار الغيم، بدأت الحقيقة القاسية تتكشّف أمامها، قاسية ومؤلمة: إنّها "ضحالة التّجربة". خيالها، ذلك الطّائر الأسطوريّ الجريح، يملك جناحين جبّارين، قادرة على التّحليق إلى أبعد النّجوم، لكنّه مقيّد بسلسلة قصيرة مربوطة بوتد، سلسلة من أيّام متشابهة، رتيبة كتراتيل جنازة وموتى، مربوطة بجسد لم يذُق ولم يعرف من اتّساع الأرض والعالم إلا حدود غرفته الضّيّقة، وبعض الأطياف المسروقة من نوافذ الجيران الآخرين أو زوايا وصفحات الكتب. جسد لم يَرتَوِ بعدُ من نبع الحياة الحقيقيّ، لم يتذوّق فاكهة المعرفة المحرّمة واللّذيذة. شعرت كأنّها تقف أمام مرآة ضخمة، لا تعكس صورتها، بل تعكس فجوة وفراغاً مرعباً شاسعاً في خريطة حوضها وروحها.

شمس الخميس لليوم التّالي تحمل وعداً بكشف ما، أو ربما بغفران يغسل قلقها. وجدت نفسها تدقّ باب مكتب الدّكتورة سمر بعد انتهاء المحاضرة، معتذرة من سارة عن لقائهما. تدقّ بابها كمن يستجدي ويبحث عن ملاذ أخير، أو عن إكسير يعيد للخيال ألوانه المسلوبة، ويحرّر قلمها من قيود التّردّد. الأجواء في مكتبها، كعادتها، كانت تشبه محراباً للمعرفة، هادئة توحي بثقة فوريّة، تفوح منها رائحة الأوراق القديمة والحبر الطّازج، كأنّ مكتبها قبو كنيسة أثريّة يعبق بالتّاريخ.

طرحت عائشة سؤالها، ليس كطالبة تبحث عن إجابة أكاديميّة، بل كروح تتسوّل الدّليل وتبحث عن طريق في أرض مجهولة: "دكتورة سمر... كيف للكاتب أن يكتب عن البحر وهو لم يرَ ويغرق إلا في قطرة ماء؟ كيف يصف عاصفة وهو لم تصفعه ولم يعرف إلا نسيماً متسرّباً من شبّاك الغرفة؟ أحياناً أشعر أنّ خيالي، مهما اتّسع، يبقى أسير حمي، أسير ما أعرفه، ما لمسته، ما شعرت به. فهل الصّدق الأدبيّ وفي الكتابة يعني بالضّرورة أن نعيش كلّ حرف وكلّ ما نكتب عنه؟ أم أنّ هناك طريقاً آخر لتغذية هذا الخيال، لجعله يرى العتمة وما لا تراه العين المجرّدة؟".

ابتسامة الدّكتورة سمر تقشّر الكلمات، وتلك الابتسامة التي تحمل فهماً يتجاوز الكلمات المنمّقة، كأنّها قرأت ما بين سطور سؤال عائشة، ما وراء

قلقها الظّاهر، كأنّها رأت الرّوح العارية خلف ستار الكلمات. وقالت بصوتها الدّافئ الذي يشبه ضماداً ولمسة حرير على جرح نازف ومفتوح، صوت يحمل حكمة السّنين وعمق التّجربة: "يا عائشة.. يا صغيرتي، الصّدق في الكتابة ليس في تدوين الوقائع كما هي، فذلك شأن المؤرّخين وكتّاب اليوميّات، أولئك الذين يجمّدون اللّحظة في إطار زمنيّ، كأنّهم كاميرات، أو محنّطي فراشات بريّة.

الصّدق الأدبيّ، يا عائشة، يكمن في نزيف وصدق الشّعور، في قدرتكِ على أن تجعلي القارئ يحترق ويشعر بما شعرتِ به، أو بما شعرت به شخصيّاتكِ، حتّى لو كانت تلك الشّخصيّات تسكن عوالم لم تطأها قدماكِ، حتّى لو كانت تتحدّث بلغة لا تعرفينها!". توقّفت الدّكتورة سمر، تزن كلماتها بميزان الذّهب، ثمّ تابعت: "الخيال هو سفينتكِ وجسركِ إلى تلك العوالم، هو سفينتكِ التي تبحرين بها في محيطات الممكن والمستحيل، هو بساط الرّيح الذي يحملكِ إلى حيث تشائين. لكنّ الخيال، يا عائشة، كالماء، يحتاج إلى روافد تغذّيه، وإلا جفّ وصار وأصبح مجرّد سراب خادع. وكالعضلات، يحتاج إلى تمرين وتحدّ ليُستَفَزّ لكي ينمو ويقوى، وإلا ضمر وأصبح عاجزاً، مثل ميّت، عن حمل أثقال المعنى، كحصان أهزله الجوع فلا يقوى على جرّ عربة الأحلام."

"الكاتب العظيم ليس بالضّرورة من يعيش ألف حياة، فالعمر واحد مهما طال، والقلب واحد مهما اتّسع، بل من يملك القدرة على أن يتخيّل ألف حياة كأنّه عاشها بكلّ تفاصيلها، بكلّ آلامها وأفراحها، بكلّ خطاياها وفضائلها، كأنّ روحه سكنت ألف جثّة وتقمّصت ألف روح أو أنّ روحه سكنت ألف جسد.

والتّجربة، حتّى لو كانت بسيطة في مظهرها، حتّى لو كانت مجرّد لمسة عابرة، أو كلمة هامسة، أو نظرة خاطفة، تفتح نوافذ ومسامات جديدة للخيال، تعطيه ألواناً لم يكن يعرفها وتلوّن التّربة القاحلة، تخصب تربته القاحلة، توقظ فيه ينابيع الإبداع الخامدة. الحياة مغامرة. لا تخافي من التّجربة يا عائشة، بما في ذلك تجربة الكتابة، فالحياة نفسها تجربة كبرى، مغامرة لا نعرف نهايتها، بل خافي من الخيال الكسول، الخيال الذي يكتفي بالدّوران في فلك الذّات الضّيّق، كطائر حبيس في قفص من ذهب، يرى السّماء ولا يستطيع التّحليق إليها، يغنّي أغاني الحنين للحنين ولا يعرف طعم الحريّة ولا يجرؤ على التّحليق".

في تلك اللّحظة، كأنّ القدر أراد أن يرسل رسالة أخرى واضحة، أو ربما ليؤكّد على كلمات الدّكتورة سمر، طرق الباب بهدوء بالغ. دخل شابّ بدا عليه النّضج والذّكاء، يحمل في عينيه وقار البحث العلميّ، وفي

ملامحه وسامة هادئة، كأنّه خرج للتوّ من إحدى روايات القرن التّاسع عشر، أو كأنّه تجسيد حيّ لروح بطل من أبطال الأدب الرّفيع. اعتذر عن المقاطعة بصوت رخيم، يحمل نبرة احترام واثقة، وسأل الدّكتورة سمر سؤالاً دقيقاً عن مرجع ما يتعلّق بأطروحته في الأدب المقارن، عن أثر الأساطير الشّرقيّة في شعر "إليوت"، وكيف أنّ الغرب مدين للشّرق بأكثر ممّا يعترف به ويدّعيه.

لم يطل وقوفه، لكنّ الدّكتورة سمر، بلفتة كريمة كأنّها تقدّم كنزاً ثميناً، أو تشعل شمعة في طريق معتم، عرّفتهما ببعضهما: "عائشة، هذا باسل، من ألمع طلاب الماجستير عندي، عقله كالموسوعة المفتوحة، وقلبه كالمحيط، يغوص في أعماق النّصوص ليستخرج منها لآلئ المعنى. باسل، هذه عائشة، كاتبتنا الصّغيرة الواعدة التي أراهن على مستقبلها، قلمها يحمل جمرة الإبداع، وروحها تحمل توقاً لا يهدأ أبداً للمعرفة".

تبادلا نظرة اهتمام واحترام سريعة، ومجاملتين صادقتين حول أنّهما يحبّان أن يقرأ كلّ منهما للآخر، ولم تخلُ نظراتهما من فضول خفيّ، كشرارة كهربائيّة لامست أطراف الرّوح، كأنّ عالمين مختلفين قد التقيا للحظة عابرة. ابتسم باسل ابتسامة خفيفة، تحمل شيئاً من الودّ وشيئاً من التّحفّظ، وقال لعائشة بصوت هادئ يشبه مسافراً يغادر قريته ومحطّته:

"بل أنا من له الشّرف بمعرفتك، الدّكتورة سمر لا تثني على أحد بسهولة، فاعلمي أنّكِ تحملين شيئاً مميّزاً". ثمّ استأذن وغادر، تاركاً وراءه فراغاً أثيريّاً في جوّ الغرفة، كبذرة ألقيت في تربة خصبة، تنتظر لحظة الإنبات، أو ربما كعلامة استفهام جديدة تضاف إلى قائمة أسئلة عائشة التي لا تنتهي وتدور في رأسها، طيف رجل قد يمثّل طريقاً آخر، أكثر أماناً وتقليديّة، لكنّه ربما أقلّ إثارة وتحدّياً.

في ذلك المساء، وفي خلوة غرفتها التي بدت لها شرنقة، كلّ صراعاتها وانتصاراتها الصّغيرة، كانت كلمات الدّكتورة سمر ("لا تخافي من التّجربة") تتردّد في رأس عائشة كتعويذة سحريّة، كإذن سماويّ يحرّرها من أغلال الخوف والتّردّد، كضوء أخضر يشير لها بالانطلاق نحو المجهول. شعرت بأنّها حصلت على تلك "الرّخصة" الفكريّة التي كانت تتوق إليها دون أن تدرك. ما ستقوم به، أيّاً كان، لن يكون طيشاً أو انحرافاً، بل هو "تغذية للخيال"، ضرورة فنّيّة لتتجاوز "ضحالة التّجربة" التي كادت تخنق موهبتها وتحوّل حبر قلمها إلى ماء آسن وراكد، وتجعل من "الكنز المَخْبوء" في داخلها مجرّد حجر لا قيمة له.

هذا التّبرير، هذا الغطاء الفكريّ الأنيق، حرّرها من آخر قيود التّردّد التي كانت تكبّل أجنحتها، وجعل باب الأسرار في داخلها يُشرع على

مصراعيه، مستعداً لاستقبال كلّ ما هو جديد وغريب ومثير، فقد ينفخ فيها من روح جديدة ومختلفة.

لم يكن قراراً اتّخذته بوعي كامل، بل كان كتيّار خفيّ جرفها نحوه. وجدت يدها تمتدّ تلقائيّاً إلى الهاتف، وأصابعها تطلب رقم دلال، كأنّها تنفّذ أمراً صادراً من أعماق سحيقة في روحها ولحمها. المكالمة بدأت بشكل عاديّ، كأيّ مكالمة بين صديقتين، أو بين مُعلّمة وأمّ تلميذ، أو ربما بين تلميذة ومُعلّمتها إن شاء القدر: اطمئنان عابر، سؤال عن أيمن وصحّته ودراسته، وبعض المجاملات الخفيفة التي تشبه الرّقص على الجليد الرّقيق، حيث كلّ خطوة محسوبة، وكلّ كلمة تحمل أكثر من معنى وتأويل.

لكنّ دلال، التي تملك حاسة شمّ ذئبة لا تخطئ رائحة الفرائس أو الفرص، تلك التي تقرأ ما بين نبرات الصّوت كما تقرأ كتاباً مفتوحاً، تلك التي تعرف كيف تدير "دفة الإغواء" بحنكة وخبرة، التقطت خيطاً رفيعاً في نبرة عائشة، ربما نبرة حماس مستجدّ، أو توق مُبَطّن لتغيير ما، كأنّ بركاناً صغيراً بدأ يتململ في أعماقها، كأنّ عينها الثّالثة ترى الغيب والميل بوضوح.

قالت دلال بصوتها اللامع الذي يقطع في جسد عائشة كسكين ساخن يمرّ في زبدة: "عيّوش حبيبتي، أيمن لن يكون هنا يوم الأحد القادم، والده في زيارة خاطفة لعمان. تعرفين زيارات المغتربين الحافلة، وسيأخذ أيمن في رحلة إلى إحدى المحافظات، ليرى بلده قليلاً، وليقضي بعض الوقت مع ابنه الذي بالكاد يراه، كأنّه قمر يظهر ويختفي. وأنا، للأسف، أو ربما لحسن الحظّ،" وبدا صوتها لعائشة عبر الذّبذبات كأنّها تغمز غمزتها، "لديّ بعض' الأعمال التي لا تحتمل التّأجيل، بعض الالتزامات التي لا يمكنني التّخلّف عنها، ولن أستطيع مرافقتهما". كلمة "أعمال" خرجت من فمها كدعوة مبطّنة تشعل فضول من يسمعها وتترك الباب مفتوحاً لكلّ التّأويلات، ولكلّ الاحتمالات الممكنة، كأنّها تلقي بطعم يقطر شَبَقاً في مياه هادئة، تنتظر السّمكة الجائعة لتلتقطه.

شعرت عائشة بخيبة أمل حقيقيّة، كطفلة حُرمت من حلوى وُعدت بها، أو كعاشقة أُخبرت بتأجيل موعد اللّقاء المنتظر، وقالت بعفوية كشفت عن شيء من توقها ولهفتها، عن تلك اللّهفة التي كانت تحاول إخفاءها: "يا خسارة! إذن خسرنا رؤيتكِ يوم الأحد ...".

هنا، لمعت عينا دلال (حتّى عبر الهاتف، كادت عائشة أن تقسم أنّها رأت تلك اللّمعة الشّرّيرة البريئة في عينيها المدرّبتين)، وقالت بنبرة لا

تخلو من دهاءٍ مُقَطَّر وحنان لا يخلو من ابتذال، كأنّها تتحسّس حلوى وتداعبها قبل أن تلتهمها، أو كأنّها تقدّم كأساً من السّمّ الممزوج بالعسل: "لا غنى عنكِ والله، كنت سأكلّمكِ غداً لأدعوكِ عندي لتناول الغداء يوم الأحد، وأردت أن أنُسّق مع والدتكِ لكي لا يستغرب أهلكِ غيابكِ، وإيّاكِ أن ترفضي... فهذه الدّعوة من أجلي، من أجل ألا آكل وحيدة."، قالت عيّوش متورّطة وكأنّها تثبت الخطّة: "ما رأيك أن تتفضّلي أنت وتزورينا؟ طعام أمّ عمر لذيذ"، فردّت عليها دلال بنبرة تليق برئيس عصابة يرفض التّفاوض: "ولا قصور فيها، ولكنّكِ يجب أن تتذوّقي مائدتي قبل أن تحكمي، ثمّ إنّني من بادر بالدّعوة!" فلم يطل الأمر بعيّوش حتّى وافقت مبدية حماساً يفجّر العقل: "أتشرف بكِ، تحضّري... سآكل مائدتكِ كلّها!" وعائشة تتساءل في رعب صامت عن مصدر هذه الكلمات التي تندفع وتخرج من فمها وحلقها، ودلال تجيب: "كنت أعرف أنّه لا يهون عليكِ أن تتركيني وحيدة!" وكأنّها مدّت يدها من الهاتف خارقة الأثير قارصة أسفل بطنها، وأكملت: "حضّري نفسكِ أنتِ! فأنا أتقن صناعة الذّكريات."

تداخلت الأفكار في رأس عائشة كأمواج متلاطمة في ليلة عاصفة زيتيّة، كجيش من الظّنون والهواجس يحاصر قلعتها الهشّة. عقلها، ذلك الحارس الأمين للتّقاليد والقيم، كان يحاول تحليل كلمات دلال، البحث

عن المعنى الخفيّ، عن الفخّ المحتمل، عن باب الجحيم اللّذيذ الذي قد يُفتح أمامها، أو ربما فيها إن هي استجابت لهذا النّداء الماكر. لكنّ جسدها، هذا الخائن اللّذيذ، هذا الحليف الأوّل للرّغبة، هذا المهد الأوّل لكلّ الأحاسيس، كان قد فكّ الشّيفرة قبل العقل بكثير، كان قد أعلن استسلامه قبل أن تبدأ المعركة. شعرت بتلك الرّطوبة الغامرة، ذلك الفيضان الدّاخليّ الذي يسبق العواصف الكبرى، يغمر "باب الحديقة" دون أن تمسّها يد، كأنّ ينابيع جسدها قد تفجّرت استجابة لنداء دلال الخفيّ، أو لنداء رغبتها هي التي لم تعد تحتمل الانتظار، كأنّ الكأس المُقدَّسَة في داخلها وحوضها سكبت ما فيها مستعدّة لما هو آتٍ وموعود.

في اليومين التّاليين، الجمعة والسّبت، كانت عائشة تستعدّ ليوم الأحد بحماس ظاهر وجارف، كعروس تستعدّ لليلة زفافها ومحرقتها، أو كفراشة على وشك الخروج من شرنقتها الحريريّة، لتُحلّق في سماء جديدة.

كان هذا الحماس يظهر جليّاً في عنايتها باختيار ثيابها تحت الحجاب، بنطالها الصّيفيّ ذي القماش الرّقيق، وقميصها ذي القماش المُكرْمَش كأنّه ورق الهدايا ينتظر التّمزيق، جرّبت الثّياب وتأكّدت من تناسقها على مرآة غرفتها، ثمّ قلعتها بعناية، وعلّقتها في الخزانة كجلود لتنتظر الأحد. ثمّ

علّقت بجوارهما جلباباً يعطي جسمها رشاقة إضافيّة، وإشاراً رمليّاً بلون بنطالها يبرز سمرة وجهها المحبّبة ويجعل عينيها تبدوان أوسع وأكثر غموضاً، كأنّهما نافذتان على عالم آخر مجهول.

ورغم كلّ الأناقة الموعودة التي تأكّدت منها مرّتين وثلاثاً، كان في قلبها شكّ ينهشها لا تعلم مصدره، بأنّها ينقصها شيء آخر لتشعر بالكمال. كيف لدلال أن تملأ الغرفة ثقة وطغياناً وهي ترتدي فستاناً بسيطاً! ولكنّها في النّهاية دلال، أنثى رَيّانَة آتية من عالم مفتوح على الاحتمالات الشّهيّة والحم، تختلف عن كلّ من عرفتهنّ في حياتها. وربما انتبهت أنّها أجّلت طقوس الكتابة عن نجمة، وتركتها تنتظر عودة بدر يوماً بعد يوم في العتمة، دون أن تشعر بذنب تجاهها، فهي تسمّد تربة الخيال بانتظار أن تلقي فيها بذور الأفكار وتسقيها حبراً شهيّاً آتياً.

خلال هذين اليومين، كانت أكثر مبادرة بالتّواصل مع سارة، رسائل "تلغرام" كانت تتطاير بينهما كعصافير تحمل قبلات من نار وثلج، وهمسات تشعل الرّوح وتهدّئ الجسد في آن واحد. ومكالمات هاتفيّة قصيرة كانت تشعل فتيل الشّوق وتبقيه متّقداً، كجمرة تحت الرّماد، تنتظر أيّ نسمة هواء لتتحوّل إلى لهيب. لم يمدهما الهاتف أن يأتيا بجديد، لكنّ الجسد كان قد قال كلمته الأولى بوضوح، وبوّابة النّشوة

كانت قد فُتحت على مصراعيها، والعلاقة كانت تتصاعد، تتعمّق على مستوى آخر، كأنّهما تعيدان اكتشاف أبجديّة الحبّ بلغة لم تعرفاها من قبل، لغة تُكتب بالهمس والتّلميح والعضّ، وتُقرأ بالقلب والجسد واللُّهاث معاً، لغة تجعل من "الوسواس الخنّاس" ترنيمة عشق لا تنتهي، صلاة نجوى يؤذّن بها القلب وتترجمها الأصابع.

أغلقت عائشة باب غرفتها مساء السّبت، وفي داخلها مزيج من التّوق والقلق، كعازف يقف على خشبة المسرح ينتظر إشارة البدء، أو كمغامر يستعدّ للقفز عن جرف شاهق وهو واثق بحبال القدر. يوم الأحد كان على الأبواب، يحمل في طيّاته وعداً بمغامرة جديدة، وبدرس آخر في "سِفْر التّكوين الشّخصيّ" الذي كانت تكتب فصوله بدمها وخيالها معاً، حبراً شفّافاً يسيل على صفحتيها كلّما فكّرت في الاحتمالات، وكأنّها تتآمر مع دلال على احتلالها ولحمها.

تلك اللّيلة سألت سارة في رسالة ناتئة بارزة عن الحوار كحلمةٍ مُتَسَمِّرَة: "صارحيني: ألكِ تجارب سابقة؟"، وكانت سارة تعلم أنّها تقصد الفتيات، فهي قد أخبرتها عن ذلك الفارس الذي مرّ مسرعاً بحصانه، وهي لا تتذكّر منه سوى مؤخّرة حصانه السّمينة، فأجابت بصِدْق موارب: "خبيرة مثلكِ بالرّوايات السّاخنة لن تثيرها فتاة مبتدئة!" كانت

رسالتها تلك مطرقة وسنداناً في آن معاً. إذن، هي مجرّبة خبيرة، وهذي هي المطرقة، وأنا وإن كان عقلي عاصفاً بما قرأت، لي جسد مبتدئ وهو السّندان البِكْر الذي تُطرق عليه روحي الحامية. اقتلعت الفكرة هذه آخر شكّ لديها بأنّها ستستجيب لأيّ اقتراح من دلال مهما بدا غامضاً، فأضافت إلى خزانتها الموعودة أحبّ ملابسها الدّاخليّة إليها، ثمّ قامت تصلّي وكأنّها شخص آخر، وكأنّ عائشة تدعو لعيّوش بأن يختار الله لها الأفضل والخلاص الذي يليق بهذا الحريق.

الفصل الثّامن : الأحد المُنتَظَر

استيقظت عائشة صباح الأحد على وقع خفقان سُفليّ مختلف. ليس ذلك الصّدى الارتجافي الكثيف للَذّة جسديّة مباشرة تعقب مكالماتها المحمومة مع سارة، بل خفقان نشط أشبه برفرفة أجنحة حشرات ليليّة تستعدّ للتّحليق في سماءٍ مجهولة ومظلمة. جسدها نال قسطاً من الرّاحة، كأرض محروقة بدأ العشب ينبت متباعداً فيها، لكن جمجمتها كانت حقلاً تتراقص فيه سنابل التّوقّعات، وعيناها تحملان بريق ليلة لم تنمها بالكامل، ليس بسبب الأرق الجافّ، بل بسبب ذلك الحوار الأثيريّ الدّبِق مع سارة، وما عرفته خلالها عن كيف تشكّل مطرقة سارة روحها المُتَوَهِّجَة على سندان كونها مبتدئة بِكْر. وفوق هذا كلّه، طيف دلال يخيّم على لحمها كشمس ربيعيّة على وشك الشّروق، ترسل أولى خيوطها النّحاسيّة لتُبَدِّد ضباب التّردّد.

"لا أعرف أحداً يحبّ أوّل أيّام الأسبوع سواكِ!" همست عيّوش في وعيها بصوت يتقاطر منه المَكْر والتّشفّي اللّذيذ، كقطرات عسل أسود: "بيت دلال، حتّى وهو خالٍ منها، لم يُخْلِف يوماً وعد اللّذّة معكِ، فكيف وهي الآن بحضورها الفاتن ووزن لحمها تنتظركِ!".

دفعت عائشة الأغطية بعنف، تنفّست هواء الرّبيع البارد، تركت جلدها يستشعر البرودة ليطفئ حريقاً داخليّاً، وعيّوش تكمل لدغاتها: "لا تنسَيْ أنّ كلّ الفتنة التي تحسّينها بقرب سارة، لم تكن لتبدأ لولا حضور دلال الذي تنضجين عليه كقطعة لحم تذوب على نار هادئة!".

ابتسمت عائشة ابتسامة خافتة، مُخَدِّرَة، وهي تنهض من الفراش. لم تعد تشعر بذلك الصّراع الحادّ المُمَزِّق بينها وبين عيّوش كما في السّابق. كأنّ عيّوش امتزجت بخلاياها، صوتاً داخليّاً وقحاً يعبّر عن تلك الرّغبات التي كانت تخشى حتّى الاعتراف بها لنفسها. وقفت أمام مرآتها، تتأمّل انعكاس فتاة لم تعد تعرفها تماماً. سمرتها القريبة من روح كلّ من يراها اكتسبت توهّجاً دمويّاً جديداً، وعيناها، تلك النّافذتان المفتوحتان على فوضى روحها، بدا فيهما عُمق لم يكن موجوداً من قبل، كبئر قديم اكتُشِفَت في قاعه المُظلم ينابيع ماء عذب ومُحَرَّم.

لم تكن نسيت الثّياب التي ادّخرتها لهذا اليوم الموعود وهي تغادر الغرفة لتستحمّ. بنطالها الصّيفيّ ذو القماش الرّقيق الذي يداعب البشرة كنسيم عليل ومُسْتَفِزّ، وقميصها ذو القماش المُكَرْمَش الذي يشبه زَبَد أمواج تتكسّر على شاطئ جسدها بانتظار الغرق. عادت من الحمّام، سرّحت شعرها المُبَلَّل، ولبست ثيابها الدّاخليّة القطنيّة المُفضّلة التي تشُبّ قوامها

وتُبرز نُضجها، ثمّ ارتدت ثيابها بعناية، كمن يستعدّ لكرنفال وَثَنِيّ مشهود ومحرقة علنيّة. أسدلت فوقهما عباءة مُزيّنة بخطّ ينزل من الكتف إلى الرِّجْل اليمنى مستقيماً، يُبرز في تناقضه الواضح مع انحناءاتها العنيفة غواية جسمها الرّشيق. لَفّت حجاباً بلون الرّمل المُبَلَّل حول وجهها، كإطار يُبرز لوحة ملامحها التي بدأت ترسمها يد التّجربة بجرأة وثقة واضحة. لمسة خفيفة من كحل أثقلت رموشها، فبدت نظرتها فَخّاً يحمل اللّيل إلى النّهار الذي توشك أن تخرج فيه.

في محاضرة الأدب المقارن، كانت الدّكتورة سمر تتحدّث عن مفهوم "المُقَدّس" و"الدُّنيويّ" في الثّقافات المختلفة. "إنّ الخطوط الفاصلة بين ما هو مُقَدّس وما هو دُنيويّ ليست ثابتة أعزّائي،" قالت بصوتها الهادئ الذي يحمل حكمة تتنافر مع طبول الرّقص التي تستدعيه في قلب وحوض عائشة، "بل هي تتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان، وتتأثّر بالتّحوّلات الاجتماعيّة والفكريّة. ما كان يُعتبر مُحَرَّماً في عصر ما، قد يصبح مقبولاً، بل ومرغوباً فيه، في عصر آخر. حتّى مفهوم الحرام ذاته في كلّ عصر، ليس كتلة صمّاء وحجراً جامداً، بل هو كائن حيّ يتنفّس ويتشكّل وفقاً لوعي الجماعة وتجربتها."

كلمات الدّكتورة سمر تنزل على قلب عائشة كقطرات زيت تُرَطِّب أعواد كبريت حيرتها المشتعلة. هل يمكن أن يكون ما تشعر به، وما تتوق وتلهث إليه، مجرّد مرحلة من مراحل تطوّر وعيها الجسديّ؟ هل يمكن أن تكون هذه الرّغبات "المُحَرَّمَة" في نظر مجتمعها الضّيّق، هي في الحقيقة جزء طبيعيّ من رحلة اكتشاف الذّات واللّحم؟ لم تجد إجابات شافية قاطعة، لكنّها شعرت بشيء من الارتياح المُخَدِّر، كأنّها حصلت على إذن ضمنيّ ورخصة سماويّة لتخوض بحارها المظلمة العميقة وتغرق فيها طَوْعاً.

بعد المحاضرة، انتظرت عائشة الدّكتورة سمر عند الباب بقلق. وما إن خرجت، حتّى ماشَتها في الممرّ الطّويل، متظاهرة بأنّها تبحث عن إجابة لسؤال أكاديميّ بريء، لكنّها في الحقيقة كانت تبحث عن طوق نجاة لروحها القلقة المُعَذَّبة.

"دكتورة..."

فالتفتت الدّكتورة إليها وكأنّها تعاتبها بلطف على خرقها اتفاقاً سابقاً، فصوّبت عائشة ارتباكها: "سمر..."

قالتها بصوت خفيض، وألحقت ذلك بسؤالها الذي بَدَّد خجلها المؤقّت:

"حديثكِ عن مرونة مفهوم الحرام... هل يعني هذا أنّ الإنسان يمكن أن يعيد تقييم ما يعتبره ممنوعاً بناءً على تجربته الخاصّة، أو على فهم أعمق لذاته وللحياة؟".

توقّفت الدّكتورة سمر ونظرت إليها بعينين جادّتين، ولكن بحنان دافئ تألفه وتعرفه عائشة: "يا عائشة، الدّين يرشدنا، والتّقاليد ترسينا كقوارب ثقيلة، لكنّ القلب والجسد يبقيان هما البوصلة الحقيقيّة. لا تخافي من أسئلتكِ، ولا تخافي من البحث عن إجاباتكِ ولذّاتكِ الخاصّة. المهمّ أن تكوني صادقة مع نفسكِ وروحكِ، وأن تتحمّلي مسؤوليّة اختياراتكِ كاملة. أحياناً، تكون الخطوة نحو المجهول والمُحَرَّم هي الخطوة الأولى والأهمّ نحو معرفة الذّات."

ربّتت على كتفها بحنان، ثمّ تابعت طريقها، تاركة عائشة تتأمّل كلماتها كأنّها مفاتيح معدنيّة لأبواب دهاليزَ مغلقة، شاعرة بانتصار خفيّ، وكأنّها انتزعت الإذن والتّصريح من بين أنياب الحكمة.

توجّهت عائشة بخطوات مشدودة إلى "بقعتهما" تحت أغصان الكينا، حيث كانت سارة تنتظرها. جلست بجانبها، وشعرت بوخزة ذنب حادّة، كأنّها تخون تلك الألفة النّاشئة والمُبَلَّلَة بينهما بموعدها السِّرّيّ القادم مع دلال.

"يا لكِ من منافقة!" همست عيّوش في أذنها بصوت يخدش الطّبلة، "تغازلين هذه المسكينة بكلمات مُنَمَّقَة ولمسات مسروقة، وأنتِ تخطّطين للغوص في بحر آخر! لكن لا بأس، فدلال هي الأصل، هي التّجربة الحقيقيّة وثقل اللّحم، هي الحلم الأصليّ الذي تخلّق من العدم فصار سارة المُحَبَّبَة!".

"سارة،" قالت عائشة بصوت مُرتَبِك يحاول إخفاء فورانه، "لن أستطيع أن أطيل الجلوس معكِ اليوم. حتّى المحاضرة التّالية لن أحضرها. لديّ... عزومة غداء."

"ما رأيكِ أن تظلّي معي وسأعزمكِ أنا على شطيرتكِ المُفضّلة!" قالت سارة بتحبّب وقُرب، وكانت عيّوش تضحك في سرّها بوقاحة: "هل تعني ما فهمته أنا وتشتهيه؟"، أمّا عائشة فكانت تعرف أنّ عيّوش تبالغ في طرافتها وبذاءتها المُفرطة لتشتيت توتّرها.

"يا ليتني كنت أستطيع، تعرفين قصص الأهل! لا بدّ أن أساعد والدتي"، قالتها عائشة وهي تعلم أنّها تكذب بمهارة وتخفي الحريق، وأنّها أخفت الأمر كلّه، لكنّ سارة تابعت بطلاقة وجرأة كانت عائشة تفتقدها: "أخشى أنّها زيارة لتدبير زواج تقليديّ!".

صدمت الفكرة عائشة، بل وصدمها أكثر أنّ سارة تتحدّث عمّن سينافسها على قلبها وجسدها بانفتاح وثقة غريبة، فقالت تحاول استعادة توازنها: "والله لا أعلم! سأتركك للغيرة تأكلكِ." ، وقد تسرّبت الطّلاقة إليها شيئاً فشيئاً، وأنهت جملتها وهي تضحك بخفّة مُصطنعة.

ضحكت سارة وكأنّها تصرف فكرة غير مُهِمّة كذباب مُزعج، وعلّقت: "لن أغار من شابّ!" ، ثمّ تداركت ببراعة: "أعني لن أغار من زواج تقليديّ، ثمّ إنّني تعلّمت أن أروّض خيل الغيرة" .

وقعت كلماتها في نفس عائشة كوقود يشبّ ناراً كادت تخبو.

أسرعت بالقيام كي لا يتدحرج الحوار إلى مناطق مظلمة تخشى دخولها الآن، حتّى إنّها تحرّكت قبل موعدها الفعليّ.

نظرت إلى ساعتها قائلة: "تأخّرت، عليّ أن أسرع!" وكأنّها تمنع سارة من مرافقتها وكشف وجهتها الحقيقيّة.

"حسناً،" قالت سارة بابتسامة تحمل عتاباً خفيّاً، "كنت أودّ أن أمشي معكِ إلى موقف الحافلات، نتحدّث قليلاً. لكن لا بأس، مرّة أخرى."

"نعم، مرّة أخرى بالتّأكيد،" قالت عائشة بسرعة، وهي تشعر بأنّها تغلق

باباً كان يمكن أن يفضي إلى حديقة من ورود، لتفتح باباً يفضي إلى فرن مُسْتَعِر.

تفارقتا على عجل، كأنّ كلتيهما تشعر بأنّ هناك شيئاً ما قد تغيّر، شيئاً لم يُقَل، لكنّه كان حاضراً وثقيلاً في الهواء بينهما.

وصلت عائشة إلى عمارة دلال. قلبها يدقّ بإيقاع متسارع وعنيف كقبضة من خشب، كأنّه يشاركها لهفتها وقلقها ويحاول اختراق أضلاعها. صعدت الدّرج بخطوات خفيفة، كمن يسير على أطراف أصابعه خشية إيقاظ وحش نائم وجائع. وقفت أمام باب الشّقّة، تردّدت للحظة، ربما بسبب حضورها المُبكّر، ثمّ طرقت الباب بنعومة، نقرات خافتة كهمس عاشق في ليل بَهِيم.

لم تنتظر طويلاً. سمعت صوت خطوات رشيقة تقترب. شُقّ الباب وأطلّ منه صوت دلال، دافئاً ومُغرياً كأغنية بحّار قديم يستدرج الغرقى: "ادخلي عيّوش، لا أستطيع الخروج إليكِ".

دفعت عائشة الباب ببطء، ودخلت إلى عالم دلال، عالم يفوح منه عبير الأنوثة الثّقيلة والثّقة والغموض. وما إن خطت عائشة إلى الدّاخل، حتّى رأتها. كانت دلال ترتدي روب حمّام من الحرير الخالص، بلون الخزامى

الشّاحب، ينسدل على جسدها الممشوق كشلال من ضوء قمريّ، بالكاد يخفي تفاصيل منحنياتها السّخيّة وحوضها الذي يُنبئ بخِصْب النُّذور واكتمال النُّضْج.

ابتسمت دلال ابتسامة تحمل اعتذاراً مُبَطَّناً بالإغواء الواضح، كأنّها تشاركها سِرّاً لذيذاً وساخناً: "أهلاً بكِ يا روحي، اعذريني على هذا المظهر غير اللائق، لكنّني أردت أن أزيل عن جسدي رائحة الطّبيخ قبل أن تطأ قدماكِ عتبة بيتي. تعرفين، رائحة البهارات تلتصق بالجلد كرجل لحوح لا يَمَلّ".

ضحكت عائشة، وشعرت بأنّ التوتّر الذي كان يعتصر قلبها ومعدتها بدأ يتلاشى تدريجيّاً، يُستبدل بشيء من الألفة الخطرة والمُثيرة، كأنّها دخلت إلى منطقة مُحَرَّمَة لكنّها مُشْتَهاة بشدّة.

"لا عليكِ أبداً، رائحة طعامكِ لذيذة"، فأجابتها دلال بعينين تلمعان: "أنتِ اللّذيذة!".

واقتربت منها بخطوات واثقة، ثمّ مدّت يدها لتساعدها في خلع عباءتها، لمسة خفيفة وعابرة لكنّها أرسلت تيّاراً خفيّاً وكهربائيّاً في جسد عائشة.

"علّقي جلبابكِ وحجابكِ هنا يا عيوني، ولتشعري بالرّاحة التّامّة. ليس

ثَمَّة سوانا هنا، نحن في مملكتنا الصّغيرة"، وأتمّت بصوت خفيض آمِر: "فُكّي شعركِ، دعيه يتنفّس!".

فعلت عائشة كما طُلب منها بخضوع مفاجئ، وشعرت بأنّها تتجرّد من طبقات الحذر والتّحفّظ، من عائشة الطّالبة الجامعيّة التي تحصي خطواتها، لتصبح شيئاً آخر، كائناً أكثر خفّة، وأكثر استعداداً للانطلاق في رحلة تهمس بالوعود الجريئة. لمحت انعكاسها في المرآة الضّخمة المُعَلَّقَة في مدخل الشّقّة. شعرها الأسود الفاحم انسدل على كتفيها كشلال من ليل حالك، وبدا وجهها أكثر نضارة وإشراقاً، كأنّ حضور دلال الآسر ولحمها الطّاغي يمنحها جمالاً إضافيّاً، أو ربما يوقظ جمالاً كان كامناً ومُخَدَّراً في أعماقها، ينتظر لمسة ساحر ماهر ليظهر ويتجسّد.

"شعري لا يزال رطباً،" قالت دلال وهي تمرّر أصابعها المُزَيَّنَة بخواتم فضّيّة في خصلات شعرها الدّاكنة التي تفوح منها رائحة غسول شَعْر باذخ بنكهة الفواكه الاستوائيّة، "ولا يجوز أن أترككِ تنتظرين هنا، رافقيني إلى غرفة النّوم... هيّا لا تستحي، فأنتِ أنثى مثلي!"

وعيّوش تهمس في أذن عائشة بصوت مُتَقَطِّع: "يا ليتني مثلكِ!".

تبعتها عائشة. عيناها ملتصقتان كعلَقات جائعة بأرداف دلال الماجنة.

تمايل الأرداف تحت الحرير يرسل إشارات خطر شهيّة، وقلبها يقرع كطبل وَثَنِيّ ينذرها بأنّها تخطو إلى منطقة أشدّ عمقاً، منطقة تغرق في لزوجة الغموض والإثارة.

غرفة نوم دلال فسيحة وأنيقة، تطلّ على شرفة واسعة تغمرها أشعّة شمس الظّهيرة، تتسلّل عبر نباتات الشّرفة ثمّ عبر ستائر من الأورغانزا الشّفّافة بلون اللّؤلؤ المُبَلَّل. الأثاث فاخر وثقيل، يجمع بين برودة الأناقة العصريّة ولمسات شرقيّة دافئة توحي باحتواء خَبيث.

لكن أوّل ما استرعى انتباه عائشة، قبل أيّ شيء، وقبل أن تتشرّب رئتاها رائحة الغرفة، كان طقم ملابس داخليّة مثيراً للجدل، مُلْقىً بإهمال مُتَعَمَّد، إهمال مدروس ككمين، على طرف السّرير ذي الملاءات الحريريّة بلون الرمل المبلول.

كان الطّقم مصنوعاً من دانتيل أسود، شفّاف كاللّيل، مُطَعَّماً بتطريزات ذهبيّة دقيقة تشبه نجوماً تائهة في مجرّة قريبة. يكشف أكثر ممّا يستر بأشواط، كأنّه شبكة صيد. حمّالة صدر تكاد تكون مجرّد خيوط رفيعة قاسية تعانق نهوداً مُتَخَيَّلَة تقطر تمرّداً، وسروال داخليّ لا يترك للخيال إلا القليل جدّاً، شريط يكاد يختفي بين فِلْقَتَي اللّحم، كأنّه دعوة صريحة لتمزيقه وفكّ رموزه بالأظافر والأسنان.

شعرت عائشة بحرارة دَبِقَة تتصاعد في وجهها، كأنّها وقفت أمام بائع شاورما ولفحها حَرّ اللّهب ودُهْن اللّحم، ودلال تدير شَعْرها يمْنَة ويَسْرَة بلا مبالاة مُسْتَفِزّة. عاد بصر عائشة إلى الطّقم الأسود الشّفيف مع فكرة خاطفة تقفز إلى ذهنها كشرارة تحرق الجلد: "لقد رأيت شيئاً يشبهه.. أتذكرين؟ لم تستطيعي يومها أن تُتِمّي الفيلم!". وقبل أن تتذكّر التّفاصيل التي تخنق الحياء وتستدعي البَلَل، رفعت بصرها هرباً.

راحت تجول بعينيها في أرجاء الغرفة، لتكتشف أنّ المرايا تحيط بها من كلّ جانب، كعيون زجاجيّة صامتة تراقب كلّ حركة، كلّ همسة، كلّ انقباضة لحْم.

أبواب الخزانات الضّخمة كانت مرايا مصقولة تعكس الغرفة بأكملها، تضاعف الإحساس بالاتّساع والعُمق، كأنّها بوّابات مصقولة إلى عوالم أخرى من الخطيئة. مرآة طويلة أخرى، ذات إطار خشبيّ مزخرف بنقوش نباتيّة مُعَقَّدَة كشرايين بارزة، تنتصب بجانب المشجب، كرأي أخير يقطع جدال الأناقة ويحكم على الجسد. ومرآة ثالثة، أعرض وأقصر، تتوسّط منضدة المكياج الأنيقة، محاطة بقوارير عطور فاخرة تشبه الجواهر السّامّة، وأدوات تجميل برّاقة كأنّها أسلحة إغواء فتّاكة ومشارط جراحيّة.

شعرت عائشة كأنّها دخلت إلى قصر من بِلَّوْر، حيث كلّ حركة مُراقَبَة، كلّ نظرة مُنْعَكِسَة ومُضاعَفَة، وحيث لا مَفَرّ من مواجهة الذّات العارية، بكلّ ما تحمله من رغبات دفينة تَعَضّ الأحشاء ومخاوف مُسْتَتِرَة.

"اجلسي هنا، يا قلبي،" قالت دلال مشيرة إلى السّرير بنعومة تقطر زيتاً.

تردّدت عائشة للحظة، كمن يقف على حافّة جُرْف سحيق يتأمّل هاويته، ثمّ جلست على طرفه بخجل ظاهر وحوض مُنْقَبِض. شعرت بنعومة الحرير تحتها كألسنة باردة، وبفراش السّرير الطّريّ الذي يغوص بها قليلاً، يباعد بين رِدْفَيْها بشكل خفيّ ومُتَعَمَّد، كأنّ فَرْشَتَه مُتَحَرِّش لئيم ووقح يعرف كيف يتسلّل إلى أعمق نقاط الضّعف في جسد الأنثى، يوقظ فيها رغبات نائمة لم تكن تعلم بوجودها.

ولمّا رأت انعكاس ملامحها المُربَكَة في مرآة الخزانة، تذكّرت قصّة "ليندا" للكاتبة أناييس نين، تلك المرأة التي كانت تعشق المرايا، المرأة التي تحبّ أن تمارس الحبّ أمامها، لا لتعبد جسدها فقط، بل لأنّها ترى في انعكاس اللّحظة الحميمة العنيفة بُعْداً آخر من أبعاد اللّذّة، كأنّها تشارك نفسها مُتْعَتَها، تضاعف الشّبَق، أو كأنّها تصبح هي ذاتها مَوْضوعاً لشهوتها المُتَّقِدَة. هل دلال تشبه ليندا في هذا العشق النّرجسيّ لِلَحْمِها؟ هل هذه المرايا كلّها هنا لتُخَلِّد لحظات من عشق الذّات، أم عشق الآخرين المُنْهَكين

لها، أم مزيج مُركَّب من الاثنين معاً، في طقس من طقوس اللّذّة المُضاعَفة التي تعكس اللُّعاب واللُّهاث؟

صوت مُجَفِّف الشَّعْر انطلق فجأة، كهدير شلال صغير غاضب، قاطعاً سيل أفكارها المُتلاحِقَة. كانت دلال تجلس أمام منضدة المكياج، تمرِّر المُجَفِّف على شَعْرِها بحركات رشيقة مدروسة كرقصة أفعى، وظهرها القائم كعمود رُخاميّ في هيكل قديم يتمايل بكلّ إغواءٍ وثقة. كانت عائشة تراقبها بصمت، تحاول أن تقرأ ما وراء هذه الحركات العاديّة في ظاهرِها، أن تفهم لغة الجسد التي لا تحتاج إلى كلمات لتكسر العظم وتُعَبِّر عن نفسها، لغة الإغواء الصّامت والثّقيل.

مع انطفاء مُجَفِّف الشَّعْر، ساد صمت قصير مُحَمَّل بالتّرقّب المُكَهْرَب، ثمّ التفتت دلال نحوها، وابتسامة اعتذار رقيقة، اصطناعيّة، ترتسم على شفتيها المُكْتَنِزَتَين: "آسفة مرّة أخرى لجعلكِ تنتظرين، لكنّ شَعْري عنيد أحياناً، يحبّ أن يُدَلَّل ويُرَوَّض."

تناولت طقم الملابس الدّاخليّة من على السّرير، وبدأت تفُكّ حزام روبها ببطءٍ مُتَعَمَّد، دون أن ينفتح تماماً، لكن بشكل كافٍ ليُخفي عن عائشة مشهد تبديل الملابس بشكل مباشر، كأنّها تسدل ستاراً خفيفاً من الغموض على لحظة خاصّة جداً. وفي تلك اللّحظة بالذّات، شعرت

عائشة بأنّ "عيّوش" هي من تراقب الآن، بعينين جريئتين جائعتين لا تعرفان الخجل، عينين تتوقان إلى كشف المستور، إلى اختراق الحُجُب وتمزيق القماش.

قالت دلال وهي تمسك بالدّانتيل الأسود بين أصابعها وتفركه، كأنّها تُقَدِّم تحفة فنّيّة نادرة، أو سلاحاً فتّاكاً: "أعرف أنّكِ فتاة رقيقة الحسّ، وربما ترين هذا الطّقم مُبالغاً فيه بعض الشيء، أو حتّى مُبْتَذَلاً... لكنّه، كما تعلمين، جزء من طبيعة عملي. وأنا أحبّ أن أشعر بكلّ قطعة أبيعها، أن أفهم كيف تعانق الجسد وتخنقه بلطف ولَذّة، كيف توقظ فيه الإحساس بالجمال والثّقة الكامنة والشّراسة. إنّه ليس مجرّد قماش وخيوط يا عيّوش، بل هو فنّ بحدّ ذاته، فنّ إبراز الأنوثة بكلّ ما فيها من سحر وافتراس".

دخلت إلى الحمّام المُلحَق بغرفة النّوم، ذلك الذي استخدمته عائشة سابقاً وخلّفت فيه نَدَى خطيئتها الأولى، وتركت الباب مواربًا قليلاً، شقّاً صغيراً يسمح بانتقال الصّوت بوضوح، وربما... بمرور نظرة خاطفة جائعة لمن تملك الجرأة الكافية للمجازفة. لم تستطع عيّوش أن تقاوم هذا الإغراء الخفيّ والشّرس. قامت من مكانها، واقتربت من الباب، متظاهرةً بأنّها تريد أن تُكمل حديثها بصوت خفيض لا يزعج دلال.

"غرفتكِ هذه، يا دلال،" قالت عيّوش بصوت حاولت أن تجعله طبيعيّاً قدر الإمكان، لكنّه كان يحمل رعشة توق خفيّة ولُهاثاً مَكْتوماً، "تُذكِّرني بشخصيّة في قصّة قرأتها مرّة... شخصيّة ليندا" للكاتبة أنايس نين. كأنّكِ هي، تعيشين في عالم من المرايا العارية. خشيت أن أخطئ وأناديكِ ليندا".

جاء صوت دلال من خلف الباب الموارب، صوت يحمل نبرة مرح محبّب وثقة بالنّفس: "لا تُهِمُّني الأسماء كثيراً يا عيّوش، المُهِمّ أن تكون جميلة... أو بالأحرى أن تُدْرِك كم هي جميلة، وكم هي مرغوبة!".

كانت عيّوش الآن تقف أقرب إلى الباب. قلبها يُعْلِمُها بوجوده بنبضه الذي يصل إلى طبلة أذنها وحوضها. لم يكن هدفها الحفاظ على صوتها خفيضاً، بل كان التّلَصُّص، تلك الرّغبة البدائيّة في رؤية ما هو ممنوع، في اقتحام خصوصيّة الآخر دون استئذان والتهام مشهده.

من خلال فتحة الباب الضّيّقة، لمحت جزءاً من جسد دلال العاري وهي تتحرّك برشاقة وثقة أمام مرآة الحمّام المُضاءَة. لمحت استدارة نهد أبيض كزهرة لوتس سامّة، وانحناءة خصر مصقول كعنق إبريق فِضّيّ، وبياض فَخْذ يتوهّج في الضّوء الخافت كأنّه قطعة رخام نادرة تنتظر النقش.

عَضّت عيّوش على شفتها السُّفليّة بقوّة، حتّى كادت تُدْميها وتتذوّق الملوحة، وشعرت بالدّم الحارّ، يتجمّع أسفل بطنها، كأنّه نار ليليّة لوليمة قرية جائعة، تُهَدِّد بتقديمها قرباناً. أغمضت عينيها للحظة، كأنّها تريد أن تحتفظ بهذه الصّورة المُشتعلة، أن تحفرها في ذاكرتها ولحمها إلى الأبد، كأنّها ستُحَمِّضُها لاحقاً في غرفتها المُعْتِمَة، لتستدعيها في ليالي الأرق والشّوق الطّويلة المُبَلَّلَة، وتشعل بها نيران خيالها وحوضها.

خرجت دلال بعد دقائق، وقد ارتدت فستاناً بيتيّاً من الحرير الناعم بلون الياقوت الأحمر النّاريّ، أطول قليلاً من قميص النّوم التّقليديّ، لكنّه يكشف عن ساقيها المصقولتين كأعمدة معبد وَثَنِيّ قديم، وعن كتفيها العاريتين اللّتين تشبهان تلالاً من عاج أملس. كان الفستان مفتوحاً من الأمام بشكل جريء ومدروس كَفَخّ، يكاد يُظْهِر أسفل بطنها المستدير، كأنّه دعوة صريحة للنّظر، ولِمَا هو أبعد من النّظر بكثير، دعوة للغرق.

"تركت القِدْر يغلي على نار هادئة،" قالت دلال وهي تبتسم ابتسامة من يملك مفاتيح الأسرار وصمّامات الأمان، "هيّا نُعِدّ المائدة قبل أن يحترق طعامنا، أو ربما... قبل أن نحترق نحن شوقاً وجوعاً إليه."

وفي الحقيقة، شعرت عائشة بأنّها هي التي تغلي على نار هادئة، أو أنّ دلال تترك "قِدْرَها" هي يغلي بهدوء وخُبْث في جسم عائشة، ينتظر من

يرفع عنه الغطاء ليكتشف ما بداخله من نكهات حارّة، ولزوجة عميقة، وأسرار دفينة.

على مائدة الغداء، التي كانت مُعَدَّة بعناية فائقة، كأنّها لوحة فنّيّة تجسّد كَرَم الضّيافة وجمال الذّوق، وتُزَيِّنُها أطباق شهيّة تفوح منها رائحة التّوابل الشّرقيّة التي تُثير الحواسّ وتوقظ الشّهيّة الحيوانيّة، سألت دلال فجأةً، وعيناها الياقوتيّتان تلمعان بفضول مُبَطَّن كبريق جوهرة في عتمة كهف:

"أخبريني عن 'ليندا' تلك التي أشرتِ إليها في غرفة النّوم. كيف هي؟ ما قصّتها؟ يبدو أنّكِ مُعْجَبَة بشخصيّتها، أو ربما... تجدين فيها شيئاً من نفسكِ ومن جوعكِ المَخْفيّ."

تحفّظت عائشة قليلاً في البداية، كمن يخشى كشف أوراقه ولحمه دَفْعةً واحدة، ثمّ قالت محيلة دلال إلى أسئلتها السّابقة في "الدّردشة" التي دارت بينهما قبل أيّام:

"أتذكرين حين سألتني عن الفتيات الجريئات في الجامعة، وعن تَمَرُّدِهِنّ الخفيّ؟ أنا أرى أنّ الجرأة الحقيقيّة ليست فقط في الأفعال الصّارخة، بل في الأفكار العميقة، في القدرة على استكشاف الذّات والجسم دون

خوف. أنا ألتزم بقواعد المجتمع في أفعالي... أنا مُهَذَّبة نعم، لكنّني في الخفاء أقرأ ما قد يعتبره البعض صادماً أو جريئاً ومُحَرَّماً، أستكشف عوالم لم أكن أجرؤ على الحُلْم بها من قبل، عوالم تشبه تلك التي تعيش فيها 'ليندا' وتمارس فيها خطاياها."

ابتسمت دلال ابتسامة العارف الخبير، كأنّها تُدْرِك تماماً ما تعنيه عائشة وتُفَكِّك شِيفرة رغبتها:

"حتّى في الواقع يا عيّوش، يجب أن يلعب الخيال دوره السّحريّ في تهذيب ما هو غير مُهَذَّب في نظر البعض، أو ربما في جعله أكثر إثارة وفتنة وشَبَقيّة. الخيال هو بهارات الحياة يا عيّوش، هو ما يمنحها طعماً مختلفاً ونكهة لا تُنْسَى وتلدغ اللّسان. بدونه، تصبح الحياة مجرّد وجبة باردة بلا طعم أو رائحة، كصحراء قاحلة لا تنبت زرعاً ولا تثمر شجراً ولا تروي عطشاً."

استرسلت عائشة في الحديث، مدفوعة بعطش دلال الصّامت ونظراتها المُشَجِّعَة التي تشبه سياطاً خفيفة. روت لها قصّة "ليندا" بطريقة غير صريحة تماماً، مُرَكِّزَة على تحليلها النّفسيّ للشّخصيّة أكثر من سرد الأحداث الجسديّة الفَجّة.

"ليندا، في رأيي المتواضع، كانت امرأة تشتهي جسدها ولحمها قبل أن يشتهيه الآخَرون، تحبّ أن تراه في اللّحظات الحميمة العنيفة كأنّه تحفة فنّيّة نابضة، كأنّها تشارك الرّجل في حُبّها لذاتها وجمالها واحتراقها. لم تكن مجرّد مفعولٍ به في علاقة عابرة، بل كانت فاعلاً أساسيّاً، تستمتع بجمالها وقوّتها الأنثويّة المُتّقِدَة والمُفترِسَة، وتحَوِّل كلّ لمسة وكلّ احتكاك إلى طقس من طقوس عبادة الذّات واللّذّة."

أضاء وجه دلال بالإعجاب الصّادق، وقالت بحماس ظاهر ونبرة مُتَسارِعَة:
"يا لها من فكرة مذهلة ومجنونة! أوافقكِ بشدّة يا عيّوش. المرأة التي لا تحِبّ لحمها ونفسها، لا تستحقّ أن يُحِبّها أو يفترسها الآخَرون. وربما ينطبق هذا على الشّباب أيضاً، يجب أن يحبّوا أنفسهم أوّلاً، لكن... يجب أن يُحِبّونا نحن النّساء أكثر بكثير، أن يغرقوا فينا!"

ضحكت، ضحكةً رنّانة صافيةً كأنّها خرير ماءٍ في جدولٍ صيفيّ، ضحكة اخترقت جدران الصّمت وأذابت جليد التّردّد.

سألت دلال باندهاش مُصطَنَع، كأنّها طفلة تكتشف سرّاً خطيراً وممنوعاً:
"وكيف للكتب أن تحتوي على مثل هذه الأفكار الجريئة والمُحَرِّضَة على اللّحم؟ كيف يتجرّأ الكُتّاب على الغوص في هذه الأعماق المظلمة والرطبة من النّفس البشريّة؟"

شعرت عائشة في تلك اللّحظة بأنّها شهرزاد، تروي الحكايات لشهريار جديد، شهريار يسكن في جسد دلال الفاتن، ويتوق إلى المزيد من القصص والأسرار الدّفينة، كأنّها امتلكت الماء الذي يروي عطشه الدّائم.

أخبرت عائشة دلالاً عن أنابيس نين، وكيف أنّها وثّقَت في يوميّاتها السّاخنة قصّة حُبّها واشتعالها مع كاتب شهوانيّ آخر، لا تَقِلّ نصوصه سخونة ولزوجة عن نصوصها، وعلاقتها المحمومة به رغم أنّها كانت متزوّجة في ذلك الوقت. لقد كانت تَمَثّل لها خطّ نهاية سباق الجرأة والوقاحة بين كُتّاب الأدب الإيروتيكيّ.

حينها، شعرت عائشة بأنّ حديث دلال كان يداً خفيّةً تقرصها في أكثر أماكنها خصوصيّةً ورطوبة، وأنّها تُعَرِّض ربما ببراءة، أو بخُبْثٍ مدروس، بما تفعله هي من نشاطات "لا منهجيّة"، كما أسمتها وهي تُعَلِّق على حياة الكاتبة نين الماجنة.

وقبل انتهاء الطّعام، بدأت دلال تَعْرِض بعملها، وكيف أنّها تستخدم الخيال والفنّ لبيع قطع الملابس الدّاخليّة النّسائيّة، ليس فقط للصّبايا الجريئات، بل للنّساء من جميع الأعمار والمستويات.

"أُركِّز دائماً في عملي على كيف تشعر المرأة بجمالها الدّاخليّ والخارجيّ، كيف تحِبّ لحمها وتثق بقُدراتها وافتراسها، لتكون جذّابة للرّجل، ولنفسها أوّلاً وقبل كلّ شيء. الأمر ليس مجرّد قطعة قماش تُغطّي الجسد، بل هو حالة ذهنيّة مُعَقَّدَة، شعور بالثّقة والقوّة والتّحرّر والشّبَق."

ثمّ أضافت بنبرة فيها شيء من الأسف الخفيّ والمَكْر: "الصّبايا اللّواتي كُنّ يُسَوِّقْنَ لي في الجامعات، للأسف، تسرَّب إليهنّ الخجل فجأةً، أو ربما شيء آخر لا أعرفه تماماً، فلم يُكْمِلْنَ العمل معي. مجتمعنا يا عيّوش، لا يزال يعاني من عقدة الجسد الأنثويّ، يراه عورة يجب سترها وخنقها، لا جمالاً يجب الاحتفاء به واكتشافه."

استحضرت عائشة في ذهنها، وبشكل لا إراديّ، صورة سوق الملابس الداخليّة النسائيّة في وسط البلد بعمّان. هناك، حيث البائعون رجال يظهرون تديّناً مبالغاً فيه، مُفَصَّلاً على مقاس الخداع، بِلُحى طويلة كَثّة ومسابح خشبية لا تفارق أيديهم. بينما نظراتهم الجائعة الشبقة تتفحص أجساد النساء وتعريهن بوقاحة مُسْتَتِرَة خلف ستار التقوى المزعومة، تقيس الأرداف والصدور بموازين اللحم. وصوت تلاوة القرآن يَدور في المكان، يصدح من مسجّلات قديمة بين تماثيل العارضات البلاستيكيّة اللاتي يَكْشِفْنَ من ملابس لعب الأدوار الجنسيّة، من ممرضات بفساتين

تكشف أكثر مما تستر، أو شرطيّات بجلود سوداءِ مُحَزَّقة. هذا التناقض الصارخ والسرياليّ يُربِك حوضَهُنّ، فيشترينَ تلك الثياب بمشاعر مضطربة، سريعة، كأنّهنّ يرتكِبنَ ذنباً لا يُغْتَفَر وعاراً يجب إخفاؤه، بَدَلاً من أن يشعرن بالبهجة والثقة والاحتفاء البدائيّ بأنوثتهن واحتراق لحمهن.

سألت عائشة بفضول لم تستطع كبحه، فضول تلميذة تتلمّس أبجدية عالم جديد ومحرم: "وهل تشتري فتيات الجامعة مثل تلك الملابس التي رأيتها على سريركِ قبل قليل؟ تلك التي تبدو... جريئة جداً، شبقيّة، وتكشف الكثير وتدعو للافتراس؟"

ابتسمت دلال ابتسامة غامضة، كابتسامة الموناليزا وهي تُخفي خطيئة، وقالت بنبرة واثقة لا تخلو من إغواء مقطر: "طبعاً يشترين يا عيّوش، وبشغف يحرق الأصابع أحياناً. حتى وإن كُنّ عذارى، وينوينَ ادخار أنفسهن ولحمهن لليلة المنتظرة والموعودة...

المسألة، يا صغيرتي، تتعلق بالثقة بالنفس وبالجسد، ثقة مستمدة من كون المرأة تعرف يقيناً أنها جميلة وجذّابة ومشتهاة، وتعرف كيف تعانق وتخنق الملابس الداخلية جسدها وجلدها، حتى لو لم يرها أحد سواها أو تلامسها يد غريبة. إنه سِرّ صغير، ساخن ومبلل، بينها وبين نفسها،

يمنحها قوّة خفية، وسحراً لا يقاوم. ستعرفين ذلك قريباً جداً..."

وأطلقت ضحكة خافتة وناعمة، تحتكّ بجدران وعي عائشة، كأنها تُلمّح إلى مفاجأة حسية تنتظرها، مفاجأة قد تُغيّر نظرتها إلى نفسها وإلى جسدها وتضاريسهِ إلى الأبد، وتفتح أمامها أبواباً ونوافذ جديدة من اللذة والمعرفة والاحتراق.

كان الطبق الرئيس على المائدة "زَرْباً"، ذلك اللحم الشهي المُتَبَّل بعناية وثقل، الذي طهته دلال على نار هادئة جداً في فرن مقفل لساعات طويلة، وهو يَنْدُر أن يُقَدَّم في المنازل لأنه في الأصل ينضج في حفرة نار مدفونة، حتى يَهْمَط تماماً، يستسلم للحرارة، ويصبح طريّاً كالحرير، ويغرق في دهنه اللذيذ، كأنه يستسلم لذة الطهي البطيء الذي يحرر كل نكهاته وعصاراته الكامنة.

عندما رأت عائشة اللحم المُنْهَك طهياً يتفسّخ وينفصل عن العظم بين أصابع دلال الخبيرة، سجل ذهنها صورة الزرب كناية عضويّة قد تستخدمها عمّا تحسّ به الآن، فقد كادت تغرق في بحر من مشاعر متضاربة، دَبِقَة وحارة. حرارة خفيّة تتصاعد من أعماقها كبخار ماء ساخن، ورطوبة لذيذة، ثقيلة، تبلل أوراق حديقتها السريّة التي بدأت تزهر وتتفتّح في صمت دبقٍ تحت ملابسها.

بعد انتهاء الطعام وتلذذها باللحم، وبينما كانتا تحتسيان القهوة التركية ذات الرائحة النفّاذة والمحروقة التي توقظ الحواس وتنعش الروح المتخدّرة، قالت دلال بنبرة تحمل وعداً صريحاً بمزيد من الحميميّة والقرب الجسدي: "شرفة غرفة نومي مستورة تماماً عن أعين الفضوليين، لا يراها أحد من الجيران، محراب مغلق. سنجلس هناك بعد قليل، نشرب الشاي المعطر بالزعفران والهيل، ونكمل حديثنا الشائق في الهواء الطلق! لِنُبَرِّد أجسامنا المحمومة قليلاً"، وكأنها تشير بخبث إلى سخونة ولزوجة قِصَص عائشة الموعودة.

انتقلتا إلى الشُّرفة، التي كانت تشبه واحة صغيرة من الهدوء والجمال مُعلّقة في الهواء كعش طائر أسطوريّ. أثاث من الخيزران الداكن، ووسائد ملوّنة ومريحة تدعو للاستلقاء، ونباتات خضراء كثيفة، يانعة الأوراق، تتسلق الجدران كأنها تعانق المكان بأذرع خفية. جلست دلال قبالة عائشة. عيناها الياقوتيّتان اللتان تعكسان لون المكان وغموضه لا تفارقان وجهها ولا حركاتها للحظة.

بدأت دلال تُركّز حديثها على قراءات عائشة، على تلك الروايات المثيرة، الشبقيّة، التي تُغذّي خيالها وتلقي الحطب على فتيل رغباتها. طلبت منها، بصوت يحمل رجاءً مبطناً، أن تروي لها المزيد من القصص، أن

تصف لها تلك العوالم السحرية التحتيّة التي تتجوّل فيها بين السطور والشهوة دون خوف أو تردد. "يَذوب قلبي وينبض بعنف وأنا أستمع إليكِ تتحدثين بهذه الحرقة والشغف والجوع، يا عيّوش،" قالت دلال بصوت هامس كحفيف الحرير على جلد عارٍ، "كأن كلماتكِ المعطرة بالخيال والبلل توقظ فيّ شيئاً كان نائماً ومخدراً منذ زمن بعيد، شيئاً يَتوق إلى الحياة واللذة والافتراس."

بدا على دلال بوضوح لا لبس فيه أنها مُسْتَثارَة. أن حديث عائشة عن الرغبة العارية والخيال يحرك فيها مكامن الشوق الدَّفين ويستدعي عصارات جسدها. وعائشة، بدورها، كانت تشعر بأنها تنجرف في هذا التيار الجارف، بأن كلماتها لم تعد مجرد حروف ميتة أو معانٍ محشورة في قُمْقُم النفس الخائفة، بل أصبحت جُسوراً خفية تمتد بينها وبين جسد دلال، جسوراً من فهم مُتَبادَل ورغبة مشتركة محمومة وتوق عارم وموجع إلى كشف المزيد من الأسرار والكنوز العميقة.

كل كلمة كانت تُقرّبهما أكثر فأكثر، تُذيب المسافات. كل نظرة كانت تحمل وعداً صامتاً ومبللاً بما هو آت لا محالة، كأنهما على وشك أن تلامسا بأطراف أصابعهما تلك النشوة الذهنية العارمة التي تسبق انفجار الجسد. تلك اللذة المطلقة والحادة التي تطاردها عائشة في خيالاتها

الجامحة مع نجمة وليلى، وتتوق إليها في واقعها المقيّد خلف زجاج النوافذ، وتنتظر بفارغ الصبر والجوع أن تتجسّد أخيراً قلباً نابضاً لهذه العلاقة الآسرة التي بدأت تتشكّل خيوطها المتينة والمكهربة بينهما، خيوط من حرير ولهب، من شهد ساخن وجمر حارق.

دلال، الطالبة التي تتلمذت للتو على يد أستاذتها عائشة، كانت سريعة التعلم والاستيعاب لدرجة أنها إذا سمعت للتو تعبيراً حسياً أو مجازاً عضوياً، استخدمته ببراعة في ثنايا أسئلتها وآرائها. كأنها تخرجه من قاموس مُغَبَّر ومخفي داخل رفوف وعيها السفلي، وكأنها خرجت في رحلة داخل سهول قراءات عائشة لتلتقط الورود السامة وتَشُكُّها بثوبها وشعرها. لم تَنْقَضِ ساعة الدردشة في الشرفة إلا وهي مُزَخْرَفة بالزهور الكلامية، تفوح منها رائحة الكنايات الرشيقة وتنضح برحيق المجازات الشبقية المبللة.

ومع أنها لم تكن تعلم بوجود منافسة لها، مُتَمَثِّلة في سارة، في هذا الدرب من الدروب الزلقة المؤدّية إلى قلب عائشة ومثلثها، كانت دلال كأنها تسير على الغيوم، مدفوعة بريح الرغبة وأنفاس عائشة المتسارعة والمتقطعة.

وأكثر ما أسر عائشة وجعلها تستسلم لها، أنها تظهر دهشتها منها وإعجابها الجسدي والفكري بها دون تكلُّف أو حكم مُسْبَق، حتى إنها سألتها بعينين متسعتين: "كيف يَتَسَنّى للكُتّاب أن يغوصوا في حَيَوات الآخرين ولحومهم إلى هذا الحد العميق والمخيف؟".

فلما أجابتها عائشة بأن القصص كثيراً ما تعرض نفسها على الكتاب عرضاً وقحاً، وأن أصحاب الأقلام، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، يستعيرون ويسرقون مما قرؤوا وعاشوا إذا رأوا حاجة لمفهوم هنا أو صورة مبتلة هناك لدى شخصية من شخصياتهم، أطْنَبَتْ دلال كاشفة سراً من أسرارها التجارية والجسدية:

"أفهم ذلك تماماً، ففي التجارة نحن لا نَقْتَصِر على بيع منتج واحد جامد، بل نراقب حاجات الناس ورغباتهم المكبوتة، وإذا لمحنا شيئاً يمكن أن يسد جوعهم وحاجتهم أحضرناه لهم على طبق من فضة." هنا، وفي هذه اللحظة، فهمت عائشة وامتصت الحقيقة.

المرأة لم تكن فقط تاجرة تحف كما تعرف عن نفسها، أو حتى كما عرف عليها ذلك الطقم الدانتيل الأسود الذي كان قبل قليل مُلْقىً على سريرها كدعوة صريحة للتمزيق، ولكنها مرنة وذكية كفاية أن تبيع للناس كل ما تلمح فيهم حاجة جوع له. وظل في قلب عائشة سؤال حارق عما إذا

كانت دلال بصيرة ومدركة لحاجاتها ورغباتها هي، وهي تحدق فيها بكل حب وافتراس؟

وآخر القصص التي روتها عائشة كانت عن فتاة مراهقة ترتدي خلسة ملابس أُمِّها الداخلية المثيرة والشفافة، وتَشُدُّها من الخلف بقسوة لكي تظهر أنها على قياسها. فيحتكّ خَيْط الساتان الرفيع بِشَفْرَيْها كأنه فتيل يشعلها ويفجر رغبتها.

تتوقّف دلال عند كنايات عائشة وهي تصبّ كأساً جديداً من الشاي في الاستكانة المُذَهَّبة من الإبريق الشفّاف الذي يعلن نهايته، لتقولها بصراحة مُسْتَفْسِرَة بخبث ووقاحة مواربة: "تقصدين أنّها أدخلت خيط الساتان بين صفحات دفترها السرّي؟"، فَتَبْلَع عائشة ريقَها المالح، مستعينة بأولى رشفات كأسها الأخير لتطفئ حريق حلقها، وتجيب بصوت خفيض ومرتعش: "دفترها المبلل!".

ودلال تَنْتَهِز الفرصة الذهبية لتعيد النار إلى قرص تجارتها ومحور حديثها، والملابس الداخلية التي بدأت تبيعها إلى جانب التحف، بل وصارت هي مصدر الرزق والإغواء الأساسي. بعد لحظات من الإطناب المدروس حول هذا، تقول دلال بعينين تلمعان: "بالمناسبة يا عيّوش، لن تخرجي من هذا المَوْلِد، ومن غرفتي، دون حلوى!".

ضاقت عينا عائشة قليلاً بترقب وحذر. وعيّوش تهمس في أذنها بصوت يَلْهَث: "ربما ستعطيكِ تمثالاً من الحلوى! أو ربما لحماً من سكر!". وكانت عيّوش في الحقيقة تحاول أن تبدد قلق عائشة المتصاعد، والذي يتحول إلى خيول رغبة جامحة، رطبة ومحمومة، لا تدري إلى أين ستجر عربتها. وجسم عائشة يُفَرْقِع أصابع المجاز، مفرزاً سوائله، مظهراً حماسته واستعداده لرحلة الحقيقة التي بدأت للتو.

الفصل التاسع : وقت الحلوى

كانت شمسُ الأحدِ قد شارفت على إنهاءِ رحلتها نحو المغيب، تاركةً وراءَها أذيالاً من ضوءٍ بلونِ الزعفرانِ الذائب، تتلاعبُ بها أوراقُ نباتاتِ الشرفةِ الكثيفةِ كأصابعَ عاشقةٍ تُداعبُ خصلاتِ شعرٍ مُتمرّد. أنهت دلال جملتَها الأخيرةَ، تلكَ الجملةُ التي تشرّبتها عائشةُ كخمرةٍ مُعتّقة، وعلّقت في هواءِ الشرفةِ كحبّةِ لقاحٍ ذهبيّةٍ تنتظرُ نسمةَ رغبةٍ لتحملَها إلى تربةِ الروحِ الخصبة: "لن تخرجي من هذا المولد دون حلوى!".

ارتسمت على شفتي عائشة ابتسامةٌ خجولة، كزهرةِ لوزٍ بريٍّ تتفتّحُ على استحياءٍ بعدَ ليلٍ طويلٍ من الصقيع. الهواءُ المُحمّلُ بعبقِ الشاي بالزعفرانِ والهيل، وبقايا عطرِ دلال الذي أصبحَ كالبصمةِ العطريّةِ في ذاكرةِ حواسّها، كانَ يهمسُ بوعودٍ غامضة، وعود مشوّشة تتسرّب منها كلمات كأنّها تقرص جلد عائشة بأصابع اللذّة. شعرت بأنّ كلَّ كلمةٍ نطقت بها دلال، وكلَّ نظرةٍ تبادلتها معها في الساعاتِ الماضية، كانت تمهيداً مُتقناً لهذه اللحظة، كأنّ القدرَ، ذلكَ النّسّاجَ الماهر، كانَ ينسجُ خيوطَهُ الذهبيّةَ بصبرٍ وأناةٍ ليقودَها إلى هذه العتبةِ بالذات، عتبةِ المجهولِ اللذيذ.

قامت دلال برشاقةٍ وفستانها يتأخّر عن جسمها هنيهةً، وكأنّ ما يوحي به من كسل لذيذ لا يناسب نشاطها أمام تلك الفكرة. ثمّ جمدت كقطّةٍ

تتريّةٍ تستعدُّ للانقضاضِ على فريسةٍ ثمينة، وقالت بصوتٍ فيهِ نبرةٌ لعوبةٌ تُخفي تحتَها قراراً حاسماً كحدِّ السيف: "هذه الحلوى، يا عيّوش، لا تليقُ ببرودةِ الشرفة، أنت ترتجفين من البرد، وأنا رغم دفءِ حضورك وقصصك بدأت أبرد." مدّت يدَها، في لمسة خفيفة كجناحِ فراشةٍ على ذراعِ عائشة، لمسة كافية لإرسالِ رعشةٍ حارقةٍ لذيذةٍ في جسدِها المُتهيّئ، كعود ثقاب يُشعلُ فتيلاً قصيراً. "هيّا بنا إلى الداخل، إلى مملكتنا الصغيرة، فهناكَ ينتظرُكِ ما لم ترَهُ عينٌ من قبل، وما لم يخطُر على قلبِ بشرٍ حتّى في أجرأِ أحلامه."

تبعَتها عائشة، واستعارة وصف الجنّة لم تزل ترنّ في أذنها، وقلبُها كأنّه دفوف زارٍ في خلوة صوفيّة لحظة الجذب، كأنّهُ يُعلنُ عن بدءِ طقسٍ غامض، طقسٍ تُقدّمُ هي فيهِ قرباناً على مذبح دلال. عادتا إلى غرفةِ النوم، وأذان المغرب يرافقهما كأنّهما يدخلان جامعاً أثريّاً لتأدية الصلاة، دلفا إلى ذلكَ الفضاءِ الذي أصبحَ الآن مسرحاً مُعدًّا بعنايةٍ فائقةٍ لتمثيليّةٍ أبطالُها الشوقُ والترقّبُ واللهفةُ العمياء. المرايا المُحيطةُ بهما من كلِّ جانبٍ لم تعد مجرّدَ أسطحٍ عاكسةٍ للضوء، بل بدت وكأنّها عيونُ جمهورٍ صامتٍ من الأرواحِ الشبقة، يُضاعفُ من حدّةِ المشهد، فيزيد عدد الممثّلين والجمهور، ويُكثّفُ الإحساسَ بالمُراقبةِ الذاتيّةِ والتلصّصِ المُباحِ على الذات. شعرت عائشة بأنّ أنفاسَها تتسارع، وبأنّ الهواءَ نفسَهُ

أصبحَ مُشبّعاً بكهرباءَ خفيّة، كأنّ الغرفةَ بأكملِها تحبسُ أنفاسَها انتظاراً لما سيأتي.

بعد أن أغلقت الباب الزجاجيّ المنزلق، وسحبت ستارته اتجهت دلال بخطوات ٍواثقةٍ، كملكةٍ تسيرُ في بلاطِها، نحو خزانةِ ملابسِها المصقولةِ كمرآةٍ عملاقة، تلكَ التي شهدت قبلَ قليلٍ تلصّصَ عائشةِ الخاطفَ والُمربكَ. فتحت أحدَ أدراجِها، درجاً تفوحُ منهُ رائحةُ خشبِ الصندلِ الممزوجةِ بعبقِ المسكِ الأبيض، وأخرجت منهُ علبةَ هدايا مُغلّفةً بورقٍ حريريٍّ بلونِ الياقوتِ الأحمرِ الناريّ، نفسِ لونِ فستانِها الذي كانَ يُعانقُ جسدَها كجلدٍ ثانٍ، ومُزيّنةً بشريطٍ ذهبيٍّ رفيعٍ يلتفُّ حولَها كأفعى ذهبيّةٍ تحرسُ كنزاً ثميناً. قدّمتها إلى عيّوش، ويدا عائشة ترتجفانِ بشكلٍ طفيفٍ بالكادِ يُلاحظ، وعيناها تلمعانِ ببريقٍ لا تخطئهُ عينُ أنثى خبرت بعضَ أسرارِ الإغواءِ ودهاليزِهِ الُمعتمة: "هذه هي الحلوى التي وعدتُكِ بها أيّتها الفتاة اللعوب".

ارتجفت أصابعُ عائشة وهي تتناولُ العلبة. شعرت بثقلِها الرمزيّ أكثرَ من وزنِها الفعليّ، كأنّها تحملُ بينَ يديها مصيرَها الُمقبل. تردّدت للحظة، كأنّها تخشى ما قد تجدُهُ في الداخل، كأنّها على وشكِ أن تفتحَ صندوقَ "باندورا"، ذلكَ الصندوقُ الذي ما إن يُفتح، حتّى تنطلقُ منهُ كلُّ الأسرارِ

والرغباتِ المكبوتة. ثمّ، تحتَ نظراتِ دلال المُشجّعةِ والمُنتظرة كصيّادٍ يترقّبُ وقوعَ فريستهِ في الشرك، رفعت الغطاءَ ببطءٍ شديد، وقلبُها يكادُ يقفزُ من بينِ أضلاعِها، ولم تزل عيناها معلّقة بعيني دلال، ولكن شفتاها كانتا تتباعدان كأنّها طفل في مهرجان الحلوى.

في الداخل، على فراشٍ من حريرٍ بلونِ الفجرِ الورديّ، استقرَّ طقمُ ملابسَ داخليّةٍ لم ترَ عائشةُ مثيلاً لهُ في أعنفِ خيالاتِها المُستعارةِ من الرواياتِ الجريئة، أو في ومضاتٍ خاطفةٍ من أفلامٍ لم تجرؤ على إكمالِ مشاهدتِها حياءً أو خوفاً. كانَ مصنوعاً من قماشٍ زيتيٍّ اللون، ناعمٍ كجلدِ أفعى استحمّت لتوّها تحتَ ضوءِ شمس الربيع الباردة، يلمعُ بخفوتٍ كأنّهُ سرٌّ مُغلّفٌ بالغموضِ والفتنة. حمّالةُ صدرٍ تكادُ تكونُ مجرّدَ خيوطٍ رفيعةٍ من حريرٍ مُطرّزٍ بأوراقِ شجرٍ دقيقةٍ تتلألأُ كنجومٍ صغيرةٍ في سماءٍ زيتونيّة، وسروالٌ تحتيٌّ مماثل، بخيطٍ رفيعٍ كشعاعِ قمرٍ يختفي بينَ الفخذين، لا يتركُ للخيالِ إلا مساحةً ضيّقةً جدًّا ليشردَ فيها، كشقٍّ صغيرٍ في جدارٍ رخاميٍّ يُطلُّ على حديقةٍ سحريّة.

تنفّست عائشة بعمق، كأنّها تستنشقُ رائحةَ الخطرِ الممزوجَ بالإغراء. "هذا... هذا يفوقُ كلَّ تصوّر، يا دلال. إنّهُ... كأنّهُ قطعةٌ من حلم." وكأنّ الكلمات الأخرى التي كانت تقولها لم تخرج، لم تقل إنّها لا

تستطيع قبوله! سقطت تلك الكلمات قبل أن تصل لسانها الذي نسيَ ما دوره عند بلع الريق.

ابتسمت دلال ابتسامةَ من يعرفُ أسرارَ الأحلامِ وكيفَ تُصنع. "والأحلامُ، يا عيّوش، خُلقت لتُعاش، لا لتُراقبَ من بعيد. ولكن، لديَّ أمنيّةٌ أتمنّى ألا تحرميني منها" اقتربت منها أكثر، حتّى شعرت عائشة بدفءِ أنفاسِ دلال يُلامسُ وجهَها، وبرائحةِ عطرِها المُركّزةِ التي بدأت تُخدّرُ حواسَّها. "أنتِ تعلمينَ أنّني أُفكّرُ في توسيعِ تجارتي لتشملَ فتياتِ الجامعةِ اليافعات، تلكَ الزهراتُ التي تتفتّحُ على الحياةِ بفضولٍ وشغف. وأحتاجُ أن أعرفَ كيفَ يبدو هذا التصميمُ الجديدُ على جسدِ فتاةٍ من جيلِكِ، كيفَ هو قياسُهُ، كيف يُعانقُ منحنياتِ جسدك الحلو؟ أنتِ، بجسدِكِ هذا الذي يُشبهُ قصيدةً يحلم أن يقولها الشعراء، الذي يجمعُ بينَ براءةِ الطفولةِ وفتنةِ الأنوثةِ الناضجة، خيرُ من يمكنُ أن يُساعدَني في هذا. هلا... هلا جرّبتهِ لي؟ اعتبريها استشارةً عمليّة، نصيحةَ خبيرةٍ لخبيرة، ولكِ مُطلقُ الحرّيّةِ في إبداءِ رأيكِ الصريحِ دونَ مجاملة، ودونَ خوف."

شعرت عائشة بأنّ الغرفةَ تضيقُ بها، وبأنّ الهواءَ أصبحَ ثقيلاً كأنّهُ مُحمّلٌ بغبارِ الذهب. الطلبُ كانَ صريحاً، مُغلّفاً بذرائع "العمل" الواهيةِ

كخيوطِ العنكبوت، خيوط العنكبوت التي تلتفّ عليها وتصبح أقوى كلّما تضاعفت لتثبّتها، لكنّهُ كانَ في جوهرِهِ دعوةً صريحةً لا يمكنُ لعيّوش أن ترفضَها أو تتجاهلَها. "أنا... أنا لا أستطيع،" تمتمت بصوتٍ خافتٍ كحفيفِ أوراقِ الخريفِ الربيع في يوم ساكن الريح، ووجهُها انتقع بسمرة الخجل كأنّه حلوى خرجت للتوّ من الفرن، أو ربما... كنار الفرن الذي نضجت الحلوى فيه. "أخافُ... أخافُ أن أُفسده"، ولم تكمل أنها تخاف أن تفسدَهُ بما يرشحُ منها، بما قد يفيضُ من ينابيعَ لم تعد تملكُ السيطرةَ عليها." كانت تلكَ هي المرّةَ الأولى التي تُصرّحُ فيها، ولو بشكلٍ مُبطّنٍ ومُلتوٍ، عن أثرِ الإثارةِ المُباشرِ على جسدِها، عن ذلكَ "الشهدِ" اللزجِ الذي كانت تحاولُ دائماً كبتَهُ أو تجاهلَهُ أو حتّى إنكارَ وجودِهِ، كأنّهُ وصمةُ عارٍ لا تليقُ بفتاةٍ "مُحترمة".

دبّ فيها حياءٌ مفاجئ، كستارٍ أحمرَ قاني اللّونِ أُسدلَ فجأةً على مسرح روحها المُضطربة. كيف لها، بعد كلّ ما روته من قصصٍ جريئةٍ لدلال، بعد كلّ تلكَ الخيالاتِ التي نسجتها في عتمةِ غرفتِها كأنّها فتاة فارسيّة تحيك سجّادة هي ثمن حرّيتها، أن تتلعثمَ أمامَ هذا الموقف، أن تشعرَ بهذا الارتباكِ الطفوليّ الذي يُذكّرُها بأيّامِ البراءةِ الأولى، أيّامَ كانت تخجلُ من ظلّها؟

ضحكت دلال ضحكةً ناعمة، كخريرِ ماءٍ في جدولٍ صيفيٍّ رقراق، كأنّها تُداعبُ وتراً حسّاساً ومُختبئاً في أعماقِ روحِ عائشة، وقالت في محاولةٍ بدت يائسةً للوهلةِ الأولى، لكنّها في الحقيقة كانت مُتقنةً ومُخطّطاً لها بعنايةٍ فائقة، كأنّها تُلقي بحبلِ نجاةٍ أخيرٍ لغريقةٍ توشكُ على الاستسلامِ لأمواجِ الخجلِ العاتية: "أعرف أنّك بنت بنوت.. .فإذا كنتِ محرجةً، فأنا أيضاً يمكنني أن أخلع هذا الثوب عنّي... لكي لا تشعري أنّك وحيدة على هذا المسرح الجميل".

ودون أن تفسح مجالاً لها لكي تردّ، وبحركة سريعة بدت مثل بطءٍ مُتعمّد، كأنّها راقصة تؤدّي حركتها الأيقونيّة، أزاحت حمّالات فستانها عن كتفيها تاركة إيّاه ينزلق عن مشربيّة جسمها كعاشق أثقله الحبّ، ليكشفَ عمّا تحته. كانَ هو. الطقمُ الأسودُ المذهّب الذي تلصّصت عليه عيّوش وأغمضت عائشة عينيها لتحتفظ بصورته، يُعانقُ الآن جسدَ دلال كأنّهُ خُلقَ له، كأنّهُ وشمٌ من دانتيلٍ أسودَ ونورٍ نجميٍّ مُتلألئ. وقفت أمامَ عائشة، شامخةً كملكةِ سبأ تستعرضُ كنوزَها أمامَ النبيّ سليمان، وقالت بصوتٍ لا يخلو من تحدٍّ ناعمٍ كالحرير، ومن دعوةٍ صريحةٍ لا تُقاوم: "الآن، يا عيّوش، كلانا في الهوا سوا. تفضّلي، ولا تدعيني هنا وحيدة، فأنا أشعر بالحرج!"، وعيّوش تنبضُ كأنّها قلب عارٍ، وتعرف أنّ موجات الحرج التي تملأ الجوّ ليست من تردّد دلال أصلاً.

سلّمتها الطقمَ الزيتيّ، ودخلت عائشة إلى الحمّامِ المُلحقِ بغرفةِ النوم، ذلكَ الحمّامُ الذي شهدَ قبلَ أيّامٍ قليلةٍ انفجارَ رغبتِها الجامحةِ على وتد دلال العاجيّ. قلبُها كانَ يقرعُ كأنّه طفّاشة تكاد تكسر بوّابة قلعتها، وصوتُ عيّوش يتردّدُ في رأسِها كصدى شيطانٍ مُغري ومُلحّ: "هيّا يا فتاة، لا تكوني جبانة الآن بعد كلّ هذا! انظري هناك انظري!" وعائشة تلمح اللمعان على فخذي دلال وهي تنزل عينيها في حرج.

أغلقت البابَ خلفَها، واستندت إليهِ للحظة، تحاولُ أن تستجمعَ أنفاسَها المُبعثرةَ حولها كأنّها تأخذ كلّ نفس بقرار منفصل. ظلّت تُبعدُ عينيها، بجهدٍ واضح، عن ذلكَ الجارور السفليّ الذي تعرفُ ما يُخبّئهُ من أسرارٍ صلبةٍ ووعودٍ لذيذة، لكي لا تزيدَ طينة عطرها بِلّة، ولكي لا تُشتّتَ ما تبقّى لها من تركيزٍ هشٍّ كجناحِ فراشةٍ تحتَ مطر الربيع. وقفت أمامَ المرآة، وواجهت انعكاسَها. كانت عيناها مُتّسعتين، تحملانِ مزيجاً من الخوفِ والتوقِ والفضولِ المُميتِ الذي يدفعُ الإنسانَ أحياناً إلى حافّة الهاوية، إلى تذوّقِ الثمرةِ المحرّمة. خلعت ثيابَها ببطءٍ شديد، قطعةً قطعة، كأنّها تتجرّدُ من جلدِها القديم كأنّها تخلع "عائشة" الطالبةِ الخجولةِ المُلتزمةِ التي تخشى ظلّها، وتطلّ من تحت الثياب عيّوش الوقحة. ثمّ، بيدينِ ترتجفانِ قليلاً، مسحت بثيابها الداخلية القطنيّة البيضاء بوّابة حديقتها

وباطن فخذيها، وبيدين كأنّهما ليستا لها، بل لامرأةٍ أخرى تسكنُ جسدَها، ارتدت الطقمَ الجديد.

التصقَ بجلدِها كأنّهُ طبقةٌ أخرى من روحِها، كأنّهُ وُلدت فيه، كأنّهُ جزءٌ لا يتجزّأُ من تكوينِها الأنثويّ. لونهُ الزيتيُّ الغامقُ، كلونِ أوراقِ الزيتونِ المُعمّرةِ التي شهدت آلافَ الفصول، أبرزَ سُمرتَها الدافئةَ كلونِ العسلِ البرّيِّ الممزوجِ بحليبِ اللوز، ومنحَها غموضاً آسراً، كأنّها كاهنةٌ فرعونيّة تستعدُّ لتقديمِ أثمنِ قُربانٍ لآلهةِ الحبِّ والخصوبة. لمساتُ الحريرِ الناعمِ على بشرتِها كانت كهمساتِ عاشقٍ مُتمرّس، تُوقظُ كلَّ خليّةٍ نائمةٍ في جسدِها، وتُرسلُ تيّاراتٍ خفيّةً من لذّةٍ مُتوقّعةٍ تُشبهُ الهواء حول أجنحة النحلِ وهو يمتصُّ رحيقَ الأزهار. شعرت بقمّةِ نهديها تنتصبانِ تحتَ لمساتِ القماشِ الخفيف، وبحرارة جسمها تتركّز في نقاط اللذّة. نظرت إلى المرآةِ مرّةً أخرى، ولم تعد ترى الفتاةَ الخائفةَ التي دخلت هذا الحمّامَ قبلَ دقائق، بل رأت امرأةً أخرى، امرأةً لم تكن تعرفُ بوجودِها قبلَ هذهِ اللحظة، امرأةً تحملُ في عينيها قوّةَ الجاذبيّةِ وسحرَ الأنوثةِ المُكتشفةِ حديثاً، كأنّها أفروديت خرجت لتوّها من زبدِ البحر.

وفجأة، ودونَ سابقِ إنذار، سمعت صوتَ خرمشةٍ خفيفةٍ على الباب، كأنّها نقرةُ مخلبِ قطّةٍ لعوبٍ تُريدُ الدخولَ إلى عالمِ الأسرار. "أنا هُنا،"

همست دلال من الخارج، وصوتُها اخترقَ جدارَ الحمّامِ كأنّهُ موجةٌ دافئةٌ من حنانٍ ورغبةٍ لا تُقاوم، "جمهوركِ ينتظر!".

أخذت عائشة نفساً عميقاً، كأنّها تستدعي روحاً أخرى لتسكنها من جوّ الحمّام الواسع، وأطلقته من صدرها كأنّها تُلقي بآخرِ قطعةِ حياءٍ في مهبٍّ الريح. مسحت يدها على بطنها موزّعة الندى الذي يتسرب من مسام راحتها على جسمها وكأنّها توحّد لمعته، ويدها ترتجفُ الآن بصورة ملحوظة كجناحِ طائرٍ جريح، وتناولت قارورة عطر من الحمّام، ورشّت من بعيد كأنّها تلمّع أوراق شجرتها. ارتدت السروالَ التحتيّ الرفيعَ بخيطهِ الذهبيّ، وكأنّها ترتدي قفّازَ طبيبٍ جرّاحٍ يستعدُّ لعمليّةٍ دقيقةٍ ستُغيّرُ مجرى حياتِها إلى الأبد، أو كأنّها ترتدي تاجَ ملكةٍ تستعدُّ لاعتلاءِ عرشِها. ثمّ، بجرأةٍ لم تكن تظنّها تملكها في أعتى كوابيسِها أو أجملِ أحلامِها، شقّت الباب.

كانت دلال تنتظرها، مُستندةً إلى إطارِ البابِ بأناقةٍ مُتعمّدة، وابتسامةٌ واسعةٌ تُضيءُ وجهَها كقمرٍ في ليلةِ تمامه، أو بالأحرى كشمسٍ تنتظر خروجها في النهار. عيناها كانتا تلمعانِ بترقّبٍ مُفعمٍ بالرغبةِ الصريحةِ التي لم تعد تُخفيها، كأنّهما جمرتانِ مُتّقدتانِ في عتمةِ الليل. "أغمضي عينيكِ،" قالت عائشة بصوتٍ خرجَ أثبتَ ممّا توقّعت، كأنّ "عيّوش" هي

من تتحدّثُ الآن بكاملِ ثقتِها وجرأتِها المعهودة، كأنّها تُصدرُ أمراً لا يمكنُ عصيانُهُ.

أطاعت دلال، وأغمضت عينيها، تلكَ العينانِ اللتانِ رأتا الكثيرَ من أسرارِ الرجالِ والنساء، تاركةً لعائشةَ زمامَ المبادرةِ في هذهِ اللعبةِ الخطرةِ واللذيذة، كأنّها تُسلّمُها مفاتيحَ مملكتِها. مسحت يدها ببطنِها بسرعةٍ وخفّة مرّة أخرى، وأخرى على ردفها، كأنّها تخشى أن ينزلق جلد الثقة الذي ارتدته بسبب ما ترشحه مسامها من عرق التوتّر. قادتها إلى المرآةِ الطويلةِ المعلّقةِ على الحائطِ المُقابلِ للسرير، تلكَ المرآةُ التي شهدت الكثيرَ من أسرارِ دلال وخلواتِها، والتي ستشهدُ الآن سرًّا جديداً. أوقفتها أمامَها، ثمّ وقفت هي بينَ دلال والمرآة، مُحافظةً على مسافةٍ أمان موارب بينهما. وأدارت وجهها نحو المرآة. "الآن،" همست عائشة في هواءِ الغرفة، وأنفاسُها الحارّةُ تصل بشرة دلال، وتُداعبُ كقبلاتِ فراشةٍ تائهةٍ في حديقةٍ، "افتحي عينيكِ."

فتحت دلال عينيها ناظرة في المرآة أوّلاً، وشهقت شهقةً خفيفة، كمن رأى معجزةً لم يكن يتوقّعُها في أجرإ أحلامه، أو كمن اكتشفَ كنزاً مدفوناً منذُ آلافِ السنين. اتّسعت عيناها ذهولاً، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ لا تُوصف، مزيجٌ من الإعجابِ الخالصِ والدهشةِ المُطلقةِ والرغبةِ

الصريحةِ التي كادت أن تُفقدَها صوابَها وتجعلَها تركعُ أمامَ هذا الجمالِ المُتجلّي. "بسم الله ما شاءِ الله..." تمتمت بصوتٍ خافت، كأنّها تُصلّي في محرابِ الجمالِ الأنثويّ، أو كأنّها تُرتّلُ آياتٍ من سِفرِ العشقِ الممنوع. "بسم الله ما شاءِ الله... سبحانكَ يا خالقَ كلٍّ هذا الجمال! تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين! ما هذا يا عيّوش؟ ما هذا السحرُ الذي تُخفينه تحتَ عباءةِ الحياءِ والخجل؟ كأنّكِ حوريّةٌ هبطت من الجنّةِ لتوّها"، وعينها تنتقل من المرآة إلى أرداف عائشة "أحيطك بكلمات الله التامّة من عيني، لتكن عيني باردة عليك!". عيناها فراشتان تلامسان جلد مؤخّرة عيّوش، وعيّوش تعلم أنّ علامة مميّزة في ردفها الأيمن هي ما استرعى انتباه دلال حتّى أطالت فراشتاها المكوث هناك.

كانت اللازماتُ الدينيّةُ، الخارجةُ من فمِ دلال، سياطاً من نارٍ وثلجٍ على ظهرِ عائشة. شعرت بقشعريرةٍ حارقةٍ تسري في جسدِها كلّه، من أخمصِ قدميها حتّى قمّةِ رأسِها، مزيجٌ من لذّةِ الإطراءِ المُميتِ الذي يُداعبُ غرورَها الأنثويّ ويُشعرُها بأنّها ملكةُ الكون، والشعورِ بالذنبِ لتدنيسِ هذهِ الكلماتِ الطاهرةِ وهي تُقرأ على لحمها العاري الذي يرشح شهوةً للممنوع، كلمات تفوحُ منها رائحةُ الخطيئةِ اللذيذةِ كبخور شيخ صوفيّ يحرقُه في معبدٍ وثنيّ. نظرت في المرآةِ لترى كيفَ تلتهمُها دلال بعينيها، كيفَ ينعكسُ ذلكَ الشغفُ المُتّقدُ في بؤبؤيها، كأنّها تجرّدُها من آخرِ

طبقاتِ الحياءِ الهشّة، وتُعرّيها أمامَ نفسها وأمامَ العالم، وتجعلُها ترى نفسَها بعيونٍ جديدة، عيون متناثرة في مرايا الغرفة.

بدأت دلال، وكأنّها مدرّبة رقص تُعدّلُ وقفة راقصتها للمرّة الأخيرةِ قبلَ عرضِها على الجمهورِ المُنتظر، أو كأنّها نحّات يضعُ اللمساتِ الأخيرةَ على تمثالٍ ليكون كما تخيّله بالضبط، تُساعدُ عائشةَ على الوقوفِ بثقةٍ أكبر، كأنّها تُعيدُ تشكيلَها من جديد، وتُخرجُ منها تلكَ المرأةَ القويّةَ والجريئةَ التي كانت تختبئُ في أعماقِها. وضعت يداً على كتفِها، تُديره برفقٍ ليُصبحَ أكثرَ استقامةً وشموخاً، كأنّها تُعلّمُها كيفَ تواجهُ العالمَ دونَ خوف، وأخرى على خصرِها، تُبرزُ انحناءاتِهِ الرشيقةَ التي تعلّمت أن تخجل منها وأن تسترها. "قفي هكذا... ارفعي رأسكِ قليلاً، كأنّكِ ملكةٌ تتحدّى العالمَ بأسره، ولا تخشى شيئاً... نعم، هكذا تماماً. انظري إلى نفسكِ، يا عيّوش. انظري إلى هذهِ القوّةِ الكامنةِ فيكِ، إلى هذا السحرِ الذي تُخفينه عن العالم، كأنّهُ جوهرةٌ ثمينةٌ تخافينَ عليها من عيونِ اللصوصِ والحسّاد، انظري إلى ما كنت تخفينه حتّى عن عينيك!".

ارتخى جسدُ عائشة تحتَ لمساتِ دلال التي بدأت تنزلُ بخفّةٍ وحنانٍ على جانبي بطنِها، تُداعبُ خاصرتَها بأطرافِ أناملها الدافئة، كأنّها ترسمُ عليها وشوماً من نارٍ خفيّةٍ لا يراها إلا من يملكُ بصيرةَ العشّاق. ومرّت

على منحنياتها من الخلف، على تكوّر مؤخّرة عائشة من الأسفل، حيث تكمن شامتان متجاورتان وضعتهما صدفة الميلاد وشما على جسمها، "أنتِ... أنتِ تُدغدغينني،" قالت عائشة بضحكةٍ تتفلّت وهي تودّ الحفاظ على ما أنجزته يد دلال من منحوتة جسدها، وما إن وصلت أصابعُ دلال إلى كشحِها، تلكَ المنطقةُ الحسّاسةُ جانب الخصر، حتّى تحوّلت الكركرة إلى رغبة صافية.

استدارت لتُواجهَ دلال، وقد اختلطَ الحياءُ بالرغبةِ في عينيها كألوانِ قوسِ قزحٍ بعدَ عاصفةٍ ربيعيّة، وقالت بصوتٍ يكادُ يكونُ همساً، كأنّها تُفشي سرّاً من أسرارِ الكونِ العميقةِ التي لا يمكنُ البوحُ بها إلا في لحظاتِ الصدقِ المُطلق: "أخافُ... أخافُ أن أُفسدَ لكِ الطقمَ يا دلال... إذا بلّلتُه فالذنب ذنب أصابعك!".

اقتربت دلال، حتّى كادت أنفاسُهما تختلط، حتّى شعرت عائشة بحرارةِ جسدِها تُذيبُ آخرَ قلاعِ مقاومتِها الهشّةِ كأنّها قلاعٌ من رملٍ أمامَ موجٍ ثابت لا يكلّ. همست في أذنِها، ودفقات صوتِها كانت كرشفات نبيذ معتّق يسكر الحواسَّ ويُفقدُ العقلَ صوابَهُ ويجعلُ الروحَ ترقصُ طرباً: "شهدُكِ، يا صغيرتي، لن يُفسدَهُ، بل سيزيّنهُ، سيُضفي عليهِ لمسةً من عبقِكِ الخاصّ، كرشّة عطر ثمين على قطعةِ حريرٍ، أو كحبّةِ لؤلؤٍ في سرّة

أميرة ماجنة." ثمّ، بجرأةٍ قاطعة، كأنّها تُلقي بقنبلةٍ من لهبٍ وشوقٍ لا يُقاوم، قالت وعيناها تُعانقان شفتي عائشة بنظرةٍ جائعةٍ كذئبةٍ لم تأكل منذُ أيّام: "وربّ العزّة... وربّي يا عيّوش، لو لم أكن مُتخمةً من وليمةِ الغداءِ، لأكلتُكِ الآن، قطعةً قطعة، فقد خلق هذا الجسد ليؤكل!".

شعرت عائشة بأنّ صدى تلك الكلمات ما يزال يتردّد على شفاه انعكاسات دلال في مرايا الغرفة، كأنّ الكون كلّه قد توقّف، وبأنّ الزمنَ تمدّد ليحتمل هذه اللحظة وحدَها، ليكون هو هي، لا قبلَها ولا بعدَها، كأنّها نقطةٌ فيها محيط لا نهائيّ من اللذّة. رفعت عينيها، وقد اختفى منهما أثرُ الخجلِ تماماً، وحلّ محلّهُ بريقُ التحدّي والدعوةِ الصريحةِ التي لا لبسَ فيها، وقالت بصوتٍ خرجَ كأمرٍ لا يمكنُ رفضُهُ، كترنيمةِ إغواءٍ لا تُقاوم، كأنّها تُلقي بمفتاحِ الجنّةِ في يدِ شيطانٍ مُنتظرٍ على أحرَّ من الجمر: "أليسَ عندكِ مكانٌ للحلوى؟"

اتّسعت ابتسامةُ دلال، حتّى كادت تُضيءُ الغرفةَ بأكملِها، كأنّ ألفَ شمسٍ قد أشرقت في آنٍ واحد، وكأنّ كلَّ نجومِ المجرّةِ قد تجمّعت في عينيها. "أنتِ، يا عيّوش،" قالت بصوتٍ عميقٍ كقرارِ لحنٍ خالد، كأنّها تُعلنُ عن بدءِ وليمةٍ أسطوريّةٍ لن تُنسى، "أنتِ الطبق الرئيس هذا المساء، وكلَّ مساءٍ تشائين، وأنتِ الحلوى، وأنتِ الفاكهة، وأنتِ كلُّ ما أشتهي."

لم تحتج دلال إلى أكثرَ من ذلكَ الإذنِ الصريح، من تلكَ الدعوةِ التي فتحت أمامَها كلَّ الأبوابِ المُغلقةِ والمُحرّمة. أمسكت بخصر عائشة وبدّلت مكانها معها، حتّى غدت عائشة بينها وبين السرير، ثمّ انحنت، وجثمت على ركبتيها أمامَ عائشة، كأنّها تركع في محرابِ اللذّةِ وتُقدّمُ فروضَ الطاعةِ والولاء، أو كأنّها عابدةٌ تتضرّعُ أمامَ إلهةِ الجمالِ والخصوبةِ التي تجلّت أمامَها في أبهى صورِها. رفعت رأسَها، ونظرت إليها نظرةً فيها عبادةٌ وتوقٌ وشيءٌ من الجوعِ المُقدّسِ الذي لا يرتوي إلا من نبعِ الحياةِ ذاتِها، من رحيقِ الأنوثةِ الخالصة. ثمّ، برفقٍ مُتعمّد، كأنّها تخشى أن تكسرَ هذهِ اللحظةَ الهشّةَ الثمينةَ كزجاجةِ عطرٍ سريع الفوحان، أطبقت شفتيها المُكتنزتين على مثلّثِ الدانتيل الزيتيّ الذي يُغلّفُ بابَ حديقة عائشة، كأنّها تُقبّلُ عتبةَ هيكلٍ مُقدّسٍ قبلَ الدخولِ.

وكأنّها تعرف الأثر الذي ستتركه في جسد عائشة، أمسكت يدها ووضعتها على رأسها كمن يأخذ البركة، لتستند عائشة عليه، وأزاحت الدانتيل جانباً. وهكذا بدأت رحلةُ لسانها الاستكشافيّة، بدأت ترتّلها آية من نور، وذلكَ اللسانُ الخبيرُ الذي يعرفُ كلَّ الدروبِ الخفيّةِ والممرّاتِ السريّةِ في جسدِ الأنثى، كأنّهُ دليلٌ مُتمرّسٌ في غاباتِ الأمازونِ المجهولةِ التي لم تطأها قدمُ إنسانٍ من قبل. كان دليلاً عليماً بدروب الرغبة وطرقها المختصرة وممرّاتها الطويلة. لسانٌ كأفعى تُداعبُ فريستَها قبلَ التهامِها،

أو كريشة فنّانٍ يرسمُ خريطةَ اللذّةِ على جلدٍ مُشتهى بألوانٍ من نارٍ وماءٍ وريح. كانت تصفُ ما تتذوّقهُ هامسةً بكلمات تُلقيها بينَ قبلةٍ وأخرى، كأنّها تعويذةٌ سحريّةٌ تُوقظُ الموتى، تقول ما تشعرُ بهِ، تحوّلُ المشهدَ إلى قصيدةٍ حسيّةٍ تُتلى على مسامعِ عائشة التي بدأت تذوب، تتلاشى، تستحيلُ موجةً من لذّةٍ صافيةٍ لم تعرف لها مثيلاً من قبل، لذّةٌ تُنسيها اسمَها، وعالَمها، وكلَّ ما كانَ يُقيّدُها ويُكبّلُها. كانت عائشة تسمع الهمس بيدها قبل أذنها، بل بجلدها الذي يتمطّى لذّة تحت عنف لسان دلال. شعرت به كأنّهُ أصابع عازفة تُداعبُ أوتارَ قيثارةٍ سحريّة، أو كأنّهُ مفتاحٌ مصمّم لقفلها، ذاك الذي يخفي كنوزاً تتعبّد دلال أمامها شكراً وطمعاً. كلُّ لمسةٍ كانت تُرسلُ تيّاراً من كهرباءَ لذيذةٍ تجتاحُ جسدَها، تُوقظُ براكينَ خامدة، وتُفجّرُ ينابيعَ مُعطّلة.

تلوّت عائشة، كسمكةٍ فضيّةٍ تُصارعُ شبكةَ صيّادٍ أسطوريّ، أو كغزالةٍ تائهةٍ وقعت بين براثن ذئبة جائعة، وتشبّثت يداها بشعرِ دلال الداكنِ الذي تفوحُ منهُ رائحةُ الفواكهِ الاستوائيّةِ الممزوجةِ بعرقِ الإثارةِ والشهوة، وتقوّس جسدها كقوسِ نصرٍ يُعلنُ هزيمةَ المقاومةِ واستسلامَ الروحِ لنداءِ الجسدِ الصارخِ الذي لا يمكنُ تجاهلُهُ. شعرت بتلكَ الموجةِ الكونيّة تتجمّعُ في أحشائِها، كبركانٍ على وشكِ الانفجار، كعاصفةٍ هوجاءَ تقتربُ شيئاً فشيئاً، كجيشٍ جرّارٍ يُحاصرُ قلعةً منيعة. وتراجعت لتجلس على حافّة

السرير وترفع عينيها للأعلى، فرأت مرآة أخرى ملتصقة بالسقف، وشاهدت وجه دلال مدفوناً بين رجليها، وفي لحظةِ خوفٍ غريزيٍّ من هذا الفيضانِ القادم لا محالة، من قوّةِ هذا الرشقِ الموعود الذي سترك جسدها بالوناً مرتخياً، أمسكت برأسِ دلال بكلتا يديها، مُحاولةً إبعادَها قليلاً، كأنّها تُريدُ أن تحميها من تلك اللحظة، فهي لم تكن تعلم إن كانت دلال تتوقّع نشوةً كتلك، وربما أرادت أن تستمتعَ أكثرَ بهذا الترقّبِ اللذيذِ الذي يسبقُ العاصفة، أن تُطيلَ أمدَ هذهِ اللذّةِ التي لم تتذوّق مثلَها في حياتِها كلّها.

لكنّ لسانَ دلال، ذلكَ اللسانَ الذي لا يعرفُ التراجعَ أو الاستسلام، ذلكَ اللسانُ الذي خُلقَ ليُثيرَ ويُغري ويُشعلَ النيران، طال حتّى لعق الكرزةَ المدلاة على باب حديقتِها، تلكَ البُرعمةُ الصغيرةُ التي تختزنُ كلَّ أسرارِ اللذّةِ الأنثويّة، يد بابها السحريّ التي تفكّ مغاليق الجسم وتفتحُ أبوابَ الفردوسِ على مصراعيها. ضغطَ لسانها عليه ضغطةً خفيفةً، لكنّها كانت كافيةً لتشقّق السدود التي كانت عائشة تبنيها لتؤجّل تلك اللحظة. صرخت عائشة وعضّت على ذيل الصرخة الخارجة لتسكتها، وهي تعاني مزيجاً من الألمِ الفتّاكِ واللذّةِ القاتلةِ والخوفِ المُقدّسِ والانتصارِ المُذهل، ودفعت بوجهِ دلال نحوها بكلِّ ما أُوتيت من قوّة، ضاغطةً عليها بينَ فخذيها، كأنّها تُريدُ أن تلدها إلى داخلها، أن تتوحّدَ معها في هذهِ

اللحظةِ الأبديّةِ. وفي تلكَ اللحظةِ بالذات، انفجرت نافورتُها سيولاً من شهدٍ مُقطّر، وتدفّقت بغزارةٍ لم تعهدها من قبل، كأنّها أرسلت لتغرق قوم نوح بدفقها، أو كأنّ أنهار الجنّة فاضَت على ضفافِ روحِها، لتُغرقَ شعرَ دلال ونهديها المُغطّيينِ بالدانتيلِ الأسود، ولتُبلّلَ فراشَ الحريرِ الذي كان يتآمر مع لسان دلال، وقد بلغ البلل ركبتي دلال، كأنّ بحراً من عالم الجنّ خرج من قارورة الجسد.

أغلقت عائشة عينيها، كأنّها تُريدُ الاختفاءَ من فرطِ الحرجِ والنشوةِ المُتداخلين، كأنّها تُريدُ أن تذوبَ في هذا الفراشِ وتصبحَ جزءاً منه. شعرت بأنّها عاريةٌ تماماً، ليسَ فقط جسديًّا، بل روحيًّا أيضاً، كأنّ كلَّ أسرارِها قد كُشفت، وكأنّ شهدت غرق قريتها بهذا المدّ العظيم. حاولت أن تستجمعَ أفكارَها المُشتّتة، أن تُلملمَ شظايا وعيها المُتناثر، لتشرحَ لدلال أنّ نشوةَ بعضِ النساءِ تكونُ هكذا، وأنّ هذا السيلَ الجارفَ ليسَ استجابة جسد طفوليّ للإثارة، بل هو ذروةُ اللذّةِ في أنقى صورِها، هو عصيرُ الروحِ المُقطّر، هو نبيذُ الأنوثةِ الخالص. لكن قبلَ أن ينطقَ فمُها المتلعثمُ بأوّلِ حرف، وقبلَ أن تُغرقَها موجةُ الخجلِ القاتلِ التي بدأت تتصاعدُ في أعماقِها، تفاجأت بدلال ترفعُ رأسَها، وتُسكتُها بابتسامةٍ تشعُّ من وجهِها كلّه، بل من جسدِها كلّه، لقد أطلّت من تحتها كأنّ

ابتسامتها تمتدّ لكلّ ما يظهر من جسمها الذي أخذ ينتصب وهي لم تزل جالسة، ظهر نهداها المبتسمان ثمّ سرّتها الجذلة.

"ليسَ عقلُكِ وحدَهُ المتدفّق، يا صغيرتي!" قالت دلال بصوتٍ يحملُ مزيجاً من الإعجابِ الخالصِ والدهشةِ المُحبّبةِ والافتتانِ العميقِ الذي لا يمكنُ وصفُهُ بالكلمات. "لديكِ قوى خارقةٌ يا عيّوش، وكنت قبلت عبادتك قبل أن أرى معجزاتك!" وعيّوش تحاول دفن وجهها بكفّيها، يمنعها من ذلك أنّها لا تريد أن تغيب دلال لحظة عن عينيها.

قالتها، ثمّ نهضت برشاقة، كأنّها فتاة طالها الرشق من البركة فقرّرت الغوص فيها. بدت وكأنّها قد استحمّت بنافورة عيّوش وتطهّرت من كلّ خطيئة. ثمّ ساعدت عائشةَ على اعتلاءِ الفراشِ الحريريّ، ذلكَ الفراشُ الذي أصبحَ الآن مذبحاً مُقدّساً لطقوسِهما السريّة، ومسرحاً لتجلّياتِ الرغبةِ المُتبادلةِ التي لا تعرفُ حدوداً. وعيّوش تراقب جسد دلال في المرآة العلويّة، وتحاول أن تلتقط صوراً تقتات عليها في أيّام وحدتها. اعتلتها دلال بدورها، كأنّها موجةٌ تُعانقُ موجة، أو كأنّها كوكبٌ يدورُ في فلكِ كوكبٍ آخر، وقالت بصوتٍ رخيم بلّلته اللذّة حدّ الإشباع، وكأنّها حافرة آبار آنست ماء في صحراءٍ قاحلة: "الآن بدأنا بدأنا... للتوّ بدأنا!".

اتّكأت على خصر عائشة وكأنّها تريد أن تثبّت جسمها المتقبّض، وقرّبت فمها من خصرها، ثمّ رفعت رجلها فوق وجه عائشة، وعائشة ترى مثلّث الدانتيل الفاضح يقترب منها. لقد جلست على وجهِ عائشة، وشعرت عائشة بثقلِ الأنوثةِ كلّه يضغطُ عليها، يُحيطُ بها، يُغرقُها في بحرٍ من روائحَ وملمسٍ لا يُقاوم، كأنّها تغوصُ في حديقةٍ من زهورِ الأوركيد النادرةِ التي تفوحُ منها رائحةُ الفانيليا والمسك. ثمّ، لمّا أحكمت بؤرتها على فم عائشة، انقضّت عليها من الأسفل، ودفنت رأسَها مرّةً أخرى بينَ فخذيها، بينما كانت عائشةُ الآن في مواجهةِ مؤخّرتها المُستديرةِ والمُغطّاةِ بالدانتيلِ الأسودِ الشفّاف، تلكَ المؤخّرةُ التي كانت تُشبهُ تفّاحتينِ من الجنّةِ نضجتا على غصنِ شجرةِ الخلد، يفصل بينهما سراط من الدانتيل الرفيع.

سجود دلال فوقها المجازيّ واتّخاذها كعبتها قبلة لرغباتها هزّها من الداخل، تردّدت عائشة للحظة، ثمّ، مدفوعةً بفضولٍ جامحٍ ورغبةٍ لا تُقهر، وضعت فمَها بخجلٍ على ذلكَ القماشِ الرقيق، كأنّها تُقبّلُ سرًّا ممنوعاً، أو ربما كانت كحاجٍّ تقيّ ألقى به تدافع الأقدار أمام الحجر الأسود. كانت تحاولُ أن تتذوّقَ طعمَ الخطيئةِ من خلفِ ستارٍ شفّاف. شعرت بسخافةِ فعلتِها، وبأنّها تُضيعُ وقتاً ثميناً، حينَ أحسّت بلسانِ دلال

وأصابعها تستكشفانها من جديد، تُوقظانِ فيها نيراناً كانت تظنّها بدأت تخبو، وتحرّكان فيها ينابيعَ جديدةً من الشوقِ واللهفة.

وبجرأةٍ مُفاجئة، كأنّها تُزيحُ آخرَ ستارٍ من ستائرِ التردّدِ والخجلِ التي كانت تُكبّلُها، أزاحت القماشَ الأسودَ جانباً بيدٍ مُرتجفة، وكشفت عن زهرةِ دلال الليليّةِ التي كانت تختبئُ تحته، تلكَ الوردةُ الدمشقيّةُ التي تفوحُ منها رائحةُ المسكِ والعنبرِ والقرنفل. وبدأت تأكلُ من تلكَ الثمرةِ المحرّمة، بشهوةٍ لم تعرفها من قبل، كأنّها جائعةٌ منذُ الأزل، وكأنّها لم تتذوّق طعاماً في حياتِها، وكأنّها ستصومُ الدهرَ كلَّهُ بعدَ ذلك، تكفيراً عن هذهِ الذنوبِ اللذيذةِ التي لا تُغتفر، أو ربما... لا تُريدُ أن تُغتفرَ أبداً، بل تُريدُ أن تُخلّدَ في ذاكرةِ الجسدِ والروح. وكانت كلّما صعقها الوعي بما تفعل وشلّ لسانها، أخذت تتحسّس بجسمها السفليّ ما تفعله دلال وتقلّده.

ورغم أنّها حاولت جاهدة أن تصل بدلال ضفاف النشوة قبلها، ارتجفت قبلها في نشوةٍ ثانية، أعمق وأطول، ولمّا أرادت أن تكتم صرختها، دفعت بفمها في دلال وصرخت من خلالها، كأنّها تنفخ في صور القيامة، فأحسّت أخيراً بدلال تتلوّى فوقها وكأنّها تريد أن تبتلعها بفمها السفليّ، تقاطعت نشوة الجسدين كأنّ روحيهما تتعانقانِ في فضاءٍ لا

يعرفُ حدوداً للزمانِ أو المكان، كأنّهما نجمتانِ تائهتانِ التقتا في عتمةِ الكونِ الفسيح. نعم، لقد سبقت عائشة، وشعرت بذلكَ الزلزالِ الداخليّ الذي يهزُّ أركانَ وجودِها، ويُحطّمُ كلَّ القيودِ التي كانت تُكبّلُها وتُقيّدُ حريّتَها، ثمّ، بعدَ لحظاتٍ قليلة، أحسّت بطعمِ دلال يتغيّر، يكتسبُ ملوحةً خفيفة، وحموضةً لذيذة، كطعمِ فاكهةٍ استوائيّةٍ نادرةٍ قُطفت للتوّ عن شجرة شعرها الفوّاح، وأحست بأنّ دلال لم تبعد وجهها للحظة واحدة عنها خلال ذلك المدّ، كأنّ صلاة استسقاء أُجيبت بكرم إلهيّ فلم يخطر للمصلّين الاحتماء من العاصفة.

وفي تلكَ اللحظةِ بالذات، لحظةِ السكونِ الذي يعقبُ الذروة، لحظةِ التلاشي في الآخر، لحظةِ الاتحادِ المُقدّسِ بينَ جسدينِ وروحينِ وُجدا ليُكمّل واحدهما الآخر، صدحَ صوتُ أذانِ العشاءِ من المسجدِ القريب، صوتٌ جهوريٌّ اخترقَ صمتَ الغرفةِ الحميم، كأنّهُ يدُ القدرِ تمتدُّ لتُعيدَ عائشةَ بقسوةٍ إلى واقعِها، إلى صراعِها الدينيّ، إلى عالمِ "الحلالِ" و"الحرام" الذي نشأت وترعرعت فيه، والذي لا يزالُ يُلقي بظلالِه على كلِّ تفاصيلِ حياتِها.

غزت جسمها رعشة رعب من هذا التزامنِ الصارخِ بينَ أقصى درجاتِ الحيوانيّة وأقصى درجاتِ الروحانيّة. شعرت ببرودةٍ تسري في أطرافِها،

وبقبضةٍ من ذنبٍ تعتصرُ قلبَها كأنّها يدٌ من حديدٍ لا ترحم. لكنّ دلال، كأنّها قرأت أفكارَها، أو كأنّها تملكُ مفاتيحَ روحِها وتعرفُ كيفَ تُهدّئُ عواصفَها وتُطفئُ نيرانَها، نهضت وعانقتها عناقاً طويلاً، دافئاً، همست في أذنها بصوتٍ يحملُ حنانَ أمٍّ وتفهّمَ عاشقةٍ مُتمرّسةٍ تعرفُ دروبَ الحياةِ المُلتوية: "علامَ تخافين، يا صغيرتي؟ لقد دخلتِ الجنّةَ للتوّ، وانتهى الأمر. لا تدعي أصواتَهم المتوعّدة تُفسدُ عليكِ لحنَ الداخلِ الذي عزفتُهُ لتوّكِ على أوتارِ جسدي."

بقيتا متعانقتين حتّى بعد انتهاءِ الأذان بقليل، ومن دفءِ ذلكَ العناقِ الذي بدا كأنّهُ غفرانٌ سماويٌّ نزلَ عليها من حيثُ لا تحتسب، استجمعت عائشة شجاعتَها، أو ربما ما تبقّى منها بعدَ هذا الفيضانِ من المشاعرِ والأحاسيسِ الجارفة، وصارحت دلال: "الثالثة ثابتة... هذه ثالث مرّة أتدفّق فيها في بيتك السحريّ هذا"، صدمت دلال: "شهدت مرّتين منهما فقط، فكيف أضعت الثالثة!"، فأجابتها عيّوش: "لقد شهدتها تحفتك العاجيّة المحفوظة كسرٌّ وقح في جارور حمّامك السفليّ!" وبدأت تتلوّى بين ذراعيها مستدعية مشاعرها قبل أسبوع، فضحكت دلال ضحكةً صافية، كأنّها تُبدّدُ آخرَ غيومِ القلقِ في سماءِ عائشة، وقالت بصوتٍ لا يخلو من دهاءٍ ومكرٍ أنثويٍّ أصيل: "كنتُ أدّخرُهُ لزيارتكِ التالية ليكون مفاجأة صغيرة..."، فمازحتها عيّوش: "صغيرة!"، وشدّ

الضحك من عناقهما وكأنّها يد خبّاز تعجنهما قبل أن تدخلهما في التنوّر المستقبليّ الذي ينتظرهما.

قالت عيّوش، وقد استولت على لسانِ عائشة تماماً، بصوتٍ يحملُ دلالاً وتحدّياً لعوباً، كقطّةٍ تُداعبُ خيطَ صوفٍ قبلَ أن تنقضَّ عليه: "عموماً ادّخريهِ جيّداً... أخافُ أن أهربَ بعدَ كلٍّ هذهِ الفتنةِ التي أشعلتِها في روحي اليوم، بعدَ أن فتحتِ أمامي أبواباً لم أكن أعرفُ بوجودِها حتّى في أحلامي. أُريدُ وعداً، سبباً آخر يجعلني أعودُ إلى هذا الجحيمِ اللذيذ، إلى هذا الفردوسِ المحرّمِ الذي لا يمكنُ مقاومةُ إغراءاتِهِ."

"لك الوعد يا عائشة، ولك وعيد مثله في موعدك معه" قالت دلال، وقبّلتها قبلةً خفيفةً على شفتيها، كأنّها تختمُ على اتفاقٍ سريٍّ لا رجعةَ فيه، كأنّها تُوقّعُ على عقدِ عبوديّةٍ لذيذة. "وهذا التمثالُ، يا حلوتي، هو أيضاً جزءٌ من تجارتي التي بدأتُ أُطوّرُها شيئاً فشيئاً، وأُوسّعُ آفاقَها. خطٌّ الإكسسواراتِ من هذا النوعِ سوقٌ واعدةٌ جدًّا، ولعلمك إنّه صناعة محليّة!" وقد غمرت هذه المعلومة عائشة بدهشة بالغة، إنّ هذه الأشياء تُصنع ويجري تداولها حولها! يا لها من معرفة تزيح كثيراً من ثقل الآثام، ودلال تكمل: "نعم، تخيّلي! إنّه من صناعةِ صديقي المهندس إياد، لقد سكبهُ إيادٌ بنفسهِ على قالبِه هو شخصيّاً، كأنّه نسخة منه وهو في أشدّ

لحظات الاستثارة، ربما يريد هذا الملعونُ أن يُضاجعَ كلَّ زبوناتهِ حتّى في غيابه، أن يتركَ بصمتَهُ الذكوريّةَ على أجسادِهنَّ، وأن يُعلنَ عن هيمنتهِ حتّى وهو بعيد!"

صُعقت عائشة. إياد! ها هو يعودُ ليُلقي بظلالهِ المُعتمةِ على كلِّ شيءٍ جميل. لقد جاء التأكيد على الحقيقة التي كانت مثيرة لها من قبل لكن بعد أن اختلطت بمشاعر غيرة غريبة. ثمّ إنّها كانت كإحدى زبونات إياد التي يخترقهنّ برمزيّة مريضة. شعرت بغثيانٍ خفيف، وبمرارةٍ حادّةٍ في حلقِها، كأنّها تذوّقت طعمَ الخيانةِ الممزوجَ بالشهوة.

"لكنّ هذا جزءٌ يسيرٌ جدًّا من المجموعةِ التي أُخطّطُ لعرضِها،" تابعت دلال بلامبالاةٍ مُصطنعة، كأنّها تتحدّثُ عن قطعةِ أثاثٍ عاديةٍ لا قيمةَ لها في سوقِ الحياة. "وللأعمالِ وقتٌ آخر، يا صغيرتي... المهمّ الآن أنّكِ مهتمّة، وأنّ فضولَكِ قد اشتعلَ كالنارِ في الهشيم، وأنّكِ قد جرّبت العيّنة وأعجبتك. أليسَ كذلك!" ابتسمت ابتسامةَ تاجرةٍ ماهرةٍ أغلقت للتوّ صفقةً رابحةً لا تُقدّرَ بثمن، صفقةً ستُدرُّ عليها الكثيرَ من الأرباحِ الماديّةِ والمعنويّة. "ما بقي مجرّدُ تفاصيلَ صغيرةٍ يمكنُ أن نُعالجَها على الهاتف، أو ربما... في لقاءاتٍ أخرى" قالت لها دلال مع غمزة تحيلها إلى زياراتها المتكرّرة لأيمن، وإلى ما يمكن أن يحصل على هامش دروس القرآن واللغة

العربيّة، ثمّ عادت لتشكو من ضعف قلوب الفتيات اللاتي أشركتهنّ سابقاً في تلك التجارة، مضيئة على اختلاف عائشة عنهنّ، وأنّها ترى فيها أنثى واسعة الحيلة.

لم تُرد عائشة أن تفضح السرّ الذي باتت تعرف أنّ قيمته أكثر من مجرّد صورة تكشف خيانة رجل لامرأة لا يبدو عليها أنّها تهتمّ بالخيانة، فهي تخون زوجها مع إياد، وتخون إياد معها، وتخون الجميع مع تشكيلة الإكسسوار الواسعة التي تتحدّث عنها! وأظهرت القَبول مبرّرة ذلك أمام نفسها بأنّه سيعفي الكثير من الفتيات من افتراس إياد لهنّ.

نظرت عائشة إلى دلال، ولم تعد ترى فيها تلكَ المرأةَ الفاتنةَ الغامضةَ فقط، بل رأت أيضاً تاجرةً ذكيّة، وربما... شيطانةً مُغويةً تعرفُ كيفَ تقتنصُ الفرص، وكيفَ تحوّلُ كلَّ شيءٍ إلى سلعةٍ تُباعُ وتُشترى في سوقِ الرغباتِ البشريّة. شعرت بأنّها قد دخلت للتوّ في لعبةٍ خطرةٍ ومُغرية، لعبةٍ لا تعرفُ قواعدَها تماماً، ولكنّها تعرفُ يقيناً أنّها لن تستطيعَ الخروجَ منها بسهولة، وربما...ربما لا تُريدُ الخروجَ أصلاً.

كانَ الليلُ قد أرخى سدولَهُ تماماً على مدينةِ عمّان، وعلى غرفةِ دلال التي شهدت ميلادَ عائشة الجديدة، عائشة التي تذوّقت الحلوى المحرّمة، الحلوى التي ستُغيّرُ طعمَ حياتِها إلى الأبد، وتفتحُ أمامَها أبواباً من لذّةٍ

ومعرفةٍ لم تكن لتحلمَ بها يوماً، حتّى في أجرأِ خيالاتِها. الآن هي تاجرة واعدة في سوق الرغبة والوحدة، وستعرف هذا العالم الخفيّ الذي يحيط بها عن قرب.

الفصل العاشر : الدورة

طَوَت عائشةُ سجّادةَ الصلاةِ تلك الليلةَ كمن يطوي رايةَ استسلامٍ أبيضَ فوقَ حطامِ مدينةٍ من الشكوكِ أعلنت باحتفالاتها استسلامها للرغبات الغازية، ولم يعد ثمّة حاجّة إلى رمز الراية البيضاء. وسفينة أسئلتها التي لم تجد لها مرفأً في قواميسِ الفقهِ المتوارثةِ، أو على ألسنةِ الوعّاظِ ذوي الوجوهِ الصارمة، كانت قد أسلمت أشرعتها لرياح الشهوة.

طوت السجّادة، وأودعتها ذلك الركنَ القصيّ من الخزانة، ليسَ فراراً من مواجهةٍ تأخّرت، بل ربما لتُعطيَ نفسها هدنةً قسريّة، لتكفّ تلك القطعةُ القماشيّةُ، التي كانت يوماً رمزَ طهرٍ مُشتهى، عن تذكيرها بأنّها، فوق نسيجها ذاته الذي شهدَ دموعَ توبتِها الخجولة مراراً، قد أسالت أيضاً فيضاناتِ رغبةٍ جامحةٍ لم تعد تعرفُ كيفَ تُصنّفها في خاناتِ الحلالِ والحرام، أو تضعُ لها حدًّا يُرضي ضميراً لم يزل يئنُّ تحتَ وطأةِ تربيةٍ صارمة. ساندها في هذا القرارِ الضمنيّ، أو ربما جاء كتبرير مُتأخّر، ذلك التوقّعُ الأنثويُّ العتيق، تقويمها البيولوجيّ، زيارةُ ذلك القمر الأحمرِ الذي يطرقُ أبوابَ الجسدِ كلّ شهر، كأنّه تحديثٌ دوريٌّ لتطبيقٍ على هاتفِ

الجسد، تحديثٌ لا يلتزمُ دائماً بدقّةِ المواعيد، لكنّهُ يأتي حاملاً معه إيقاعَهُ الخاصّ، إيقاعَ الانحسارِ والامتلاء، الطهرِ المُعلَنِ والفيضِ المُبطَّن.

لم يخطُر لها في تلك اللحظة، وهي تُرتّبُ سريرَها وتستعدُّ لنومٍ تمنّتهُ عميقاً كأنّه سبات في بئرٍ مهجورة، وخالياً من أشباحِ النهارِ التي تتراقصُ على جدرانِ الذاكرة، أنّ هذا الزائرَ الشهريَّ ذاتَه، هذا الدمَ الذي يعصف بمزاجها، ويطهّرها ويجدّدها، سيكون بعد أيّامٍ قليلةٍ ستاراً دخانيّاً كثيفاً تختبئ خلفَه، عُذراً مُغلّفاً بحياءٍ مُصطنعٍ ممزوجاً بلهفةٍ وتوق حقيقيّين، لتُؤجّلَ بهِ زيارةً كانت تنتظرُها سارة بقلبٍ يخفقُ كقنبلة موقوتة. زيارةٌ إلى سكنِ سارة الجامعيّ الخاصّ، الذي لم تطأهُ قدما عائشة بعد، لكنّ خيالَ عيّوش، كان قد رسمَ لهُ خرائطَ تفصيليّة له، وزرعَ في زواياهُ ألغاماً من توقّعاتٍ لذيذة، ومصائدَ من فضولٍ لا يرتوي.

خلالَ الأيّامِ التي تلت ليلة الحلوى مع دلال، ظلّت عائشة تتواصلُ معها عبرَ الهاتفِ بحذرٍ يُشبهُ حذرَ السرقة المتمرّسين. صوتُ دلال، ذلكَ الإكسيرُ السحريُّ الذي يُذيبُ جليدَ التردّدِ في شرايينِ عائشة ويُشعلُ نيرانَ الفضولِ في رمادِ حيرتِها، كانَ ينسابُ عبرَ الأثيرِ بأسئلته عنها، وكانت تطمئنُها بأنّها لم تنسَ وعدَها بالمساعدةِ في تجارتها الجديدة. "لا تشغلي بالكِ يا عيّوش، يا مكعّب السكّر الوحيد في قهوتي،" كانت

دلال تقولُ بنبرةٍ تجمعُ بينَ حنانِ الأمِّ التي تُهدّئُ طفلَها الخائف، ومكرِ الثعلبِ الذي يُعدُّ كمينه بعناية. "أعرفُ أنّكِ تحملينَ في جُعبتكِ ما هو أثمنُ من الذهب، وأنّ لسانكِ هذا، الذي يقطرُ شهداً حينَ يروي الحكاياتِ، قادرٌ على إقناعِ الحجرِ الأصمِّ بأن يزهرَ بنفسجاً"، تقول وهي ربما تفرك يديها، وتتمّ: "لكنّ السرَّ يكمن في الجرأة والتدبير، هما مفتاحُ كلِّ كنزٍ مُحصّن." وعائشةُ تستمع، وقلبُها يخفقُ كدفٍّ في ليلةِ عرسٍ بدويّ، بينَ إغراءِ المغامرةِ التي تلوحُ في الأفقِ كسرابٍ جميل، وخوفِ الانكشافِ الذي يتربّصُ بها كظلٍّ مُرعب. كانت تشعرُ بأنّ دلال لا تبيعُها مجرّدَ ملابسَ داخليّةٍ تُثيرُ الرجال، بل تبيعُها تذاكرَ دخولٍ إلى عالمٍ موازٍ، عالمٍ تُصبحُ فيهِ الرغبةُ عملةً مُتداولة، والسرّيّةُ درعاً واقياً، والجرأةُ جوازَ سفر، وكانت تتوق لمعرفة هذا الجزء من عمّان.

ولم يتمّ القمر الأحمر دورته مرّة أخرى، حتّى كانت عائشةُ قد رأت بعينيها، ولمست بأصابعها التي لم تعد ترتجفُ كما في السابق، المجموعةَ الكاملةَ التي تبيعُها دلال. لم تعد مجرّدَ قطعٍ مثيرة متناثرةٍ تَلمحُها على سريرٍ فخمٍ أو في درجٍ خفيٍّ يشي بالأسرار، بل أصبحت مَرَاسٍ لذاكرة الشهوة، فهي الآن تعلم إحساس كلّ منها. ألوانٌ كألوانِ الطيفِ بعدَ عاصفة، وأقمشةٌ كهمسِ الملائكةِ أو زفيرِ الشياطين، وتصاميمُ تتحدّى الخيالَ وتُغازلُ كلَّ حاسّةٍ خامدةٍ في جسدِ الأنثى. كانت دلال تعرضُها

أمامها كأنّها تُقدّمُ كنوزَ "علي بابا" التي لم تكتشفها "مرجانة" بعد، كلُّ قطعةٍ تحملُ قصّةً مُختلفة، وكلُّ خيطٍ يهمسُ بوعدٍ جديد.

لكنّ عائشة، حتّى تلك اللحظة، ورغمَ كلِّ الإغراءاتِ التي كانت تحاصرُها من كلِّ جانب، لم تُفاتح أيًّا من الفتياتِ في الجامعةِ بهذا الخصوص. كانت تزنُ الطالباتِ في عالمها الداخليّ، تُقلّبُ أسماءهنَّ وصورهنَّ في ذهنها كمن يُرتّبُ أوراقَ لعبةِ بوكرٍ خطرة، حيثُ كلُّ ورقةٍ قد تكونُ رابحةً أو خاسرة. كيفَ ستفتحُ الموضوع معهنّ؟ أيُّ قناعٍ سترتدي هذه المرّة؟ أيُّ لغةٍ ستستخدمُها لتُقنعهنَّ بأنّ هذهِ ليست مجرّدَ تجارة، بل هي ثورةٌ صغيرةٌ على الخجلِ والكبت؟ شعرت بأنّها في مأزقٍ حقيقيّ، مأزقٌ لهُ وجهان، ذئبان يتناهشان روحَها ويقدّمانها للمصير نفسه. وجهٌ يُظهرُ رغبتَها الصادقةَ، التي كادت تُقنعُ بها نفسَها، في حمايةِ الفتياتِ من أن يتعرّضنَ لخداعِ إياد وافتراسِهِ. ووجهٌ آخرُ يمثّلُ خوفَها من أن تُخيّبَ آمالَ دلال، هذه المرأةُ التي فتحت لها أبواباً لم تكن تحلمُ بوجودها، ومنحتها شعوراً بالقوّةِ والتمكّن لم تعرفهُ من قبل، كأنّها أعطتها مفاتيحَ الألدورادو، المدينة الذهبية. كانت كمن يسيرُ على حبلٍ مشدودٍ فوقَ هاويةٍ سحيقة، أيُّ خطوةٍ خاطئةٍ قد تُرديها، وأيُّ تردّدٍ قد يُفقدها توازنَها.

في خضمٍّ هذا الصراعِ الداخليّ من شهر المماطلة الأوّل، ظلّت عائشة تظهر هدوءً يثير إعجابها، ويحرّك خوفها من قدرتها على التكيّف، وكانت علاقتُها بسارة تتفتّحُ كزهرةِ لوتسٍ في بركةِ ماءٍ آسِن، تُقاومُ عفونةَ المجتمع المحيطةَ بجمالٍ عنيد. لم تبقَ تلكَ القبلة المسروقة تحتَ أغصانِ الكينا قبلتهما الوحيدة، فقد كانتا تبتعدان عن الأعين وتضعان كلّ شيءٍ على المحكّ فداءً للهفة. وبعدَ ليالٍ طالت من الهمسِ الأثيريّ عبرَ "تلغرام"، حيثُ الكلماتُ تتحوّلُ إلى أياد ذات لمساتٍ حارقة، والخيالاتُ تُصبحُ أكثرَ واقعيّةً من الواقعِ نفسِه، جاءَ ذلكَ اليومُ الذي قرّرت فيهِ عائشة، مدفوعةً بجرأةٍ مُستجدّةٍ أو ربما بفضولٍ لا يُقاوم، أن تزورَ سارة في سكنِها الجامعيّ تاركتين المحاضرات لمن يحتاجها من الطلبة. كانَ يوماً مشمساً من أيّامِ الربيعِ المتأخّر، يحملُ في طيّاتهِ دفئاً ووعداً بشيءٍ مُختلف، بل إنّ عائشة قد خطّطت لجعله مختلفاً.

دخلت عائشةُ غرفةَ سارة الصغيرةَ الأنيقة، والتي كانت تُشبهُ شرنقةَ فراشةٍ تستعدُّ للتحليق نحو عوالمَ مجهولة. لم يكن فيها بذخُ غرفةِ دلال أو مراياها الصارخةُ التي تُضاعفُ الوجودَ وتُربكُ الحواسّ، بل كانت هادئةً، حميميّة، تفوحُ منها رائحةُ الكتبِ والياسمين المشوب بلمسة طيب العود، تلكَ الرائحةُ التي أصبحت تميّزُ سارة في ذاكرةِ عائشة الحسّيّة، وتُثيرُ فيها حنيناً غامضاً. جلستا على السريرِ الضيّق، متقاربتينِ

كعصفورين صغيرينِ احتميا من عاصفةٍ هوجاءِ تحتَ جناحِ أمّهما. وبعدَ حديثٍ مُلتوٍ كدروبِ الجبلِ الوعرة، حديثٍ دارَ حولَ المحاضراتِ المملّة، والأساتذةِ المُتعجرفين الذين يظنّونَ أنّهم يملكونَ مفاتيحَ الحقيقةِ المطلقة، وحولَ روايةٍ جديدةٍ قرأتها سارة "بيدٍ واحدة" كما اعترفت بضحكةٍ خافتة، أخرجت عائشةُ من حقيبتِها مفاجأتها، لم تكن كتاباً فلسفيًّا أو دفترَ ملاحظاتٍ مُنمّق، بل شيئاً آخر، شيئاً جعلَ عيني سارة تتّسعانِ دهشةً وفضولاً كعيني طفلٍ أمامَ صندوقِ هدايا مُغلق. كانَ يشبه بيضة نسر ورديّة اللونِ، كلونِ شفتي سارة حينَ تُبلّلهما بريقها الدافئ، يخرج منها سلك رفيع، فتظهر كفأرة حاسوبٍ سحريّةٍ، إنّه هزّاز يُحرّكُ مؤشّرَ الرغبةِ على شاشةِ الجسد.

"ما هذا... يا مُجرِمَة؟" سألت سارة بصوتٍ خرجَ أبحَّ قليلاً، كأنّ الكلماتِ علقت في حنجرتِها، وعيناها تلمعانِ ببريقٍ لا تخطئه عينُ عيّوش المدرّبة. ابتسمت عائشةُ ابتسامةَ من يملكُ مفتاحَ اللغزِ ويستمتعُ بحيرةِ الآخرين، وقالت بنبرةٍ فيها تحدٍّ لعوبٌ يُخفي جديّةً قاطعة: "هذه بيضة نسر!... هذا يا عزيزتي جهازُ كشفِ الكذبِ الحديث، نسخةٌ مُطوّرةٌ لا تُخطئ. أو ربما... جهازُ استخراجِ الاعترافاتِ اللذيذةِ التي تُخبّئينها خلفَ ستارِ الخجل." ابتسمت سارة ابتسامةَ طفل ينتظر دوره في اللعب، وأتمّت عائشة: "اليوم، يا سارة، أنتِ في قفصِ الاتّهام، وأنا

القاضي والجلاد... والمُحقّقُ الذي سيعرفُ كلَّ أسرارِكِ الدفينة، حتّى تلكَ التي لا تجرئينَ على البوحِ بها لنفسكِ". غدت ابتسامة سارة الصادقة ضحكةً فيها مزيجٌ من التوتّرِ الذي يُداعبُ الأعصابَ والإثارةِ التي تُلهبُ الحواسّ. "وأيّ أسرارٍ هذه التي تظنّين أنّني أُخفيها، يا حضرةَ القاضي"، "سنرى، سنرى،" قالت عائشة، وهي تُناولها الهزّاز كأنّها تُناولها كتابها بيمينها قائلةً: "تحدٍّ صغيرٌ لا يُفسدُ للودِّ قضيّة. ارتديه. وسأتحكّمُ بهِ من هنا، من عرشِ سلطتي المؤقّت" مشيرة إلى هاتفها، وشبكت السلك عليه شارحة الشروط: "وكلّما تردّدتِ في الإجابةِ عن أسئلتي، أو حاولتِ المراوغةَ، سأُعاقبُكِ... عقاباً لذيذاً بالطبع، عقاباً يُنسيكِ مرارةَ الاعتراف". تردّدت سارة للحظة، كأنّها تزنُ المخاطرَ والمكاسب، ثمّ أخذت الهزّاز بيدٍ ترتجفُ قليلاً، وابتسامةٌ غامضةٌ ترتسمُ على شفتيها. "أنتِ مجنونة، يا عيّوش! مجنونةٌ بشكلٍ خطيرٍ.. لذيذ."، "وهل ثمّة ما هو حقيقيّ أكثر من الجنون؟" ردّت عائشة، وعيناها تُثبّتانِ عيني سارة بنظرةٍ لا تعرفُ الهوادة، نظرةٌ تقول: لا مفرّ.

بدأت اللعبة، لعبةُ التحدّي والاستكشافِ المتبادل. كانت عائشةُ تطرحُ الأسئلة، أسئلةً كأنّها مشرطُ جرّاحٍ ماهر، تغوصُ في أعماقِ نفسِ سارة، تستكشفُ رغباتِها الدفينة، وخيالاتِها المُحرّمة، وتلكَ المنطقةِ الرماديّةِ المُربكةِ بينَ انجذابها للشبابِ الذي تركته تحت مؤخّرة حصان فارس

أحلامها الوهميّ، وانجذابها للنساء الذي تكشّف كواحة في صحراء الحياة. كانت عيّوش هي من تُديرُ هذا "التحقيقَ"، مُصرّةً على قناعتِها المزعومة بأنّهُ لا توجدُ أنثى مثليّةٌ بصورة كاملة، وأنّ الأمرَ كلّهُ، في رأيها الذي لم تزل تُشكّكُ فيه، لا يعدو كونهُ حرماناً من الذكر، أو ربما خوفاً من سطوتهِ وتهوّرهِ الذي يُشبهُ إعصاراً مُدمّراً. "هل اشتقتِ يوماً للمسةِ رجل، يا سارة؟ لمسةٍ حقيقيّة، لا تلكَ التي تقرئينَ عنها في الروايات؟" سألت عائشة، ولمّا أطالت سارة التفكير، ذهبت تُلاعبُ أزرارَ التحكّمِ في هاتفِها، مُرسلةً نبضاتٍ خفيفةً كقبلاتِ فراشةٍ جعلت سارة تتأوّهُ بصوتٍ مكتوم، وتحكمُ قبضتَها على الملاءة. "أحياناً... ربما... لا أعرف،" أجابت سارة بصعوبة، وأنفاسُها تتسارعُ كأنّها في سباقِ ماراثون. "لكنّ الأمرَ مُختلف... الرجالُ... الرجالُ يبحثونَ عن شيءٍ آخر، عن غزوٍ، عن امتلاك. لا عن شراكة". "وما الذي تبحثينَ عنهُ أنتِ؟" ضغطت عائشةُ على زرٍّ آخر دون أن تمهلها هذه المرّة، فزادت قوّةُ الاهتزاز، كأنّها تُضيّقُ الخناقَ على فريستِها. "أبحثُ... أبحثُ عن القربِ الذي لا يُقيّد... عن الفهمِ الذي لا يُدين... عن أن أكونَ مرئيّةً كما أنا، بكلِّ تناقضاتي... لا عروسة ماريونيت" أوقفت عائشة الهزّاز واستمعت باهتمام.

عرفت منها أنّها تخشى أن تكون ضحيّة خيوط غير مرئيّة تتحكّم فيها، تمسكها يد المجتمع الذي صاغ أحلامها الأولى. استمرّت اللعبة، واستمرّت الاعترافاتُ تتسرّبُ من بينِ شفتي سارة كقطراتِ ندى في صباحٍ ربيعيّ، كلُّ قطرةٍ تكشفُ عن لونٍ جديدٍ في طيفِ روحِها.

كانت عائشةُ قاسيةً ورقيقةً في آن، تستدرجُ سارة إلى البوحِ بأعمقِ أسرارِها، وتُكافئُها أو تُعاقبُها بتلكَ اللمساتِ الإلكترونيّةِ التي كانت تحوّلُ جسدَ سارة إلى هزّاز أكبر، هزّاز من لحم ودم، وهي ترتجفُ تحتَ أناملَ خفيّة، تُصدرُ ألحاناً من لذّةٍ على إيقاع الألم. وفي لحظةٍ ما، حينَ كانت سارة على حافّةِ الانهيارِ اللذيذ، على وشكِ أن تُفلتَ منها صرخةُ استسلامٍ كامل، همست عائشةُ في أذنِها، وأنفاسُها حارّةٌ كأنفاسِ الصحراء: "أخبريني، يا سارة... هل يمكنُ لامرأةٍ أن تُشبعَ امرأةً أخرى تماماً؟ أم أنّ هناك دائماً... دائماً ذلكَ الفراغَ الذي لا يملؤهُ إلا... هو؟ ذلكَ الوتدُ الذي يُثبّتُ خيمةَ الوجود؟"

لم تجب سارة بالكلمات صراحةً. لكنّ جسدَها، الذي كانَ يتلوّى تحتَ سطوةِ الهزّازِ وسطوةِ لغة عائشة ومجازاتها التي لا ترحم، كانَ يقولُ الكثير. كانَ صراخاً صامتاً، اعترافاً مُبطّناً، ورجاءً خفيًّا. وفي تلكَ اللحظة، شعرت عائشةُ بانتصارٍ غريب، انتصارها لم يكن على سارة، بل

ربما كان انتصاراً على شكوكِها الخاصّة، على ذلكَ الجزءِ منها الذي كانَ يخشى أن يكونَ انجذابُها للنساء مجرّدَ وهمٍ أو مرحلةٍ عابرة، أو ربما... مجرّدَ خوفٍ من مواجهةِ عالمِ الرجالِ القاسي.

"الآن دوري!" تناولت سارة الهاتف من يد عائشة، ووضعته قربها ثمّ جثت على ركبتين من شمع ذائب أمامها، وقالت: "بل الآن دورك أنت! لترقدي على بيضة النسر!"، ومدّت يدها إلى زرّ بنطال عائشة التي كانت قد تخفّفت من ثيابها عند الدخول، فرفعت عائشة ردفيها موسعة بين أرجلها لتحرّر البنطال، ثمّ تحرّر رجلاً منه بالكامل، فانكشفت ثياب عائشة الداخليّة المثيرة عندما رجعت بجذعها إلى الخلف. ابتسمت سارة للوعد الذي يحمله الطقم الرقيق كأنّه طبقة كروكان فوق كعكة شهيّة، وشعرت عائشة بيد سارة تنفذ من أعلى مثلّثها لتضع بيضة النسر في عشّها الحليق. وقالت: "الآن أحاكمك أنا!" وبقيت على جلستها أمام عائشة على السرير موجّهة كلامها إلى العشّ ومن فيه من فراخ الرغبة: "ألم تكبري على الألعاب الصغيرة!"، وضغطت على أضخم زرّ أحمر ظاهر على الشاشة، فتلوّت عائشة وماطلت بأن مدّت يديها لتخلع قميصها القطنيّ، فما إن أصبح رأسها وعضداها محشورين فيه، حتّى باغتتها سارة بالقبلات على فمها الآخر. فقد عائشة صوابها وهي تضحك وتئنّ وتتلوّى داخل قميصها المقلوب، فثبّتتها يدا سارة على صدريّتها

وأخذتها لعقا وعضّاً كأنّها تريد أن تأكل ثيابها الداخلية عنها، ولمّا أتمّت عائشة قلع ثيابها، كانت سارة قد أماطت سروالها عنها. فتحت عائشة عينيها ليصدمها أن ضوء الشمس مهما حجبته الستائر أقوى وأوضح من نور المصابيح، وأن شعر سارة الكستنائيّ منثورٌ على فخذيها العلويّين، فأضاف المنظر للإحساس ذاته إثارة أكثر ممّا كانت تتوقّع.

تشابكت يداهما، في ترحيب واضح من عائشة بتثبيت سارة لها، وغدت تحسّ البيضة تنزلق إلى الأسفل مدفوعة بتقبّضاتها، ككرة مدفع الإفطار تصل فوهة السبطانة، لقد طال الصوم كثيراً. شهقت شهقة لا تشبه شهقات اللذة التي كانت تطلقها من قبل، وكأنّها تستدرك أمراً، ولمّا سمعت سارة تلك النبرة الغريبة، رفعت وجهها إلى عائشة ولم تزل ابتسامة الرضا ماثلة عليه، فما إن رأت عائشة وجه سارة يطلّ بين فخذيها بدلاً من وجه دلال، حتّى تقبّض جسمها في لذّة صافية، قاذفة بيضة النسر على ذقن سارة بعنف، متبوعة بشلال من الدفق. كانت الغرابة تلفّ الغرفة، فعائشة لم تقل لسارة رغم كلّ أحاديثهما الحميمة عن هذه الخصيصة في جسدها، لم يبدّد غيمة الغرابة إلا سارة هي تقول: "أطلقت عليّ النار! عيّوش المجرمة قتلت القاضي!"، انهارتا ضحكاً، ثمّ لمّا استجمعت سارة أنفاسها تنهّدت قائلة: "قولي لي إنّني شريكتك في اكتشاف هذه القدرة لديك!" قالت سارة بيأس يشي بشكوكها، فخبّأت

عائشة وجهها تحت أقرب وسادة لعلّ سارة تظنّها فعلت ذلك خجلاً، رافعة رجلها اليمنى حاجزاً بينهما، ما جعل سارة تقترب من الشامتين وتقبّلهما.

تعانقتا عناقاً حميماً، ولم تتمكّنا من إخفاء قلقهما بأنّ المحاضرات التي تغيّبتا عنها لا بدّ أنّها احتوت اختباراً قصيراً مفاجئاً، أي أن ينطبق ما تسمّيه سارة "قانون ميرفي للمحاضرات" كما في كلّ مرّة تقرّر فيها أن تهمل محاضرة. قالت عائشة: "لتذهب المحاضرات، والاختبارات، وميرفي نفسه إلى الجحيم... نحن في الجنّة الآن!".

لمّا همّت بالمغادرة شغلتها سارة بالقبل حتّى نسيت عندها جهاز كشف الكذب، أو مسبار اكتشاف المياه الجوفيّة كما أسمته ساره، وربما تركته عامدةً، وهي تخشى أن تفكّر في خطوات خطّتها التسويقيّة الضمنيّة التي يجب أن يكون لسارة صديقة أخرى لكي تنجح. لم تشأ أن تفكّر في ذلك صراحةً، ولم تقله حتّى لنفسها، لكنّه كان هناك في زاوية معتمة من زوايا عقلها الذي يملك شخصيّة مستقلّة.

وخلال الشهر الفائت الذي بدت أيّامه كأنّها دهورٌ من الاكتشافِ والتحوّل، تطوّرت علاقةُ عائشة بدلال خلال ذلك الشهر أيضاً، لكن في اتجاهٍ مختلفٍ تماماً، كأنّها تسيرُ في طريقٍ سريعٍ لا يعرفُ الإشاراتِ

الحمراء. زياراتُ يومِ الأحد لم تعد تقتصرُ على دردشةٍ عابرةٍ تُشبهُ المقبلاتِ قبلَ وليمةٍ دسمة، أو نظراتٍ ذاتِ معنى تُشبهُ البرقَ قبلَ العاصفة. أصبحت طقساً مُنتظماً، لهُ قوانينُهُ الخاصّة ومراحلهُ المُتوقّعة. تبدأُ بتمارينَ لغويّةٍ سريعةٍ تُعطيها عائشة لأيمن، كواجهةٍ اجتماعيّةٍ لا بدّ منها، كستارٍ يُخفي ما وراءهُ من نيرانٍ مُستعرة. ثمّ، ما إن ينسحبُ الطفلُ إلى غرفتهِ، حاملاً معه براءةَ الأرقامِ والحروف، حتّى تقنّعا رغبتهما الحقيقيّة بالحاجة إلى فنجان قهوة في شرفة غرفة دلال، فنجان قهوة كان يبقى في البكرج ولا يصبّ أبداً، وهما في جنسٍ لا يعرفُ الخجلَ أو المقدّماتِ الطويلة، جنسٍ يُشبهُ رقصةَ الدراويشِ حينَ يصلونَ إلى ذروةِ الجذب. كانت دلال تُعلّمُ عائشةَ أبجديّةَ اللذّة دون حبر وأوراق، درساً مكتوباً على لوح الجسد. كلُّ لمسةٍ كانت درساً في التشريحِ العاطفيّ، وكلُّ قبلةٍ كانت امتحاناً في فنونِ الإغواء. اكتشفت عائشةُ في جسدِ دلال قاراتٍ مجهولةً لم تُذكر في خرائطِ الجغرافيّين، وفي جسدِها هي ينابيعَ من شهدٍ لم تكن تعلمُ بوجودها. كانت دلال سيّدةَ الموقف، قائدةَ الأوركسترا، تعرفُ كيفَ تُوقظُ الوحشَ الكامنَ في أعماقِ عائشة، وكيفَ تُروّضهُ في آنٍ واحد، كساحرةٍ تُسيطرُ على جنّيٍّ مُتمرّد.

وبينَ هذه الدوّامةِ من اللذّة الحسّيّة الصارخةِ مع دلال، التي كانت تُشبهُ الغوصَ في بركانٍ ثائر، واللذّةِ الذهنيّةِ المستمرّة مع سارة، تلك التي لم

تزل تحمل وهج لقائهما في حبّ صريح لمرّة وحيدة، كانت عائشةُ تعودُ إلى عالمِ "نجمة"، تحاولُ أن تنسجَ لها مصيراً يُشبهُ مصيرَها، أو ربما يُعارضهُ تماماً. كتبت عن خيبةِ أملِ نجمة لأنّ بدر، ذلكَ الفارسُ المُنتظر، لم يأتِ في الموعدِ الذي انتظرته نجمة فيه، كأنّهُ سرابٌ تبخّرَ مع اشتدادِ حرارةِ الواقع. كتبت عن كيفَ أنّ قلبَ نجمة بدأ يميلُ شيئاً فشيئاً نحو ليلى، تلكَ الصديقةُ التي كانت مرآةَ روحِها وبئرَ أسرارِها، كأنّها تجدُ في قربِها دفئاً وأماناً لم تجدهُما في انتظارِ رجلٍ قد لا يأتي أبداً.

لكنّ الخوفَ كانَ ينهشُ نجمة، كالسوسِ الذي ينخرُ في خشبِ السفينةِ القديمة. الخوفُ من أنّهُ لو عادَ بدر، لو رآها، لو لمسها، فإنّهُ سيطرد هذه الفكرةَ منها، سيستخرجها منها بأداة منحتها له كفّ الخالق، كأنّ حبّها لليلى مجرّدُ وهمٍ أو مرضٍ يمكنُ استئصالُهُ بعمليّة يجريها أي رجل بمبضعه، كأنّ جسدَ الرجلِ هو الممحاةُ التي تمحو كلَّ ما تكتبهُ الأنثى على صفحةِ روحِها. كانت عائشةُ تكتبُ عن نجمة، وهي تعرف أنّها تكتبُ عن نفسها، عن ذلكَ الصراعِ المُميتِ بينَ ما يريده القلبُ وما يفرضه الواقعُ أو الخوفُ أو المجتمع، وظلّت هكذا حتّى انقضى الشهر.

أمس الأحد، في بداية شهر بيولوجيّ جديد آخر، وقد غاب قمرها الأحمر، كانت عيّوش تلهث على السرير بعدَ أن لعبت دلال دور الرجل

في جسدها، وإن كان رجلا من السيليكون الأسود اللمّاع الذي يمكن خلعه دون تعقيدات العلاقة بالرجال، وبعد وليمةٍ جسديّةٍ تركت عائشةَ مُنهكةً مُتوهّجة كشمسٍ بعدَ كسوف، فكّت دلال أحزمة الجلد عنها لتعود دلالاً الأنثى التي أسرت حواسّ عائشة، وأطالت في عناقها الذي ختمته بطلب جاءَ كزوبعة همس في أذنها.

"عيّوش، يا عمري..." قالت دلال بنبرة من سيقول شيئا مفصليّاً، وهي تمرّرُ أصابعَها في شعرِ عائشة المُبلّل بالعرقِ والشهوةِ كأنّهُ أعشابٌ بحريّةٌ على شاطئٍ مهجور، "أحتاجُ منكِ خدمةً صغيرة، خدمةً لن تُكلّفكِ كبير جهد، لكنّها تعني لي الكثير. لديَّ زبونةٌ جديدة، فتاةٌ خجولةٌ جداًّ، طلبت منّي قطعةً مُعيّنة، قطعةً من مغارة علي بابا كما تسمّينها، وأُريدُ أن تصلَها بأمانٍ وسرّيّةٍ تامة، كسرٌّ من أسرارِ الدولة. هل يمكنُكِ أن تلعبي دورَ الوسيط؟" وبعد أن تورّطت عائشة في الموافقة، علمت منها أنّها فتاة صغيرة السنّ تسكن بعيداً ولا يمكن تبرير علاقتها بدلال، دلال التي رغم كلّ جبروتها لم تزل محدودة الحركة، وتحتاج أن تبرّر حركتها لمن حولها من أهلها، وأنّ المطلوب من عائشة أن تتناول القطعة من مشغل إياد قبل غروب شمس الغد بقليل، وهو بعيد عن حيّها لكنّ بينهما مواصلة واحدة، ويمكنها أن تخبّئها في حقيبة ظهرها بين الكتب، ثمّ تسلّمه لها في سكن طالبات قريب من الجامعة صباح الثلاثاء.

تجمّدت عائشة، كتمثالٍ من شمعٍ تعرّضَ لصقيعٍ ليلةٍ شتويّة. إياد! مرّةً أخرى يظهرُ هذا الاسمُ كشبحٍ من الماضي، أو كتهديدٍ من المستقبل، أو ربما... كفرصةٍ جديدةٍ لاكتشافِ المجهول. الذهابُ إلى مشغلهِ؟ هذا يعني مواجهتَهُ وجهاً لوجه، بعدَ كلِّ تلكَ الليالي التي قضتها تتلصّصُ على نافذتهِ، وتنسجُ حولهُ خيالاتٍ لا حدودَ لها. ماذا ستقول؟ ماذا سيفعل؟ هل يكون رآها يوماً رغم عتمة شبك النافذة؟ هل سيتذكّر وجهها من الحيّ؟ هل ستخونها نظراتُها وتفضحُ ما كانَ يختلجُ في صدرِها؟ كانت توشك على التراجع، لكنّ ذلكَ الإحساسُ بأنّها مدينةٌ لها بالكثير، بالكثيرِ جدًّا، جعلها تُؤكّد موافقتها، وقلبُها يرجف كطائر مبلول.

فوق كلّ ذلك فإنّ إدخال واحدة من دمى دلال إلى بيت الشيخ أبي عمر، كما يناديه أهل الحيّ، كان مغامرة غير محسوبة، فهي وإن كانت لا تخضع لتفتيش المطارات عند دخول المنزل أو الخروج منه، تخاف أن تفضحها ملامحها الشاحبة! إنّها تتخيّل اكتشاف أهلها لشيء كهذا في حقيبتها، وتشعر أنّها ستنهار وتقول كلّ شيء قبل حتّى أن يعرفوا ما هو. ثمّ وفوق هذا كلّه، أن يبقى ليلةً كاملةً معها، إنّ هذا كفيل بتحويل قصّتها مع دلال إلى قصّة رعب لا إثارة.

صارحت عائشة دلال بشيء واحد من هذا كلّه: "لا أصدّق أنّك دلال بجبروتها كلّه، تهادنين المجتمع بهذا الشكل! ألهذا الحدّ هو مخيف؟"، فأخرجت دلال إجابتها التي كان يبدو أنّها قالتها كثيراً: "عيّوش، أنا أريد العنب، أمّا الناطور فمشاعري مختلطة تجاهه. أعرف أنّني قادرة عليه، لكنّ في قلبي شفقةً تجاهه!"، وقد شعرت أنّ هذه الجملة دليل تشغيل "كتالوج" كامل لحياة ابنة الشيخ أبي راشد، وربما تنفعها هي في شيء أو أكثر. تمتمت بالجملة مغادرة: "أريد العنب وأشفق على الناطور!".

في اليوم التالي، وفي الحافلةِ التي كانت تقلّها نحو المجهول، نحو مشغلِ إياد الذي تخيّلته مختبراً سرّيّاً للذّة، أو ربما قسم البحث والتطوير في شركة دلال الناشئة، جلست عائشةُ بجانبِ النافذة، تُراقبُ منازل عمّان تتوالى أمامها كشريطِ سينما قديم، وهي تتساءل عن القصص خلف تلك الأبواب.

صعدَ شابٌّ من محطّةٍ قريبة لوجهتها، وجلسَ بجانبِها دونَ استئذان، كأنّ المقعدَ مسجّل باسمه في الشهر العقاريّ. لم يكن وسيماً بشكلٍ لافت، لم يكن فارسَ أحلامٍ خرجَ من إحدى الرواياتِ الرومانسيّة، لكنّهُ كانَ يحملُ تلكَ الثقةَ الذكوريّةَ المُستفزّة، تلكَ التي تُشعرُ المرأةَ بأنّها مجرّدُ مساحةٍ يمكنُ احتلالُها. أخذَ يُباعدُ بينَ ساقيهِ شيئاً فشيئاً، كأنّهُ يُعلنُ عن

امتلاكِهِ للمساحةِ كلّها، مُجبراً عائشةَ على أن تتقلّصَ في مقعدِها، أن تلتصقَ بالنافذةِ كفراشةٍ مذعورة. شعرت بالضيقِ، بالغضبِ المكتوم، لكن... لكن تحتَ كلِّ ذلك، تحتَ طبقاتِ الاستياءِ والتحفّظ، شعرت بوخزةٍ خفيّةٍ من شيءٍ آخر، شيءٍ يُشبهُ الإثارةَ الممنوعة. أن تكونَ موضوعاً للشهوةِ، حتّى لو كانت شهوةً صامتةً ومُستترةً لمراهق يتلطّى خلفَ ستارِ اللامبالاة، أن تشعرَ بأنّ جسدَها، رغمَ كلِّ محاولاتِها لإخفائهِ تحتَ طبقاتِ الثيابِ والحياء، لا يزالُ يملكُ تلكَ القوّةَ الخفيّةَ على الجذبِ والإغواء، كأنّهُ مغناطيسٌ لا يُقاوم.

أغمضت عينيها، وتركت الأفكارَ تتصارعُ في رأسِها كأمواجِ بحرٍ هائج. هي في طريقِها لمواجهةِ رجلٍ كانَ يوماً موضوعَ أعنفِ خيالاتِها، والآن أصبحَ مُجرّدَ صانعِ أدواتٍ تُثيرُ نساءً أخريات، وربما... يُثيرُها هي أيضاً بطريقةٍ مُختلفة. وهي نفسها، أصبحت عاشقةً للنساء، أو هكذا بدأت تظنّ، أو هكذا كانت تُقنعُ نفسها. لكنّ هذا الشابَّ المجهولَ بجانبِها، بجلوسهِ هذا الذي يشي بالهيمنةِ والرغبةِ المكتومة، يُذكّرُها بأنّ عالمَ الرجالِ لا يزالُ موجوداً، خطيراً، مُتهوّراً، وربما... مُغرياً بطريقةٍ ما، كفاكهةٍ مُحرّمةٍ تهمس بها الأفاعي على أغصان الفردوس الذي تعيش فيه. هل هي حقًّا مُغايرةُ الجنسِ مع وقفِ التنفيذ، كما كانت تقول عن نفسها لسارة؟ أم أنّها تقفُ على حافّةِ عالمٍ أوسعَ وأكثرَ تعقيداً، عالمٍ لا

تحدّدهُ التصنيفاتُ الجاهزةُ التي يُريحُنا استخدامُها، بل تُشكّلهُ نبضاتُ القلبِ المتقلّبةُ وأهواءُ الروحِ الجامحةُ التي لا تعرفُ القيود؟

كانت عيّوش ممسكة بدفّة حوارها الداخليّ: "هذا الشابّ الذي يباعد بين رجليه وكأنّه يوسع المجال لوحشه الصغير، لا يعرف من التي بجانبه! لا يعرف أنّه لو رأى دلالاً وهي ترتدي زيّها التنكّريّ لفرّ خائفاً!" ثمّ تتسرّب لها الشكوك: "ولكن أليس مجرّد التنكّر بجلد الرجال وأعضائهم هو بذاته دليل دامغ على أنّه يحمل النسخة الأصليّة"، تقاطع عيّوش تيّار وعيها الذي يكاد يجرفها إلى قبول هذا "التحرّش" الفظّ: "النسخة الأصليّة! إنّك تفكّرين في وتد دلال، وفي نسخته الأصليّة يا لئيمة! عموماً لم يبق الكثير."، وتواصل عائشة انكماشها وهي تكاد تضحك على غضاضة الشابّ وفظاظته.

كانت الحافلةُ تقتربُ من وجهتِها، وعائشة تشعرُ بأنّها تقتربُ من مواجهةٍ لا مفرَّ منها، ليس فقط مع إياد، ذلكَ الشبحُ الذي طالما سكنَ خيالاتِها، بل مع نفسها، مع كلِّ تلكَ الأسئلةِ التي كانت تُؤجّلُ الإجابةَ عنها، كأنّها ديونٌ مُستحقّة. والتشويقُ للقاءِ إياد، ذلكَ المزيجُ من الخوفِ والفضولِ والرغبة، كانَ يمتزجُ بتساؤلاتِها حولَ ذاتِها، كخيطينِ من نارٍ وثلج، يلتفّانِ

حولَ قلبِها الذي لم يعد يعرفُ إلى أيّ وجهةٍ يتّجه، أو على أيّ شاطئٍ سيرسو، وطرقت بالعملة المعدنية على الشبّاك معلنةً رغبتها بالنزول.

تحرّكت الحافلة مبتعدةً عنها، وهي تفتح هاتفها لتتأكّد من العنوان المكتوب: "... بوّابة العمارة رقم 123، هي ذاتها التي تفضي إلى عيادة طبيب الأسنان، الطابق الأرضيّ ستجدين مخزنَ أقمشة، وعلى اليسار بوّابة المشغل – اضغطي جرس السمّاعة وقولي أنا من طرف أم أيمن". عندما اقتربت من البناية، تفاجأت عائشة بأنّ دلال لم تزر قطعاً هذا المشغل مطلقاً، فهي أهملت تفاصيل كانت ستذكرها بالتأكيد لو كانت هي من كتب العنوان، ثمّ تذكّرت أنّها "تشفق على الناطور"، دخلت البناية وضغطت جرس السمّاعة، فسمعت صوت سمّاعة الجرس ترفع لكن دون صوت، قالت: "مرحبا، أنا من طرف أمّ أيمن"، فسمعت صوت إياد الأجشّ وكأنّه أنهى علبة سجائر لتوّه: "تفضّلي..."، وفتح القفل الإلكترونيّ لذلك الباب الحديديّ القديم.

دفعت عائشة الباب بيدها، ثمّ تجمّدت مكانها لوهلة بدت كأنّها نهار كامل، "سأدخل، أضع القطعة في الحقيبة، ثمّ أخرج!" قالت عائشة في سرّها، وكأنّها تكتم أنفاس عيّوش وتستبق نكاتها السمجة، ثمّ اقتربت بجذعها من الباب لتتمكّن من دفع ردّاده الثقيل، ودلفت إلى الداخل.

أخذت تجول ببصرها في مدخل المكتب باحثةً عن إياد، أو ربما عن تحفه ومشغولاته التي خيّل لها أنّها ستكون معلّقة على الجدران، أو متدلّية من السقف كمعرض فنّ معاصر جريء كالذي صحبت سارة إليه في كلّية الفنون، لكن كان مكتباً عاديّاً كئيباً، وثمّة بعض الملصقات الدعائيّة لموادّ كيميائيّة لا تعرفها، وبعض الصور لأدوات منزليّة وأثاث رخاميّ. وسمعت صوت خطوات نازلة بهدوء عن درج خشبيّ لا ترى أوّله، يبدو أنّه لسدّة المحلّ، وهذا النازل يبدو أنّه إياد بذاته، كانت دقّات قلبها البطيئة العنيفة متزامنة مع إيقاع الخطو، لكنّها شيئا فشيئا ومع اقتراب الخطوات من الأرض، غدت أسرع وأعنف.

الفصل الحادي عشر : الصوت

"أعرفُ ما تجولُ عيناكِ بحثاً عنه،" قالَ إياد بصوته الذكوريّ الأجشّ، وكأنّه أمسك بها متلبّسة وهي تحوك أحلاماً يقظة قذرة حول محتويات مشغله، فانتفضت عائشةُ كأنّها رأت عقرباً، كان إياد قد أطلّ من الباب ورآها تتفحّص المكان، وتابع: "لا يمكنك رؤية المشغولات هنا! عملنا يتطلّب الحذر، وأعرف أن أمّ أيمن لا ترسل إلا الحذرات..." تخامدت صدمة عائشة الأولى، وعدّلت وقفتها كأنّ مديحه لها طمأنها. أتمّ كلامه: "لن أحاضر فيك عن مجتمعنا المريض، فأنتِ أكثر من يعاني منه!".

إنّها الآن أمام تلك الصورة التي كانت تتلصّص عليها من النافذة، وثمّة جاذبيّة غريبة في الرجل حين يرتدي ثيابه، وكأنّه النقيض الموضوعي لدلال التي تظهر فتنتها أكثر كلّما نقصت ثيابها. وقفَ أمامَها الآن حقيقةً من لحمٍ ودم، تفوحُ منهُ رائحةُ خشبٍ معالجٍ ومذيبٍ خفيف مخلوطة برائحة عرقه الخفيفة، ورائحة الموادّ الصناعيّة الأخرى التي لا تعرفها تلفّ المكان كغيمة، كان مزيج الرائحة يصل عميقاً في رأسها خلف العينين.

لم يكن إياد ذلك الشيطانَ الجذّابَ ذا النظرةِ الثاقبةِ الذي تخيّلتهُ ألفَ مرّة. وانتبهت أنّها لم تصادفه من قبل في الحيّ، فقد كان مدخل البناية

التي يسكنها يطلّ على شارع مجاور. نظرت متفحّصة في ملامحه إن كان هو سيعرف أنّها ابنه جاره الشيخ أبي عمر، لكنّ تعابيره كانت عمليّة جدّاً خاليةً من أيّ دهشة. كانَ رجلاً عاديًّا، يرتدي قميصاً رماديًّا وبنطالَ جينزٍ داكن، وشعرهُ الأسودُ مُسرّحٌ بعنايةٍ تُناقضُ فوضى المكانِ الذي يظهر عليه أنّه من ترتيب رجل. وحدها عيناهُ، تلكَ اللتانِ لم تستطع يوماً أن تميّزَ لونهما من بعيد، كانتا تحملانِ بريقاً حادًّا، كشظايا زجاجٍ تحتَ الشمس، بريقاً جعلَ ركبتيها تتحوّلانِ إلى ماء. "لا بأس، أنتِ هنا لتأخذي شيئاً وتغادري،" همست عيّوش في أذنِها، كأنّها تُلقي عليها تعويذةَ ثبات. "لا تدعيهِ يرى هذا الخفقانَ الذي يكادُ يشقُّ صدركِ!"، هناك فقط انتبهت عائشة إلى مكانها من العالم، وكأنّها ولدت هناك وعليها أن تتعامل مع الأمر بأقلّ أضرار ممكنة.

"أهلاً،" قالت عائشة، وصوتُها خرجَ كخيطِ حريرٍ يُصارعُ الريح. "أنا... من طرفِ أمّ أيمن."

ابتسمَ إياد ابتسامةً لم تصل عينيه، كأنّها قناعٌ مُدرّب. "نعم، أعرف... قلتِ ذلك سابقاً! القطعةُ جاهزة، ولكنّها في الأعلى سأذهب لأحضرها بعد أن طمأنت نفسي تجاهك" لفّ جذعه كاملاً وعاد إلى السدّة، وعائشة غدت واعية بجسدها أكثر من قبل، وكان يقول شيئا حول الزبونة التي

طلبته، وعيّوش تدير دفّة الاستجابات كأنّها ربّان سفينة تهرب من جبال جليد، أو حمم بركانيّة ربّما. نزل في وقت أقلّ، وكأنّه ترك القطعة في مكان قريب، وسلّمها علبةً كرتونيّةً مُغلقةً بشريطٍ لاصقٍ بنيّ. كانت أكبرَ ممّا تصوّرت، وأثقلَ ممّا أوحت به مكالمةُ دلال العابرة: "هذه هي."

تناولتها عائشة، وشعرت ببرودةِ الكرتونِ تحتَ أناملِها التي بدأت ترتعشُ خِفية. "هذه أوّل مهمّة لك إذن! ها!" استأنفَ إياد، وعادَ ليستندَ إلى حافّةِ مكتب الردهة الخشبيّ، مُراقباً إيّاها بنظرةٍ لا تخلو من تقييم. "الغرائزُ... هي المحرّكُ الأوّل، سواءٌ اعترفنا بذلكَ أم زيّنّا الأمرَ بأقنعةِ الفضيلة. المهمّ هو كيفَ نُلبّي هذهِ الغرائزَ دونَ أن نُؤذي أحداً، أو ربما... دونَ أن نُؤذي أنفسَنا أكثرَ من اللازم."

كانت كلماته تنسابُ بهدوءٍ مُربك، كأنّهُ يُلقي محاضرةً في علمِ النفسِ السلوكيّ، لا كأنّهُ يُبرّرُ صناعةَ ما يُعتبرُ في عرفِ أهلِها ذروةَ الفسقِ والمجون. وزنت عائشة القطعة بيدها، وكأنّها تتساءل عمّا فيها. "عيّوش، لا تفعلي ذلك! تظاهري باللامبالاة،" صاحَ صوتٌ في داخلِها، وهي تحاولُ أن تُعيدَ تركيزَها على وجهِ إياد، على تلكَ الابتسامةِ الخفيّةِ التي لم تُغادر شفتيه.

"هذه هي الطلبيّة بالضبط! هل تأكّدت منها؟" خرجَ السؤالُ من فمِها كأنّهُ سهمٌ طائش، وشعرت بحماقتِه فوراً. ماذا تعني بـ"تأكّدت منها"؟ وماذا تتوقّعُ منهُ أن يُجيب؟

اتّسعت ابتسامةُ إياد قليلاً، كأنّهُ يستمتعُ بهذا الارتباكِ الطفوليّ. "إذا أردتِ أن تتأكّدي منه، افعلي!" قالها بنبرةٍ حياديّةٍ تقريباً، مستخدما ضمير المذكّر وهو يتحدّث عن القطعة، وربما بسبب هذا شعرت عائشة بما وراءِ هذه الجملة من تحدٍّ خفيّ، من دعوةٍ مُغلّفةٍ باللامبالاةِ لاكتشافِ المجهول. شعرت بحرارةٍ تتصاعدُ في وجهِها. هذا الرجلُ، بائعُ الفتنِ هذا، كانَ يمتلكُ قدرةً غريبةً على تعريتها من الداخل، على جعلِ "عيّوش" نفسِها ترتبك.

استلم إياد دفّة الحوار، ونصحها ألا ترى القطعة الآن، فقد تكون صادمة لها ومربكة وتفتح أسئلة كثيرة عن طبيعة الزبونة! وكان لطيفا في حواره معها الذي استمرّ لأقلّ من ربع ساعة. ولمّا انتبهت عائشة إلى أنّها بدأت تصادق إياد، أعادت النظر إلى الساعة على هاتفها بطريقة واضحة، وقرّرت أن تصمّ أذنيها عن أيّ حوار معه.

"شكراً لك،" قالت بسرعة، وهي تُدخل القطعة في حقيبتها بجوار كتبها، حامدة الله على أنّها لم تنس كتب أيمن في حقيبتها، فما موقفها

أمام نفسها لو حدث ذلك. "يجبُ أن أذهبَ الآن. تأخّرت." لم تُرد أن تُعطيَهُ فرصةً ليرى هذا الاضطرابَ الذي استولى عليها، هذا المزيجَ من الفضولِ والخوفِ والإعجابِ المكتومِ الذي كانَ يتهدّدُ بتفجيرِ كلِّ دفاعاتِها الهشّة. لم تُطق الانتظارَ أكثر، خشيت أن تُضعفَها نظرةٌ أخرى من عينيه، أو كلمةٌ أخرى من فمِهِ الذي ينطقُ بالممنوعِ كأنّهُ يغنّي أغنيّة شعبيّة!

"على الرحبِ والسعة،" قال إياد، وعادَ ليرتّبَ بعضَ الأوراقِ على مكتبِهِ، كأنّ زيارتَها لم تكن سوى حدثٍ عابرٍ في يومِ عملٍ طويل.

خرجت عائشة من المشغلِ بخطواتٍ كادت تتعثّر بما يقوله إياد من كلمات لم تلق لها بالاً. كانت تحاول أن تعالج ملامحه كلّما ذكر أمّ أيمن، فهو يظهر لها إجلالاً لا يليق بما رأته يفعله بها، هي لا تدري... لكم ربما وكأنّه يخافها! تمشي وقلبُها يُوشكُ أن يقفزَ من مكانه. رائحةُ المكانِ علقت بأنفاسِها، والثقلُ الذي أضافته العلبةُ على حقيبتها كانَ ينسيها أن تعالج ما لاحظته، ويُذكّرُها بأنّها تحملُ سرّاً ينتظر أن يدخل بئرَه، قطعةً من عالمِ إياد الغامض، وربما... سعادةَ فتاة في مقتبل العمر، هذا إن نجحت في إيصالها، فإن لم تنجح، فإنّها تحمل حكم إعدامها. لم تلتفت خلفَها، بل أسرعت الخطى، كأنّها تهربُ من ظلّها، من جاذبيّةٍ خطرةٍ شعرت بها

تجاهَ هذا الرجلِ الذي يُحوّلُ الرغبةَ إلى فنٍّ، والخطيئةَ إلى تجارة. كلُّ خليّةٍ في جسدِها كانت تُلحُّ عليها أن تجدَ أوّلَ حافلةٍ تُبعدُها عن هذا الحيِّ، وعن هذهِ التجربةِ التي بدأت تُغيّرُ شيئاً في أعماقِها، شيئاً لم تكن مستعدّةً لمواجهتهِ بعد.

على باب الشقّة كانت عيّوش تقول: "هذهِ الاستراتيجيّةُ حمقاء،" همست عيّوش في وعيها، "اللامبالاةُ قد تُكلّفُكِ رأسَكِ."، وهي تشير إلى ما حدث مع عائشة في الحافلة، فقد وضعت عائشةُ الحقيبةَ بجانبِها على المقعد، وتظاهرت بلامبالاةٍ مدروسة، كأنّها تحملُ كتباً جامعيّةً مملّةً، لا صندوقَ موسيقى تكاد تسمع ألحانه، ولا قنبلة تكاد أن تطيح بعالمها. نظراتُها كانت تتجوّلُ في شوارعِ عمّان التي تتوالى من خلفِ زجاجِ النافذةِ المُغبَّش، لكنّ وعيَها كانَ قد نصبَ خيمتَهُ حولَ تلكَ الحقيبة، يستشعرُ وزنَها، يتخيّلُ شكلَ العلبةِ في الداخل، ويُردّدُ صدى صوتِ إياد الأجشّ. كادت، عندَ محطّةِ نزولِها، أن تنهضَ وتتركَها خلفَها، كأنّ جزءاً من عقلِها يُريدُ التخلّصَ من هذا العبءِ الخطِر، لكنّ يدَها امتدّت في آخرِ لحظة، كأنّها تُنقذُ طفلاً على وشكِ السقوط، وأمسكت بها بقبضةٍ لم تعد تعرفُ الارتخاء. هزّت رأسها وهي تدخل الشقّة، وكأنّها تقول: نعم، الحرص أفضل من الأسف!

دفعت بابَ الشقّةِ بكتفِها، فاستقبلتها رائحةُ طعامِ العشاءِ المألوفة، وصوتُ التلفازِ الصاخبِ الذي كانَ يملأُ الصالةَ بمشاهدِ مسلسلٍ تركيٍّ مُدبلج. كانت أمُّها جالسة على الأريكة، عيونها مُسمَّرةٌ على الشاشة، كأنّهما في حالةِ تنويمٍ. مسكينة أمّها، إنّها تحاول أن تقتات على فتات حيوات الآخرين. ألقت تحيّةً خافتةً لم يردَّ عليها أحد، ثمّ زارت غرفتها لتشعر أنّها وصلت برّ أمانٍ وإن كان مؤقّتاً. دفنت حقيبتها تحت السرير، ثمّ عادت بصحبة كتاب نقديّ يضمن تشتيتها دون أن يسحبها لعالمه، فهي بحاجة كلّ يقظة لديها، وجلست على مقعدٍ استراتيجيّ على السفرة، يكشف الصالة كلّها، وفوق ذلك فهو قريب من باب غرفتها والمطبخ، كأنّها تصمّم نقطة مراقبة عسكريّة لاحتلال البيت.

علقت عيناها بالتلفاز، لكنّها لم تكن ترى الممثّلين ذوي الوجوهِ المصقولة، ولا تسمعُ حواراتِهم المُفعمةَ بالدراما المُبالغِ فيها. كانت ترى وجهَ إياد، وتسمعُ كلماته التي انسابت بهدوءٍ مُربك. "الغرائزُ... هي المحرّكُ الأوّل." كيفَ لرجلٍ أن يتحدّثَ بهذهِ البساطةِ عن ذلكَ التيّارِ الجوفيِّ العنيفِ الذي يُحرّكُ البشر؟ كيف له أن يقول مثل هذه الجملة في حديث عاديّ، لا في كتاب له مقدّماته وسياقه؟ كيفَ لهُ أن يُعرّي الطبيعةَ البشريّةَ من أقنعتِها دونَ أن يرتجفَ لهُ جفن؟ شعرت بأنّها أمامَ

كائنٍ من فصيلةٍ أخرى، كائنٍ يفهمُ لغةَ الجسدِ والروحِ بطريقةٍ تتجاوزُ كلَّ ما تعلّمتهُ في حياتِها المُسيَّجةِ بالمحرّمات.

"لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله!" قطعَ سيلَ أفكارِها صوتُ والدِها "أبي عمر" الذي دخلَ الشقّة لتوّه، وهي تعاتب نفسها كيف لم تنتبه له قبل أن يصل، التفتت إليه وكان وجههُ يحملُ امتعاضاً لا تخطئهُ العين. "يا أمّ عمر، الصوت مرتفع جدّاً والبنات يدرسن"، أخذَ جهازَ التحكّمِ عن الطاولة، وقال: "وعن عمره فيما أفناه!"، ثمّ تحسّس بطنه، فلاحظت عائشة أنّ أباها غدا أسمن من الصورة الحاضرة له في ذهنها، وسأل: "ألا تعدّين لي العشاء!"، رأت عائشة أمّها وهي تعود للواقع تستيقظ من غيبوبتها الاختياريّة، وكانت مصمّمة على ألا تصبح مثلها في قابل الأيّام. وبدأت أمّها تتحرّك مبتعدة عن التلفاز، وتتعذّر بأنّ للنفس حقّاً. وبضغطةِ زرٍّ واحدةٍ، قتلَ أبو عمر أبطالَ المسلسلِ ودفنَ قصّةَ حبّهم في برنامج دعويّ، لاحظت عائشة أنّ فيه من الابتذال الدراميّ ما ليس في المسلسل التركيّ!

توجّهت أمّها إلى المطبخ، مارّة من خلفها، فعادت عائشة إلى الصفحة تراقب الحروف الثابتة على الورق وليست تتأثّر بالجوّ المشحون حولها. ربّتت أمّها على رأسها من فوق الحجاب قائلة: "لا أعتقد أنّك تنوين

الخروج الآن! اذهبي وبدّلي ملابسك، وتعالي لتساعديني، أو على الأقلّ لتأكلي!" فأخذت عائشة كتابها ودخلت الغرفة. أسدلت الستارة وهي تراقب غرفة إياد المطفأة. لا بدّ أنّه يعمل لوقت متأخّر، فهو متحرّر من كلّ الصور النمطيّة للبشر الذين تعرفهم، حتّى دلال، وهي من هي، محدّدة في سلوكها، لكنّ هذا الرجل حرّ بطريقة مغرية.

كانت قد تخفّفت من ثيابها، حين جاء صوت عبيدة الصارخ من الصالة "جهازي... جهازي لا يعمل!"، متبوعاً بصوتِ والدتِها: "يا عائشة، تعالي انظري جهازِ أختِكِ. لعلّك تستطيعين تشغيله!"

تنهّدت عائشة. كانت تعلمُ أنّ هذا يعني شيئاً واحداً. خرجت من غرفتِها، لتجدَ عبيدة تحملُ جهازَها اللوحيَّ بوجهٍ مُكدَّر. "لقد تعطّل. وعندي واجبٌ يجبُ أن أُسلّمهُ غداً."

"أعطِها حاسوبَكِ يا عائشة،" قالت أمُّها بنبرةٍ لا تقبلُ الجدال. "لتُنهي واجبَها عليه!"

شعرت عائشة بأنّ قلبَها يهبطُ إلى قدميها. حاسوبُها في حقيبة ظهرها بجانبِ تلك العلبة القنبلة... تحتَ السرير. "حسناً،" قالت بصوتٍ خافت، وعادت أدراجَها إلى غرفتِها. انحنت بجانبِ السرير، مُتظاهرةً

بالبحثِ عن شيءٍ في خزانتِها الصغيرةِ لتُعطيَ ظهرَها للباب، ثمّ جلست على ركبتيها، ومدّت يدَها في العتمةِ تحتَ السرير. أمسكت بحزامِ الحقيبةِ، وبدأت تسحبُها بهدوء.

"لا حاجة لوضعه تحت السرير!" جاء صوت عبيدة التي تبتعها إلى الغرفة دون أن تحسّ بها، ثمّ أكملت "فأنا لا أستخدمه إلا بعد أن تأذني لي" ، شعرت عائشة بقلبها يعود للنبض بعد أن توقّف قليلاً. "سآتي أنا به إليك... وكم مرّة طلبت أن تطرقي الباب، أليس هذا من سنّة الرسول عليه الصلاة والسلام!" ، ولم تتمالك ابتسامتها وهي تقول ذلك، كيف ترمي ستاراً من السنّة على ما في الحقيبة، وعادت لتفتح الحقيبة.

"ما هذا؟" سألت عبيدة وهي تهمّ بالخروج، فشعرت عائشة بالنبض العنيف بينها وبين السرير الذي كانت تجلس عليه، ولم تجرؤ أن ترفع عينها لترى عبيدة تشير إلى العلبة الكرتونيّة، هل ستقول إنّها هديّة لسارة ربما؟ عطر؟ لكنّها لمّا تأمّلت صدى السؤال وجدته ينتهي بعلامة تعجّب لا استفهام، إنّ عبيدة تعترض على "تحكّم" أختها الكبرى بها، "الحمد لله" تنهّدت عيّوش داخلها، وهي تضحك على ليلة المفارقات العجيبة.

أسرعت عائشة لتعطي أختها الحاسوب قبل أن تصل غرفتها، ثمّ عادت إلى المطبخ لتساعد أمّها. نادوا على عبيدة، وعلى عمر، وجلسوا على

الطعام. ووالدها المقاول يأكل كما يليق بمهنته في الحفر، ويصرّ على أن يتحدّث عن أيّ شيء، لكنّ فكرة واحدة منعتها من الانخراط في أيّ حوار: أنّها تركت الحقيبة على السرير. أهذا هو الحرص الذي عاهدت نفسها عليه! "أبو راشد أخبرني أنّ ابنته تشعر برضى بسببك!" تأخّر سؤال أبيها حتّى بلغ دماغها الذي لم يزل يتساءل: هل أغلقت الحقيبة على الأقل! تحجّجت برغبتها بالبلع، وهي تسترجع أي نوع من الرضى يمكن أن تخبر دلال أبيها عنه! وقالت: "أيمن ذكيّ، لكنّه يحتاج اهتماماً... لا أقول إنّ أمّ أيمن مهملة، هي ما شاء الله عليها، لكنّه يحتاج اهتماماً من معلّماته."

بعد دقائق كانت عائشة واقفةً في وسطِ الغرفة، تحدّقُ في الفراغ. لقد كانت على وشكِ الانكشاف! هذا السرُّ الجديدُ بدأ يُلقي بظلالهِ الثقيلةِ على كلِّ شيء. شعرت بحاجةٍ مُلحّةٍ للكتابة، لتفريغِ هذا القلقِ الذي يكادُ يخنقُها. لكن كيف؟ حاسوبُها، نافذتُها على عالمِ "نجمة"، أصبحَ في يدِ عبيدة. لم يكن أمامَها سوى ذلكَ الدفترِ الورقيّ، ذلكَ الشاهدُ الذي فتح أوّل الحوارات مع الدكتورة سمر.

جلست إلى مكتبِها الصغير، وفتحت الدفترَ على صفحةٍ بيضاء. أمسكت القلمَ بيدٍ لم تكفَّ عن الارتجافِ بعد، وبدأت تكتبُ، لا عن

إياد، ولا عن الحقيبةِ وما قد تحتويه، بل عن نجمة، عن واقع من صنعِها هي. وبعد قليل كانت آخر ما كتبت:

"عادَ بدرٌ إلى البيت الأبيضِ على التلّة، والقريةُ كلُّها تتحدّثُ عن عودتهِ، كأنّ قمراً غائباً قد أشرقَ فجأةً في سمائِها. أسمعُ صوتَهُ في همسِ النساءِ عندَ نبعِ الماء، وأرى طيفَهُ في أحلامِ الفتياتِ الصغيرات. لكنّني وأنا التي انتظرت هذهِ العودةَ حتّى كادَ الشوقُ يحفرُ أخاديدَ في روحي، لم تصلني منهُ إشارة، لم يأتني منهُ رسول. أراهُ أحياناً من بعيد، يسيرُ في دروبِ القريةِ بخطواتٍ أصبحت أثقل، كأنّ السنينَ قد حمّلتهُ أوزاراً لا أعرفُها. يمرُّ قربَ بستانِنا، ولا يلتفت. يرفعُ عينيهِ نحو التلالِ البعيدة، ولا يراني وأنا أختبئُ خلفَ ستائرِ الشوقِ وأوراقِ التين.

أشتهيهِ، نعم، لا أُنكر. أشتهيهِ بطريقةٍ مُختلفة، شهوةٍ نضجت على نارِ الغياب، وتنكّهت بمرارةِ الانتظار. أشتهي أن أرى ما فعلتهُ السنينُ بملامحِهِ، أن ألمسَ تلكَ القسوةَ الجديدةَ في عينيه، أن أتذوّقَ طعمَ الغربةِ على شفتيه. لكنّ شيئاً ما يمنعني. ليسَ الخوفَ من أبي، ولا من عيونِ أهلِ القرية. إنّهُ طيفُ ليلى.

حينَ أُغمضُ عينيّ لأستدعيَ صورةَ بدر، تتسلّلُ إليَّ صورةُ ليلى، دفءُ أنفاسِها، نعومةُ لمستِها، طعمُها على لساني. أصبحتُ كأرضٍ بورٍ قُسّمت

بينَ مالكَين، أحدهما غائبٌ لا يسأل، والآخرُ حاضرٌ لكنّه لا يتقن الفلاحة. قلبي، هذا الخبزُ الذي لم ينضج تماماً، يتمزّقُ بينَ حنينٍ لنارِ فرنٍ بعيد، وبينَ دفءِ يدينِ تعجنانِهِ كلَّ ليلة. هل يمكنُ لقلبٍ واحدٍ أن يسكنهُ قمران؟ أم أنّ أحدهما لا بدّ أن يُخسفَ بالآخر؟"

أذّن العشاء، فأغلقت الدفترَ، وشعرت بأنّها أفرغت جزءاً يسيراً من ذلكَ الفيضانِ الداخليّ على الورق. لكنّها شعرت أيضاً بقلقٍ جديد. هذا الدفترُ، لم يعد مجرّدَ أوراقٍ بيضاء، بل أصبحَ شاهداً آخر، دليل إدانةٍ ملموسٍ يمكنُ لأيِّ يدٍ فضوليّةٍ أن تكتشفَهُ وتُفشي أسرارَهُ، ويصبح عذراً للتفتيش في حقيبتها، فدفنته بجانب الحقيبة، وقامت تطمئنّ على من في المنزل. أبوها غادر لصلاة العشاء مصطحباً معه عمر، وعبيدة تنهي واجبها الذي طال قليلاً، وأمّها عادت إلى مسلسلها التركيّ، فاطمأنّت ودخلت لتتوضّأ.

لمس الماء البارد وجهها، فوجدت نفسها تتمتم تلقائيّاً بالأدعية التي بدت اليوم غريبة على شفتيها، لأوّل مرّة منذ طفولتها تتساءل عن معاني الكلمات التي تقولها! أيّ نفاق ميكانيكيّ ذلك الذي نعيشه؟ كيف لها ألا تبدأ بإدراك معاني الكلمات، إلا بعد أن ركبت موج الجنون إلى واقعها الجديد، إنّها لا تستطيع أن تخادع نفسها بعد الآن، ربما كان هذا التوتّر

الذي تعيشه هو طريق التوبة الحقيقية، ولكنّ صوتاً آخر داخلها كان يقول: الجنّة للرجال! أنت تحفظين القرآن وتعرفين الوعود اللذيذة التي تنتظرهم، أمّا نحن النساء فجنّتنا في مكان قصيّ تخفيه تفاصيل جنان الرجال وحورهم العين!

كلّما زادت شكوكها وتساؤلاتها غير العدائيّة، زادت ملوحة الدموع التي تذرفها على سجّاد الصلاة البيضاء، واليوم تصل الدموع خرز المسبحة العريض بين أصابعها وهي تقرأ أورادَها في محرابها الصغير، الذي شهد قراءات أخرى ودموع لذّة أيضاً.

كان نومها متقطّعاً، مليئاً بالكوابيس التي نسجتها مشاهد هذا النهار، لكنّ كابوساً بينها كان لذيذاً. رأت يد إياد تمتدّ لتعتصر مؤخّرتها وهي تنحني لتفتح حقيبتها، يد خشنة تسرّبت إلى تحت مسامها، لقد سالت نهراً من اللذة قبل أن يكمل ما بدأه، فاستيقظت تتحسّس ثيابها الداخليّة، وتحمد الله على أنّ جسدها لم يستجب لعقلها الملعون. إنّها تحلم بإياد! ألم تشفَ منه بعد؟

غادرت عائشةُ غرفتَها صباحَ الثلاثاء، وهي تشعرُ بأنّ الحقيبةَ على كتفِها لم تعد مجرّدَ وعاءٍ للكتبِ والأوراق، بل أصبحت جنيناً غير شرعيّ على كتفها، وما في الدفتر لم يكن أقلّ خطراً فهذا بوّابة المتلصّصين على

روحها، في الحقيبة قلبٌ ينبضُ بإيقاعٍ غريبٍ لم تألفه. حلمُ الليلةِ الفائتة، لم تكن تذكر تفاصيل الحلم بالوضوح الذي تجلّى لها قبيل الفجر، لكنّها تعلم أنّها لأوّل مرّة ترى رجلاً تعرفه في حلمها، الأحلام الرطبة قديماً كانت بوجوه غبشة، لكنّ إياد كان حاضراً بوجهه ويده وصوته! صوته الذي تركَ أثرَهُ في خلايا جسدِها، كرائحةِ عطرٍ قويٍّ ترفضُ أن تُغادرَ المكان، أو كبصمةِ إبهامٍ واضحةٍ على زجاجِ روحِها. هي الآن لا تحملُ فقط "العلبةَ" الغامضة، بل تحملُ معها طيفَ صانعِها، وذلكَ جعلَ المهمّةَ أشدَّ خطراً، وأكثرَ إغراءً بشكلٍ لا يُحتمل.

في طريقِها إلى الجامعة، أجبرت نفسها على ألا تلتفتَ نحو عمارةِ إياد، لكنّها شعرت بنافذةِ غرفتِهِ كعينٍ باردةٍ تُراقبُها من بعيد، عينٌ تعرفُ أسرارَها حتّى تلكَ التي لم تحدث بعد إلا في الحلم. وصلت إلى منطقةِ السكناتِ الجامعيّة، وسارت بخطواتٍ حاولت أن تكونَ واثقة، نحو المقهى الموعود. كانت خطّتُها لا تزالُ قائمةً في رأسِها، كآخرِ قلاعِ السيطرةِ على هذا اليومِ المتفلّت: ستدخلُ حمّامَ المقهى، وستفتحُ الصندوق، سترى بأمِّ عينِها تلكَ "القطعةَ" وتعرف ما صنعته اليدّ الشغوفة حتّى في الأحلام، سترى ذلكَ الشيءَ الذي يُحرّكُ رغباتِ نساءٍ لا تعرفهنّ، ويُحرّكُ فيها الآن فيضاناً من الفضول. كانَ الفضولُ ينهشُها كحمضٍ حارق، فضولٌ ممزوجٌ بشيءٍ من الخوفِ، وشيءٍ من التوقِ لفهمِ

هذا العالمِ الجديدِ الذي ولجتهُ على حينِ نشوة، كأنّها سقطت في جُحرِ الأرنبِ الأبيضِ لتجدَ نفسَها في بلادِ عجائبَ خاليةٍ من الحياء.

ما إن اقتربت من بابِ المقهى، حتّى لمحتها. فتاةٌ ترتدي عباءةً سوداءَ فضفاضة، ونقاباً يُغطّي وجهَها بالكاملِ تقريباً، لا يظهرُ منهُ سوى عينينِ واسعتينِ سوداوين، تحملانِ نظرةً حادّةً وواثقةً لا تتناسبُ مع هيئتِها المُحافظة. اقتربت منها بخطواتٍ سريعةٍ وهادئة، كأنّها ظلٌّ مُتجسّدٌ يتحرّكُ في وضحِ النهار.

"عائشة؟" سألت بصوتٍ خفيضٍ لكنّهُ واضح، يحملُ لهجةً خليجيّةً لا تخطئها الأذن.

تجمّدت عائشةُ مكانَها. لم تصل الحمّام بعد، فهل تستطيع أن تؤجّل التسليم إلى ما بعد إشباع فضولها الذي بدأ ينافس جوعها الآخر، "نعم،" قالت بصوتٍ مُرتجفٍ قليلاً، وشعرت بأنّ الحرارةَ تهربُ من أطرافِها.

"تعالي وجالسيني..." مشت معها إلى طاولتها، أخرجي كتابك أو حاسوبكِ، وضعيهِ على هذهِ الطاولة،" قالت الفتاةُ بنبرةِ أمرٍ هادئة، مُشيرةً إلى كرسيّ محدّد بجانب كرسيّها. فعلت عائشةُ كما طُلبَ منها، كأنّها جنديٌّ آليٌّ يُنفّذُ أمراً لا يفهمهُ. وما إن وضعت الحاسوب، حتّى مدّت

الفتاةُ يدَها بسرعةٍ خاطفة، وسحبت العلبةَ الكرتونيّةَ من حقيبةِ عائشةَ المفتوحة، ووضعتها في حقيبة يدها الكبيرةِ بحركةٍ واحدةٍ سلسةٍ ومُدرّبة، كأنّها تفعلُ هذا كلَّ يوم.

"شكراً،" قالت الفتاة، وعادت للترحيب بها، وكأنّها ستراجع معها درساً.

ارتاحت عائشة لكنَّ شيئاً ما بقي في نفسها، ثمّ وكأنّ الفضولَ الذي كانَ يغلي في داخلِها انفجرَ فجأة، حدّقت بعيني الفتاة اللّتين تطلان من ليل ثيابها، وقالت "يدك خفيفة جداً" قالت بصوتٍ خرجَ أعلى ممّا قصدت، صوتٌ يحملُ تحدّياً لم تعهدهُ في نفسِها. عدّلت الفتاة نقابها لكي تضحك برصانة، فأتمّت عائشة: "لا تضحكي من سؤالي ولكن... ما الذي كنتُ أحمله؟"

اتّسعت عينا الفتاة من الأعلى وكأنّها ترفع حاجبيها وأطالت. ثمّ ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ تشي بها نبرةُ صوتِها الساخرةِ المُستفزّة: "أظنّك تعرفينه جيّداً!" ثمّ قامت مشيرة إلى فنجان قهوة طلبته لها قبل أن تحضر، وسلّمتها المبلغ المتّفق عليه، تاركةً لها الخيار في أن تكمل الجلسة مع حاسوبها. قامت الفتاة واستدارت ومشت بخطواتٍ سريعة كأنّها نينجا، أو هذا ما سترويه عيّوش لاحقاً، ثمّ اختفت بينَ زحامِ الطالبات، تاركةً عائشةَ واقفةً في مكانِها، تشعرُ بمزيجٍ من الإهانةِ

والغضبِ والارتباك، كأنّها صُفعت على وجهِها بقفّازٍ من ثلج. لقد بدت في عينِ تلكَ الفتاةِ مجرّدَ فتاةٍ أخرى من فتياتِ هذا العالم، فتاةٍ تتصنّعُ البراءةَ وهي غارقةٌ في الوحلِ حتّى أذنيها. شعرت بأنّها ترسٌ صغيرٌ في آلةٍ ضخمةٍ مُعقّدة، آلةٌ تحرّكُها رغباتٌ وأسرارٌ لا تفهمُ منها شيئاً حتّى مع كلّ ما تعرفه، وكان لأوّل مرّة تستشعر خطر دلال الحقيقيّ، تلك التي تجلس على عرشها وتحرّك بيادقها على رقعة لا تعرف عائشة حدودها.

في قاعةِ المحاضرة، كانت الكلماتُ تتسرّبُ من أذنِ عائشةَ اليُمنى وتخرجُ من اليُسرى دونَ أن تتركَ أثراً. كانَ ذهنُها يعيد رسم الحلم تارةً، وتارةً أخرى يلاحق "فتاة النينجا" ليعرف قصّتها. كانت تحلّل، تُفكّك، تُعيدُ تركيبَ المشاهد. إذا كان إياد قادراً على إغواء دلال وخيانتها أيضاً وإخضاعها وجعلها تسجد وهي تستقبله في بئر أسرارها، فأي نوع من الرجال هو؟ هل كلامه مجرّد طريقةٍ ليقيسَ بها مدى استعدادِها للانخراطِ في عالمه؟ ومن تكونُ تلكَ الفتاة، وكيفَ لها أن تتحرّكَ بهذهِ الثقةِ في تجارةٍ كهذه وهي ترتدي رمزَ الالتزامِ كلّه؟

أخرجت دفترَها الورقيّ، وفتحت على الصفحةِ التي كتبت فيها عن "نجمة". قرأت عن صراعِ نجمة بينَ حنينِها لبدر وبينَ طيفِ ليلى الذي أصبحَ يسكنُها. شعرت بأنّها تكتبُ عن نفسِها، عن قلبِها الذي قُسّمَ بينَ

عوالمَ مُتناقضة. وفجأةً، وسطَ هذا الضجيجِ الداخليّ، لمعت فكرةٌ في ذهنِها، سؤالٌ جوهريٌّ كأنّهُ طوقُ نجاةٍ أُلقيَ إليها في اللحظةِ الأخيرة. سؤالٌ عن الخطوطِ الفاصلة بين دوافع الشخصيّات ودوافع الكاتب، سؤالٌ لا يمكنُ أن تجيبَ عنهُ إلا الدكتورة سمر، تلكَ المنارةُ في بحر التيه الذي تمثّله تجربة الكتابة، فجعلت تحكم صياغة سؤالها: هل ثمّة فعل كتابة دون شعور بالتعرّي؟ بل هل ثمّة كتابة حقيقيّة تبقي شيئا من ثياب الكاتب عليه؟

أمسكت هاتفَها، وكتبت رسالةً سريعةً إلى سارة: "سأتأخّر اليوم عن موعدنا، أريد أن أسأل الدكتورة شيئا" ضغطت على زرِّ الإرسال، وشعرت بوخزةِ ذنبٍ خفيفة، لكنّ الحاجة إلى الفهمِ كانت أقوى من أيّ شيءٍ آخر.

بعدَ انتهاءِ المحاضرة، طوت عائشة ورقة اختبارها ذات العلامة الممتازة، ثمّ اندفعت بسرعة نحو المنصّة، لكنّ الدكتورة سمر كانت تغرق في بحرٍ من الطلبة، كلٌّ منهم يحملُ تظلّماً حولَ علامةِ الاختبار، أو عذراً للتغيّب. سارت عائشةُ خلفَها، كقمرٍ صغيرٍ يدورُ في فلكِ كوكبٍ مُزدحم، حتّى دخلت الدكتورة مكتبَها. تردّدت عائشةُ للحظة، ثمّ طرقت البابَ ودخلت.

كانَ باسل يجلسُ على أحدِ المقاعد، يحملُ كتاباً في يده، وبدا كأنّهُ كان ينتظرُ سمرَ في موعدٍ مُسبق. حينَ رأت الدكتورة وجهَ عائشةَ القلق، ابتسمت بحنانٍ وقالت: "أهلاً يا عائشة، لا أظنّ أنّك تريدين مراجعتي في علامتك شبه الكاملة!" وعندما ظهر ارتباك عائشة أتمّت: "تعرّفت بباسل من قبل، لم يعد غريباً"، واستدارت إلى باسل وكأنّها تأخذ موافقة منه "تعرّفت إلى كاتبتنا؟" فقال باسل مستعيداً اللازمة التي بدت على لسانه أقلّ من سماجتها المعتادة عندما يقولها الآخرون: "وهي يخفى القمر!".

"لا دكتورة... كان لديّ سؤال يتعلّق بالكتابة!" قالت عائشة وكأنّها تنهي الحوار الذي تريد في الحقيقة بدأه، أجابتها د. سمر: "تفضّلي بالجلوس أوّلاً! ثمّ ألم نتّفق على أن تناديني سمر يا عائشة!"، كانت عائشة تجلس على مقعد مقابل لباسل، وباسل يقول: "هذه رتبة أعلى من دكتورة. أن تطلب منك صديقتنا المشتركة سمر ذلك فهذا يعني أنّك من الثلّة المقرّبة!"، "أرجو المعذرة من الجميع، الطبع غلاب... أتأذنين لي بالسؤال، فصديقتي تنتظرني؟" ردّت عائشة بثقة أكبر من قبل، فأجابت سمر: "تفضّلي عزيزتي اسألي..."، وعدّل باسل جلسته فأتمّت: "هل يمكن للقارئ دوماً أن يستنتج دوافع الكتابة من النص؟"، فقادت عينا سمر بصر عائشة إلى باسل وكأنّها تقول له أجب أنت، "بعد إذن معلّمتنا

سمر... هل يمكن أن أكون أوّل الملقين؟" وعائشة منتبهة إلى التناصّ القرآنيّ الذي يظلّ يظهر بين كلمات باسل.

"الكتابة ليست فعلاً واحداً، فالكاتب يكتب أحياناً بدافع إجرائيّ، وأحياناً يكون مدفوعاً بحاجة ملحّة داخله. وكما يمكننا أن نميّز من يأكل بدافع الجوع، عمّن يأكل تلذّذاً بالطعام، عن آخر يتذوّق حرصاً على جودة الطعام، يمكن أحياناً أن نلاحظ دوافع الكتابة داخل النصّ، لكنّ هذا يظلّ تخميناً، ثمّ إنّ بعض النصوص تشبه الوحي المتدفّق الذي يبدو من خارج هذا العالم." أعاد باسل نظره إلى سمر، وكأنّه يأخذ موافقتها على ما قال، فأتمّت: "ليس ثمّة نظرة متّفق عليها، وهذا يظلّ مساحةً من الحرّيّة لدى القارئ، وربما يكون من واجباته إن كان ناقداً متخصّصاً!"، فسألت عائشة باسل بطريقة بدت لها وقحة بعد أن بدأت جملتها، لكن كان الوقت قد فات على أن تتراجع: "هل أنت من حفظة القرآن؟... أستاذ باسل"، فأدار عينيه للحظة إلى سمر ثمّ سأل: "مخارج حروفنا تفضحنا دائماً... أليس كذلك؟"، ضحكت عائشة مع ضحكهما، وهي تسترجع مخارج الحروف القرآنية لديه، ثمّ قالت: "لا والله، ما شدّني هو حضور التعبيرات القرآنيّة، كثلّة من المقرّبين، وأوّل الملقين! ثمّ ختمتها بالوحي القادم من خارج العالم!"، أجاب باسل: "لا شكّ أنّ القرآن حاضر في وجداني، وهو حاضر في وجدان أناس كثر مختلفين جداً عن بعضهم! تخيّلي أنّ النص

القرآنيّ شكّل وجداني، ووجدانك، ووجدان الصحابة، وآل البيت، وحتّى وجدان ابن ملجم أو قطام التميميّة!"، وحين لمح الحيرة في عينيها، وهي تهمّ بالكتابة، قال: "أعتذر فقد نسيت أنّ الناس اليوم تهرب من ذكر أنّ الخوارج كانوا من حفّاظ القرآن أيضاً"، وكانت عائشة قد دوّنت الاسم لتتعلّم عن التاريخ المسكوت عنه.

استمرّ حديثهم أطول ممّا خطّطت عائشة، وعرفت من باسل أنّه يرى النصّ القرآنيّ نصّاً متفوّقاً في أثره وفريداً في أسلوبه، وأنّه لا يحفظه كأنّه أناشيد أطفال، لكنّه يعرفه وهذا حسب تعبيره أعمق من مجرّد الحفظ. كانت تستعيد هذه العبارات من حديثهم وهي تركض تقريباً باتجاه سارة، فلمّا رأتها سكت ذهنها كأنّها استيقظت للتوّ.

لمّا رأتها سارة، أبطأت خطواتها وابتسمت ابتسامة عريضة. "آسفة حبيبتي... تأخّرت عليك؟" قالت عائشة وانتبهت إلى أنّ سارة تفاجأت بما قالت، "حبيبتك! الأمر لا يخرج عن واحدة من اثنتين: إمّا أنّ علاقتنا تتدحرج أسرع ممّا أتخيّل، أو أنّ أحدهم لمس قلبك قبل قليل فأثّر على طريقتك في الكلام!" جاءها ردّ سارة العفويّ المغلّف بطبقة رقيقة من الضحك. وبفطرةٍ لم تهذّبها التجارب أجابتها عائشة: "هكذا أنت تطلقين النار على أجمل ما في صحبتنا! وهو أنّني لا أنتبه لكلماتي

معك." فأجابتها سارة معلنةً أنّها كانت تمازحها: "كما أطلقت أنت النار عليّ قبل أسبوعين!" وجعلت تتحسّس فكّها في إشارة إلى حادثة الهزّاز.

ربما بسبب هذه الافتتاحيّة، وجدت عائشة نفسها تخبر سارة عن حوارها مع باسل وعن مجاز الطعام الذي ضربه للكتابة، وعن رغبتها بأن تسمعه بعيداً عن مظلّة الدكتورة سمر، وكيف أنّ بينهما من المشتركات الشيء الكثير، وكانت سارة تسمع باهتمام غريب لا تشوبه الغيرة المتوقّعة، فسألتها عائشة بسذاجة قاطعة حوارهما: "أحاول أن أجعلك تغارين! ما بك؟"، قالت سارة كأنّها تقلّد باسل الذي لم تره إلا في تقليد عائشة له: "الشراب لا يغار من الطعام!". وكأنّ الجملة أيقظت عيّوش داخلها، فهمست عيّوش: أتمنّى ألا يغار ماء سارة من خمر دلال!

أحياناً يكفي أن تستدعي فكرة لتظهر في وعي من يحاورك بطريقة غامضة، وهذا ربما ما جعل سارة تعيد سؤالها عن مصدر اللعبة التي تركتها لها، فأجابت عائشة: "لا أستطيع البوح بمصادري! ههه، ولكن ثمّة المزيد من حيث أتت!"، فقالت سارة: "أخبريني الآن، ولا تخافي على مصادرك، لن أنافسك عليها، فإن كانت تجارة كما توحي كلمة مصادر، فأنا مكتفية... تعرفين أنّ أهلي يرسلون من غربتهم لي ما يكفي ويزيد، ربما يرسلون ضعف ما يرسلونه لأخي مع أنّ البلد التي يدرس فيها

أغلى، لكنّهم يخافون على البنت إن تغرّبت." غيّرت عائشة الموضوع: "يخافون أن تبيعي الهوى من أجل الرغيف!" وانفجرتا ضحكاً، ولمّا أعادت سارة السؤال بصورة جادّة أخبرتها عن أمّ ولد تدرّسه، وكيف أنّها امرأة لعوب وقد أهدتها اللعبة مدّعية أنّها لا تعرف كيف تعمل، وأنّ جيل عائشة أعرف بالآلات التقنية من جيلها، ولكنّها بالتأكيد كانت توحي لها بأنّ ثمّة المزيد إن أرادت صديقاتها ألعاباً مماثلة. وكانت عائشة تحسّ أن سارة لم تقبل القصة تماماً، لكنّ هذا كان كافياً لإسكاتها، وكأنّه حلمة مطاطيّة تعطى لرضيع لحوح.

رغم أنّهما توقّفتا عند أطياف دلال، ولم تكشف عائشة الستارة عنها، فقد امتدّ حديثهما الذي قطعه موعد المحاضرة التالية إلى مجتمع الرغبة الذي يتشارك مع مجتمعهنّ المساحة ذاتها دون أن يتقاطعا، كانت الفكرة وحدها كتلة ضخمة لدرجة أن تدور حولها كلّ أفكار عائشة كأنّها طوق زحل. وقد أضافت سارة كوكباً آخر مثله لعقل عائشة عندما تساءلت: "ترى كم مجتمعاً آخر حولنا لا نعرف عنه شيئاً!".

شعرت عائشة بسلام غريب بمجرّد أن ركبت الحافلة إلى بيتها، شعرت أنّها ربما وصلت البيت. منذ أن بدأت هذه المغامرات وهي تشعر أنّ بيتها الحقيقيّ هو طريق البيت، هو وهم أنّها ستذهب إلى منطقة الراحة. أمّا

البيت فلم يعد منطقة راحة تماماً، فهي تشعر كلّما تحدّثت مع أهلها أنّها بين أناس جمعت بينهم الصدفة البيولوجية والذكريات الطفوليّة. هي تعرف أنّها بدأت تكبر لتصبح شيئا آخر لم يكن مظهرها وهي طفلة لينبئ به.

وقرأت أخيراً الرسالة على هاتفها من دلال: "عندما تزورينني سأقرئك ما أرسلته الزبونة في حقّك! إنّها تراك ماهرة جدّاً في إخفاء الأمر. ممتاز عيّوش، المرّة المقبلة سأحضّر لك مفاجأة تفتح لك أبواباً جديدةً!" كانت الابتسامة لا تفارق شفتيها حتّى بلغت السطر الأخير، فأيقظها ألم شفتها السفلى التي كادت تقضمها، وهي تتلمّظ بانتظار المفاجأة، ولوهلة فقط خافت وربما أرادت لو كانت المفاجأة إياد بنفسه ربما! لكنّها صرفت الفكرة سريعاً متذكّرة جهل دلال بأفعال إياد الذي كان يخونها مع شريكاتها السابقات، وعرفت أنّ إياد سيظلّ يطلّ برأسه في كلّ فكرة حتّى تستخرجه منها الليلة عندما يحلّ الظلام، لكن قبل ذلك عليها أن تظلّ الفتاة التي ينتظر الجميع منها أن تكونها إلى أن تختلي بنفسها، أو بالأحرى بصوت إياد القادم من ذاكرتها.

الفصل الثاني عشر: براءة أخرى

رغم أنّ كذباتها المتلاحقة أمام أسئلة سارة بدت لها وكأنّها أصابع إدانة تشير إليها، ظلّت عائشة تخرج المبرّر تلو الآخر لنفسها، وكانت دائما ناجحة في ذلك. المجتمعات غير المتفهّمة تكاد تربّينا على اختلاق الأعذار أمام الآخرين، حتّى تتسرّب إلى أنفسنا. إنّ كلّ الحبّ والتفهّم في الأرض لن يكفيا سارة للتأقلم مع القصّة الحقيقيّة، فكيف لها أن تستوعب هذه القصّة المتراكبة، وهل ستبقى تحبّها إن عرفت أنّ لها وجهاً آخر، وجهاً أعرض ابتسامةً وأكثر مكراً؟ طلبت سارة صراحة منها أن تزورها يوم الأحد مرّة أخرى في سكنها، لكنّ عائشة كانت قد واعدت دلال، ولا تستطيع أن تتأخّر عنها، فأجّلت زيارتها لسارة يوماً واحداً فقط. إنّها تشتاق كلاً منهما بطريقة مختلفة، لكنّ موعد دلال غدا ثابتاً على جدولها.

يوم الأحد، أرسلت عائشة إلى سارة أنّها ستغادر الجامعة مبكّراً، وكان هذا قبل محاضرة د. سمر، ولمّا دخلت المحاضرة كانت شبه غائبة عن الوعي. وكلّما عادت إلى وعيها استعادت وعد دلال بفتح أبواب جديدة، وكانت تتمنّى ألا تكون مهمّات خطرة أخرى، لكنّها كانت في الوقت نفسه تريد أن تعيد رسم وجه إياد في خيالها، فهي تشتاق إليه هو أيضاً

بطريقة مختلفة عن كلّ شوق عرفته. لم يُعِد روحَها إلى جسدها إلا صوت الدكتورة سمر وهي تقرأ "أوراق العشب" لوالت ويتمان، لقد رأت فيها دعوة إلى الاحتفاء بالنفس وبلذّة الاكتشاف وبصعوبة الكتابة والتعبير عن النفس.

وبعد انتهاء المحاضرة بوقت بدا كأنّه يوم، كانت أمام باب شقّة دلال تخرمش على الباب، كأنّها قطّة تريد من يلاعبها. فتحت دلال الباب، ولم تخرج لها، لقد أشّرت بيدها لها أن تدخل دون أن تظهر شيئا من جسدها، وهذا وحده كان كفيلاً بتسريع نبض عائشة وهي تخطو خطوةً كلّها ثقة إلى بيت دلال الخالي إلا منها.

لمّا تجاوزت عائشة الباب احتضنت يد دلال زندها بشوق واضح، وسحبتها إلى الداخل، فرأت عائشة ثياب دلال، أو بالأحرى عريَها، لقد كانت ترتدي طقماً داخليّاً فاضحاً، حتّى إنّه مفتوح في الأماكن التي صنعت الملابس الداخليّة لكي تغطّيها. وسط دهشة عائشة، أخذت دلال تخلع عنها حجابها، وهي تقول: "نحن وحدنا اليوم"، ولم تكتف بالحجاب والجلباب الذي بات أكثر عصريّة منذ أوّل لقاء لهما، بل أخذت تفكّ شعرها وتفتح قميصها كعاشق خرج للتوّ من سجن طويل. قبّلت شفاهها

ممسكةً بصدغيها، وكانت عائشة تستجيب، فهي لم تعد بالسلبيّة التي تلفّ البدايات.

سألت دلال: "عيّوش، كيف أنت؟"، "مشتاقة، أهذه هي المفاجأة؟ هل سنبقى خارج غرفة النوم؟" أجابت عيّوش، فضحكت دلال من كلامها: "لا، لا... اليوم نحتاج المرايا أكثر من أي وقت مضى. ومشت بها نحو غرفة النوم متقدّمة عليها، تاركة أردافها ترقص أمام عيوش، وهذه المرّة أحبّت عائشة أن تلاعبها، فأمسكت خيط لباسها العلويّ وشدّته، فنظرت دلال إليها وكأنّها تقول: أفلتيه لتؤلميني، لن أعترض على الألم، ولكنّ عائشة قرّبته قليلاً من جلدها قبل أن تفلته، ومع ذلك أصدر صوتاً لذيذاً في سمعها، وأحدث ارتطامه بجلد دلال موجة طالت اقتربت من منتصف ردفها.

"تحاولين منافستي في المفاجأة التي أعددتها لك؟" سألت دلال بتحدٍّ واضح، فأجابتها عائشة بهدوء مرتبك: "أعرف أنني لا أنافسك، ولكن من حقّي أن أحاول!"، ثم استدركت: "بل من واجبي"، ودلال تفتح باب غرفة النوم، فتطلّ الشموع المعطّرة المتناثرة في الإضاءة الخافتة، ثمّ تفتح باب الحمّام، وتقترح بلهجة فيها نكهة الأمر: "كانت رحلتك طويلة، ربما تحبّين أن تزوري الحمّام قبل أن أريك ما أعددته لك!، سأحضّر

لك شيئا تشربينه... خذي وقتك... وبعد أن تَفرغي ربما أحببت أن تأخذي حمّاماً ساخناً وتجفّفي شعرك، وسأعود لنبدأ جلسة الاسترخاء."، لم تجد عائشة بدّاً من مسايرة دلال، فدخلت وكلّها قلب ينبض بوعد النشوة التي يبدو أنّها مختلفة اليوم، فلمّا دلفت إلى الحمّام وجدت طقماً معلّقا بجانب المناشف لونه أزرق، وفيه خليط عجيب من البراءة والإغواء، وعرفت من قياسه أنّ عليها أن ترتديه.

وبعد قرابة الربع ساعة تكشّفت غمامة صوت مجفّف الشعر عن صوت كؤوس العصير يصلصل قرب باب الحمّام، ودلال تخرمش عليه، وكانت عائشة في الداخل تتأمّل هيئتها الجميلة حقّاً، ولأوّل مرّة بدا جمالها مثيراً حتّى لها هي، وعرفت أنّها اليوم ستغادر غرفة دلال مخلوقاً آخر، امرأةً أخرى.

فتحت الباب، ووقفت أمام دلال التي كانت تحمل كأسين من عصيرٍ أحمر قرمزيّ، لا بدّ أنّه رمّان ممزوج بفاكهة أخرى أغمق منه. قدّمت لها كأساً، ولامست أصابعُهما بعضَها، لمسةً سريعةً لكنّها كانت كافيةً لقدح شرارةٍ في أعماقها. تردّدت عائشة ثمّ أخذت ثقتها من نظرة دلال، ارتشفت من الكأس، كان طعمُهُ حلواً، لكنّه يحملُ في نهايتهِ لذعة مرارةً خفيفةً قابضة للفمّ وكأنّه فاكهة غير ناضجة تماماً.

"هذا... لكي تسترخي عضلاتُكِ، وتُسلّمي زمامَ الأمرِ لروحٍ طليقة" قالت دلال وهي تبتسم. خشيت عائشة أن تسأل عمّا في الكأس، فأعادت فمها عليه وأخذت جرعتين، ووضعته جانباً. جلست دلال على حافّةِ السرير وتقدّمت حتّى تجاوزت ركبتاها طرفه، داعيةً عائشة لتجلس في حضنها. لم يعد في الأمرِ أيُّ تردّد. جلست عائشة وهي تثبّت عينيها في عيني دلال من خلال المرآة، معطية ظهرها لها، فوضعت دلال كأسها على سطح قريب، وما إن جلست حتّى عانق توقها فراش دلال الوثير، فلامس من مؤخّرتها مناطق لا يلمسها كرسيّ.

بدأت تدلّك كتفي عائشة. كانت عينا عائشة تجولان في المرايا التي تحيطهما كأنّهما جوهرتين في قلب معرض باذخ. قرّبت دلال شفتيها من أذن عائشة مقلّصةً المسافة بين الحديث والقبل، وهمست: "اليوم يوم آخر، إنّه طقس خاصّ لا يكون إلا لك!"، تشنّجت رقبة عيّوش في لذّة واضحة تحت هواء الهمس الدافئ، فتراجعت دلال وقالت بنبرة فيها شيء من السلطة: "لن يحدث شيء لا تريدينه، بل لن يحدث شيء لا تطلبينه! أنت اليوم ملكتنا"، ابتسمت عائشة في سلام لمفارقة أن تكون ملكةً تتلقّى الأوامر. أتمّت دلال: "أمّا أنا فسأقترح فقط... فإذا أمرتِ، استلقي هنا على بطنك، لكي أمنحك تدليكاً تستحقّينه بعد كلّ ما

حدث!" وهنا نطقت عيّوش: "تقصدين قبل كلّما سيحدث.."، وهي تطالع أين تشير كفّ دلال المبسوطة على القماش الحريريّ البارد بجانبها.

واستلقت على بطنها فوقَ الحريرِ البارد، الذي التقم ثدييها كفم بارد، وكأنّ حلمتيها مسماران يثبّتانها في الفراش، ووجها مُلتفتٌ نحو المرايا التي تعكسُ جسدَها في الطقمِ الأزرق، وجسدَ دلال كظلٍّ مُسيطرٍ خلفها. شعرت بأنّها قُربانٌ يُقدَّمُ على مذبحِ اللذّة، وهي راغبةٌ في هذا المصير.

بدأت دلال تُدلّكُ كتفيها من جديد، لكنّ لمساتِها هذه المرّة كانت أعمق، أبطأ، كأنّها تستعدُّ لمبارزةٍ طويلة، أو لطقسٍ يتطلّبُ كلَّ التركيز. الزيتُ العطريّ الذي استخدمتهُ كانت رائحتُهُ غريبة، مزيجاً من خشبِ الصندلِ واللبان، رائحةُ أسرار الأسلاف.

"أتعلمينَ يا عيّوش،" همست دلال، وصوتُها كأنّهُ موجٌ دافئٌ يغسلُ شاطئَ وعيها، "الجسدُ خريطةٌ مليئةٌ بالدروب، بعضُها طويلٌ وواضح، وبعضُها الآخرُ طرقٌ مختصرة، ممرّاتٌ سريّةٌ لا يعرفُها إلا قلّة. دروبٌ لا تقودُ إلى مجرّدِ لذّة، بل إلى نوعٍ آخر من المعرفة."

صمتت قليلاً، وأصابعُها تستمرُّ في عزفها على ظهرِ عائشة، ضاغطة بإبهاميها على أزرار ظهر عائشة البارزة، نازلة شيئاً فشيئاً إلى بيت القصيد. كانت يداها المبسوطتان على ظهر عائشة تُرسلُ تسرب الدفء إلى كلِّ خليّةٍ من خلاياها. شعرت عائشةُ بأنّ كلَّ كلمةٍ كانت تمهّدُ لشيءٍ كبير، وأنّ دلال كانت تبني جسراً من الكلماتِ لتعبرَ عليهِ إلى أرضٍ جديدة.

عادت دلال لتحضن جسد عائشة بكفّيها تدليكاً أعمق من الدغدغة، وأقلّ من الألم بقليل، ضاغطة أسفل ظهرها رجوعاً إلى ما دون عظمة اللوح، وعدّلت وضعها فوق عائشة لتجعل ركبتيها يلامسان أعلى فخذي عائشة، ثم قالت وهي تلامس نهدي عائشة الخارجين عن مظلّة جسمها برؤوس أصابعها: "في مجتمعنا جسدنا حرام، فأيّ حرام هذا الذي يكون قريباً منّا إلى ذلك الحدّ!"، واتّكأت على ظهر عائشة لتنصبَ خيمة من جسدها فوقها، وتضمّ بباطن فخذيها رجلي عائشة وتجلس عليهما. أرسلت الملامسة الكاملة في جسد عائشة تيّاراً من اللذّة لم تكن تعلم أنّ هذه المواضع في الجسد موصلة له.

"اليوم سنرقص على حافّة خطرة" أكملت دلال، "رقصنا يحتاج منك أن تثقي بي... ثمّ من يدري فقد تطلبين منّي أن أخطو خطوة أخرى إلى

الأمام، وأعدك أنّني سألبّي طلبك"، مدّت دلال يديها وباعدت بين ردفي عائشة بإصبعين، ثمّ رجعت لتجلس على ساقيها وسجدت كأنّها تعبد موضع جلوسها على عرش متخيّل، وكان لسان دلال يحلّ شيئا فشيئا مكان العرش، وقالت: "ثمّة باب حين تسمحينَ لي بعبوره، فأنتِ لا تمنحينَ جسدَكِ لي فقط، بل تعطينني مفتاحَ روحِكِ،" ودفنت وجهها بين فلقتي عائشة ولسانها يمتدّ كمفتاح، وعائشة تراقب في المرايا كيف تتعبّدها تلك الكاهنة المجذوبة، فلم ترفع رأسها إلا لتنظر أعمق بين ردفي عائشة، وتقول "إنّك تجعلينني شريكةً في أعمقِ أسرارِك... هو طقسُ امتلاكٍ متبادل، اعترافٌ بأنّكِ مستعدّةٌ لفتحِ أرضِكِ البكر، تلكَ القارةُ الأخيرةُ التي لم يكتشفها أحد."

كانت عائشة تستمع، وكلُّ كلمةٍ كانت ترنُّ في أعماقِها. فهمت اللعبةَ بالكامل. دلال لا تفرضُ شيئاً، بل تعرضُهُ كأثمنِ الهدايا، كسرٌ من أسرارِ الكون، وتجعلُ قرارَ قبولِهِ أو رفضِهِ مسؤوليّتَها هي وحدها. "إنّها ماكرة،" همست عيّوش في داخلها، "تريدُكِ أن تتوسّلي، أن تستجدي هذا الألمَ اللذيذ، لكي لا تشعري بأنّكِ ضحيّة، بل طالبةُ معرفة."

قرّرت أن تُلاعبَها. أن تُظهرَ لها أنّ التلميذةَ قد تعلّمت بعضَ فنونِ الأستاذة.

أدارت رأسَها قليلاً، ونظرت إلى انعكاسِ وجهِ دلال في المرآة وهي محدّقة في مؤخّرتها التي لم تزل في زيّها الأزرق الذي يبدو كنهر بين جبلين أسمرين. تظاهرت بالخوف، وجعلت صوتَها يرتجفُ قليلاً حين قالت: "لكن... ألا يؤلمُ؟ ألا يتركُ ندوباً؟"

رأت ابتسامةَ نصرٍ صغيرةٍ تتشكّلُ على شفتي دلال في المرآة. لقد أخذت الطُعم. "كلُّ معرفةٍ عظيمةٍ تبدأ بوخزٍ من ألم،" أجابت دلال بهدوء، "لكنّهُ ألمٌ يتحوّلُ إلى أعمقِ لذّةٍ عرفتِها. ألمُ الفتحِ هو أقدسُ الآلام. لكن لا تخافي، لن أُجبرَكِ على شيء. هذا البابُ لا يُفتحُ إلا بالرجاء."

صمتت عائشةُ لدقيقة، كأنّها تُفكّرُ بعمق، كأنّها تزنُ المخاطرَ والمكاسب. كانت تستمتعُ بهذه اللعبة، بلعبةِ السيطرةِ المتبادلة. هي تعرفُ أنّ دلال متحرّقةٌ لذلك، ودلال تعرفُ أنّها ترغبُ فيه، وكلاهما تنتظرُ الأخرى لتتّخذَ الخطوةَ الأخيرة.

تحرّكت عائشة تحت دلال، فأفسحت لها مجالاً لتعتدل، فقامت عائشة وكأنّها تستعرض مؤخّرتها أمام دلال، وهي تراقب لهفتها في المرايا، وفجأةً، أفلتت عائشةُ ضحكةً خافتةً، ضحكةً فاجأت دلال نفسها. استدارت بجسدِها بالكامل، وجلست تُقابلُها، وعيناها تلمعانِ بمزيجٍ من الجرأةِ والدعابة.

"حسناً،" قالت عيّوش، ونبرتُها لم تعد تحملُ أيَّ أثرٍ للخوف، وبلحن صريح مشاكس أتمّت: "فهمتُك، تريدين أن تغرسي عَلَمَك في القطب الجنوبي! مستكشفة مثلك لا تقنع بأقلّ من هذا، ولكنّه صعب... المهمّ ألا تيأسي من صعوبته!"

ذهلت دلال للحظة، ثمّ أطلقت ضحكةً صافيةً وعالية، ضحكةُ إعجابٍ وتقدير. لقد فهمت التلميذةُ اللعبة، بل وأضافت إليها قوانينَها الخاصّة. لم تعد فتاةً خائفة، بل أصبحت ندًّا، شريكةً في رقصةِ الخطر هذه.

"أنتِ شيطانةٌ صغيرة،" قالت دلال وهي تقتربُ منها، وعيناها تلمعانِ بلهيبِ الإعجاب، "وهذا ما أُحبّهُ فيكِ."

لم تعد هناكَ سيّدةٌ وتابعة، بل أصبحتا شريكتي رقص مغوٍ تتكشّف ألغازه وإيحاءاته أكثر فأكثر، كلٌّ منهما تُريدُ أن تمتلكَ الأخرى، وكلٌّ منهما مستعدّةٌ لأن تمتَلك. أمسكت دلال بيدِ عائشة، وأعادتها إلى وضعها السابق، مستلقيةً على بطنها فوق الحرير، كأنّها تقولُ لها إنّ جولةَ الحوار قد انتهت، وقد حات وقتُ الدرس.

"بما أنّكِ بهذهِ الجرأة،" همست دلال مرّةً أخرى قربَ أذنِها، وصوتها الآن كحفيف أفعى تستعد للانقضاض، "فمن العدلِ أن أريكِ خريطةَ القارةِ قبلَ أن تُقرّري الإبحارَ إليها معي. سأشرحُ لكِ عمليًّا ما الذي ينتظركِ... خطوةً بخطوة."

أخذت دلال قليلاً من الزيتِ العطريّ الدافيء بين راحتيها، وبدأت تمرّرهُ على بشرةِ مؤخّرةِ عائشة بحركاتٍ بطيئةٍ ودائريّة، وكأنّها تفرد المسامات التي بدأت تبرز في مؤخّرتها من رهبة التوقّع. كان الملمسُ زلقاً وناعماً، والرائحةُ تُخدّرُ الحواس، وتُرسلُ عائشةَ إلى حالةٍ من الاسترخاء العميق، استرخاءِ فريسةٍ واثقةٍ من حنانِ مفترسِها. كانت أصابعها ترسم دوائر تكبر وتصغر، تقترب من خاتمها ثم تبتعد، كمدٍّ وجزرٍ يُهيّئ الشاطئ لوصول الموجة الكبرى.

"الخطوةُ الأولى،" قالت دلال بصوتٍ تعليميٍّ هادئ كأنّه صوت معلّمة يوغا، "هي التمهيد. لا يمكنُ اقتحامُ قلعةٍ حصينةٍ دونَ كسبِ ودِّ حُرّاسِها أوّلاً. يجبُ أن نُروّضَ المكان، أن نجعلهُ يألفُ وجودَنا، أن يشتاقَ إلى لمستِنا." وكانت تعيد إصبعها بين الفينة والأخرى إلى دائرة الهدف، "الجسدُ يا عيّوش ليس آلة، بل هو قصيدةٌ حيّة، وكلّ بيتٍ فيه يمهّد للآخر." كانت أصابعُ دلال تُدلّكُ المنطقةَ برفق، تُداعبُ وتضغطُ وتدور،

تُرسلُ موجاتٍ من لذّةٍ خفيفةٍ لكنّها مُلحّة، تجعلُ عضلاتِ عائشة ترتخي وتلينُ تحتَ يديها. كانت تتكلّمُ عن الجسدِ كأنّهُ كائنٌ مستقلّ، لهُ إرادتُهُ ومخاوفُهُ ورغباتُه. "انظري في المرآة،" قالت دلال، "انظري كيفَ يستجيبُ جسدُكِ... كيفَ يتوقُ وهو لا يعرف حتّى ما الذي يتوقُ إليه." شدّت عائشة رقبتها تحت ضغط دلال، فالتقفت دلال شعرها بيدها الحرّة قائلة: "انظري هذا التورّد، كأنّ الربيع حلّ فجأة في جسدك."

راقبت عائشة في المرايا كيف كانت بشرتُها تتورّدُ تحتَ لمساتِ دلال، وكيفَ كانَ جسدُها يتقوّسُ لا إراديًّا نحو مصدرِ اللذّة. شعرت بأنّها منفصلةٌ عن هذا الجسد، مُجرّدُ مُشاهدٍ لرقصةٍ تحدثُ بينهُ وبينَ يدي دلال.

"الخطوةُ الثانية،" أكملت دلال وقد أصبحَ صوتُها أعمق، كأنّه قادم من بئرٍ سحيقة، "هي الاستكشاف. بعدَ أن يألفَنا المكان، نبدأُ في استكشافِ حدوده. نتحسّسُ البوّابة، نُداعبُ قفلَها، نُذكّرُها بأنّ خلفَها عالماً من النشوةِ ينتظر. لن نستخدمَ العنفَ أبداً، بل الإغراء. الفضول هو مفتاح كلّ بابٍ موصد."

استخدمت دلال طرفَ إصبعِها لترسمَ دوائرَ صغيرةً جدًّا حولَ حلق الخاتمِ. لم تكن لمسةً مباشرة، بل كانت مجرّدَ إيحاء، مجرّدَ وعدٍ بالاقتراب.

همسٌ حسيٌّ لا يصل إلى حدّ الفعل. شعرت عائشةُ بـ"وخزِ إبرةٍ" من نار، قشعريرةٌ حادّةٌ سرت في جسدِها كلّه، وجعلتها تحبسُ أنفاسَها. "هل تشعرينَ بهذا؟" همست دلال، "هذا هو "تنبه الحارس". إنّهُ يعرفُ الآن أنّنا هنا، وأنّنا لا ننوي الرحيلَ قبلَ أن نأخذَ ما نريد." تكرّرت الحركةُ مرّةً ومرّتين، وفي كلِّ مرّةٍ كانت اللذّةُ المؤلمةُ تزدادُ حدّة، وتتسارعُ نبضاتُ قلبِ عائشة. كانت على "شفا البركان"، تشعرُ بأنّ حمماً من رغبةٍ مكبوتةٍ تتأجّجُ في أحشائِها، واحتباسُ العطرِ في جسدِها يكادُ يُفجّرُه.

"والآن،" قالت دلال وقد أصبحَ صوتُها مُجرّدَ همسٍ خافتٍ ومُركّز، "تأتي لحظةُ الإقناع. هذهِ هي أصعبُ خطوة. يجبُ أن نُقنعَ البابَ بأن ينفتحَ لنا طواعيةً، أن يرغبَ فينا بقدرِ ما نرغبُ فيه. نفعلُ ذلكَ بالضغطِ اللطيفِ اللحوح."

وضعت دلال طرفَ إصبعِها على مدخلِ الباب، ومارست ضغطاً خفيفاً جداً، ضغطاً كانَ كافياً ليُرسلَ رسالةً واضحةً للجسد. تشنّجَ جسدُ عائشة للحظة، في ردّةِ فعلٍ غريزيّةٍ من الخوفِ والدفاع.

"ششش..." همست دلال، كأنّها تُهدّئ طفلاً فزعاً. "لا تُقاومي. تنفّسي بعمق. تخيّلي أنّ هذا الضغطَ ليسَ اقتحاماً، بل هو عناقٌ عميق.

اسمحي لهُ بالدخول، استقبليه. لا تفكّري في جسدكِ كقلعة تحارب الغزاة، بل كبيتٍ يفتح أبوابه لضيفٍ عزيز."

حاولت عائشةُ أن تسترخي، أن تُسلّمَ جسدَها لهذهِ التجربة. شعرت بذلكَ الضغطِ الخفيفِ يتحوّلُ شيئاً فشيئاً من تهديدٍ إلى وعد. كانت دلال تحرّكُ إصبعَها ببطءٍ شديد، تحاكي حركةَ الفتح، وتُزيدُ من الضغطِ بشكلٍ تدريجيٍّ لا يكادُ يُلحَظ، كأنّها تقيس نبض المقاومة.

"انظري... إنّهُ يستجيب،" قالت دلال بنبرةِ نصرٍ هادئة. "إنّهُ يلينُ لكِ، يفتحُ نفسَهُ لكِ... لأنّكِ وثقتِ بي."

كانت تشرحُ ما يحدثُ وتفعلُهُ في آنٍ واحد. كانت تحضّرُ المكانَ عمليًّا، تُوسّعُهُ برفقٍ، تُهيّئُهُ للحظةِ الحاسمة، كلُّ ذلكَ تحتَ ستارِ "الشرحِ النظريّ". وصلت عائشةُ إلى حالةٍ من "ضبابِ الرؤية"، حيثُ امتزجت الأحاسيسُ بالكلمات، والواقعُ بالخيال.

ثمّ، وكما فعلت في مرّةٍ سابقة، وفي اللحظةِ التي شعرت فيها عائشة بأنّها على وشكِ الاستسلامِ الكامل، وأنّ البابَ قد فُتحَ على مصراعيه، سحبت دلال إصبعَها وتوقّفت.

تركتها مرّةً أخرى مُعلّقةً في جحيمِ الرغبة، لكنّ هذا الجحيمَ كانَ أشدَّ قسوةً هذه المرّة، لأنّها كانت قد تذوّقت عسل القُرب، وكانت على بعدِ خطوةٍ واحدةٍ من العبور.

"وهكذا،" قالت دلال ببساطة، كأنّها تُنهي درساً في الكيمياء، "بهذهِ الطريقةِ نُهيّئُ المكانَ للاستقبال. هذا عندما تكونين مستعدّة طبعاً!"

لكنّ عائشة لم تعد قادرةً على اللعب. لقد دمّرت لعبةُ الشدِّ والجذبِ هذهِ كلَّ دفاعاتِها. كانَ جسدُها يرتجفُ بعنف، وأنفاسُها متقطّعة، وفيضانُ النهرِ في داخلِها يُهدّدُ بإغراقِها.

لم تجب. لم تستطع. كلُّ ما فعلتهُ هو أنّها أدارت رأسَها، ودفنت وجهَها في الوسائد، وأطلقت أنّةً طويلة، أنّةَ يأسٍ ورجاء، أنّةَ حيوانٍ جريحٍ يتوسّلُ رصاصةَ الرحمة.

اقتربت دلال منها، وعانقت جسدَها المرتجفَ بجسدِها، وهمست في أذنِها بصوتٍ امتزجت فيهِ الحلاوةُ بالانتصار: "ما الأمرُ يا ملكتي؟ هل كانَ الشرحُ العمليّ مُقنعاً بما يكفي؟"

وهنا، لم تعد عائشةُ تحتمل. استدارت فجأةً، وأمسكت بدلال من ذراعيها بقوّةٍ فاجأت دلال نفسها، وعيناها تطلقانِ شرراً من دموعٍ ورغبةٍ وغضب.

"كفى!" صرخت بصوتٍ مبحوح، "كفى!... لن أفهم حقّاً حتّى يصبح الأمر واقعاً!" وكان وجه دلال قد أظهر ارتباكاً واضحاً أمام طلب التوقّف، ثمّ أزاحه الهواءِ المتدفّق مع الجملة الأخيرة كأنّه يكشف آخر غمامة شكّ لديهما.

كانَ ذلكَ هو الرجاءُ الأخير. الرجاءُ الذي انتظرتهُ دلال طوال هذا الوقت. ابتسمت دَلال ابتسامةً عميقة، وقبّلتها قبلةً طويلةً حارّة، قبلةَ ختمِ الاتّفاقِ النهائيّ، وهمست قبلَ أن تبدأ طقسَها الحقيقيّ: "الملكة تأمر ولا توحي!"، فقالت عيّوش مقاطعة بداية القُبلة الجديدة: "ادخلوها بسلام آمنين!" وكأنّها تسرّي عن نفسها بالنكات، تقولها الآن مرحّبةً لا متحدّية!

استجابت دلالٌ لرجاءِ عائشة، لا كقائدةٍ تُلبّي أمرَ الملكة، بل ككاهنةٍ عليا تبدأ أقدسَ طقوسِها. لم تكن عجلى في حركاتِها، بل تأنٍّ مُتعمّد، إيقاعٌ بطيءٌ كأنّهُ يمهّدُ لزلزال. عادت لتُدلّلَ جسدَ عائشةَ الذي أصبحَ الآن قيثارةً تنتظرُ لمسةَ العازف، كلُّ وترٍ فيهِ مشدودٌ على حافّةِ الانقطاع.

مرّرت أناملَها المُشبّعةَ بالزيتِ على طولِ ظهرِها، ثمّ هبطت لتُعانقَ استدارةَ ردفيها، تُهيّئُ الأرضَ قبلَ أن تغرسَ فيها بذرةَ المعرفةِ الجديدة.

"الجسدُ لا ينسى يا عيّوش،" همست دلال، ولسانُها يلعقُ شحمةَ أذنِ عائشة، "كلُّ لذّةٍ وكلُّ ألمٍ يُنقشُ في ذاكرتِهِ كأنّه وشمٌ أبديّ. وما سنفعلهُ الآن، لن يمحى أبداً."

رفعت جسدَها قليلاً، واتجهت بخطواتٍ بطيئةٍ نحو منضدةٍ صغيرةٍ من الخشبِ الداكنِ في زاويةِ الغرفة، وعينا عائشة مسمّرتان في أردافها. فتحت جاروراً صغيراً، تفوحُ منهُ رائحةُ مسكٍ وعودٍ مُعتّق، وأخرجت منهُ شيئاً ملفوفاً في قطعةٍ من حريرٍ أسود. عادت إلى السرير، وجثمت بجانبِ عائشةَ التي كانت قلباً خافقاً بالرهبة والترقّب اللذيذ وهي تتابعها في المرايا، وكأنّ فيها يقيناً يدرك أنّ ما في تلكَ الصرّةِ الحريريّةِ هو قدرُها المحتوم.

فضّت دلالٌ عُقدةَ الحريرِ ببطء، وكشفت عمّا بداخله. تبدّى انسدال الحرير عن حجرٍ عجيب، كانَ قطعةً فنيّةً من حجرِ اليَشْمِ الأخضرِ الداكن، مصقولةً بعنايةٍ فائقةٍ حتّى بدت كأنّها قطعةٌ من ماءٍ مُتجمّد. كانت عريضةً من المنتصف، كأنّها قبضةُ يدٍ صغيرة، ولها طرفانِ أملسانِ ينتهي كلّ منهما بما يشبه كرة، أحدهما أطولُ من الآخرِ قليلاً وكرته أصغر من

كرة القصير، وكلاهما ينتهي باستدارةٍ ناعمةٍ واعدة. كانت تُشبهُ ثقّالةَ ورقٍ فخمة، أو تحفةً أثريّةً غامضة، لا تُوحي أبداً بحقيقتها.

"هذا هو الحجرُ الملوكيّ،" قالت دلال بصوتٍ خافتٍ كأنّها تُفشي سرًّا من أسرارِ الأسلاف. "هذه القطعة من تصميمي أنا، هي هديّتي لجسد ملكتي."

وضعت دلالٌ قليلاً من الزيتِ العطريّ على الحجرِ البارد، وراحت تُدلّكهُ بينَ راحتيها حتّى اكتسبَ دفئاً خفيفاً، وأصبحَ يلمعُ في ضوءِ الشموعِ كعينِ أفعى تستعدُّ للانقضاض. كانت عائشةُ تُراقبُ المشهدَ في المرآةِ وقد جفّ ريقُها، رأت انعكاسَ دلال وهي تُباعدُ بينَ فخذيها، وتُقرّبُ الحجرَ من محرابِ همسِها المُغطّى بنهر من القماش الأزرق. لم تستخدمه على عائشة، بل راحت تمرّرُهُ على جلدِها هي، على باطنِ فخذيها، صعوداً وهبوطاً، بحركةٍ بطيئةٍ مُغرية، كأنّها تُعرّفُه على جسدها، كأنّه زائرٌ جديد.

ثمّ، وبلا تردّد، أمسكت بالطرفِ القصيرِ من الحجر، وأغمضت عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، وأدخلتهُ في فم مثلّثها الحميم الذي كان يطلّ بين خيوط ثيابها الداخليّة السوداء.

شهقت عائشةُ شهقةً مكتومة. رأت في المرآةِ كيفَ تقوّسَ ظهرُ دلال، وكيفَ ارتسمت على شفتيها تعابيرُ اللذّةِ الخالصةِ وهي تستقبلُ صلابةَ الحجرِ الباردةَ في دفءِ جسدِها. لم تكن حركةً عنيفة، بل كانت إيلاجاً بطيئاً، سياديًّا، كأنّها ملكةٌ تجلسُ على عرشِها. بدأت تتحرّكُ نحوها ببطءٍ شديد وكأنّها تستلذّ بكلّ خطوة، وعيناها لا تزالانِ مُغمضتين، ووجهُها مُتّجهٌ نحو السقف، كأنّها تُصلّي صلاةَ الجسد. كلُّ حركةٍ كانت تُطلقُ من فمِها أنّةً خافتة، لحناً عذباً من ألمٍ ولذّةٍ مُتداخلين.

بدت دلال في عيني عائشة وكأنّها المخلوق الكامل، المرأة الرجل، بدت إنساناً يعرف كيف يرضي نفسه بما يملؤه من صلابة داخليّة، بينما يخرج من بين رجليها صنم تحجّ له عين كلّ ناظر، وهي تحيط به بشفاهها كأنّه حلوى في فمها السفليّ، وأخذت تتحرّك وكأنّها تلوكه بين رجليها.

كانَ المشهدُ قاتلاً في إغرائه. دلال، تلكَ المرأةُ التي كانت قبلَ قليلٍ هي الفاعل، هي المُسيطرة، حوّلت نفسَها الآن إلى موضوعٍ للذة، إلى لوحةٍ حيّةٍ تُعرضُ أمامَ عيني عائشة. كانت تُريها، بعد أن توقّف الشرح، تريها كيفَ يكونُ التحامُ نجمين، كيفَ يكونُ ذوبانُ الحدودِ بينَ الذاتِ والأداة، بينَ الرغبةِ وتحقيقِها. لم تعد عائشةُ تحتملُ دورَ المُشاهد. هذا العرضُ الخاصُّ أشعلَ فيها نيراناً تقتات على ما فيها من صبر حتّى أتت على آخره.

أبقت دلالٌ الحجرَ في مكانه وكأنّه بات جزءاً منها، لكنّها عادت لتنحني فوقَ عائشة، ورائحةُ جسدِها الممزوجةُ برائحةِ الحجرِ والزيتِ واللذّةِ كانت تحيطُ بعائشةَ كضبابٍ كثيفٍ يُفقدُها اتجاهاتِها في ظلال المرايا المتقابلة.

عادت دلالٌ بلسانِها وأصابعِها إلى بوّابةِ عائشةَ التي كانت الآن تنبضُ وتنتظرُ كأنّها جمرة في الريح. لم تعد هناكَ حاجةٌ للشرحِ أو التمهيد. كانَ "عزفُ اللسانِ" عنيفاً وجائعاً، و"رقصةُ الأصابع" حاسمةً ومُباشرة. كانت عائشةُ تتلوّى تحتَها، وروحها ترتجفُ كورقةٍ في مهبِّ الريح التي تشعل الجمر، وكلماتٌ مُتقطّعةٌ تخرجُ من بينِ شفتيها: "دلال... أرجوكِ... الحجر... هل..."

كانت تطلبُ، تستجدي، تُعلنُ عن حاجتِها بوضوحٍ لا يقبلُ الشكّ، تريدُ أن تقطعَ خطَّ النهاية، أن تبلغ القمّة التي وعدتها بها عينا دلال قبلَ قليل.

لكنّ دلال كانت تأخذُ وقتَها. كانت تستمتعُ بهذهِ السيطرةِ المُطلقة، بهذا الرجاءِ الذي يقطرُ من فمِ عائشة كالشهد. كلّما زادَ إلحاحُها، أبطأت دلالٌ من حركتِها، كأنّها تُعذّبُها عذاباً لذيذاً، تزيدُ من عطشِها قبلَ أن تسقيَها، كأنّها تريد منها أن تقدّس نعمة الماء.

أخيراً، وبعدَ أن أصبحت أنّاتُ عائشةِ أشبهَ بنحيبٍ يائس، استلقت فوقَ عائشة، جسداً لجسد، وشعرت عائشةُ بثقلِها الدافئ وبحرارةِ أنفاسِها على عنقِها. وضعت دلالٌ مقدّمةَ الحجرِ، طرفَهُ الأطولَ هذهِ المرّة، على باب مخرجِ الطوارئ، أراحت بثقلها ضاغطةً على عائشة بلطف وحسم، ضغطةً أرسلت زلزالاً من توقّعٍ لذيذٍ في كيانِ عائشة كلّه.

"ماذا تُريدينَ يا طفلتي؟" همست دلال في أذنِها، وصوتُها كانَ هادئاً بشكلٍ مرعب. "لم أسمع جيّداً... قولي ما تُريدين بصوتٍ واضح."

كانت عائشة تعلم أنّ دلال تتظاهرُ بأنّها لم تسمع. كانت تعلم أنّها تُريدُ منها أن تُكرّرَ الطلب، أن تتجرّدَ من آخرِ ذرّةِ كبرياء، أن تُصبحَ في تلكَ اللحظةِ جاريةً ذليلةً تتوسّلُ سيّدتَها، وعيّوش تخفّف من وقع هذا كلّه عليها وكأنّها لا تموت لذّة هي الأخرى، تقول: تماسكي... انتظري فهي لن تديم حصارها! وتذكّرها أنّه حجر ملوكيّ، وأنّها تعرف أنّ الملوك يتركون الأعزّة أذلّة، فكيف تنقلب من الملكة إلى من ترجو هذا الاقتحام اللذيذ.

"أريدُهُ... أريدُهُ فيّ... أرجوكِ..." خرجَ صوتُ عائشة مُختنقاً، ممزوجاً بالدموعِ واللهاث.

"أين؟ لم أفهم. كوني واضحة،" قالت دلال بنفسِ البرودِ القاتل، وهي تمسك بالحجر الذي أصبح امتداداً لها، وتحرّكُ مقدّمته حركةً دائريّةً صغيرة، تُشعلُ الجحيمَ دونَ أن تُطفئهُ.

لم تعد عائشةُ تحتمل. صرخت بصوتٍ ممزّق، صوتٌ لم يَعُدْ يحملُ رجاءً، بل أمراً يائساً صادراً من أعماقِ روحٍ تحترق: "أُدخليني!"

ابتسمت دلال في الظلام.

ثمّ، بحركةٍ واحدة، بطيئة، وقويّة، وحاسمة، بدأت تشيِّد جسرها إلى القارةِ الأخيرة. شعرت عائشةُ بذلكَ الألمِ الحارقِ الذي يسبقُ كلَّ فتحٍ عظيم، ألمٌ كأنّهُ يمزّقُ نسيجَ وجودِها، لكنّهُ في اللحظةِ ذاتِها كانَ يحملُ في طيّاتهِ وعداً بلذّةٍ تتجاوزُ كلَّ ما عرفته. قالت دلال: "هذه البوّابة تفتح فقط من الداخل!" وعيّوش تكاد لا تسمع فحتّى أذنها صارت امتداداً لحلقة البوّابة الموصدة، "يجب أن تدفعي به إلى الخارج ليدخل أكثر!" همست دلال في أذنها كمن تصرخ، دفعت عيّوش، ودفعت دلال، واستمرّ الدخولُ البطيءُ، ودلالٌ تهمسُ في أذنِها بكلماتِ تشجيعٍ وإغواء، حتّى عبرت الكرة في الحلقة، ثم بدأت تضغط أكثر ليستقرّ الجزء الظاهر من الحجر في أعماقِها، مالئاً فراغاً لم تكن عائشة تعرفُ بوجوده،

أتمّ دخوله مُرسلاً إحساساً بالامتلاءِ المُطلقِ والقوّةِ الغاشمةِ التي جعلت جسدَها يتقوّسُ كالحرير المعقود، وروحَها تصرخُ في صمت.

ثمّ بدأت الحركة، إيقاعُ المدِّ والجزر، رقصةُ الحياةِ والموت، غوصُ المرايا في أعماقِ الروح، حتّى باتت تلكَ اللحظةُ التي تتلاشى فيها كلُّ الحدود أقرب من أيّ وقت مضى، فشدّت دلال شعر عائشة من الخلف، وهمست في أذنها وكأنّها داخل رأسها: "الآن..."، فانحلّ حرير جسدِها فيضاناً من لذّةٍ كونيّةٍ أغرقَ كلَّ شيء، وتركَها جسداً مُرتخياً، خالياً من كلّ شيءٍ إلا من سلامِ الروحِ وشكرِ الجسد!

كان فراش دلال يستقبل فيض عائشة، ودلال لم تزل تجثم فوقها كحفّار آبارٍ يتقلّب في الماء الذي اكتشفه بعد طول تنقيب، وعائشة تنتفض في رعشات متتابعة كأنّها موجات ارتداديّة لزلزال مدمّر، زلزال دمّر مملكتها، وجعلها تقف على بوّابتها متوسّلةً كرم دلال.

وكانت دلال قد بلغت نشوتها فأفلتت الحجر منها، تاركة طرفه القصير ينتصب بين فلقتي عائشة وهي ملقاة كمحموم، فاتّكأت على مرفقها وأراحت ثقلها عنها، ثمّ عانقتها بحبّ، ويدها التي كانت تشدّ شعرها منذ قليل، غدت تداعبه مبلولاً كأنّها خرجت من بركة العُمّاد، وقالت: "كنت أعرف أنّ اسمك منقوش فيّ، وها أنا قد نقشت اسمي فيك!"

وعائشة تدفن وجهها في الفراش حياءً بعد أن عاد لها إدراكها، وتمدّ في الوقت ذاته يدها إلى الخلف لتتحسّس الوتد المزروع فيها، ثمّ تخرج عينها لتطالعه في المرايا بحياء ولذّة.

"أنت يا دلال، أعظم كاتبة قرأت لها..." قالت عائشة مستجمعةً أنفاسَها المتناثرة، فقبّلتها دلال في ظهر العنق، وفتحت عيناها رافعة رأسها ليتقابل وجهاهما في المرآة، وقالت: "كيف؟"، فأجابتها عائشة: "لم أقرأ في حياتي شيئا كهذا... أنت شيطانة حلوة"، ضحكت دلال قائلةً: "بل أنت الشيطانة وأمارة ذلك الذيل الذي بدأ ينمو لك!" ومدّت يدها نحو ذيلها الحجريّ، وقالت: "هيّا بلطف، ادفعيه حتّى يخرج!"

بعد أن تشاركتا حمّاماً ساخناً صامتاً مليئا بالعناق، وبينما ارتدت عيّوش ثيابها، محتفظةً بالطقم الأزرق الذي كان يلفّ جسمها كأنهار بين منحنيات جبال خصبة، ألقت دلال على جسمها البضّ فستاناً من الكتّان الشفيف، وذهبت تعدّ ضيافةً لفم عائشة الناطق هذه المرّة، ولمّا عادت محمّلة بالقهوة وبعض الكعك، فتحت باب الشرفة الزلاق، وخرجت إليها تحيط بها هالة من ضوء الغروب، لحقتها عائشة وجلست على بطانة كرسيّ القصب الوثيرة، بينما بقايا وخزٍ لذيذ تذكّرها بما حدث.

"الآن يا حلوتي، أراك مستعدّةً لكي تذهبي في كلّ أمرٍ إلى آخره." قالت دلال وهي تريح أردافها على الكرسيّ دون أن توسّد ثوبها، وكأنّها تحتفل بإنجاز طال انتظاره. ردّت عائشة: "بل أمضي في كلّ أمرٍ إلى آخري!"، قالتها وهي تخشى أن تضحك، فتزيد حدّة الألم. تبادلا حديثاً عاديّاً حتّى انتهيا من القهوة، وما رافقها من الكعك المحلّى، الذي بدا لعيّوش كنايةً لئيمة عن خاتمها الذي لبسته دلال حول حجرها الملوكيّ.

حين بدأت لحظات الفراق ترخي أستارها على لقائهما، هذا اللقاء الذي ينتصب بين اللقاءات الأخرى كصنم أخضر لامع، ناولت دلال عائشة قطعة الحرير الملفوفة الثقيلة قائلةً: "هذا تذكار منّي لك، لا تخافي، لو تفحّصه فريق خبراء لن يعرفوا ما هو!"، ابتسمت عائشة في سلام، وقالت: "هو بحقّ تصميمك، إنّه يشبهك... فلو فحصك فريق خبراء لن يعرفوا من أنت!".

وفي الوقت الذي كانت عائشة ترتدي فيه حجابها كآخر قطعة تتقنّع بها، ولم تزل كلمات عائشة حول فريق الخبراء تتردّد في الجوّ، استطردت دلال: "من سيعرف أنّني تزوّجت وحشاً، وأجبرته على الطلاق؟ من سيعرف أنّني استجمعت هذه القوّة من جروح فتاة مراهقة خائفة من زوجها العجيب؟ من سيعرف أنّني أجبرته على إبقاء الطلاق سرّياً بسبب أوراق

وصور؟ من سيعرف أنّني لم أزل أدور في فلك تجارته وأحاول أن أكتسب قدرة على الإفلات منه؟ ربما عليهم أن يفحصوا ذلك الشيطان أوّلاً ليعرفوا من أنا!" كانت تقول ذلك، وعائشة تلقف كرة نار بعد أخرى، ولا تستطيع معالجتها! وحين ظهر في عيني عيّوش إشفاقها الصادق ممّا سمعته، وهي تعرف أنّه لا يجاوز في حجمه حفنة من جبل جليد ضخم، أو ربما جبل من نار، قالت دلال: "اسمعي... بتّ تعرفين أنّني لا أتحمّل الشفقة، حتّى لو جاءت من عيّوش، بل بالأخصّ لو جاءت منك. أنا قويّة، وقد بنيت قلعة حصينة من الدمار الذي حلّ بي صغيرةً" وعائشة لم تزل ترى ما تسمعه كرات نار أخرى، اختتمت دلال كلامها مع عناق دافئ قاطعتها عائشة به: "حبيبتي... صدّقيني أنا بخير، وممتنّة لكلّ ما حدث، وأعرف أنّي سأنتصف من والد أيمن انتصافاً كاملاً في وقت قريب، ولا تخشي، فأنت لم تكوني لتحسّي بكلّ هذا لولا أنّني فتحت بئر أسراري لك... وهذا بعد أن فتحت أن لي نفسك" وضربتها على مؤخّرتها وهي تضحك، وضحك عائشة يطرد دموعها.

أجلستها دلال قليلا على الكرسيّ القريب من الباب، وهدّأت من روعها، واستخدمت كلّ لحظة حميميّة بينهما في نكاتها التي تغزلها ببراعة توقظ مرح عيّوش، ولمّا انتبهت عيّوش أنّها تأخّرت، قامت وهي تقول: "أتمنّى

ألا تفضحني مشيتي!" فارتاحت تعابير وجه دلال، وكأنّها تقول: الآن أعرف أنّك صرت أقوى.

وفي آخر عناق لهما ذلك المساء، قالت دلال بهمس تعرفه عائشة، همس يشبه همس الاقتحام: "غداً صباحاً تزورين المشغل، وتأخذين شيئا تسلّمينه لفتاة... سأرسل إليك التفاصيل." قالت ذلك ببساطة، وكأنّه قضاء نافذ لا يمكن ردّه، وهكذا بالضبط قبلته عائشة، كما قبلت الحجر الكريم ووضعته مستشعرة ثقله في حقيبتها، ثقل يمنعها أن تطير خفّةً بعد كلّ ما اعتراها من لذّة الكشف وذلّ الرجاء.

وحين غادرت، أخذت تزن الحقيبة، وتزن آخر ما قالته دلال لها، لقد عرفت كيف تخرجها من ارتدادات الحقائق الصادمة القادمة من الماضي، إلى الواقع العمليّ! ثمّ إنّها على موعد في الغد مع إياد، وهذا الموعد هو مع رجل رأته في المنام يفرك مؤخّرتها، وهي في موعد مع مغامرة توصيل أخرى، لكنّها مغامرة خارجيّة ليس فيها رعب دخول متعلّقات دلال إلى بيت الشيخ أبي عمر، وإلى بيت أمّها منى، إنّها مغامرة مقبولة محمولة أمام ما سمعته، وإذا كانت مغامرة اليوم قد مرّت بسلام، فلا بدّ أنّ مغامرة الغد نكتة بالقياس لها، لكنّ في الغد موعداً آخر، موعداً مع سارة، مع ليلى نجمتِها.

الفصل الثّالث عشر : رَجُلانِ في جسدٍ واحِد

نزلت عيّوش من الحافلة بثقة، فهي قد أخذت كلّ الاحتياطات اللازمة هذه المرّة. ركوبها الحافلة قرب حيّها كان مخاطرةً لا تريدها، فأيّ شخص يعرفها سيعرف أنّها لن تذهب إلى الجامعة، لقد ابتعدت لمسافة شارعين حتّى ركبت الحافلة التي تمرّ بالقرب من مشغل إياد. كانت تتحسّس ثقلَ حقيبتها التي تشدّها الأرض أكثر من السابق بسبب حجر اليشم الذي حملته لتشارك جماله مع سارة، سارة التي لا يكون للنكتة معنًى حتّى تسمعها، ولا تخلد الرواية في الذاكرة حتّى تكون موضوع حوار معها، ولا يكون للفكرة وزن حتّى تمتلكها بأن تستعملها بطريقة أو أخرى.

"دعينا من كوابيسك اللذيذة، فالرجل لا يذكر أنّه زارك في المنام. أقول هذا على ضمانتي!" قالت في نفسها وهي تهمّ بدخول البناية، ولّما رنّت الجرس تأخّر الصوت هذه المرّة، أهوَ ليس هنا؟ تساءلت وهي تتذكّر المدّة التي فصلت بين رنّتها وصوته في المرّة السابقة، وكان مجرّد تذكّر صوته كفيلاً بتذكيرها بكلّ شيء، وكأنّه يحدث الآن. طردت الأفكار والمشاهد من عقلها، وكادت تهمّ بالخروج، حين أتى الصوت من السمّاعة: "من؟"، قالت بثقة: "أنا من طرف أمّ أيمن."، فأُغلِقت السمّاعة، وفُتِح القفل الكهربائيّ.

"الدقّة في المواعيد علامة الوفاء" انطلقت الكلمات من فم إياد قبل أيّ ترحيب، وصوته كان يحرّك أهداب جلدها ويبعث فيها إحساساً لم تعرفه من قبل، قالت: "هل القطعة جاهزة؟"، "القطعة جاهزة من أيّام، إنّها مركونة على الرفّ تنافسني في وحدتي" تدحرجت الكلمات على فمه المبتسم. وأيّ وحدة تراه يعني؟ هل سرقتُ محبوبتَه منه أيّام الأحد! تدافعت الأسئلة في رأس عائشة، وهي تنظر في بلاط المشغل كي لا تفضحَها عيناها.

انصرف إياد يحضر القطعة، وأفلتت عائشة التنهيدة التي كانت تحبسها، فلمّا عاد وضعها على المكتب، وقال: "تبدين فتاة عمليّة جدًّا، يعجبني ذلك!" وكانت تشعر بعينيه وهي تخترقها، وعيناها مثبّتتان على القطعة التي بدت صغيرة آمنة حيث هي، ثمّ لفتتها يده، أصابع طويلة قويّة، يعلوها شعر رجوليّ حتّى العقلة الثانية فيها، وزند مشمّر فتله العمل اليدويّ على مشغولاته الفنّية! أتراه هو من نفّذ تصميم دلال؟ طردت كلماتها هذه الأفكار: "هل تنتظر شيئا؟"، قال إياد بجرأة صادمة: "لا أنتظر أنا أنظر... أنظر إليك! فيك براءة نادرة."، قفزت عيّوش إلى فمها بكلّ جرأة: "طيّب... أعطني القطعة قبل أن يكتمل تحميل الصورة إلى دماغك، لا أحبّ أن يظلّ منّي شيءٌ هنا بعد أن أمضي لشأني!"، ورغم صدّها له، فاجأتها ابتسامة الرضا على وجهه وهو يسلّمها القطعة قائلاً:

"كنت أريد أن أعطيك هديّةً لها أهمّيّة شخصيّة عندي... كلّ من جرّبنها راضيات عنها!"، قالت عيّوش: "لا داعٍ!"، "صدّقيني ستحبّينه... كان طريقتي في أن أُرضيَ كلّ الزبونات دون أن أقابلهنّ!" قالها وهو يهمّ بالالتفات، فأفلتت من فمها كلمة استنكاريّة لأنّها خمّنت معنى كلامه: "كيف!"، فأجابها بصوت تعلوه بهجة خاصّة: "ألم أقل إنّ فيك براءة!... صنعتُ تمثالاً من مادّة تشبه العاج، تمثالاً على قالبي الشخصيّ، هل تحبّين أن أهديك واحداً؟" صدمها كلامُه، وبدأت تنتبه إلى تشنّج ملامحِها، تنفّست ووضعت القطعة الصغيرة الخفيفة في حقيبتها، وهو يتمّ: "هكذا سيظلّ منك شيء هنا، ويظلّ منّي شيء معك!".

يا له من ذئب! كيف يقول ذلك بملامح لا مبالية؟ أجابت بحسم: "لا أبقِه لك... استخدمه أنت!" ولم تتمالك نفسها وهي تسمع ما قالت للتوّ، فضحكت، وانتبهت إلى وجهه خائفةً من أن تكون استفزّته، فوجدته يرمقها بنظرات إعجاب، وكأنّه يقتات على الرفض! خرجت، وحقيبتها الآن أثقل من أي مرّة، إنّها تحمل توأماً غير متطابق، أخوين متفاوتين في كلّ شيء غير أنّهما يشتركان في النسب، لقد صنعهما الأب نفسه، بيده الخشنة كصوته. تابعت مسيرها في الشارع مبتعدةً عن

المحلّ، ولكن هذه المرّة استقلّت مواصلةً متّجهة إلى الجامعة، وهي تشعر بالرضا أنّها تصدّت لتحرّشه الصريح، وتتذكّر بشوق لقاءها بذلك الوتد.

هل تراه قدّم نفسه إلى الفتيات السابقات بالطريقة نفسها؟ إنّه يبدو وكأنّه يُلقي سطر حوارٍ تدرّب عليه آلاف المرّات! ظلّت تتابع الأسئلة في رأسها... هل قبلنَ منه الهديّة الشيطانيّة بدافع الفضول؟ هل أعجبتهنّ العينة فطلبن الحقيقة! كانت عيّوش تتفننُ في صياغة الأسئلة فتغلّفها بطبقة رقيقة من الكوميديا، لكي تتخامد موجةُ الغضب والخوف التي تلت تمدّدَ إعجاب جسدها به.

على كرسيّ في حديقة مجاورة للجامعة، بعيداً عن المسجد الذي يجلس بثقله في صدر الحديقة، كانت عائشة قد وصلت المكان الموعود، وهي على بعد كافٍ لترى المسجد كلّه حتّى الهلال على مئذنته، فكّرت قليلا في رمزيّة الهلال في ثقافة وادي النيل الإيزوريسيّة، وأنّه رمز الذكورة والخصب. أوزوريس تعني القمر! طالعت ساعة هاتفها، لتتأكّد أنّ الموعد اقترب.

وحين رفعت عينها مرّة أخرى رأت القبّة والمئذنة بطريقة أخرى، لم تستطع أن تصارح نفسها بما ترى، هل تعني هذه الرموز ما تظنّه؟ سحبت

شهيقاً وكأنّها تخبر عقلها أن يكفّ عن التفكير، وأخرجت كلّ فكرة بدت لها قذرة مدنّسةً مع الزفير.

ومن عمق حديقة المسجد أطلّت فتاة بنقاب مختلف هذه المرّة، نقاب أبيض، ذات طول فارع، وعينين عميقتين ظاهرتين من بُعد، وسلّمت: "السلام عليكم ورحمة الله"، ردّت عائشة، والمفارقة لم تدُر لعيّوشَ بعد: "وعليكم السلام ورحمته وبركاته"، "هل تنتظرينني؟" سألتها الفتاة، وعيّوش تبتسم ابتسامةً أقلّ من الضحك قليلاً، قالت: "نعم... ظننتك آتية لتسألي عن مكان ما أو عن الوقت!"، قالت الفتاة: "لا... بل أسأل عن شيء يساعدني على تزجية الوقت"، قالتها بهدوء وانكشاف تامّين تَركا عائشة في ذهول، فأتمّت الصفقة بطريقة ميكانيكيّة دون أن تسجّلها في ذاكرتها، كان صوت الفتاة المريح ذكرى كافيةً لها هذه المرّة.

بقيت عائشة في مكانها لبرهةٍ قبل أن تغادر، كانت تستشعر سهولة هذا التسليم، بدت الزبونة هذه مرتاحةً لما تفعل، ثمّ إنّ طلبها لا بدّ أنّه هزاز بسيط، هي ليست كفتاة النينجا الفاجرة التي رأتها من قبل. وكان طيف النقاب لم يزل يفرض نفسه، هل عليها أن تنتقب هي أيضاً لتتستّر على تجارتها؟ غادرت وفي رأسها سؤال لم تسأله للفتاة: "هل ترين ما تفعلينه حلالاً؟" ولم يكن سؤالاً للاستنكار مطلقاً، بل مجرّد فضول لتعرف سرّ

ارتياحها لما تفعل. وهي تغادر رفضت أن ترفع عينها مرّة أخيرة تجاه المئذنة المنتصبة، أو هلالِها رمزِ الفحولة القديم.

وصلت قاعةَ محاضرتِها مبكّراً، وجلست تنتظر الطلبة، وهي تقول في نفسها: يبدو أنّ الأمر بات أسهل الآن. الشيء الوحيد الذي كان صعباً هو ترقّب ردّة فعل إياد، ومقاومة رغبتها القديمة التي ورثتها من عائشة القديمة في أن تكون مكان دلال أمامه! لكنّها كانت تفكّر في ذلك، وفمها الجميل يتكلّل بابتسامة نصر صغير مهمّ. بدأت المحاضرة وانتهت، وحان موعد لقائها بسارة.

في بقعتهما فوق المقعد الإسمنتي الذي لم يزل يحتفظ ببعض برودة الصباح، رحّبت سارة بها: "تتوهّجين اليوم أكثر من أيّ وقت سابق!"، أجابتها عيّوش: "رؤيتك كافية!"، تعانقتا، وحين تقابل وجهاهما مرّة أخرى فاجأتها سارة: "ردّي السلام... ذاك الوسيم يلوّح لك!"، تلفّتت عائشة مرتبكةً حتّى رأت يد باسل تلوّح لها من بعيد، فأشارت كعادتها واضعة يدها اليمنى فوق قلبها مع إيماءة بالوجه، كانت هذه دوماً طريقتَها في السلام مع الشباب، ولكنّ سارة لم توفّر اللحظة: "قلبي الصغير لا يحتمل!" ثم أتمّت: "بدوت كأنّك تحمين قلبك من سهام الحبّ! ما الأمر؟"، فأجابتها عائشة وكأنّها تصرفها عن السير قدماً في هذا الطريق:

"طالب الماجستير باسل، تعرّفت عليه عند سمر"، سألت سارة بريبة: "الدكتورة سمر؟ الأدب المقارن؟" فأومأت عائشة بنعم خجولة، وكأنّها ضُبطت متلبّسةً مع سمر في الفراش! على الأقلّ هكذا بدا الأمر لعيّوش التي أجابت: "نعم، سمر... هي طلبت أن أناديها هكذا!"، "والأستاذ باسل، ماذا طلب أن تناديه؟ بسّولتي! أو حبيبي تكفي!" كانت كلمات سارة هذه كفيلة بأن تقرصها عائشة في فخذها بشدّة، فكتمت صرخة المفاجأة وقالت: "حيوانة! كفّي عن ذلك، آلمتني!"، فردّت عيّوش فوراً: "سأعتذر لك بطريقتي... هناك في غرفتك... أم تراجعت عن الدعوة؟"، نظرت إليها سارة بارتياح: "تراجعت؟ كّلا... خفت أن تكوني وجدت حبيباً يسرقك منّي". وانطلقتا بخطًى واثقة خارج الجامعة.

بعد أن أنهت صلاةَ الظهر، بقيت عائشةُ جالسةً على سجّادتِها، لم تطوِها على عجلٍ كما كانت تفعلُ عادةً. فَكّت دبّوسَ حجابِها، وتركت قماشهُ ينسدلُ على كتفيها، وهي تتساءل: لماذا عليّ أن أتحجّب في حضرة الإله! تنفّست بحرّيّة وشوق، ثمّ أسندت ظهرَها إلى حافّةِ سريرِ سارة، مُستشعرةً صلابتهُ الداعمة، وأغمضت عينيها، تستنشق بعمقٍ رائحةَ الغرفةِ التي أصبحت مألوفةً لها، رائحةَ الكتبِ القديمةِ والياسمين والعود، رائحةُ الألفةِ

الفكريّةِ والجسدِ الذي بدأ يألفُ جسدَها. كانت تشعرُ بسلامٍ هشّ، كهدوءِ البحرِ بعد أن سكنت رياح الأسئلة.

سَمعت صوتَ بابِ الحمّامِ يُفتحُ بهدوء، ثمّ خطواتِ سارة الخفيفةِ على الأرضيّةِ. فتحت عينيها، فرأت سارة واقفةً عندَ الباب، ترتدي قميصاً قطنيّاً أبيضَ طويلاً، أقصرَ من أن يكونَ فستاناً، وأطولَ من أن يكشفَ عن كلِّ الأسرار. كانَ شعرُها الكستنائيُّ يتهدّل على كتفيها بخصلاتٍ مُتمرّدة، وبشرتُها النديّةُ كانت تتوهّجُ في ضوءِ الظهيرةِ المتسلّلِ من النافذة المغلقة، كأنّها كانت تتشمّس على الشاطئ ولم تخرج من الحمّام للتوّ. لم تكن هناكَ مساحيقُ تجميل، فقط وجهٌ صافٍ، وعينانِ تحملانِ كلَّ ذكاءِ العالمِ وحنانه.

"تقبّلَ الله،" قالت سارة بصوتٍ ناعم، وابتسامةٌ صغيرةٌ ترتسمُ على شفتيها.

"منّا ومنكِ صالحُ الأعمال،" ردّت عائشة، وشعرت بأنّ هذا الطقسَ الصغير، هذا التبادلَ البسيطَ للكلماتِ الدينيّةِ في هذا السياقِ الحميميّ، يحملُ في طيّاته مفارقةً تشبه وضع الشطّة على البوظة!

تقدّمت سارة وجلست قبالتَها على بساطِ الصلاة، جلسةَ القرفصاء، كأنّهما في خلوةٍ صوفيّةٍ تستعدّانِ لتبادلِ الأسرارِ الكونيّة. نظرت إليها بعينيها الصافيتين، وقالت: "خشوعك ينقض الوضوء. ما بك اليوم؟".

لم تكن قادرةً على كبتِ ذلكَ السؤالِ الذي كانَ ينهشُها كحمضٍ حارقٍ منذُ لقائِها بتلكَ الفتاةِ المُنقّبة. نظرت إلى سارة التي جلست قبالتَها بابتسامةٍ هادئة، وقالت دونَ مقدّماتٍ طويلة، كمن يُلقي بحجرٍ في بركةٍ ساكنة: "سارة... لا تسأليني كيف خطر هذا على بالي، ولكنّني شهدت فتيات يبدو عليهنَّ الالتزام، يُغامرنَ بشيءٍ يُعدّ في عرفِ أهلِنا أثمنَ ما تملكهُ الفتاة... أقصد، بكارتها". فأجابتها سارة ملتفتةً إلى المفارقة: "أنت تسألينني أنا! أنا لا أكاد أمسك وضوءً! ربما عليك أنت أن تجيبي!"

أُفحِمت عائشة. لقد أعادت سارة الكرةَ إلى ملعبِها بمهارة، أجبرتها على مواجهةِ أفكارِها الخاصّة. شعرت بأنّ هذا المكان، بصحبةِ سارة، هو المساحةُ الوحيدةُ في العالمِ التي يمكنُها أن تكونَ فيها صادقةً تماماً، دونَ أقنعةٍ أو مُراوغة. أخذت نفساً عميقاً، كأنّ في الهواء شجاعة تدخلها صدرَها، وقالت بصوتٍ خافتٍ كاعترافٍ يُهمسُ بهِ في جوفِ الليل: "في الحقيقة، يا سارة... أنا... أنا نفسي لا أملكُ واحداً."

سادَ صمتٌ قصير، لكنّهُ لم يكن صمتاً مُربكاً، بل كانَ صمتاً مُشبّعاً بالتفهّمِ والترقّب. اقتربت سارة، وأمسكت بيدِ عائشةَ برفق، كأنّها تُطمئنُها، كأنّها تقولُ لها: أنا معك، ولكن أكملي.

"كنتُ طفلة فضوليّة، أكثر من اللازم ربما، واستكشفت المكان بأصابعي مرّات ومرّات، ومرّةً رأيت بضع قطرات من الدم، وكان هذا قبل أن أعتاد منظر الدم هناك" تابعت عائشة: "كلُّ ما شعرتُ بهِ هو خوفٌ عميق، خوفٌ من شيءٍ مجهول، من ذنبٍ لم أرتكبهُ. خبّأتُ الأمر، ومسحتُ الدمَ بمناديل أخفيتها قبل أن أودعها سلّة المهملات قبل تفريغها بالضبط... ربما أدركت في قرارة نفسي أنني ارتكبت خطيئة!"

لم تُعلّق سارة على الفور. شدّت على يدِ عائشةَ بقوّةٍ أكبر، وانتظرت حتّى أفرغت عائشةُ كلَّ ما في جُعبتِها. ثمّ، بصوتٍ هادئٍ وثابتٍ كصوتِ طبيبةٍ تُطمئنُ مريضَها بعدَ تشخيصٍ دقيق، بدأت تُفكّكُ تلكَ الخرافةَ التي سمّمت حياةَ ملايينِ النساءَ عبرَ العصور.

"عيّوش... حبيبتي،" قالت سارة، وعيناها تحملانِ كلَّ حنانِ العالم، وصوتها يحمل مرحه "شكراً لكِ على ثقتكِ. وشكراً لكِ لمشاركة هذا السرّ، لكن اسمحي لي أن أُحرّرَكِ منهُ اليوم..."، نظرت عائشة إليها بتشكّك وسارة تتمّ: "هل تعلمينَ أنّ ما تسمّينهِ 'غشاء البكارة ليسَ

غشاءً؟ إنّهُ ليسَ ختماً."، هزّت عائشة رأسها بالموافقة، بينما تكمل سارة: "إنّهُ في الحقيقة، مجرّدُ بقيّةٍ نسيج من مرحلة تكوّن الجنين"، قالت عائشة: "منطقيّ ولكن..."، فأكملت سارة باندفاع: "وظيفتهُ الوحيدة، إن كانَ لهُ وظيفةٌ أصلاً، هي حمايةُ مهبلِ الطفلةِ الصغيرةِ من الالتهاباتِ قبلَ سنّ البلوغ." كانت عائشة تستمع، مأخوذةً بحماس سارة للموضوع، ودرايتها به.

"الأهمّ من ذلك،" تابعت سارة باتّقادٍ فكريٍّ، "أنّهُ لا يوجدُ له شكلٌ قياسيّ.. ثمّة الهلاليّ، والحلقيّ.. وأنواع لا أذكرها، بل إنّ بعضَ الفتيات، وهذا ليسَ نادراً كما تظنّين، يولدنَ بدونه تماماً! وبعضهنّ يملكنَ غشاءً مطّاطيّاً، وهو مرنٌ جدًّا لا يتمزّقُ أبداً حتّى مع الإيلاجِ المتكرّر." وهي تؤشّر بيدها إشارة عنيفة مقلّدة الإيلاج بطريقة بدت مضحكةً، ثمّ توقّفت وأتمّت: "فكرةُ الدمِ ليلةَ الزفاف، يا عائشة، هي أكبرُ كذبةٍ في التاريخِ الطبيّ والاجتماعيّ. إنّها خرافةٌ عمرُ اكتشافِ زيفِها علميًّا أكثرَ من مئةِ عام، لكنّ مجتمعاتِنا، للأسف، تُفضّلُ التمسّكَ بخرافاتها على مواجهةِ حقائقِ العلم."

فكّت عائشة عقدة حاجبيها، وأطلقت زفرةً طويلة عميقة، وأغمضت كأنّ زفرتها تثير غباراً تخشى أن يدخلهما، تنهّدت من ثقلِ ذلكَ السرِّ

الذي اتّضح أنّه لم يكن سرًّا على الإطلاق. شعرت بخفّةٍ لم تعهدها، كأنّ قيداً صدئاً كانَ يُكبّلُ روحَها قد تحطّمَ أخيراً. نظرت إلى سارة، وابتسامةٌ حقيقيّةٌ، صافيةٌ كشمسِ الصباح، أشرقت على وجهِها لأوّلِ مرّةٍ دونَ أيٍّ أثرٍ للخجلِ أو الارتباك.

قالت سارة: "لو أنّك سألتِ عنه في جلسة المحكمة تلك، لكانت المتّهمة حرّرت القاضي من سجنه!"، ضحكت عائشة وقالت: "قرأت بعضاً من ذلك من قبل، لكنّ تكراره في الروايات، وحضوره الكثيف في الثقافة والعادات يزيح العلم جانباً"، فأتمّت سارة بسخرية: "هل أقيم لك اختباراً علميّاً حول الجسد؟ سأستعين بجهاز اكتشاف الكذب والشهد! هذه المرّة ستكون طريقة تعليميّة، لتثبت المعلومة!"، فانتبهت عائشة بحماسة وقالت: "لا... دعي البيضة، اليوم معي الحجر!"، استحضرت سارة المثل: "ها... سنلعب بالبيضة والحجر إذاً!".

مدّت عائشة يدَها إلى حقيبتِها، وأخرجت تلكَ الصرّةَ الحريريّةَ السوداء، وفضّت عُقدتَها ببطءٍ مُتعمّد، كساحرةٍ تكشفُ عن أقوى تعاويذِها. ظهرَ "الحجرُ الملوكيّ"، يلمعُ بلونِه اليشميّ الداكنِ تحتَ ضوءِ الغرفة، كأنّهُ قلبُ غابةٍ استوائيّةٍ نابضٌ بالحياةِ والأسرار.

اتّسعت عينا سارة، ليسَ بصدمةٍ أو استنكار، بل بإعجابٍ فنّيٍّ خالص. "يا إلهي... ما هذا الجمال؟" قالت وهي تتناولُ الحجرَ بيدينِ حذرتين. راحت تتفحّصُهُ، تمرّرُ أصابعَها على سطحهِ المصقولِ البارد، وكأنّها كشفت ماهيّته بسبب السياق، جعلت تتلمّسه وتُقدّرُ انحناءاتهِ المُتقنةَ وتصميمهَ المزدوجَ الذكيّ. "هذا... هذا تحفةٌ فنيّةٌ بحدّ ذاته. من أين لكِ هذا الكنز؟"

ضحكت عائشةُ ضحكةً صافية. "هذا سرٌّ آخر... لكن عليك أن تكتفي بهذه القصّة: كنت أسير في على الشاطئ..." وانهارت سارة بضحك قبل أن تتمّ، لكنّ خشيتها على الحجر جعلتها تستفيق سريعاً، وعادت لتتفحّصه.

لمعت عينا سارة ببريقٍ ماكر، وهي لم تزل تُقلّبُ الحجرَ بينَ يديها. "إذاً... هذا هو سرُّ ذلكَ التوهّجِ الغامضِ الذي يلفُّكِ اليوم!" قالت وهي تقف، ثمّ، بحركةٍ مسرحيّةٍ مفاجئة، استعادت مشهدَ الجامعةِ صباحاً. رفعت يدَها ولوّحت لعائشة تلويحةً مُبالغاً فيها، وقالت بصوتٍ حاولت أن تجعلَهُ خشناً وعميقاً، مُقلّدةً نبرةَ شابٍّ مُعجب: "مرحباً يا آنسة عائشة..."، فضحكت عائشة، ثمّ رفعت سارة طرف قميصها القطنيّ ووضعت الحجر بين رجليها، ثمّ خشّنت صوتها أكثر وقالت: "هل تقبلين منّي أن أهديَك

قلبي... أو ربما... حجري!" ورفعت رأس الحجر ساخرةً، كأنّها في فيلم إباحيّ رخيص.

وبجرأةٍ لم تكن عائشة تتوقّعُها، وكأنّ سارة تريها جانباً جديداً منها، جلست على السرير بجانبها وعائشة تطالعها من الأسفل، محتفظةً بالحجرَ بينَ فخذيها، مبرزةً طرفهُ الأطولُ من بينِ طيّاتِ قميصِها القطنيّ، ثمّ رفعت طرفه القصير إلى فمها وتفلت عليه بكلّ احتقار تكنّه للذكور، وكشفت بيدها الأخرى عن جذعها كلّه مباعدة بين رجليها، وأدخلته في جيب أنوثتها، وراحت تمسكه بفخر رجل له عضوٌ لا يرتخي. نظرت عائشة إليها بتحدٍّ لعوب، وسارة ترقص عيناها بمرحٍ قائلة: "بسّولتك مشتاق لك، ألا تقبّلينه!" جامعة شعر عائشة قرب رأسها وهي تقرّبه من باسل المتخيّل!

انفجرت عائشةُ ضاحكةً، ضحكةٌ خرجت من أعماقِ روحِها، وكأنّها نسخة مزدوجة من عيّوش وحدها، ودفعت سارةَ بخفّةٍ على ركبتِها: "أنتِ مجنونةٌ تماماً!"

تابعت سارة الدور بصوت أنثويّ أجشّ: "الجنونُ هو ما يُبقينا على قيدِ الحياةِ في هذا العالمِ العاقلِ حدّ الملل،" وهي تقلّد إشارات المثقّفين بيدها الأخرى، ثمّ عادت وأمسكت رأسها، وهي تدفعُ الحجرَ بلطفٍ نحو عائشة

الجالسةِ أمامَها وركبها على سجّادة الصلاة، وحجابها لم يزل على كتفيها، حتّى كادَ طرفهُ يُلامسُ شفتيها، وعادت بصوتها العادي: "قبّلي بسّولتك... قبّليه، تذوّقيه..." .

سادت لحظةٌ قصيرة من الصمتِ المشحون، بلعت عائشة ريقها، وتلاقت نظراتُهما. شعرت عائشةُ بأنّ العالمَ كلّهُ قد اختفى، ولم يبقَ سوى هذهِ الغرفة، وهذا الحجر، وعينا سارة التي تحوّلت إلى بئرٍ عميقةٍ من الإغواءِ والمرح. أغمضت عينيها، وفتحت شفتيها قليلاً.

لم يكن فمها يحسّ برودة اليَشم، بل يستشعر كيف تدفّق لعابها إلى فمها وكأنّه يدعو الحجر إلى داخله، كانَ لسانها يبحثُ عن أثرٍ خفيّ، عن طيفِ رائحة، عن بصمةٍ غيرِ مرئيّةٍ قد تكونُ دلال قد تركتها على هذا الحجر. هل لا يزالُ يحملُ شيئاً من عطرِها، من شهدِها، من حرارةِ جسدِها؟ كانت تحاولُ أن تستخرجَ ذكرى دلال من أداةِ إياد، وهي في حضرةِ سارة التي تُقلّدُ باسل. يا لهُ من تقاطعٍ مُركّبٍ ولذيذٍ للرغبات! كأنّها كانت في قلبِ متاهةٍ حسيّة، كلُّ ممرٍّ فيها يُفضي إلى لذّةٍ مُختلفة، وإلى سرٍّ جديد.

"إذاً؟" سألت سارة بصوتٍ باسل الهامس، وهي تُراقبُ شفتي عائشة تُعانقان الحجر. "ما طعمُ بسّولتك؟ هل هو مالحٌ كدموعِ الشعراء؟ أم حلوٌ كوعدِ الجنّة؟ أم ربما... بطعمِ غبارِ الكتبِ القديمة؟"

فتحت عائشةُ عينيها ببطء، ونظرةٌ غامضةٌ كضبابِ الفجرِ تملأُهما. "لا..." قالت بصوتٍ مبحوح، "إنّهُ... إنّهُ بنكهة شهدك الذي بدأ يتدفّق!"، وتحسّست عائشة أسفل الحجر.

اتّسعت ابتسامةُ سارة، وأدركت أنّ هذهِ اللعبةَ أعمقُ ممّا تبدو. "يبدو أنّ بسّولتكِ هذا يخونك معي! أو ربما نتشاركه" قالت وهي تنهض برفق دافعة بالحجر إلى حلق عائشة شيئا فشيئا، وتتلوّى بسبب حركته داخلها، وتقول: "أستاذة عائشة، آن لفمك أن يتذوّق الأديب لا الأدب!"، وانساقت عائشة إلى الدور أكثر، فأخذت تلاعبه بلسانها، وتمجّه بفمها، وكأنّها تستلذّ بحلوى محرّمة. وبعد قليل أشارت سارة إلى السريرِ بحركةٍ مسرحيّة قائلة بصوت باسل: "لديّ تساؤلات فلسفيّة أريد أن أناقشها معك، استلق هنا على عشب الجامعة الذي طالما شهد نقاشات عميقة!".

لم تعد هناكَ حاجةٌ للكلمات، قامت عائشة وأزاحت حجابها الذي بلّله ريقها في عدّة مواضع، وتركت سارة الحجر منتصباً منها وكأنّها تلده، معيرةً يداً لعائشة لكي تتخفّف من ثيابها، حتّى ظهر طقمها النهريّ الذي

يلفّ جسمها كشلالات حبّ. استلقت عائشةُ على السرير، وقلبُها يخفقُ بإيقاعٍ عنيف، بينما اتّخذت سارةُ مكانَها فوقَها، ككاهنةٍ تستعدُّ لأقدسِ طقوسِها. أمسكت بالحجرِ ضاغطةً إيّاه داخلها، ومثبّتةً إيّاه مع ابتسامة تخلط المرح بالقوّة، لكنّ نظرتَها الآن كانت أكثرَ جديّة، أكثرَ تركيزاً.

"لا تجيبيني وكأنّني الأستاذ باسل، بل أنا باسل الشريك الآن،" قالت سارة وكانت تمتدّ فوق عائشة وعيناها في عينيها، وأتمّت: "لو أنّ ليلى امتلكت قضيباً، فهل ستظلّ نجمة حائرة في أمر بدر!"

"ربما..." أجابت عائشة بصوتٍ لاهث، "ربما كانت ليلى هي الرجلَ الحقيقيَّ في تلكَ الحكاية... الرجلُ الذي يفهمُ لغةَ الجسدِ دونَ أن يحتاجَ إلى غزوِه".

"وهل أنا... هل أنا رجلكِ الحقيقيُّ الآن يا عيّوش؟" سألت سارة، وأصابعُها تتحرّكُ ببطءٍ لتُغيّر مسار النهر بين رجلي عائشةَ، مزيحةً إيّاه جانباً، فيلامس هواء الغرفة البارد شفتيها الرطبتين، وأخذت عائشة تسجّل هذا الشعور لتحتفظ به، ولمّا أغمضت عيناها، قبّلتها سارة بعنف غازية فمها بلسانها، وكان فمها مرحّباً، ولسانها المدرّب على الحركة الرشيقة بسبب تمارين التلاوة يبارز لسان سارة حبّاً.

ثمّ، بدأت رحلةُ الاستكشافِ الحقيقيّة، بدفعة واحدة من سارة غيّبت الحجر تماماً بينهما. لم تكن سارةُ تُقلّدُ باسل الآن، بل كانت هي نفسُها ليلاها، تستخدمُ الحجرَ بمهارةٍ وفهمٍ عميقين، كانت عازفةَ بيانو تعرفُ كلَّ مفتاحٍ وكلَّ وترٍ في جسدِ عائشة. كانَ الإيقاعُ يتصاعدُ ببطء، يتناوبُ بينَ لمساتٍ خفيفةٍ كهمسِ الريح، وضغطاتٍ عميقةٍ كنبضِ الأرض. كلُّ حركةٍ كانت تُطلقُ من عائشةَ أنّةً مكتومة، وكلُّ تنهيدةٍ كانت اعترافاً جديداً بلغةٍ لا تحتاجُ الحروف.

"أعطني كلَّك!" همست سارة كأنّها تصرخ لذّةً، فأفلت من عائشة صوت مشروخ: "آه... أكثر..."، وكانت كفّا سارة قد غطّيا المثلثين الأزرقين من طقم عائشة تماماً، وهي تعصر نهديها وتتكئ عليهما لتضرب أعمق، اقتراباً وبعداً كأنّها مكّوك نولِ حائك ماهر.

مع اقترابِهما من حافّةِ الهاويةِ اللذيذة، أغمضت عائشةُ عينيها بقوّة، مستسلمةً للفيضانِ القادم، الذي كانت سارة تترقّبه لتخرج هي أنّتها الأخيرة. وفي عتمةِ وعيِ عائشة، لم يعد ثمّة سارة، ولا حتّى طيفُ باسل، أو ذكريات دلال.

كان الحلم يأخذ مكان الخيال ومكان الذاكرة، الصورةُ التي تكثّفت، وتجسّدت، وسيطرت على كلِّ حواسِّها، كانت صورةً أخرى، صورةً لم تكن تتوقّعُها، صورةً هزّت كيانَها من الأعماق.

رأت وجهَ إياد.

رأت عينيهِ الحادّتين، وابتسامتَهُ للرفض. رأت يدهُ الخشنةَ وهي تمتدُّ نحوها، لا لتُداعب، بل لتعتصر، لتُسيطر. سمعت صوتهُ الأجشَّ وهو يهمسُ بكلماتٍ تشي بالامتلاك، بل الاحتلال. وقد تبخّر إحساسها ببرودة اليشم داخلها، حلّت حرارة إياد، بقوّتِهِ الغاشمة، بصلابتِهِ التي لا تلين، هو من يخترقُها، هو من يملأ جيوب واديها.

تغيّرت طبيعةُ استجابتِها. تأوّهاتُها أصبحت أعمق، تحملُ شيئاً من الألمِ المُشتهى. جسدُها لم يعد يتلوّى برقّة، بل يتقبّض بعنف، كأنّهُ يُصارعُ ويستسلمُ في آنٍ معاً. صرخت اسماً، أو ربما جزءاً من اسمٍ، همهمةٌ خرجت ممزّقةً من بينِ شفتيها، لم تفهمها سارة، لكنّها شعرت بذلكَ التحوّلِ المفاجئ، بتلكَ الطاقةِ المُختلفةِ التي اجتاحت جسدَ عائشة: "إيّاااا"، وقصّر نفسها عن نطق الدال.

طمس الشلال صوتَها. موجةٌ عارمةٌ من لذّةٍ صافيةٍ وعنيفة، لذّةٌ حملت في طيّاتِها طعمَ الخطرِ والخيانةِ والتحدّي، اجتاحتها، وتركتها جسداً مُرتخياً، يلهثُ في صمت، بينما روحُها لا تزالُ عالقةً في تلكَ المتاهةِ المُربكةِ بينَ الواقعِ والخيال، بينَ حنانِ سارة... وعنفِ إياد.

حلَّ السكونُ في الغرفة، سكونٌ كثيفٌ لا يقطعهُ سوى صوتُ أنفاسِهما المُتعبةِ وهي تعودُ إلى إيقاعِها الطبيعيّ بجسدين ركنا إلى العناق العميق. كانت عائشةُ مُستلقيةً بجانبِ سارة، عيناها مُغلقتان، لكنّ عقلَها كان مسرحاً لعاصفةٍ لا تهدأ. هذا الكشفُ المفاجئ، كشفُ حقيقةِ رغبتِها الأعمق، تركَها في حالةٍ من الذهولِ والارتباك.

شعرت بيدِ سارة الناعمةِ تُزيحُ خصلةَ شعرٍ مُبلّلةٍ بالعرقِ عن جبينِها. "هل أنتِ بخير؟" همست سارة بصوتٍ يحملُ قلقاً حقيقيًّا. "شعرتُ بكِ... شعرتُ بكِ تبتعدينَ في النهاية، كأنّكِ ذهبتِ إلى مكانٍ آخر."

كانت هذهِ هي اللحظةُ التي كانَ على عائشة أن تختارَ فيها بينَ الصدقِ الذي قد يجرح، وبينَ الكذبِ الذي يحمي هذهِ الألفةَ الهشّة. كيفَ لها أن تقولَ لسارة، الصديقة التي منحتها كلَّ القربِ والتفهّم، أنّها في أعمقِ لحظاتِ اتحادهِما، كانت في حضنِ رجلٍ آخر؟ رجلٌ يمثّلُ كلَّ ما كانت تدّعي أنّها تهربُ منه.

فتحت عينيها، ونظرت إلى سارة، وابتسمت ابتسامةً مُرهقة. "لا أبداً،" كذبت، وشعرت بطعمِ الكلماتِ مرًّا في فمِها، تلك المرارة التي سرعان ما ذابت في حلاوة شفتي سارة، وأتمّت "خشيت أن أطير!".

قبِلت سارةُ الجواب بضحكةٍ، أو ربما تظاهرت بذلك. عانقتها بقوّة، ودفنت وجهَها في عنقِها، كأنّها تُريدُ أن تمتصَّ بقايا ذلكَ الزلزال.

بقيتا هكذا لدقائق، في صمتٍ يحملُ الكثيرَ من الكلماتِ غيرِ المنطوقة. كانَ الحجرُ الملوكيُّ يرقد بين طيّات الشراشف، قطعةً فنيّةً صامتة، بريئة المظهر، بعدَ أن أدّى دورَهُ المُعقّد. نظرت إليهِ عائشة، وهي تتناوله بكفّيها، وشعرت بأنّهُ لم يعد مُجرّدَ أداة، بل أصبحَ مرآةً لرغباتِها المُتناقضة، نقطة التقاءٍ بينَ عالمِ دلال وعالمِ إياد وعالمِ سارة ممزوجة بباسل، العوالمُ التي أصبحت تتنازعُ على روحِها.

في أعماقِها، عرفت حقيقةً جديدة، حقيقةً مُثيرةً ومُخيفةً في آن: إنّ رحلتَها لم تنتهِ بعد. بل إنّها، للتوّ، قد بدأت. وإنّ أصعبَ المواجهاتِ ليست مع المجتمع أو التقاليد، بل مع ذلكَ الرجلِ المزدوجِ الذي يسكنُ جسدَها هي، رجلٌ لهُ وجهُ سارة الحنون، وقلبُ إياد القاسي، وربما عقل باسل، ويحتاج أنوثة طاغية كالتي تفيض بها دلال.

كانت سارة لم تزل مستلقية على السرير، وقميصها يكشف مؤخّرتها كأنّه زبد موج على ساحل جبليّ، وفي لحظة امتنانٍ أيقظتها بقبلة على ردفها الأيمن، ثم استلقت فوقها تعانقها والحجر في يدها، فسمعت صوت تمطّق، وإذا بسارة تلعق طرفه البارز وتقبّله، وكأنّها تعانق اعترافاً أدلت به في جلسة المحاكمة.

قالت عائشة: "لا تضحكي منّي"، فأمسكت سارة بيدها مع الحجر والتفّت تواجهها ولم يزل غائباً بين شفتيها، "ولكنّني اليوم، رأيت الهلال على مئذنة الجامعة بطريقة جديدة، حتّى المئذنة ذاتها بدت في عينيّ..."، قاطعتها سارة: "بدت قضيباً!"، وهي تشير إلى الحجر الذي يلمع بلعابها، صعقت عائشة، فضحكت سارة: "يبدو أنّ هذا الحجر السحريّ وصلةٌ تنقل الأفكار!"، ثمّ أتمّتا الكلام وهما تغتسلان وترتديان الثياب، متجهّزتين لموعد محاضرتيهما الذي بات وشيكاً، وسارة تشعرها أنّ ما بدا لها تجديفاً، إنّما هو حدس أنثويّ صادق قادر على كشف الرموز الذكوريّة التي وَلَجَت إلى الدين من ثقب ما!

الفصل الرّابع عشر: البيت أخيراً

مساء الثلاثاء، وصلت عائشة العمارة غير مدركة ما ينتظرها، وقرأت على بوّابة المصعد الذي كانت تنتظر بلوغها بفارغ الصبر "المصعد معطّل للصيانة"، ووجدت نفسها تقول: "ملعون أبو...." ثمّ لم تكمل، تمالكت نفسها، كانت تدرك أنّ صعود الدرج سيغدو مهمّة أصعب إذا كانت ستصعده ساخطةً، فأمّلت نفسها بشيء يسرّ الخاطر: "سيكون أهلك ضاقوا بموجة الحرّ، وشغّلوا التكييف! هيّا يا بنت... بضع خطوات أخرى، ومع الحرّ والجهد سيكون دخول المنزل احتفالاً." كان الدوام متعباً اليوم، فالحرّ غدا لا يطاق، وقد سمعت معلومة أنّ موجة الحرّ ستستمرّ أيّاماً أخرى، قاتلةً الربيع وهو لم يزل فتيّاً.

بلغت باب الشقّة، وهي تزيح الهواء الثقيل كمن يسير في سائل كثيف، وتنهّدت تنهيدة نصر، وبدأت تفكّ دبوس حجابها حتّى قبل أن تدخل، ضربت الجرس وبدأت تفتح الباب، وإذا بصوت عبيدة مليئاً بالحماس يناديها من وراء الباب: "احزري من جاء!"، وقبل أن تفهم السؤال لفحها هواء التكييف البارد كأنّها غطست في بركة، شهقت معانقة البرودة برئتيها وكأنّها تبتلعه ابتلاعاً، واستمهلت أختها: "لا تخبريني... دعيني أحزر!... خالتي؟"، فلمع صوت مألوف في الغرفة: "حبيبتي عيّوش،

تعرف عطري عن بعد شارعين!"، "أحلى خالة والله! أجمل المفاجآت!"، تركت الحقيبة بجانب الباب، وجرت نحو خالتها تعانقها، وخالتها تمازحها: "خالة تخلخلك! بيني وبينك خمس سنين فقط". قاطعت عائشة العناق الحميم بخجل: "حبيبتي هبة، سأعود لأعانقك كما يجب بعد أن أغتسل... بماء بارد!"، وانتبهت إلى أنّ أمّها قد أطلّت من الممرّ، وهي تبدو أبهى من أي يوم آخر، كانت ترتدي فستاناً قطنيّاً أوسع بقليل من أن يكون لصيقاً بجلدها، ينتهي بعد ركبتيها بما يضمن ألا يشمر إذا جلست، وهي عادة ما ترتدي الدشاديش الفضفاضة.

ابتعدت عن خالتها تزيح إشارها عن كتفيها، وتلتقط حقيبتها عن الأرض، فانتبهت أخيراً إلى ثياب خالتها التي لا تدخل بيت أبي عمر إلا بسبب زائرة مثلها، كانت ترتدي فستاناً من الكتّان بلون صحراويّ، فقالت: "نوّر البيت بك..."، وهي تغمز مشيرة تجاه أمّها متمّةً: "المناظر اليوم تفتح النفس"، وأطلقت ضحكةً بدت لأمّها رقيعةً بعض الشيء، فعلّقت أمّها: "عيّوش...ومن أين لك الجمال لولايَ!"، فدلفت تسلّم على العائلة، وكأنّها هي الآتية من البحرين، لا خالتها. وكان آخرهم عمر الجالس في الممرّ يجرّب ألعابه الجديدة.

داعبت خالتها بنكتة أخيرة مخاطبة أمّها: "هذه هبة جلبت معها الحرّ كلّه من الخليج!" وكانت تمشي بخفّة طفلة تحجل عندما دخلت غرفتها، فرأت حقيبة خالتها ليتضاعف سرورها بذلك، فقعلت جلبابها كأنّ النار دبّت في أطرافه، وتناولت منشفتها، وفستاناً بيتيّاً خفيفاً، وأسرعت إلى الحمّام.

كان تفكيرها يخرج إلى شفتيها تمتمةً: أرأيت! رغم الحرّ القاتل، هذا يوم جميل! ورغم استعجالها أن ترى خالتها هبة، التي مرّت سنة كاملة منذ آخر مرّة زارت عندهم، وجدت نفسها أمام استحقاق جسدها.

قبل ساعات فقط، كانت تجلس مع سمر وباسل في مكتب سمر المكيّف، وقالت بكلّ عفويّة: "أنت يا باسل مقتنع بما أقول... لكنّك تطيل الجدال حتّى نبقى في نعيم التكييف!" لقد رأت سرور الدكتورة سمر واضحاً في عينيها لا تخفيه رصانتها المعتادة، وهي تجادل عن رأيها: "مهما كان الكاتب متحرّراً ومهما كان متعاطفاً، تظلّ الذكورة تطلّ برأسها بين صفحات الرواية، ولو ارتدى أحمر الشفاه!"، وكان لباسل رأي آخر: "ما تلمحينه من ذكورة في نصوص الروائيّين موجود في نصوص أكثر الكاتبات أنوثة! لكنّك هناك تعيرينه عيناً أخرى." امتدّ الجدال ليأكل وقت لقائها بسارة، وبقي لديها شكّ أنّ سارة أحبّت أن تعفيها من الذنب

حين أخبرتها أنّها ستقابل أحد طلبة تبادل اللغات، مفسحةً المجال لـ"بسّولتها!".

خلعت ثيابها الداخليّة الملتصقة بجسدها تاركةً علامات سياط الحرّ عليها، وأسرعت إلى الدوش، لم تعد بحاجة لقراءة شيء من هاتفها، فهي تملك ذاكرة الآن، وإبر الماء النازل على جسدها الحنطيّ تجعل حواسها تستفيق، كان قماش ليفة الحمّام يغدو شفّافاً عندما تفردها على جسدها كأنّه فستان مبلول، وتستفيق حلماتها على احتكاك الليفة، وكرزتها تطلّ تحت طرف الليفة الأسفل كأنّها تنادي بين ثنياتها على يد تشتاقها، جمعت الليفة في كفّها الأيمن، واتّكأت على بلاط الجدار الزلق بيدها الأخرى، وأخذت تضغط كأنّها تضمّد جرحاً غائراً.

أخذت تتنفّس ذكرياتها بعنف... تذكّرت ابتسامة فخر من سمر، ثمّ دهشة في عيني باسل، وتلك عضّة من دلال، وهذه قبلة من سارة، وهنا رجفة من هزّاز، أو دفعة من الحجرالملوكيّ، مدّت يدها الأخرى تدعم مؤخّرتها لتزيد الضغط... إنّها كفّ إياد خارجة من الحلم! إياد! فرعون ذي الأوتاد! وسرعان ما أزاحت الليفة عنها، لكنّ جسدها استجاب، استجاب مجبراً يدها إلى علاقة الدوش، ورجفت خالطةً ماءها بمائها، وكأنّها هي أيضاً باتت ماء تتردّد فيه الأمواج.

بعد قليل، كانت تطالع نفسها في مرآة الحمّام، وهي تعيد رفع صدريّتها وإخفاء حبال الكتف مبعدة إيّاها عن فتحة الجيب التي تكشف نحرها، وفجأةً انتصبت أمام المرآة وأبرزت انحناءاتها بوقفة مغرية، ثمّ صفعت مؤخّرتها جانباً مبقية يدها عليها، وابتسمت مغادرة لتجفّف شعرها، ربما كانت تهنّئ نفسها لأنّ لذّتها باتت أقرب، ولأنّها باتت تستخدم يدها اليمنى بعد أن تغلّبت على عقدة طفوليّة حول تقديس كلّ ما هو يمين.

"كنّا نتراهن أنّك ستجفّفين شعرك!" قالت أمّها وهي تعدّ مائدة العشاء، وأتمّت: "خالتك كانت تقول إنّك ستبقينه مبلّلاً للتبريد عن نفسك، ولكنك بنت بطني وأعرفك، دائماً ما تستفزّ هبة جمالك!" أصاب عائشة خجل سريع بدّدته ابتسامة رضى من هبة، فردّت عائشة: "لا أحد ينافس هبّوش!" ثمّ قصعت جسمها كأنّها عارضة أزياء، ورمت شعرها بظاهر كفّها، واستدركت: "حتّى عيّوش!"، ولمّا رأت العيون معجبة بأدائها المسرحيّ وضعت قدمها اليمنى على يسار اليسرى، واستدارت كراقصة دورة سريعة أبعدت فستانها عن جسدها كأنّها مدينة ملاهٍ مضاءة، لكنّها لم تحطّ من تحليقها المتخيّل على أفضل وجه، واستجمعت توازنها بصعوبة، ما حوّل ابتساماتهنّ لضحكات، قالت هبة: "لا بدّ أن ابنتك تتابع العارضات على وسائل التواصل!"، فأجابت أمّها كمؤمنٍ يسمع

تجديفاً: "هي لا تملك حسابات تواصل."، وكانت منى تتلفّت كأنّها معارض في ظلّ نظام مخابراتيّ.

انتهى الحوار بإيماءة من عائشة إلى خالتها، أن أقصري. سألت هبة مغيّرة الموضوع: "هل سننتظر وصول جلال؟"، فأجابت منى: "تحجّج بعمل خارج عمّان، وأنا قبلت منه لأنّني لا أريد أن أسمع وعظَه لك!"، ضحكت عائشة من قلبها: "أمّي شيخة عندما يقتضي الأمر." وارتسمت على وجوههنّ ضحكة استمرّت أصداؤها وارتداداتها حتّى فرغوا من الطعام وسط جوّ كأنّه خرج من دعاية أشهر علامات الطعام التجاريّة.

في الليل، كانت أمّ عمر قد عادت إلى متابعة مسلسلها التركيّ، وكأنّها كانت تتجهّز لسهرة رومانسيّة في غياب أبي عمر، أمّا عبيدة وعمر فكانوا على ضفاف النوم، بينما تجلس هبة مع عائشة الأقرب لها من أختها في غرفتها. "عيّوش... ما سرّ هذا التفتّح الغريب؟ قبل عام كنت طفلة واليوم أنت صبيّة فاتنة!" قالت هبة، وعائشة تقاطعها سعيدة بأنّها قدّمت سؤالها على تعليقها: "ورثت شيئا من خالاتي!"، لكنّ هبة لم ينطلِ عليها هذا التعلّق بآخر ما قيل: "هل هو زميل في الجامعة؟"، وارتبكت عائشة بالقدر الكافي لفتاة من عمرها: "إذا سمعتك عبيدة ستخبر أبي! وتعرفين كيف تلتصق التهم بأجسادنا نحن الإناث حتّى لو كانت كومة

من خيال"، "صدقت والله... حكمتك تتفتّح أسرع من جسمك" ردّت هبة، وأخفضت صوتها قليلاً ثمّ أتمّت: "إن لم تخبريني، فسأزور الجامعة وأكتشفه بنفسي."، سايرتها عائشة: "لا يخلو الأمر من إعجاب هنا أو تلميح هناك، ولكنّني ماهرة في تفويت الفرص."، "ربما ورثت ذلك من أمّك!" قالتها هبة وانطلقت تسابق عائشة ضحكاً.

"المهمّ يا عائشة، لن أوسوس لك لتصاحبي شابّاً، ولكن إن مال قلبك لأحدهم، فأطلقي العنان لروحك" قالت هبة، وعائشة تسمعها تكمل: "ولكن فليكن رسن روحك بيدك... بيد عقلك... حبّ الجامعة جميل، ولكنّ الشباب لهم قيمٌ..." قاطعتها عائشة مازحةً: "قيمٌ سامية"، "أقول ذلك بجدّيّة... لهم قيم لا يصرّحون بها، وطريقتهم في التعامل مع ازدواجيّة مجتمعنا مختلفة عنّا نحن البنات... لا سيّما وأنت ابنة الشيخ أبو عمر، لم تدرسي في مدرسة مختلطة، ولم تعتادي طبيعتهم"، سألت عائشة بفضول صادق، وكأنّها عرفت أنّ ما ستقوله خالتها الآن خلاصة تجربة لا تتحصّل لها بالقراءة: "كيف ذلك؟"، أجابتها هبة: "هم يشربون من تربيتهم جرأة ظاهريّة، لكنّها قشرة سرعان ما يكشطها الاحتكاك بالواقع، هم أجبن ممّا تتخيّلين!".

ورغم كآبة الحكمة التي جرّها الليل على حديثهما، ظلّت نكاتهما تقاطع الحديث الجادّ المشوب بالضحك الرقيق، وظلّت عائشة تستجمع خيوط التجربة من خالتها التي تزوّجت وسافرت عدّة دول. إنّها تعرف أنّ الحياة لن تهبها بسهولة تجربة كتجربة هبة.

بعد برهة من الحديث تذكّرت هبة كتابات عيّوش، مجرّد خربشات كانت قد رأت بداياتها في زيارة سابقة، سألت هبة: "تذكّرت دفترك الذي سمّيته بعيني أنثى!" قالت عائشة: "هبة... رغم أنّ المشروع قد تطوّر، ولكنّني أخجل منه الآن، بعد أن قرأت أكثر وتمرّست!" ألحّت هبة: "تطوّر! وأنا أريد قراءة التطوّرات..." ضحكت عائشة، وسمحت لنفسها أن تشارك خالتها بضع أوراق، بالتأكيد ليس حول سرّها الصغير "نجمة"، مجموعة أوراق لها عنوان مستقلّ، وهي تأمّلاتها حول الكائنات الجامعيّة خلال سنتها الأولى، أمسكت هبة الدفتر وهي تغالب النعاس، قائلة ستكون قصّتي قبل النوم:

"من دفترِ مُراقبة الكائناتِ

السنة الأولى

ملاحظاتٌ حول "صاحب النظّارة"

أجلسُ دائماً في الصفِّ الخامس، على يسارِ المدرّج. ليسَ لأنّهُ المكانُ الأفضلُ للرؤية، بل لأنّهُ يوفّرُ لي زاويةَ مُراقبةٍ مثاليّة. من هنا، أستطيعُ أن أرى معظمَ أفرادِ العيّنةِ دونَ أن أُثيرَ انتباهَ أحد. واليوم، وكلّ يومٍ تقريباً، يعودُ التركيزُ كلُّهُ على "صاحبِ النظّارة".

"لا أعرفُ اسمَهُ، ولا أُريدُ أن أعرفه. الأسماءُ تُفسدُ موضوعيّةَ البحث، تحوّلُ الكائنَ إلى شخص، والشخصُ لهُ قصّة، وأنا أُريدُ أن أكتبَ قصّتَهُ بنفسي. هو كائنٌ نحيلٌ، يكادُ يختفي داخلَ قميصِهِ الـ"كاروهات" الذي يبدو أكبرَ من مقاسِهِ بدرجتين، كأنّهُ استعارَهُ من أخٍ أكبرَ أو أبٍ لم يعد موجوداً. لكنَّ ما ينقصُهُ من حجمٍ، يُعوّضُهُ بحضورٍ طاغٍ يصدرُ من عقله. حضورٌ لا يملأُ المكانَ بالضجيج، بل بالكهرباءِ الساكنة."

"مراقبتُهُ ممتعة. هو لا يجلسُ، بل يتموضعُ، كأنّهُ يُحضّرُ نفسَهُ لمعركةٍ وشيكة. يفتحُ حقيبتَهُ الجلديّةَ القديمةَ ببطءٍ مُريب، ويُخرجُ كُتبَهُ كأنّهُ يُخرجُ أسلحةً سريّة. يُرتّبُها على الطاولةِ بزوايا قائمة، كلُّ كتابٍ في مكانِهِ المحدّد. لا فوضى، لا عشوائيّة. إنّها هندسةُ قلقٍ مُنظّم."

"يداهُ هما أكثرُ ما يلفتُ انتباهي. يداهُ ليستا كبيرتين، لكنّهما عصبيّتان، دائمتا الحركة، كأنّ أفكارَهُ تتسرّبُ من دماغِهِ لتُحرّكَ أصابعَهُ الطويلة. حينَ يُجادلُ الدكتور، وهو يفعلُ ذلكَ دائماً، تُصبحُ يداهُ

شخصيّتينِ أُخريينِ في الحوار. ترتفعانِ، تهبطانِ، ترسمانِ دوائرَ في الهواء، تشرحانِ نظريّاتٍ لا أفهَمُ نصفَها. أُراقِبُ الطريقةَ التي يمسكُ بها القلم، ليسَ كأداةِ كتابة، بل كسلاحٍ صغير، يَنقرُ بهِ على طرفِ الطاولةِ نقراتٍ سريعةً مُتتالية، كأنّهُ يكتبُ برقيّةً عاجلةً إلى عالمٍ آخر، عالمٌ يفهمُ لغةَ شفرتِه."

"صوتُهُ حادٌّ، وفيهِ نبرةُ تحدٍّ دائمة. حتّى حينَ يوافقُ على فكرة، يبدو كأنّهُ يمنحُها الإذنَ بالوجودِ على مضض. نظّارتُهُ ذاتُ الإطارِ الأسودِ العريضِ تنزلقُ أحياناً على أنفِهِ، فيرفعُها بسبّابتِهِ بحركةٍ سريعةٍ مُتوتّرة، وفي هذهِ اللحظةِ بالذات، تلمعُ عيناهُ ببريقٍ مُتّقد، كجمرتينِ صغيرتينِ خلفَ زجاجٍ مُصقول. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. نعم، بصرُهُ حديد، يرى ما لا نراه، ويُشرّحُ الكلماتِ حتّى العظم."

"ماذا يوجدُ خلفَ كلِّ هذا الجدال؟ هل ينامُ ليلاً، أم أنّهُ يظلُّ يُحاربُ طواحينَ الهواءِ في رأسِه؟ أراهنُ أنّهُ إذا قبّلَ فتاةً، فسيُحلّلُ التجربةَ كيميائيّاً وبيولوجيّاً قبلَ أن يسمحَ لنفسِهِ بالشعورِ بأيِّ شيء. لكن... كيفَ ستكونُ لمسةُ تلكَ اليدينِ العصبيّتين؟ هل ستكونُ حادّةً ومُتردّدة، أم أنّها ستستكشفُ الجلدَ بنفسِ الفضولِ النهمِ الذي يستكشفُ بهِ كُتبَ الفلسفة؟ هل ستكونُ حركتُهُ مُتوتّرةً، كهربائيّة، كأنّها صدمةٌ خفيفة؟ أم

أنّ كلَّ هذه العصبيةِ ستذوبُ فجأةً لتتحوّلَ إلى حنانٍ أخرق، حنانِ من لا يعرفُ كيفَ يلمس، لكنّهُ يتوقُ إلى ذلك؟"

"هو لا ينظرُ إلى الفتياتِ كفتيات. هو ينظرُ إليهنّ كعقولٍ مُنافسةٍ أو كجمهورٍ صامت. لم أرهُ يبتسمُ قطّ، لا ضحكةَ مجاملةٍ ولا حتّى نصفَ ابتسامة. وجههُ خريطةٌ للجادّيّةِ المطلقة. لكنّي أرى شيئاً آخرَ في الطريقةِ التي يشدُّ بها على فكّهِ حينَ يسمعُ رأياً سخيفاً... أرى شغفاً. شغفٌ مُتّقد، مُحترق، لكنّهُ موجّهٌ بالكاملِ نحو الأفكار. أتخيّلُ هذا الشغفَ لو تحرّرَ من سجنِ المنطق... يا إلهي، أيُّ حريقٍ سيُشعله؟ أيُّ غاباتٍ سيحرقُها بكلمةٍ واحدةٍ أو لمسةٍ واحدةٍ غيرِ محسوبة؟ أشعرُ أحياناً بأنّهُ بركانٌ نائم، هادئٌ من الخارج، لكنّ الحممَ تغلي في أعماقِه، تنتظرُ فقط الصدعَ المناسبَ لتنفجر. ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾."

تأمّلاتٌ حول "نجمِ الدفعة"

"إذا كانَ "صاحبُ النظّارة" كائناً فكريّاً، فإنّ "نجمَ الدفعة" هو كائنٌ فيزيائيٌّ بحت. وجودُهُ يملأُ المكانَ قبلَ أن يدخلَه. هو لا يمشي، هو ينسابُ بينَ الجموعِ كأنّهُ يمتلكُ الممرّات. مشيتُهُ فيها ثقةُ من يعرفُ أنّ

كلَّ العيونِ عليه، ويستمتعُ بذلك. أكتافُهُ عريضة، ووقفتُهُ مُستقيمةٌ دائماً، كأنّ خيطاً خفيًّا يشدّهُ من قمّةِ رأسِهِ نحو السماء.

اسمهُ على كلِّ لسان. "خالد قال"، "خالد عمل"، "شفتوا خالد اليوم؟".
هو ليسَ الأوسمَ بالمعاييرِ الكلاسيكيّة، لكنّهُ يمتلكُ "كاريزما". تلكَ الكلمةُ التي لم أفهم معناها حتّى رأيتُهُ. ضحكتُهُ عالية، مجلجلة، تصلُ قبلَهُ وتُعلنُ عن قدومِه. وحينَ يضحك، يميلُ برأسِهِ للخلفِ قليلاً، وتظهرُ غمازةٌ خفيفةٌ على خدِّهِ الأيسر. أعتقدُ أنّ تلكَ الغمّازةَ وحدَها هي المسؤولةُ عن نصفِ شعبيّتِه.

يُحيطُ بهِ دائماً سربٌ من الكائناتِ الأخرى، ذكوراً وإناثاً. هو الشمسُ، وهم الكواكبُ التي تدورُ في فلكِ جاذبيّتِه. ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾. هكذا أراهم. هو الشمسُ المُشرقةُ، وهم الأقمارُ التي تكتسبُ نورَها منهُ وتتبعهُ أينما ذهب. يتحدّثُ مع الجميعِ بنفسِ الأريحيّة، من عاملِ النظافةِ إلى رئيسِ القسم. يدهُ دائماً على كتفِ أحدهم، يُربّتُ، يمازحُ، يلمس. لمساتُهُ عامّة، مُوزّعةٌ بالعدلِ والقسطاس، لكنّها تُعطي كلَّ فردٍ إحساساً زائفاً بالأهميّة. رأيتُهُ مرّةً يمسكُ بيدِ فتاةٍ كانت على وشكِ أن تتعثّر، لم يمسكها لثانيةٍ فقط، بل أطالَ اللمسةَ،

ونظرَ في عينيها وقالَ لها: "انتبهي يا أميرة" . أعرفُ يقيناً أنّ تلكَ الفتاةَ لم تنم تلكَ الليلة.

الفتياتُ حولَهُ يتحوّلنَ إلى كائنات أخرى. رأيتُ الهادئات منهنّ يُصبحنَ ثرثارات، والجريئات يُصبحنَ خجولات. يُغيّرنَ نبرةَ أصواتِهنّ، يُعدّلنَ حجابَهنّ، يضحكنَ بصوت أعلى قليلاً على نكاتِه التي ليست مُضحكةً في العادة. هو يعرفُ هذا التأثيرَ جيّداً. يستخدمُهُ كفنّان. يمنحُ إحداهنّ نظرةً أطولَ بقليل، فيُزهرُ خدّاها. يُلقي تعليقاً عابراً على فستانِ أخرى، فتظلُّ تحدّثُ صديقاتِها عن الأمرِ لأيّام. هو قائدُ أوركسترا ماهر، والفتياتُ هنَّ الآلاتُ الموسيقيّةُ التي يعزفُ عليهنّ ألحانَ الغرور.

لكن، هل هو حقيقيّ؟ هل هذا "خالد" الذي يراهُ الجميعُ هو خالدُ الحقيقيّ؟ أم أنّهُ مجرّدُ قناعٍ مصقولٍ بعناية؟ ماذا لو جلسَ وحيداً في غرفتِه، هل يضحكُ بنفسِ الطريقة؟ هل يشعرُ بالوحدةِ أحياناً؟ أراهنُ أنّهُ لا يعرفُ كيفَ يكونُ وحيداً. أكرهُ ثقتَهُ الزائدةَ هذه، أكرهُ الطريقةَ التي يمتلكُ بها المكان. لكن... هناكَ شيءٌ ما في طريقةِ وقوفِه، في اتّساعِ كتفيه، في هيمنتِه الهادئة، شيءٌ بدائيٌّ جدّاً، شيءٌ يُشبهُ رائحةَ المطرِ الأوّلِ على الترابِ العطش، شيءٌ يجعلُ جزءاً صغيراً منّي يرغبُ في أن أكونَ واحدةً من تلكَ الكواكبِ التي تدور... ولو للحظةٍ واحدة. أن

أشعرَ بحرارةِ شمسهِ تُذيبُ جليدَ عزلتي، حتّى لو كانَ ذلكَ مجرّدَ وهمٍ جميل.

خواطرُ حول "الفنّان الغامض"

هذا هو المُفضّلُ لديّ. هو لا ينتمي لأيّ قبيلة. كوكبٌ يدورُ في مدارهِ الخاصّ، بعيداً عن كلِّ الشموسِ الأخرى. يجلسُ دائماً في آخرِ المدرّج، أو تحتَ شجرةِ السروِ الوحيدةِ في الساحةِ الخلفيّةِ للكليّة. وجودُهُ صامت، لكنّهُ أشدُّ حضوراً من كلِّ ضجيجِهم.

دائماً معهُ دفترُ رسمٍ أسود، وسماعاتٌ كبيرةٌ تعزلُهُ عن عالمِنا. لا أحدَ يعرفُ ماذا يسمع، أو ماذا يرسم. وهذا هو سرُّ جاذبيّتِه. هو صفحةٌ بيضاء، تُتيحُ لمخيّلةِ المُراقبِ أن تكتبَ عليها ما تشاء. هو بئرٌ عميقةٌ، كلّما رميتَ فيها حجرَ الفضول، لا تسمعُ لهُ صوتَ ارتطام. ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾. دفترُهُ الأسودُ هو مفتاحُ غيبِهِ، ولا أحدَ يملكُ نسخةً عنه.

ملابسُهُ بسيطة، سوداءُ في الغالب، كأنّهُ لا يُريدُ للثياب أن تُشتّتَ الانتباهَ عمّا هو أهمّ. شعرُهُ طويلٌ قليلاً، يقعُ على عينيهِ أحياناً، فيُزيحُهُ للخلفِ بحركةٍ بطيئةٍ كأنّهُ يرسمُ لوحةً في الهواء. يداهُ، على عكسِ "صاحبِ

النظّارة" ، هادئتان . أصابعُهُ مُلطّخةٌ دائماً بألوانٍ خفيفة، أثرُ فحمٍ أو قلمِ رصاص. حينَ يمسكُ بقلمِهِ، لا تسمعُ نقراتٍ عصبيّة، بل صوتَ احتكاكٍ ناعمٍ ومنتظمٍ على الورق، صوتٌ يُشبهُ حفيفَ أوراقِ الشجرِ في ليلةٍ صيفيّة. هو يخلقُ عوالمَ من العدمِ بلمسةِ قلم. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . أقولُها في سرّي أحياناً حينَ أراهُ مُنهمكاً، وأشعرُ بتجديفٍ لذيذ.

نادراً ما يتكلّم. وحينَ يفعل، يكونُ صوتُهُ خافتاً، كأنّهُ ليسَ مُعتاداً على استخدامِهِ. نظراتُهُ لا تُواجهُكَ مباشرةً، بل تتسلّلُ إليك، تدرسُكَ للحظة، ثمّ تعودُ لتهربَ إلى دفترِهِ. تلكَ النظراتُ الخاطفةُ أقوى من مئةِ حوارٍ مع "نجمِ الدفعة" . إنّها تجعلُكَ تشعرُ بأنّكَ قد تمّت رؤيتُكَ حقّاً، بأنّهُ قد التقطَ تفصيلاً فيكَ لم يلحظْهُ أحدٌ من قبل، وربما . . . أنتَ الآن مرسومٌ في دفترِهِ الأسود.

ما القصصُ التي تدورُ في رأسِهِ؟ هل يرانا أشخاصاً، أم مجرّدَ خطوطٍ وظلالٍ وأشكال؟ هل يسمعُ موسيقى صاخبةً، أم ألحاناً حزينة؟ أتخيّلُ أنّ عالمَهُ الداخليَّ أغنى بكثيرٍ من عالمِنا الخارجيِّ الصاخب. أتخيّلُ أنّ لمستَهُ ستكونُ كضربةِ ريشةِ فنّان، رقيقة، دقيقة، تعرفُ تماماً أينَ تضعُ اللونَ لِتُبرزَ الجمالَ أو الألم. أشتهي أن أختلسَ نظرةً واحدةً داخلَ ذلكَ الدفتر.

أشتهي أن أعرفَ ما إذا كنتُ قد أصبحتُ يوماً... جزءاً من فنّه. هل سيرسمني كما أنا، بفستاني الطويل وحجابي؟ أم أنّهُ سيرى ما خلفَ كلِّ هذا، سيرى "عيّوش" التي تختبئُ وتتوقُ إلى الخروج؟ هل ستكونُ لوحتُهُ لي بورتريه واقعيًّا، أم لوحةً سرياليّةً مليئةً بالرموزِ التي لا أفهمُها أنا نفسي؟

تذييلٌ على "قبيلةِ الفتيات"

كنتُ مُنهمكةً جدّاً في دراسةِ الذكور، حتّى كدتُ أنسى أنّ هناكَ غابةً أخرى موازية، أكثرَ تعقيداً ووحشيّة، قوانينُها غيرُ مكتوبة، وحروبُها تُخاضُ بالهمسِ والنظرات. قبيلةُ الفتيات.

هناكَ "ملكةُ النحل". اسمها "لمى" على ما أظنّ. هي ليست الأجملَ بالضرورة، لكنّها تملكُ شيئاً آخر. تملكُ القدرةَ على توزيعِ القبولِ والرفضِ كأنّها صدقات. ابتسامتُها لا تصلُ عينيها أبداً. هي تحيطُ نفسَها بسربٍ من "العاملات"، فتياتٌ أقلُّ جمالاً أو ثقةً، يضحكنَ على نكاتِها، يحملنَ حقيبتَها، ويُهاجمنَ أيَّ فتاةٍ تُهدّدُ عرشَ الملكةِ بنظراتٍ سامّة. أُراقبُها وهي تُلقي "السلام عليكم" بصوتٍ عالٍ ومُنمّقٍ حينَ تمرُّ بجانبِ مجموعةٍ من الشبابِ المشهورين، ثمّ ما إن تبتعد، حتّى تهمسُ في أذنِ وصيفتِها شيئاً يجعلهما تضحكانِ ضحكةً خبيثة. ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ

لُمَزَةٍ﴾. هكذا أراها، همّازة لمّازة، تُلقي بالكلمات كأنّها حجارةٌ صغيرة. هي تعرفُ قوانينَ اللعبةِ جيّداً. تعرفُ كيفَ تكونُ "الشريفةَ" في العلن، و"الأفعى" في الخفاء.

وعلى الطرفِ الآخرِ من الطيف، هناكَ "الفتاةُ الشبح". تجلسُ دائماً وحدَها، في أبعدِ مقعد. لا أعرفُ حتّى إن كانَ أحدٌ يعرفُ اسمَها. هي ترتدي ألواناً باهتة، كأنّها تُريدُ أن تذوبَ مع الحائط. لا تُشارك، لا تتكلّم، لا تضحك. تأكلُ شطيرتَها بسرعةٍ ورأسُها مُنحنٍ، كأنّها تخشى أن يسرقَها أحد. أحياناً، تلتقي عيني بعينيها عن طريقِ الخطأ، فأرى فيهما فزعاً عميقاً، ورغبةً في الاختفاء. أشعرُ نحوها بمزيجٍ من الشفقةِ والنفور. هل هي سعيدةٌ في عالمِها هذا؟ أم أنّها تتوقُ إلى كلمةٍ واحدةٍ، إلى ابتسامةٍ واحدةٍ تُشعرُها بأنّها مرئيّة؟ أشعرُ أحياناً بأنّها أنا، لو لم أكن أملكُ هذا الدفتر، وهذا الفضولَ القاتلَ الذي يُبقيني على قيدِ الحياة. هي استسلمت، وأنا لا أزالُ أُقاوم... بالمراقبة.

وأنا... أينَ أنا من كلِّ هذا؟ هل أنا باحثةٌ موضوعيّةٌ حقّاً؟ أم أنّني مجرّدُ كائنٍ آخرَ في هذهِ الغابة، أختبئُ خلفَ دفتري، وأُراقبُ الآخرين لأنّني أخشى أن يُراقبوني هم؟ هل فضولي هذا مجرّدُ قناعٍ للخوف؟ خوفٌ من

التجربةِ الحقيقيّة، من الاحتكاك، من أن أرتكبَ خطأً، من أن أنجرح... من أن أعيش.

هؤلاءِ هم... قبيلتي الجديدة. كائناتي التي أدرسُها وأحلّلُها وأحلمُ بها. كلُّ واحدٍ منهم يمثّلُ لغزاً، وإجابةً محتملةً لسؤالٍ لم أجرؤ على طرحِهِ بعد. وكلُّ يومٍ أكتشفُ أنّ هذهِ الجامعةَ ليست مجرّدَ مكانٍ للدراسة، بل هي غابةٌ واسعة، وأنا فيها... صيّادةُ تفاصيلٍ صغيرة. لكنّ الصيّادَ بدأ يجوع، ولم يعد يكتفي بالنظرِ إلى الفرائسِ من بعيد. بدأتُ أفهمُ تلكَ الآيةَ بطريقةٍ جديدة، طريقةٍ مُخيفة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾. نعم، إنّهُ تزيين. تزيينٌ جميلٌ ومُرعب، وأنا أقفُ أمامَ هذهِ الزينة، أُقاومُ الرغبةَ في أن أمدَّ يدي والمس."

كانت هبة أحياناً تضحك، وتتذكّر شيئا من سنوات الجامعة، وأحياناً أخرى تشرد، ولم يقطع ضحكاتهما تلك الليلة، إلا وقت الصلاة، ورسالة وصلت عائشة على هاتفها، وهي تهمّ بالنوم على فراشها المرتجل مفسِحةً تختها لخالتها، وهي تحسِب إن كانت تركت شيئا من قارورة عطر جسدها على الشراشف، كانت الرسالة تقول: "عيّوش يا عمري، أريدك أن تزوري المشغل غداً وتتناولي شيئا توصليه إلى فتاة قرب الجامعة."، تتابعت الرسائل وهي تحاول أن تتملّص لكي تحصل على أطول صحبة لخالتها

القريبة منها، وكانت دلال ترسل إلى إياد في الوقت نفسه، لكنّ رسالة واحدة بين تيّار الرسائل كانت كفيلة بأن تحرمها النوم حتّى بعد منتصف الليل: "لكي لا تستغربي، هي غلطة بسيطة مردودة،"، وبعدها "ليس أمراً مهمّاً ولكنّي لا أريد أن أزعجك"، وبعدها "ولكنّي أخطأت وأرسلت لإياد رسالة تبدأ بعيّوش. لا تقلقي فهو لا يتجرّأ على إغضابي، ويعرف أنّني أستطيع محوه عن وجه الأرض." دلال الماكرة، تعرف كيف تجعلها تمتصّ الصدمات، كما تمتصّ كلّ دفعة من حجر اليشم.

استعانت عيّوش بصوت المروحة الرتيب، وبالهدوء الذي فرضه نوم هبة، وبما سمعته من دلال عن نفوذها وصلاتها، لكي ترخي جفنيها أخيرا على تلك العينين الواسعتين.

استيقظت عائشة وصلّت الفجر حاضراً، ثمّ أخذتها غفوة محمولة إليها على آخر نسمات الليل اللطيفة. وبعد ساعة من السلام، أفاقت من نومها بفضل رائحة القهوة متبوعة برائحة غريبة عن البيت. كانت هبة قد استيقظت، وجلست تدخّن سيجارة قرب الشبّاك مع فنجان قهوة، فقامت مستعجلة تدّعي أنّ لديها موعد دراسة مع زميلاتها قبيل الاختبارات التي باتت وشيكة، ولمّا تذكّرت موجة الحرّ، أخذت قراراً بدا لها إنجازاً، سترتدي فستانها الشرعيّ الساتر على اللحم، دون بنطال ضيّق

تحته، ستكتفي بثياب داخلية من المجموعة الجديدة التي تمنحها ثقة عجيبة بالنفس، وبعد أن أتمت ارتداء ثيابها تردّدت قليلاً، فإياد الذي ستقابله بعد قليل بات يعرف اسمها، لم يعد مغامرة آمِنة! نعم ربما لم يكن يوماً مغامرةً آمنة، لكنّها الآن تأكل الأعصاب.

الفصل الخامس عشر : المتحف

كانت الشمس حين خرجت عائشة لم تزل في صباها، وعائشة كانت معجبة بقدرتها الجديدة على اختلاق أعذار متقنة لم تخطّط لها، أعذار ترتجلها وكأنّها تقرأ من نصّ محبوك، فقد أجابت سؤال والدتها عن سرّ الخروج المبكّر بعفويّة: "أريد أن أصل الجامعة قبل أن تتحوّل الحافلات إلى علب سردين!"، ثمّ تسحّبت مبتعدة وهي تعقد الآمال على ثنيات فستانها الواسع أن تخفي أيّ ارتجاج لأردافها وهي خارجة.

خلال سيرها مبتعدة عن شارعها حافظت على مشيتها الرصينة. وكانت تتخيّل كيف سيعلق الفستان بين ردفيها إذا وقفت بعد جلوس طويل، وتذكّر نفسها أنّ عليها أن تشدّ جانبيه لدى كلّ وقوف وقعود. بلغت المكان الذي تمرّ منه الحافلة، ولمّا توقّفت الحافلة الصغيرة بجانبها، لكنّها صعدت بحرص أكبر من أيّ وقت مضى، فهي لا تريد أن يحدث شيء.

"لا سمح الله، إذا جاء أجلي اليوم، سيعرف أهلي أنّني كنت فاسقة!... ما هذه الفكرة الكئيبة! ارتديت الفستان على اللحم لأشعر ببعض الحرّيّة، لأحسّ بالهواء المحبوس في الفستان وهو يلامس جلدي! لا لأتخيّل أهلي يتعرّفون على جثّتي! الهواء الهواء دعيني أركّز على الهواء!"، حرّكت عائشة طيّات فستانها وهي تجلس على مقعد الحافلة القريب للباب،

فتبدّل الهواء وأحسّت ببرودة تحتاجها، فقد منحت الشمس قبلتها الحارقة كلّ ما تصله أشعّتها، وهي تنبئ بيوم لا ينتمي للربيع في شيء، بل كأنّه مسروق من روزنامة آب اللهّاب.

نزلت من الحافلة بعد أن توقّفت وقوفاً تامّاً حريصةً على ألا تقفز عن آخر درجاتها فيرتجّ ردفاها بطريقة فاضحة. وأخذت تقترب من بناية المشغل وهي تشعر كيف بدأ مسام جلدها يتفتّح بالحرارة.

بعد أن رنّت الجرس بوقت أقصر من المرّة الفائتة، جاءها صوت إياد: "من؟"، "أنا من طرف أمّ أيمن"، فقال بصوت مرتاح مريح: "أهلا عائشة، ادخلي واصعدي السدّة لتأخذي ما جئت من أجله، فأنا أسكب قطعة مفرّغة، يحتاج قالبها مواصلة التقليب، وإلا ستفسد... اعذريني! مشغول جدّاً." بدا صوته صادقاً رغم الارتباك، فالجلبة حوله تنبئ بارتباك ناتج عن العمل، لا عن النوايا... ولم تستطع معالجة الأفكار حتّى فتح القفل الكهربائي، فدلفت إلى الباب، وبقيت هنيهة لم تغلقه خلفها.

"عيّوش... لو كان ينوي الشرّ لكان قادراً عليه في المرّات السابقة، ثمّ كان يكفيه أن يغضب عندما أجبته تلك الإجابة القاطعة!" انسابت أفكارها على شفتيها كنهر من الهمهمة، ثمّ عزمت وأغلقت الباب وراءها،

مخرجة هاتفها وفاتحة تطبيق تسجيل الصوت، ومبقية إيّاه في يدها تحسّباً لأيّ طارئ، شغّلت التسجيل ووجدت طريقها نحو السدّة.

كان المشغل كأنّه صفيحة تحت قائظة النهار، كأنّه لم يتنفّس من أيّام، وزاد شعورَها بالحرّ ما تحسّه من إثارة وهي تصعد درجات السلّم الخشبيّة، قطرة عرق تتسلّل على سلسلة ظهرها وتتسرب ما بين ردفيها، وهكذا أحسّت بانزلاق الجلد عند منطقة تلامس الفخذين. اليوم، وفي هذا الحرّ، وبعد ذلك الحلم، وبعد أن غزا خيالها مرّة بعد مرّة، وفوق كلّ ذلك تدخل المنطقة المحرّمة في مشغله، وهي ترتدي هذا الفستان، ولا ترتدي تحته شيئا! هذا كلّه! معاً! بدا لها أنّ القدر يتآمر عليها، فأخذ جسمها يرتجف رجفة خفيفة، وهي في نهاية الشاحط، ثمّ سمعت قفلا كهربائيّاً آخر يفتح، يبتلع لسانه المعدنيّ، إنّه الباب الذي لا رجعة بعده!

طردت كلّ أفكارها، وتنفّست الهواء حولها حتّى كأنّها تفرغ الجوّ منه، ثمّ دلفت، واضعة حقيبتها مسنداً للباب لكي يظلّ مفتوحاً، شعرةَ معاوية بينها وبين الواقع، فما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، ولكن إذا كان هذا صحيحاً فأين سيكون الله؟ "الله معك عيّوش" سمعت همساً في رأسها وهي تدخل.

دلّتها غريزة البقاء على الكائن الحيّ في تلك المساحة أوّلاً، هو هناك في الطرف البعيد من السدّة مديراً وجهه ممسكاً بقالب يهزّه بلطف، قالت: "إياد؟"، أدار وجهه مجيباً بترحيب: "كنت أظنّ أنّني عرفت اسمك قبل أن تعرفي اسمي!"، بدا الأمر أفضل ممّا تخيّلت، فلم تباغتها حتّى الآن كفّ من ورائها تغطّي فمها، وتكتم صرخاتها كما قرأت في الروايات العنيفة، قالت: "أعرف أنّك مشغول، لكن أين القطعة؟" هنا بالضبط تلفّتت وإذا هي تسير بين غابة قضبان، بعضها يتدلّى من السقف، وبعضها ينبت من الأرض، وأخرى تميل بقوامها على الرفوف، وبعضها ملتصق بشفّاط على الجدران! أحسّت بأنّ القضبان تشير إليها، تشير إلى بوّابة حديقتها المتعرّقة! أهو فعلاً عرق! كانت تتمنّى ألا يكون جسدها استجاب لمثل هذا.

جعلت تدور برأسها مقطوعةَ النفس، وكأنّها تخشى إن تنفّست أن تثير غرائز الأصنام، كم كان الرسول محقّاً في هدم الأصنام التي كانت داخل الكعبة! فهي تكاد تملك أرواحاً! هذه هي كعبة إياد، الكعبة من الداخل. ولكن ألم تكن الأصنام إناثاً: اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى؟ ألكم الذكر وله الأنثى! تلك إذاً قسمةٌ ضيزى؟ نعم إنّها قسمة ظالمة، أمّا إياد فيستحقّ الرضا بما عنده من الأصنام الذكور. كادت أن تضحك من الفكرة لولا تراكم طبقات الرهبة والدهشة والخوف على قلبها.

جاء صوت إياد متأخّراً دون وجه: "أعتذر جدّاً على المنظر، الآن وبعد أن دخلَت مشغلي روح أخرى، أدركت كم هو بذيء!"، ردّت عائشة: "ربما هو وقح، لكنّه حقيقيّ!"، "نعم، نعم، نعم، ليس أوقح من الحقيقة!" كانت كلماته تعيد بصرها إليه هناك، وهو يقلّب الكرة الجصّيّة، ويدير في ثقب منها سائلاً ثقيلاً، ثمّ يحرّك ببطء، وكأنّه يلاعب طفلاً بعدما أطعمه.

رائحة توليفة المذيبات البتروليّة، والموادّ الصناعيّة نفّاذة هنا، إنّها تدخل من الأنف إلى الجهاز العصبيّ فوراً، إنّها تعطي الاختناق الذي تولّده الحرارة نكهة لاذعة، تخز كأنّها إبرٌ صينيّة تصل إلى أعماق الأعصاب، إنّ الوجود حولها كالغطس في بركة وقود، لكنّه مريح بصورة ما.

كانت عائشة أكثر استرخاءً الآن، أعادت: "أين القطعة؟"، فأجابها إياد بصوت أقلّ خشونة من أيّ مرّة: "ألهذه الدرجة صحبتي مملّة!... القطعة هي العلبة الكرتونية على يمينك..." وكان يؤشّر بعينيه ووجهه مستدركاً: "لا ليست تلك!... تلك التي في العمق... احذري ذراع الملزمة... لا لا أعتذر!"، أحسّت عائشة بلسعة زاوية معدنيّة على ركبتها: "آه... يلعن شرف..." وأمسكت لسانها أن تتمّ وهي تنفث الفاء من الألم: "إففففف"، قال إياد بصوت معتذر متمّاً شتيمتها: "– في... يلعن شرفي أنا... أعتذر... حقّك عليّ!"، ولم يكن لديها رفاهيّة

أن تشعر بأهمّيّتها عنده، تلك الأهمّيّة التي جعلته يترك التحفة الثمينة التي يعمل عليها، ويصبح بجوارها في طرفة عين، ولكنّها عندما نظرت في وجهه عن قرب، رأته يلتفت نحو كرته الجصّيّة التي أخذت تتدحرج على المنضدة حتّى بلغت حافّتها، وسقطت على أرضيّة السدّة الخشبيّة، محدثةً زلزالاً صغيراً.

"آسفة!" قالت عائشة وكأنّها هي من كسرت القالب، "بل أنا الذي أتأسّف! هل أنت بخير؟" انسابت الكلمات على شفتي إياد، كان شاربه ولحيته أطول من قبل، وكان دفء أنفاسه يلمس بشرة صدغها، "اعذريني... المكان ضيّق هنا!"، كانا في المدخل المليء بالقطع الناجزة والقوالب الجاهزة، ربما هي أضيق بقعة في تلك السدّة التي لم تصمّم إلا لشخص واحد، كانت عائشة تشعر بارتياح غريب، وكأنّ القطعة الحديديّة التي جرحتها فَصَدَتْ من دمها الرعب، وبقيت لذّة الاقتراب من الجانب الآخر من ستار شبّاك التلصّص، أحسّت بدفء أسفل بطنها. قالت: "يبدو أنّ القطعة كانت ثمينة!"، أجابها قبل انتهاء جملتها: "يلعن شرف القطعة! تعالَيْ!"

خلع إياد قفّازيه في عجالة، وألقاها على أرض السدّة، ثمّ أمسك عضدي عائشة بيديه يقودها قائلاً: "تعالي هناك... أنا نفسي أخاف أن أجلس

هنا!" كانت ضحكات عائشة تتفلّت منها، وهي تتخيّله يجلس على أحد تلك الأصنام النابتة كشجر الخطايا. ماشى إياد عائشة نحو الكرسيّ والإضاءة، وكانت تستشعر ضخامة يديه قرب كتفيها، وربما تخيّلتهما على مكان آخر. لمحت الكرة المكسورة على أرضيّة السدّة الخشبيّة، كان فيها شقّ كبير يخرج منه لسانٌ من المادّة اللزجة، وتذكّرت ينبوعاً بدأت صخوره تنزّ نداها في وعد بانبثاق قريب. أغمضت عائشة عينيها مدركة أنّها إن كانت ستنسحب، فالآن هي آخر فرصة لديها.

قالت: "لا داعٍ، يجب أن أذهب..."، قالتها وثمّة عرجة خفيفة في رجلها اليسرى، رفع إياد يديه عنها قائلاً: "تستطيعين الخروج متى أردتِ، لكن فقط أريد الاطمئنان!"، أوقفها وعكس الكرسيّ ذي الأرجل الخشبيّة جاعلاً ظهره للمكتب، وعدّل ضوء المكتب المتحرّك، ثمّ أجلسها على الكرسيّ، وهي تطاوعه وكأنّها طينة قالب جديد في يديه. جلس أمامها مستأذناً أن يرفع فستانها شيئا قليلاً، فأومأت بالموافقة، وكان قلبها يدق كأنّه ورشة عمل.

مدّ ساقها اليسرى للأمام قليلاً، ورفع بيديه الثنتين طرف فستانها حتّى صار فوق ركبتها، وجسّ حول الألم بإبهامه، "كشط بسيط... حتّى فستانك لم يتضرّر!" قالها كمن يلهي طفلاً عن مصابه، ثمّ استخرج من

الجارور بجانبه صندوق إسعافات أوّليّة بيد واحدة، والأخرى تمسك الثوب، لكنّه حين أراد أن يفتح الصندوق وضع فستانها على أسفل فخذها، واستخرج بخّاخاً مطهّراً رشّه على الجرح السطحيّ وهو يقول: "سيؤلمك قليلاً..."، "آه يحرق!" صاحت عائشة وهي تتلوّى على الكرسيّ ممسكة بمساند الذراعين، وكانت حركتها تتسبّب بأن يشمر فستانها أكثر.

أغمضت عينيها على صورته وهو يتناول لاصقاً، واستشعرت يديه وهو يضمّد جرح ركبتها، يده دافئة، خشنة، تغطي من جلدها أكثر ممّا تخيّلت، وكانت في ذلك الحين تقول في نفسها: هل يعالج جرحيَ الآخر! ولمّا فتحت عينيها وجدته ينظر إلى موضع الجرح الآخر، الجرح الأزليّ، وفي التماعة عينيه انعكاسٌ لما يرى، فهل يراه بعقله كما بعينيه، مثلّثٌ أبيض محاط بظلمة يفرضها الفستان، مثلّث يصبح شفيفاً شيئا فشيئا كلّما استشعرت ما حدث ويحدث، وربما كلّما استشرفت ما سيحدث! هل هو ينظر إلى فمها اللاهث بين رجليها؟ هل يريد تقبيله!

كانت قبل أيّام قليلة تظهر امتنانها للقدر أمام سارة، فالنساء لا يظهر عليهنّ الاستثارة التي تظهر على الرجل كأنّها مؤشّر عدّاد، وهي اليوم أمام وجه إياد تغرق مثلّث سروالها بطريقة أوضح من أي انتصاب! بالتأكيد

فإنّ وضوح المؤشّر لدى الرجال زوّدهم بقدرات أخرى لكبح الأفكار وإدارة استجابة الجسد، أسلحة غير تقليديّة، ولكنّها هنا مجرّدة من الأسلحة كلّها، وفمها ينبض شهداً أمام عيني مهندس الرغبة ذاته.

عادت عيّوش إلى وعيها، وشدّت طرف فستانها إلى الأسفل، فأصبح وجهها أقرب إلى وجهه، قال: "أعتذر... ولكنّني الآن مجرّد مسعف!"، أعادت وجهها إلى الخلف متراجعة ليتّكئ أسفل ظهرها على ظهر الكرسيّ، ولم يزل جسدها متأهّباً. ربما لم يرَ شيئاً! وعيّوش تقول: "قد يظنّه عرقاً!" وبالفعل، أحسّت بقطرات العرق تنساب على جفنيها، وقد مدّ إياد يده إلى المكتب، ليتناول جهاز التحكّم ويشغّل التكييف.

فتحت شفرات جهاز التكييف مشيرةً إلى الكرسيّ، فهو عرش صاحب هذه الصرح الممرّد بالأوتاد لا القوارير، لقد كشفت عن ساقها دون أن تحسبه لجّة! ثمّ هبّت نسمة منعشة كانت تزداد برودة كلّ ثانية، فارتاحت على الكرسيّ كأنّها تغوص فيه، وأرخت دبّوس حجابها لتتنفّس، وإياد يعيد جهاز التحكّم إلى المكتب ويقف قبالتها، فلمحت ما يخبّئه بنطال الكتّان الأزرق متدلّياً داخل رجل البنطال كأنّه نسخة ليّنة من وتد دلال، مؤشّر إياد يفضح اشتهاءه الذي هذّبه لطفه، لكنّ قماش البنطال الضيّق

قليلاً يكبح جماحه، ويساعده الضوء الجانبيّ ليبرز شكله، وكأنّه كلمة أضيئت بالأصفر في فقرة كثيفة في رواية خطيئة.

بدأ باب حديقتها يدقّ من الداخل، وكأنّه يدعوه، نعم ربما كانت تريد ذلك يوماً ما، لكن بهذه السرعة! هي ليست شخصيّة في رواية برغر سريعة كالتي تقرؤها على واتباد، كانت عيّوش تراقب صراع عائشة الداخليّ محتجّة على عدم انسحابها سابقاً، وتذكّرت عائشة أنّها أخّرت لقاء نجمة ببدر كثيراً، ربما هي من كان يفرّق بين الحبيبين بانتظار حبرها الحقيقيّ! عرفت فوراً أنّها يجب أن تنسحب الآن، فوراً، عليها أن تقف! وقفت مرتبكة! سقط حجابها! انتبهت له! انتبهت لإياد يقترب! عانقها! دفع فمه إلى فمها! قبلة حارقة! جمرة تحت هواء المكيّف! الجمرة تومض! الجمرة هي!

بدأت تبادله القبلة، يدغدغها شعر وجهه دغدغة أقلّ من وخز. إنّ الخدر يسري من شفاهها حتّى خاصرتها ثمّ يعود أكبر وأكبر، بادلته العناق، ضمّته إليها، وكأنّها تحمل وتده على عظمة الحوض! أحسّت بدفئه على بطنها من خلال الفستان الذي بدا رقيقاً أكثر من اللازم، بدا وتده الحيّ أكبر من وتد دلال رغم عدم انتصابه الكامل، شدّها إليه كأنّه يعتصرها، كأنّه يعرف أنّها ستنهمر كإسفنجة مبلولة تعصر! لم يعد وتده بحاجة

إلى الاتكاء على شيء، بات من الممكن أن تتكئ هي عليه لتعدّل وقفتها، جمّدت يدها كصنم حتّى لا تصل إلى هناك، وكاد هاتفها أو جهاز تسجيلها الآن يسقط من يدها، تدخّلت عيّوش وضعت الهاتف على المكتب ليكون لاقطه الصوتيّ باتجاههما.

نزلت يده المدرّبة إلى أعلى ردفها، ضغط بها موسّعاً ذلك الوادي، وبدأت برودة الهواء تصل إلى مناطق جديدة، ثم جمع لحمها في يده كأنّه يعجنها عجناً. أحسّت بمكان أصابعه يحمرّ على جلدها من خلال قماش الفستان. ركبتاها تذوبان! نبضها يتصاعد! لهاثها يحتدّ! أحسّت ببصمات أصابعه الخشنة، كأنّها بصماتٌ من لهبٍ ترسمُ خريطةَ ملكيّتهِ الجديدة. ركبتاها ذابتا، لم تعودا قادرتينِ على حملِها، بل أصبحتا مجرّدَ نقطتي ارتكازٍ واهيتينِ في عالمٍ بدأ يميدُ بها. تصاعدَ نبضُها، لم يعد خفقاناً خفيّاً في صدرِها، وكأنّ قلبها انتقل إلى صدغيها، معلناً حرباً اندلعت للتوّ بينَ ما كانت عليهِ وما هي على وشكِ أن تكونه. واحتدّ لهاثُها، كلُّ شهقةٍ كانت بلون خيط من نسيج ذلك الهواء، المذيبات، الموادّ، إياد، رائحته، ذلكَ المزيجُ البدائيُّ من عرقٍ ورجولة، وكأنّها تحاولُ أن تتنفّسَهُ، أن تملأَ بهِ رئتيها حدّ الاختناق.

قوّست جسدَها إلى الخلفِ بحركةٍ لا إراديّة، ربما لم تكن حركةَ هروبٍ أو رفض، بل كانت أقرب إلى ارتخاءة، أو دفعة لبوّابة الحديقة من الداخل، لقد تصرّفت بشكلٍ صادمٍ لها، فهل تلك حركةُ انجذابٍ غريزيّ، كقطعةِ حديدٍ تُسلّمُ نفسَها لمجالِ مغناطيسٍ قاهر؟ ابتعدَ صدرُها عنهُ قليلاً، لكنّ هذا الابتعادَ لم يزد المسافةَ بينهما إلا اشتعالاً، فقد أصبحَ حوضُها الآن مُلتصقاً بهِ تماماً، وفصلَ بينَ بوّابتِها التي بدأت تنضحُ بالندى وبينَ وتدِهِ المنتصبِ طبقاتٌ قليلةٌ من قماشٍ لم تعد تسترُ شيئاً، بل أصبحت كغشاءٍ رقيقٍ يفصلُ بينَ عالمينِ على وشكِ الاندماج. بينهما برزخ، فهل يبغيان؟ شعرت بصلابتِهِ كعامودٍ قديمٍ يمكنُها أن تستندَ إليهِ في خضمِّ هذا الزلزال. همست عيّوش في أذنِها بصوتٍ يقطرُ انتصاراً: "أرأيتِ؟ حتّى وأنتِ تُقاومين، تقدّمين له نفسك! هذا الجسد أفلت من كلينا! لقد أعلن استقلاله، أو ربما رحّب بالمحتلّين".

أحكمَ إيادٌ قبضتَهُ على خصرِها، يدٌ على كلِّ جانب، كأنّهُ يمتلكُها، كأنّهُ يمسكُ بدفّتي كتابٍ سيقرأُ كلَّ أسرارِهِ الليلة. ثمّ، بحركةٍ واحدةٍ تحملُ قوّةَ عاملٍ وخبرةَ عاشق، رفعَها عن الأرضِ قليلاً، وأنزلَها، لا على وتدِهِ مباشرةً، بل لتنزلق عليهِ من خلالِ طبقاتِ القماشِ التي أصبحت الآن ساحةَ احتكاكٍ محموم. بدأَ الإيقاع، إيقاعٌ بدائيٌّ لم تكتبهُ نوتةٌ موسيقيّة، إيقاعٌ أقدمُ من اللغةِ ذاتِها. مع كلِّ رفعةٍ وهبطة، كانت تشعرُ

باحتكاكِ القماشِ على جلدِها، وبصلابتِهِ تحتَها، وبحرارةٍ تتولّدُ من هذهِ الحركةِ تُهدّدُ بإحراقِ كلِّ شيء. لم يكن جماعاً، لكنّهُ كانَ كلَّ شيءٍ عن الجماع. كانَ محاكاةً عنيفةً وصادقةً للفعلِ الأوّل، طقساً وثنيّاً يُقامُ على مرأًى من أصنامِهِ المنتشرةِ في أرجاءِ المشغل. أغمضت عينيها، ورأت في عتمةِ وعيِها انعكاسَها في مرايا غرفةِ دلال، لكنّ الصورةَ كانت مُختلفة، أكثرَ عنفاً، وأكثرَ حقيقة.

وسطَ هذهِ الدوّامةِ من الأحاسيسِ التي شلّت تفكيرَها، استيقظَ شيءٌ ما في أعماقِها، بقايا "عائشة" القديمة، تلكَ التي تربّت على الخوفِ والتحفّظ. استجمعت بقايا قواها التي كانت قد تشتّت كغبارِ الذهبِ في مهبِّ ريحِ الشهوة، وحاولت أن تستيقظَ من هذا الحلمِ الجسديّ. "لا..." خرجت الكلمةُ من فمِها كهمسةٍ ضائعة، كأنّةٍ يائسة، لكنّ جسدَها كانَ يقولُ شيئاً آخر. مع كلِّ محاولةٍ لقولِ "لا"، كانَ ظهرُها يتقوّسُ أكثرَ نحو إياد، ونهداها يرتفعان نحوه ككفّي مصلٍّ خاشع، وكانت أنّةٌ أعمقُ تخرجُ من صدرِها، "لا... آه". ومع كلِّ "آه"، كانت يدُها تتشبّثُ بقميصِهِ الخشنِ بقوّةٍ أكبر. هي حرب أهليّةٌ طاحنة تدورُ رحاها على أرضِ جسدِها، حربٌ كانت دوماً بوّابة الغزو.

أخيراً، وبدفعةٍ يائسةٍ من ذراعيها، تمكّنت من إبعاده. فصلت جسدَها عنهُ، وشعرت بفراغٍ باردٍ ومُرعبٍ في اللحظةِ التي ابتعدت فيها. اختلَّ توازنُها، كأنّ الأرضَ الصلبةَ تحتَ قدميها قد تحوّلت إلى رمالٍ مُتحرّكة. تقدّمت برجل، ثمّ تراجعت بأخرى، ويداها تتلمّسانِ الهواءَ بحثاً عن سند. ارتطمت بالكرسيِّ الخشبيِّ ذي المساند، فتعلّقت بهِ كغريقٍ يتعلّقُ بآخرِ قطعةِ خشبٍ طافية. اتّكأت عليهِ، وظهرُها له، وأنفاسُها تتلاحقُ بعنف، وشعرُها يلتصقُ بجبينِها المُتصبّبِ عرقاً.

لكنّهُ لم يتركها طويلاً لتلتقطَ أنفاسَها. في لحظات، كانَ خلفَها. لم يقل شيئاً. كلُّ ما شعرت بهِ هو جسدُهُ الدافئُ يضغطُ على ظهرِها، ووتدُهُ المنتصبُ يستقرُّ في وادي مؤخّرتِها من فوقِ قماشِ الفستان. كانَ الضغطُ هذهِ المرّةَ أعمق، أكثرَ إصراراً، كأنّهُ يقول: لا مجالَ للهربِ الآن. ضغطَ مرّة، ومرّتين، وفي كلِّ مرّةٍ كانت عائشةُ تُطلقُ تأوّهاً مكتوماً في هواءِ المشغلِ الساخن. ثمّ، وبحركةٍ واحدةٍ لم تكن تتوقّعُها، لم يكتفِ بالضغط، بل أمسكَ بطرفِ فستانِها من الخلف، ورفعهُ، لا برفق، بل بحركةٍ عنيفةٍ خاطفة، مُشمراً عن ساقيها ومؤخّرتِها بالكامل، ليضعهُ على ظهرِها كأنّه يعدّ فرساً للركوب، كاشفاً عن بياضِ ثوبِها الداخليِّ الذي بات شفيفاً الآن تماماً بعد ما امتصّ من شهدها الفاضح، ظلّ ثوبها الداخليّ يصرخُ ببراءتِهِ المفقودةِ في عتمةِ المشغل.

هذهِ الحركة، هذا الكشفُ الفجُّ، كانَ هو القشّةَ التي قصمت ظهرَ استسلامِها. شعرت بالإهانة، بالخطرِ الحقيقيّ. لقد تجاوزَ حدودَ اللعبةِ، ودخلَ منطقةَ الغزو. طردت كلَّ الأفكارِ التي كانت تُزيّنُ لها هذا السقوط، قاومت ذلكَ السيلَ من الشهواتِ الذي كادَ يجرفُها، وبصوتٍ عالٍ وواضح، صوتٍ فاجأها هي نفسُها بقوّتِه وسلطتِه، قالت: "توقّف!".

وفعل.

توقّفَ في لحظتِها، كأنّ الكلمةَ كانت صفعةً على وجهِه، أو ربما صعقةً كهربائيّةً شلّت حركتَه. ابتعدَ خطوةً إلى الوراء، وتركَها تتنفّس. أدارت وجهَها الممزوجَ بالدموعِ والغضبِ والرغبة، فرأت في عينيهِ شيئاً لم تتوقّعه: ليسَ غضباً، ولا خيبةَ أمل، بل نوعاً من الفهمِ الهادئ.

"لا تخافي..." قالَ بصوتِهِ الأجشّ الذي عادَ إليهِ هدوؤُه، "لستُ حيواناً!".

استدارَ، مدّ يده نحو الجارور العلويّ، وفتحه. سمعت صوتَ احتكاكِ الخشب، ثمّ رأتهُ يُخرجُ علبةً صغيرة. في تلكَ الثواني، كانت عائشةُ في قلبِ العاصفة. كانَ بإمكانِها أن تُعيدَ فستانَها إلى مكانه، أن تهرب، أن تصرخ. لكنّها لم تفعل. كانت مُتجمّدة، تُراقب، تنتظر. قلبُها يقولُ

لها: اهربي، وعقلُها يقول: لقد نجوتِ، وجسدُها... جسدُها كانَ قد اتّخذَ قرارهُ منذُ زمن.

مدّت يدَها خلسةً إلى لباسِها الداخليّ الأبيض، متمنّيةً أنّ جسدها في صفّها، كان لزجاً دبقاً، يقطرُ بشهدٍ كثيفٍ دافئ. لقد خانَها جسدُها، أو ربما... لقد كانَ أصدقَ من عقلِها ولسانِها. لقد سبقَ تفكيرَها بمراحل، وأعلنَ موافقتَهُ الصريحةَ على ما هو آتٍ. لقد أرادته.

عادَ إياد، وفي يدهِ مربّعٌ فضّيٌّ صغير. وقفت عائشةُ بهدوء، لكنّها لم تُنزل فستانَها، لم تُغطِّ نفسَها. بقيت على تلكَ الحال، ظهرُها له، ورأسُها مُلتفتٌ نحوه، في وضعيّةٍ تجمعُ بينَ الخضوعِ والتحدّي. ربما بسبب كلّ ما يدور في خلدها، لم يكن ثمّة ذاكرة كافية لتعالج هذا، لتستدعي معنى هذا المربّع المغلّف بقصدير لامع.

رأت أصابعَهُ الطويلةَ الخشنةَ تُخرجُ الواقيَ الذكريَّ من غلافِهِ بحركةٍ مُدرّبة. ثمّ، أمامَ عينيها، بدأَ يُسدلهُ على قضيبهِ المنتصبِ بالكامل، كأنّهُ يدهنُ وتده بطبقةٍ من عسلٍ بنّيٍّ داكن. أصبحَ لامعاً تحتَ ضوءِ المكتب، صولجانُ المُلك، كأنّه سيّدُ كلِّ تلكَ الأصنامِ المنتشرةِ حولهما، سيّدُها هي، مُتوَّجاً على عرشٍ من شعرهِ الكثيف.

اقتربَ منها مرّةً أخرى، وهذهِ المرّة لم يكن هناكَ أيُّ تردّدٍ في عينيه. حرّكَ طرفَ وتدهِ المدهونِ على مصراعي بوّابتِها الرطبة، ذهاباً وإياباً، كأنّهُ يُداعبُ قفلاً عنيداً قبلَ أن يستخدمَ المفتاح. كان يخبرها بوتده أنّ بينها وبين الجنّة أو الجحيم قطعة قماش رقيقة صغيرة، كانت الحركةُ تعذيباً لذيذاً، وعداً بما هو أعمق.

تدخّل إصبعه مزيحاً القماش الرفيع الذي يغطّي أسفل الوادي جانباً، وكأنّ ردفها يمسك له به ليتفرّغ لها، ثمّ، طرق بعتلته بوّابة حديقتها، كأنّهُ يزيحُ قفلاً صدئاً، أخذ يحرّك كرته اللامعة وكأنّه يمرّغها بلعاب فمها اللاهث، ممرّراً الكرة على شفاهه، ثمّ ارتفع حتّى بلغ الفتحة التي كانت تتمدّد بانتظاره. وقف على المدخل، ثمّ بدأ يطعن ببطء مستعجل.

لم تكن طعنةً بالمعنى الحرفيّ، بل كانت غوصاً، تمزيقاً بطيئاً وحارقاً لآخرِ حجبِ البراءة، ثمّ سكن قليلاً داخلها، وكأنّه ينتفخ بلذّة النصر، وانسحب ببطء. دفعَ بسرعة، ثمّ سحبَ ببطء، كأنّهُ يتلذّذُ بكلِّ شبرٍ يمتلكهُ، كأنّهُ يتذوّقُ دماءَ أعدائهِ على نصلِ سيفهِ.

لم تعد عائشةُ قادرةً على كبتِ الصرخة. انطلقت من حنجرتِها أنّاتٌ طويلة، ممزّقة، كأنّها تُنادي على عمرٍ ضاعَ قبلَ هذهِ اللحظة، على كلِّ الليالي التي قضتها وحيدةً تتخيّلُ هذا المشهدَ بالذات. ظهر صدق الرؤيا

التي رأتها في المنام، لكنّها كانت تحتاج تعبيراً أدقّ، فإن كانت يد الرجل أداته في العمل، فإنّ له أداة أخرى للّذة.

كان فَمُ جسمها مفتوحاً لآخر شدقيه، وكأنّه غصّ بما يبتلع، وظلّت صرّة الجوز ترتطم بكرزتها بضربات ساحقة، وكأنّها حجارة يلقيها مراقبون مشاغبون على شجرة أنوثتها، ليسرقا منها ثمرتها التي نضجت.

فتحت عائشة عينيها لترى انعكاسهما المشوّش على شريط معدنيّ مثبّت على الجدار، تلتصق به البراغيّ والمسامير، كذكريات عمل ترفض أن تفارق المشهد الذي يهمّشها، فرأت وجهها يكتم صرخاته، ورأت كيف يقف إياد خلفها، ورغم تشوّش الصورة الشديد، رأت المشهد واضحاً. لم تعد تراقب أخرى خلال ستارٍ رقيق، لقد باتت خلف الستار، تراقب نفسها في المكان الذي طال أن حلمت به. أغلقت عينيها على تلك الذكرى، وصاحت:

"آه... إياد..."

ولمّا سمع اسمَه، غَمَدَ وتدَهُ في تربتِها حتّى النهاية، كأنّه يريد أن يصل حلقها ليخفّف الصرخة. شعرت بهِ يملؤها، يُزيحُ كلَّ فراغ، يُثبّتُها في مكانِها، يدقّها في حاضرِها، يصلب جسمها على جذع نخلته. ورغمَ

ذلكَ الحاجزِ البلاستيكيّ الرفيع، شعرت بأوّلِ دفقاتِهِ الدافئةِ تنبضُ في أعماقِها، كأنّها نبعُ حممٍ بركانيّةٍ يُذيبُ آخرَ قلاعِ الصقيعِ في روحِها.

لم تعد تستطيعُ إمساكَ سدِّها. مع نبضتِهِ الأخيرة، انفجرت هي. والتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِر، تقدّمت الموجة ودفعتهُ خارجَها بدفقةٍ كثيفةٍ وقويّة، كطوفانٍ جارفٍ أغرقَ كلَّ شيء. تلوّت، وانهارت على الكرسيِّ، مُسندةً ركبتيها عليه، وممسكةً بظهرِهِ بكلتا يديها، وجسدُها يرتعشُ في موجاتٍ متتاليةٍ من نشوةٍ لم تعرف لها مثيلاً، نشوةٌ وُلدت من رحمِ الخوفِ والألمِ والرغبةِ المطلقة، وعادت تحدّق في صورتها بعينين مشدوهتين قبل أن تذوب تماماً.

هدّأها إياد: "لا عليك... أغرقي الأرض كما تريدين!" وعاد يربّت على ظهرها، كأنّه يهنّئها بأداءٍ أسطوريّ. ساندها حتّى وقفت فوق ساقين من خيوط، تناول المناديل ومسح جلد مؤخّرة الكرسيّ الذي لم يكن قد جفّ تماماً عندما أراحت عائشة عليه أردافها، ثم استغلّت آخر ما تبقّى من طاقتها لكي تمسح آثار الجريمة اللذيذة عن جسدها، وهي تراقب إياد يحرّر وتده من غلافه ويمسحه بالمناديل التي تكوّمت على أرضيّة الغرفة، وجمعت فستانها بين رجليها كي يسترها لكن دون أن يصل الأرض

الخشبية المبلولة، وشاهدت ماءها يدخل شقوق الخشب، وقيل يا أرض ابلعي ماءك. تمكّنت منها غيبوبة الجماع، فنامت كطفلة.

بعد برهة استفاقت، وبحثت بارتباك عن هاتفها، وجدته، حملته، وقامت تسير، وتشعر بضخّ الدم في عضلات رجليها، ورأت القطعة على المنضدة حيث تركتها، فحملتها، وأخذت حقيبتها وهبطت الدرج بسرعة وثقة.

وعلى آخر شاحط الدرج واجهت إياد، قال: "وددت لو تبقين قليلاً!"، فأجابت: "اتركني وشأني... لقد أخّرتني عن الموعد بما فعلته بي! ألم أقل لك: توقّف!"، قالتها بلهجة صارمة مرغمة، وكأنّها عاشقة مغضبة تقاوم رغبة في عناق ختاميّ تعوّدته، فرفع إياد حاجبيه وهو يفسح لها الطريق.

في الخارج فاجأها الضوء كأنّها خرجت من زنزانة، كانت تسير، وتتمنّى أن تضربها الشمس أعنف حتّى تجفّف خطاياها، وتصلّب عودها الذي ليّنه العرك، ومشت أطول من أي مرّة سابقة، حتّى تجرّأت واستقلّت المواصلة المؤدّية إلى بوابة الجامعة، نزلت في الشارع المقابل للبوّابة، وتلفّتت إلى المكان الموعود، لم يكن في البقعة المحدّدة ثمّة أحد غير فتاة تبدو صغيرة على أن تطلب قطعة من دلال.

اقتربت منها، فانفرجت أسارير الفتاة القلقة، وبدا على ملامحها أنّها كانت تنتظرها، سألت الفتاة: "من طرف دلال؟"، "قبل أن تتمّي أريد أن أرى بطاقة هويّتك!" قالت عائشة بغضب، وكأنّها تتحدّث إلى دلال، "أبدو أصغر من سنّي، لكنّني أدرُس في الجامعة!" قالت الفتاة مشيرة بعينيها إلى دفاترها الجامعيّة، تنفّست عائشة الصعداء، ولكنّها أحسّت أنّ فيها بقايا رائحة رحلة الجنس الصارخ، فعجّلت إتمام الصفقة بسبب ما أحسّته من حرج.

ثمّ سارت نحو البوّابة، وهي تصارع نفسها: "ماذا لو كانت كاذبة؟ كيف ستتدبّر مراهقة مثل هذا المبلغ الباهض! لا لا هي كبيرة، رأيت دفاترها! وماذا تعني الدفاتر!، وقبل أن تدخل بوّابة الجامعة أخرجت هاتفها، وكان التسجيل لم يزل يعمل، أوقفته. اتّصلت بسارة:

"سارة، لدي حالة طوارئ... أنا بحاجة أن أزورك في السكن! ممكنّ؟"

"عيّوش، ما بك؟ أأنت بخير!"

"بخير؟ سأكون بخير إذا لبّيت طلبي!"

"أين أنت؟"

"أنا على مدخل الجامعة من جهة السوق!"

"أنا قادمة إليك فوراً!"

وبعد أقلّ من نصف ساعة كانتا في سكن سارة، ولم يزل الاتّفاق قائماً ألا تسأل سارة حتّى تبدأ عائشة الكلام من تلقاء نفسها، دلفت عائشة تنزع حجابها، وتخلع فستانها كأنّها تخلع عيّوش كلّها من داخلها، وتدخل لتستحمّ دون أن تقول كلمة! وسارة تنتظر وتنظر بتفهّم وتحرّق عظيمين.

خرجت من الحمّام واستلقت بجانب سارة، وعانقتها عناقاً لاهثاً بالدموع، "أنا شيطانة! أقسم بالله إنّني شيطانة!"، وسارة تستمع، وعائشة تسرد ما حدث لها منذ بدء تدريس أيمن، حتّى إيقاف تسجيل إياد! ورغم الاقتضاب لم تقاوم أن تخبرها بأنّها تشكّ في عمر الفتاة التي استلمت منها آخر قطعة، في حين لم تسمح سارة لنفسها أن تبدي أيّ ردّة فعل غير ما يشي بأنّها تسمع باهتمام، مربّتة على كتفها حيناً، ورافعة شعر عائشة عن بلل وجنتيها حيناً آخر.

"لا أُدينُ الشهوة، ولا أَدينُ بها..." قالت سارة، واستطردت: "لا أحكم عليك، ولكن أنت قفزت في محيط هذه المرأة، دلال أو أيّاً كان اسمها،

دون قارب، ودون سترة نجاة!"، وتابعت: "لا أريد أن أثقل عليك الآن... المهمّ أن ترتاحي وتنامي قليلاً، فالنوم يغسل الذهن، وسأعيرك شيئاً من ملابسي الداخليّة منتقية أقلّها ألواناً ورسوماً!" ضحكت عائشة بسلام متذكّرة الألوان الزاهية والرسومات المضحكة التي تزيّن جارور سارة الحميم، وغابت في نومة عميقة.

وبعد ساعات، كانت على باب البيت تتمنّى أن تكون خالتها مشغولةً في حديث مع أمّها، تتمنّى أنّ أهلها لم ينتظروها ليأكلوا، وتسحّبت مستغلّة أنّ السماء استجابت دعاءها، حتّى دخلت غرفتها، فبدّلت الثوب ورمته في الغسّالة، وحمدت الله ألف مرّة أنّ الغسالة مليئة لكي يكون تشغيلها اعتيادياً، ثمّ تفاجأت كيف عادت إلى طبيعة قريبة لطبيعتها عند تبادل أوّل جملة مع خالتها وأمّها، لكنّ شيئاً ما كان يقبض قلبها، إنّه نبرة صوت سارة عندما ودّعتها، فهل من المعقول أن تواجه كلّ ما واجهته بقوّة وجرأة واندفاع، ثمّ تكاد تتمزّق لدى نبرة صوت، لدرجة أن ترفض مجرّد التفكير فيها؟

خلال الحديث الذي انحرف إلى التحوّلات المستجدّة في السعوديّة، وأنّ العهد الجديد يبشّر بانفتاح تتخوّف منه أمّها، تذكّرت أنّه مرّ يومان تقريباً على آخر مرّة رأت فيها أباها، سألت عنه، فغمزتها أمّها مشيرة بوجهها

إلى ساقي خالتها المكشوفين: "تعلمين أنّ أباك استلم ورشةً بعيدة!"، تخيّلت أباها يحاول أن يلملم عينيه عن لحم خالتها، ابتسمت باشمئزاز من الفكرة. وتذكّرت أنّها في غضون مدّة قصيرة كسرت كلّ ما تربّت عليه، ماذا لو عرف أهلها بما فعلت! حتّى سارة وهي أقرب الأقربين اليوم، وهي شريكة الحِجر والحجَر، ظهرت عليها الصدمة رغم كلّ محاولاتها للتفهّم، فما الذي سيحدث لأمّها؟ ما الذي سيحدث لأبيها؟ ما الذي سيُفعل بها! هبطت عليها سكينة مفاجئة منقولة على أجنحة صوت أذان المغرب، فتحجّجت بالصلاة لكي تختلي بنفسها. حتّى لو لم يكن ثمّة إله من الأصل، تظلّ الصلاة طقساً جميلاً، لحظة صدق مع النفس، "عن إذنك، سأصلّي وأقضي، ثمّ أعود لك... هبّوش" قالتها ولم تنتظر إذناً من أحد.

كان ماء الوضوء ما يزال على بشرتها، رغم أنّها تعرف ما يسبّبه ذلك من جفاف في الوجه واليدين فردت سجّادة الصلاة، وأخذت تصلّي، كانت صلاة السنّة تمهيداً لم يفتح عليها باب التفكير، ثمّ كبّرت للفرض بخشوع تامّ استمرّ طيلة قراءة القرآن، لقد نجحت في اختيار آيات لم تعبث بها ذاكرتها، دون أن تتقصّد ذلك، ثمّ لّما ركعت ذكّرتها وضعيّة جسدها بما حصل في الصباح، فأخذت تستغفر، لم تشعر بالدمع يقترب من حافّة جفنيها كما اعتادت، شعرت بأنّ قلبها قسا، وجعلنا على

قلوبهم غشاوة! أحسّت بالخزي من ذلك، كيف لها ألا تبكي وهي في حضرة الله مقلّدةً بخطايا لا تطيق عدّها. هنا فقط اقتربت الدمعة! تحشرج صوتها وهي تكرّر: سبحان ربّي العظيم! إذن الخزي باب الخشوع المشرَع، فكّرت في نعمة الستر، وكيف أنّ والدها سيظلّ يراها الملاك البريء، الفتاة الحافظة لكتاب الله، فقيهة اللغة، رفعت من الركوع: سمع الله لمن حمده! حمدت الله على أنّه لم يفضحْها، حتّى الآن، تخيّلت الفخر المزيّف في عيني والدها، وأسرعت إلى السجود وقلبها يكاد يتوقّف: سبحان ربّي الأعلى! تذكّرت ما فعلته هنا على هذه السجّادة قبل مدّة، وانهمرت الدموع. أنهت صلاتها بعد أن أنهك البكاء صوتها، وتناولت المسبحة عن منضدة الجوارير، وأخذت تقرأ أورادها، وأصابعها ترجف مع تحريك كلّ خرزة من الخرزات الضخمة، وتذكّرت يوم طلبت المسبحة من والدها، واستحقّتها بحفظ جزء جديد من القرآن، ابتسمت والدموع لم تزل تجري.

لم يقطع بكاءها إلا دخول خالتها الغرفة، مسحت وجهها وكأنّها تتمسّح ببركات الأوراد التي تلتها، ولكن بصمة البكاء لا تزول عن العين بسهولة، قالت هبة: "تعالي... تعالي لخالتك!"، واحتضنتها دون مقدّمات. أصدق العناق ما يأتي دون تقديم. أطالت خالتها العناق حتّى تجاوزت مدّته ما تعارفت عليه الأجساد، ثم استمرّت حتّى بلغ العناق الروح،

قالت عيّوش: "ما الأمر؟ هل تتركيننا الليلة؟"، قالت هبة: "لا يا عيّوش، أو بالأحرى نعم، سأذهب لزيارة خالتك أمل، لكن ليس الليلة! وليس لهذا علاقة بذلك!" وعندما تفارق ظلاهما، قالت: "أعانقك لأنّك تحتاجين العناق، ولأنني أحتاجه أيضاً!"، بدأ الحوار بينهما عميقاً من اللحظة الأولى، وأخذ ينتقل دون أن يفقد عمقه، وعرفت عائشة أنّها ستتذكّر بعض الجمل بمجرّد أن سمعتها: "إذا فكّرت في تجلّيات الله بيننا فهو يتجلّى في عناق ودود، أو إشفاق رحيم، أو إرادة جبّارة، أو كلمة حقّ! أليست هذه أسماء الله!"، "ما الخير في التصديق بإله عادل قريب، إذا لم يأت هذا التصديق إلا بالغضب والحزن!"، "لو كان الله كما يتخيّله أبوك، لكان خسف الأرض بنا منذ زمن!" ... لم تكن عائشة صامتة طيلة الوقت، لكنّ خشوعها استمرّ أمام هذه الرسائل التي تردها على لسان هبة، إنّها طريقة الله في الحوار معها.

وقبل أن تنام تلك الليلة، طلبت خالتها أن تدخّن لفافة تبغ أخيرة قبل النوم، فأزاحت الستائر وفتحت الشبّاك، ولمّا سمعت عائشة صوت الستارة من عمق الغرفة انقبض قلبها، أحسّت بعري عميق في روحها، فهذا إياد على بعد أمتار معدودة، إياد الذي كان يطعنها ويقتحمها صباحاً، ولكن جسدها لم ينقبض كقلبها، بل شعر بإثارة كأنّها خدر ينتشر ويتصاعد، ثمّ تذكّرت كيف كانت تطرد هذه المشاعر سابقاً: "ما

لنجمة لنجمة، وما لعائشة لعائشة!"، ولكن ما نجمة وما عائشة؟ وهل بقي ثمّة عيّوش منفصلة عن عائشة؟ أم أنّ الثلاثة اتحدوا في جسد غدا صاحب ذاكرة خاصّة به! وما نصيب ليلى؟ سارة... ما تلك النبرة التي غزت صوتها فجأةً؟ ما الذي كتمته ليوم آخر؟ ودلال، هل ستفاتحها بأمر الزبونات القاصرات؟ متى ستخبره بما يفعله إياد من ورائها؟ إذا تأخّرت في ذلك فإنّها ستعانق تهمة التآمر مع إياد؟ إنّ امرأة كهذه تتفلّت من سيطرة طليقها على تجارتها، لا بدّ أنّها بحاجة لهذه المعلومة! فهل ستطيق أن يتفلّت منها إياد بإغوائه من يعملن لصالحها؟ كانت تعتصر إسفنجة دماغها وهي تغلق عينيها في انتظار يوم جديد.

الفصل السّادس عشر : المواجهات

أودعت عائشة النصّ الذي كتبته حول لقاء نجمة ببدر في المساحة السحابيّة، فقد جلست تكتب باستطراد منذ صلاة الفجر، وكأنّها تأخّرت عن موعد تسليم واجب مهمّ، وقامت مسرعة تجهّز نفسها للجامعة، فاليوم ستلتقي سارة التي مدّت لها يد العون، وهي قارئتها الوحيدة، وقد تابعت تطوّر "سفر التكوين الشخصيّ" مبكّراً، وربما إذا انكشفت أمامها لهذه الدرجة سترمم تلك الشقوق التي ظهرت في نبرة سارة أمس.

كان جوّ اليوم ألطف من اليومين الفائتين، ثمّة نسائم تحرّك أغصان الكينا فوق بقعتهما، وعائشة تطالع تعابير وجه سارة وهي تتمّ قراءة النصّ، تقرأ لحظات اللقاء التي كتبتها عائشة بعد انتظار طويل:

" البيتُ الأبيضُ يقفُ أمامي، صامتاً كشاهدٍ أخرسَ على أسرارٍ وثيقة، أو ربما كنصبٍ مهجورٍ لإلهٍ منسيٍّ لا يزالُ صدى طقوسهِ العنيفةِ يتردّدُ في الهواء. قلبي، هذهِ المضخّةُ العضليّةُ الصغيرة، لم يعد يرقصُ رقصةَ الدراويشِ الشفيفةَ التي تمجّدُ الروح، هو يدقُّ الآن بعنفٍ جافّ، كقبضةِ سجينٍ يائسٍ تضربُ باباً من حديد، ضرباتٌ لا تطلبُ النجاةَ، بل تتوسّلُ

الخلاص الكامن في الفناء. كلُّ نقرةٍ على بابهِ الخشبيِّ المتشقّقِ كانت تُعمّقُ شقوقَ روحي أنا.

حينَ دفعتُ الباب، استجابَ بصريرٍ طويلٍ حادّ، بدا كأنينِ مخلوقٍ يتألّم، أو ربما... كضحكةِ شيطانٍ مُرحّب. خطوتُ إلى الداخل، إلى ظلمةٍ لا تُشبهُ ظلمةَ الليلِ الحنونة، بل هي ظلمةٌ كثيفة، ماديّة، تكادُ تُلمس. ظلمةٌ تفوحُ منها رائحةُ الغبارِ القديم، رائحةٌ منجم ربما، ورائحةُ عفونةٍ خفيفةٍ منبعثةٍ من جدرانٍ طينيّةٍ تبكي رطوبةً صامتة.

الضوءُ شحيح، يتسلّلُ كخيطِ عنكبوتٍ فضيٍّ من شقٍّ في السقفِ المتهالك، بالكادِ يرسمُ معالمَ الغرفةِ الفارغةِ إلا من ذلكَ الظلِّ الكثيفِ في الزاويةِ البعيدة، ظلٌّ بدا أثقلَ من أن يكونَ مجرّدَ غيابٍ للضوء. "هل أنتَ هنا؟ بدر؟" صوتي خرجَ مبحوحاً، مُرتعشاً، غريباً عن حنجرتي كأنّهُ صوتُ شخصٍ آخر. لا جواب. فقط ذلكَ الصمتُ الذي يضغطُ على طبلةِ الأذن، صمتٌ لهُ وزنٌ وثقل، يهمسُ بأنّ الكلماتِ هنا لا قيمةَ لها. تقدّمتُ خطوة، ثمّ أخرى، عيناي تحاولان بجهدٍ يائسٍ أن تخترقا العتمة، أن تُروّضا الظلال، وقلبي يخفقُ بجنونِ طائرٍ حبيسٍ يرى بابَ القفصِ يُفتحُ على هاوية، وهو لم يجرّب الطيران بعد.

خيالاتي عن بدر، تلكَ الصورُ التي نسجتُها من خيوطِ الشوقِ ونارِ الحرمان، بدأت تتشظّى، تتداخل، تتلاشى. الرغبةُ البدائيّةُ العاصفةُ التي قادتني إلى هنا، بدأت تصطرعُ مع خوفٍ غامضٍ لزجٍ يتسلّلُ إلى أطرافي كبردِ الموت. وفجأةً، قبلَ أن أستدير، قبلَ أن ألتقطَ أنفاسي المُبعثرة، شعرتُ به.

لم يكن همساً أو ظلاً، بل كانَ حضوراً صلباً، حارّاً، يلتصقُ بظهري كأنّهُ نبتَ من الأرضِ خلفي في لحظة. لم أسمع خطواتِه، لم أشعر بحركتِه. كانَ هناكَ وحسب، كأنّهُ جزءٌ من المكان، من العتمة، من رائحةِ التراب. ذراعٌ قويّةٌ من حديدٍ لم يضعفه الصدأ، التفّت حولَ خصري، سحقتني إليه في حركةٍ واحدةٍ لا تعرفُ التردّد، ويدٌ أخرى، خشنةٌ كصخرة، كمّمت فمي، ليسَ بقسوةٍ قاتلة، بل بإحكامِ الوحشِ الذي يُسيطرُ على فريستهِ، إحكامٌ يقول: أنت لي الآن.

لم أصرخ، لم أستطع. الهواءُ تجمّدَ في رئتيَّ، وتحوّلَ إلى كتلةٍ من جليد. كلُّ ما أعددتُهُ من كلمات، من أسئلةٍ، من توقّعاتٍ عن حوارٍ أو نظراتٍ، تلاشى في لحظةِ الاصطدامِ هذه. لم يكن هناكَ وقتٌ للتفكير، للتحليل. جسدي هو الذي فهمَ أوّلاً، هو الذي استجاب، أو ربما... هو الذي استسلم. رائحتُهُ، تلكَ التي تخيّلتُها مزيجاً من ترابِ الحقلِ وعرقِ النهارِ

والذكورةِ الحارّة، كانت الآن حقيقةً خانقة، رائحةٌ بدائيّة، حيوانيّة، تملأُ أنفي، وتُخدّرُ عقلي، وتُوقظُ شيئاً في دمي لم أكن أعرفُ بوجوده.

دون أن أرى وجهَهُ، دونَ كلمةٍ واحدةٍ منه، شعرتُ به يمزّقُ الثوبَ الأبيضَ الرقيقَ عن كتفي، لا ببطءِ عاشقٍ يكتشفُ كنزاً، بل بحركةٍ واحدة، سريعة، حاسمة، كمن يزيحُ ستارةً باليةً ليكشفَ عن جوهرٍ مخفيّ. سمعتُ صوتَ القماشِ وهو يتمزّق، صوتٌ حادٌّ قاطعٌ كسرَ صمتَ المكان، وبدا كأنّهُ صوتُ تمزّقِ شيءٍ في داخلي.

سقط القماشُ المُمزّقُ سقطَ على الأرضِ كخرقةٍ قديمة. الهواءُ الباردُ لامسَ جلدي العاري، لكنّ حرارةَ جسدهِ خلفي كانت أشدّ، ناراً تلتهمُ كلَّ برودة. دفعني بعنفٍ محسوبٍ نحو الجدارِ الطينيّ. صدره الخشنُ احتكَّ بظهري، وشعرتُ بحبّاتِ الرملِ الجافّةِ في الجدار تخدشُ جلدي كأنّها ألفُ إبرةٍ صغيرة. لكنّ الألمَ كانَ بعيداً، مغموراً تحتَ موجةٍ عاتيةٍ من الذهولِ والرعبِ والشهوةِ التي لا يمكنُ تفسيرُها.

يداه، اللتان لم أرَهُما، كانتا الآن تجولانِ على جسدي بضراوةِ مكتشفٍ أعمى يعرفُ طريقَهُ باللمسِ وحده، لا يبحثُ عن تضاريسِ الأنوثةِ بحبٍّ وإجلال، بل ينهش، يضغط، يعصر، يعلّمُ أماكنَ ضعفي وقوّتي بغريزةٍ حيوانيّةٍ لا تعرفُ الحنان. حاولتُ أن أستدير، أن أرى ملامحَهُ، أن أبحثَ

في عينيه عن أيِّ أثرٍ لبدر الذي أحببتُه في خيالي. لكنّه كانَ يُثبّتني بقوّة، ورأسُه مدفونٌ في عنقي، وأنفاسُه الحارّة كأنّها لهيبُ فرنٍ يلسعُ جلدي.

شعرتُ بأسنانه في عضّاتٍ خفيفة، حادّة، تركت آثاراً كعلاماتٍ ملكيّةٍ على عنقي وكتفي. تلكَ العلاماتُ التي تمنّيتُها في خيالاتي الأكثرِ فجاجة، ها هي ذي الآن حقيقةٌ مؤلمةٌ ولذيذةٌ بشكلٍ لا يُطاق. لم يكن هناكَ تدرّج، لم تكن هناكَ مقدّماتٌ طويلة. كانَ اقتحاماً. رفعني قليلاً، أو هي رجلايَ رفعتا مؤخّرتي لا أدري، والتصقَ بي من الخلف، قوّتُه تضغطُ عليّ، تملؤني، عنفٌ بدائيٌّ يضربُ بجذورهِ في أعمقِ نقطةٍ من كياني.

كلُّ ضربةٍ منهُ كانت صدمة، رعشة، صرخةً مكتومةً في حلقي. لم تكن رقصةَ خلق، بل كانت معركة، عاصفة، التحاماً وحشيًّا بينَ قوّتينِ لا تعرفانِ سوى لغةَ الجسدِ العاري. عينايَ كانتا مفتوحتينِ على مصراعيهما، تحدّقانِ في الجدارِ الطينيِّ أمامي، حيثُ تتراقصُ الظلالُ كأشباحٍ في طقسٍ وثنيّ. لم أكن أرى شيئاً سوى تلكَ البقعة من الطين، لكن في داخلي، كنتُ أرى كلَّ شيء: الوحشَ الذي تمنّيتهُ، القوّةَ التي اشتهيتُها، الفناءَ الذي رغبتُ فيه.

لم تكن هناكَ رومانسيّة، لم تكن هناكَ كلماتُ عشق، فقط هذا العنفُ الجميل، هذه الوقاحة التي تمثّل الحقيقة، هذهِ البدائيّةُ الصادقةُ التي جرّدتني من كلِّ اقنعتي، من كلِّ توقّعاتي المُصطنعة. وكنتُ أستجيب. جسدي، الذي عرفَ هذا الإيقاعَ من أحلامي المُبلّلة، من ليالي الانتظارِ الطويلة، كانَ ينحني، يرتعش، يتلوّى، لا ليقاومَ كما أريد، بل ليشارك في هذهِ الطقوسِ الوحشيّة.

كلُّ لمسةٍ منه، كلُّ دفعة، كانت تجريداً لي من ذاتي، حتّى لم أعد أشعرُ بالخشونةِ أو الألم، بل بقوّةٍ كونيّةٍ تجتاحُني، تُذيبُني، تُعيدُ تشكيلي. لساني كان يصرخُ "لا!" و"توقّف!"، لكنّ ظهري كان يتقوّس نحوه أكثر، وأنّاتي تتحوّل من ألمٍ إلى شيءٍ آخر، شيءٍ لم أكن أعرف له اسماً. النشوةُ حينَ جاءت، جاءت مفاجئة، دون مقدّمات ككلّ ما حدث من قبل. صرخةٌ واحدة، حادّة، مدويّة، انطلقت منّي رغمَ اليدِ التي لم تعد تُكمّم فمي بإحكام، صرخةٌ امتزجت بأنفاسهِ اللاهثة، صرخةٌ لم تكن ألماً ولا لذّةً محضة، بل كانت إعلاناً عن شيءٍ ما قد تحطّمَ وانتهى، وشيءٍ آخرَ قد وُلِدَ في تلكَ اللحظة، من رحمِ العنفِ والظلام.

ثمّ، وبنفسِ السرعةِ التي بدأ بها كلُّ شيء، انتهى. شعرتُ بثقلهِ يرتخي، ينسحب. الهواءُ الباردُ عادَ ليُلامسَ جلدي المُتعرّق، المُرتعش. استندتُ

إلى الجدار، أحاولُ التقاطَ أنفاسي، ساقايَ بالكادِ تحملانني. ببطء، شديدِ البطء، استدرت. الغرفةُ كانت شبهَ خاليةٍ كما وجدتُها. الظلُّ في الزاويةِ البعيدةِ كانَ مجرّدَ ظلّ. لم يكن هناكَ أحد. فقط بقايا ثوبي الممزّقِ على الأرض، ورائحةُ جسدِهِ التي بدأت تبهت قليلاً، وعلاماتُ أسنانِهِ التي تحرقُ جلدي كجمرٍ خفيّ. هل كانَ حلماً؟ هل كانَ شبحاً استدعتهُ رغبتي المحمومة؟ لمستُ عنقي، تحسّستُ العلامات. كانت حقيقيّة. جسدي كلُّهُ كانَ يشهد، يرتعش، يُؤلمني بطريقةٍ حلوةٍ ومُرعبة.

خرجتُ من البيتِ الأبيضِ إلى نورِ الشمسِ الذي بدأَ يذوب في كأس الغروب. العالمُ في الخارجِ بدا مُختلفاً، ألوانُهُ أكثرُ حدّة، أصواتُهُ أكثرُ وضوحاً. خطواتي لم تكن هادئةً وموزونةً كما في نهايةِ سابقةٍ مُتخيّلة، بل كانت تحملُ ثقلاً جديداً، وإرهاقاً عميقاً، ونوعاً من السكونِ المُرعبِ الذي يعقبُ العواصفَ الكبرى. لم أشعر بالاكتمالِ الذي تحدّثتُ عنهُ سابقاً، ولا بالتحوّلِ إلى "امرأة أخرى" بالمعنى التقليديّ. شعرتُ بأنّني قد تمّ تفريغي تماماً، ثمّ ملئي بشيءٍ آخر، شيءٍ غريب، مجهول، وقويّ. لم تكن هناكَ حكمةٌ قديمة، ولا اتّصالٌ بالأرض، بل كانَ هناكَ جسدٌ عرفَ أقصى درجاتِ العنفِ واللذّةِ في آن، وظلامٌ دامسٌ لا يزالُ يتردّدُ صداهُ في أعماقي.

في طريقِ العودة، مررتُ ببركةِ ماءٍ صغيرةٍ تجمّعت من ساقيةٍ منسيّة. توقّفتُ، وانحنيتُ لأرى انعكاسي. لم أرَ وجهَ نجمة الذي أعرفُهُ، بل رأيتُ وجهاً غريباً، شاحباً، عينانِ واسعتانِ تحملانِ نظرةً زجاجيّة، جامدة، كأنّهما تحدّقانِ في شيءٍ لا يراهُ أحدٌ غيري. رأيتُ تلكَ العلاماتِ الحمراءَ على عنقي، بدت كوشومٍ غريبةٍ نقشتها يدُ إلهٍ غاضب. ارتجفتُ وابتعدتُ عن الماءِ كأنّني رأيتُ شبحاً. وصلتُ حيّي مع آخرِ خيوطِ الضوء. البيوتُ الطينيّةُ لم تعد تُراقبُني بعيونِ نوافذِها، بل بدت كأنّها تُشيحُ بوجهِها عنّي، أو ربما أنا التي لم أعد أراها كما كانت.

صديقتي ليلى، التي ربما كانت تنتظرُني بقلق، لم تجرؤ على سؤالي حينَ رأتني. قرأت في عينيَّ شيئاً من العاصفةِ التي مررتُ بها. اقتربت لتحتضنَني، لكنّي تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، لا رفضاً لها، بل لأنّ جسدي لم يعد يعرفُ كيفَ يستقبلُ لمسةَ حنونة. اكتفت بصمتٍ مُثقلٍ بالحنانِ والقلق. في تلكَ الليلة، وفي الليالي التي تلتها، لم أعد أكتبُ في مذكّراتي عن الانتظارِ أو التوقّعات. الكلماتُ بدت باهتة، عاجزةً عن وصفِ ما حدث، أو ما لم يحدث.

حينَ حاولتُ أن أكتبَ كلمةَ "حبّ"، شعرتُ بأنّها كلمةٌ فارغة، نكتةٌ سمجة. وحينَ حاولتُ أن أكتبَ كلمةَ "رغبة"، شعرتُ بأنّها أضيقُ من

أن تحتوي ذلكَ الزلزال. لغتي القديمةُ سحقت كحشرة على ذاك الجدارِ الطينيّ. لم أرَ بدر منذ ذلك اليوم. كأنّه عاد للقرية بانتظار هذه اللحظة ثمّ ذهب، لم يبقَ منه شيءٍ سوى رائحتهِ وقوّتهِ وذلكَ العنف الجميلِ الذي حفرَ نفسَهُ في ذاكرةِ جسدي.

أحياناً، في منتصفِ الليل، كنتُ أستيقظُ على وقعِ رعشةٍ مُفاجئة، وأتحسّسُ العلاماتِ على عنقي وكتفي، التي بدأت تشفى ببطء، تاركةً ندوباً باهتة. لم أكن أعرفُ هل ما حدثَ كانَ نعمةً أم لعنة، هل كانَ تحقيقاً لرغباتي الأكثرِ تطرّفاً أم سقوطاً في هاويةٍ مجهولة. كلُّ ما عرفتُهُ هو أنّني لم أعد كما كنت. تلكَ الفتاةُ التي كانت ترسمُ سيناريوهاتِ اللذّةِ في خيالِها قد ماتت على الجدارِ الطينيِّ في البيتِ الأبيض. ومن بقاياها، نهضت امرأةٌ أخرى، امرأةٌ تحملُ في جسدِها صمتَ العاصفة، وغموضَ اللقاءِ الذي لم ترَ وجهَ صاحبِه، امرأةٌ تعلمُ أنّ الرغبةَ يمكنُ أن تكونَ قوّةً عمياء، مُدمّرة، ومُحرِّرةً بشكلٍ مُرعبٍ في آنٍ واحد. وأنّ بعضَ الأبواب، حينَ تُفتح، لا يمكنُ إغلاقُها أبداً كما كانت. فجري لم يُشرق بينَ أحضانِ رجل، بل أشرقَ من قلبِ الظلامِ الذي واجهتُهُ وحدي، والذي سأحملُهُ معي، سرّاً ثقيلاً وجميلاً، إلى الأبد."

"أوه... كدتُ أن أنتهي قبل أن ينتهي النصّ!" قالت سارة ممازحةً، وتابعت: "تكتبين وكأنّ ذاكرتك اختمرت! وكأنّ الأمر مرّ عليه زمن."، "هل تظنّين أنّني أتلطّى وراء نجمة؟ أم أتقدّمها لأستكشف طريقها؟" قالت عائشة وهي تستعيد هاتفها، أجابتها سارة: "وما المانع أن يكون الأمر مزيجاً من الخيارين!"، ردّت عائشة: "ربما هو كذلك... لا أدري! المهمّ ما رأيك؟"، "أليس رأيي واضحاً في صدمتي بتدفّق حبرك!" قالتها سارة وهي تجول لتنظر بعيداً، ثمّ عادت عيناها لتنظر في عيني عائشة مستأنفةً: "عيّوش، لو كان معك آلة زمن؟ فهل ستدخلين تلك السدّة؟"، تلعثمت عائشة عندما رأت نفسها موضع النقاش بدلاً من نجمة: "ربما كان لا بدّ من التجربة، سارة... لقد كنت أتآمر ضدّ نفسي! حتّى لو لم أكن أريد، فأنا أعلم أنّني كنت سأدخل!"، هنا التفّ جذع سارة نحو عائشة وتربّعت على الكرسيّ مقابلها وبدأ الحوار الصريح.

سارة: "عيّوش، ما وصفته أمس لم يكن حبّاً، لم يكن إغواءً، كان أقرب ما يكون للاغتصاب!"

عائشة: "اغتصاب! لا، لا أظنّ ذلك... لا تقوليها هكذا! أنا كنت... كنت متورّطة بالكامل!"

سارة: "عيّوش... أنا لا أقول إنّك كنت بريئة، ولكنّك قلتِ لا، أنتِ أمرتِهِ بالتوقّف، وهو استغلّ أنّ جسدك يستجيب!"

عائشة: "جسمي حيوان! ولكنّني ربما أومأت له أن يُكمل! صدّقيني لا أعلم."

سارة: "لا يهمّ إن أومأتِ أم لا! أنتِ كنتِ في حالة لا تسمح لكِ باتّخاذ قرار! هل نسيتِ أنّكِ دخلتِ إلى وكرِه وحدكِ؟ إلى تلكَ السدّة التي يتحكّمُ بها بأقفالٍ كهربائيّة، كأنّهُ سَجّانٌ وأنتِ الأسيرة."

عائشة: "لم أشعر بأنّني أسيرة... في البداية على الأقلّ."

سارة: "بالطبع لم تشعري! لأنّهُ ماكر، يعرفُ كيفَ يُحوّلُ القوّةَ إلى إغواء. ألم يتحرّش بكِ كلاميًّا في المرّةِ السابقة؟ ألم يعرض عليكِ هديّتَهُ الوقحةَ تلك؟ هذا ليسَ رجلاً، هذا صيّاد، وأنتِ كنتِ فريسةً دخلت مصيدتَهُ برجليها."

عائشة: "لكنّهُ لم يُجبرني على شيء... كنتُ أستطيعُ أن أخرج."

سارة: "وهل خرجتِ؟ لا! لأنّهُ يعرفُ الاعيبَهُ جيّداً. أنت تعرفين هذا في قرارة نفسك! ما قرأته للتوّ على لسان نجمة يقول هذا بوضوح! إياد هو نفسه الرجلُ الذي يُغوي الفتياتِ اللواتي يعملنَ مع دلال، هذا ما فهمتُهُ من كلامكِ عن شريكاتِها السابقات. إنّهُ يستغلُّ حاجتهنَّ أو فضولهنَّ!"

عائشة: "دلال تثق به... هي من أرسلتني إليه."

سارة: "دلال! وهل دلال نبيٌّ مُرسَل؟ هذا الرجل يخونُها أمامَ عينيها، وهي لا تدري أو ربما تتغاضى! يخونُها مع زبوناتها، وشريكاتها، ومعكِ أنتِ الآن!"

عائشة: "أنا لم أخنها! هي تعرفُ أنّني..."

سارة: "تعرفُ ماذا؟ أنّكِ معجبةٌ به؟ هذا لا يُبرّر شيئاً! عيّوش، اصحي! كلُّ هذهِ القصّة، كلُّ تجارةِ الرغبةِ هذه، أمرٌ غيرُ أخلاقيٌّ من أساسِه!"

عائشة: "غير أخلاقيّ؟ أنت من يقول هذا! ألأنّنا نستمتع؟ هل لأنّنا نُعبّر عن رغباتنا؟"

سارة: "لا! لأنّها تجارةٌ مبنيّةٌ على استغلالِ الوحدةِ والفضولِ والخوف! انظري إلى نفسكِ، وانظري إلى تلكَ الفتاةِ التي أوصلتِ لها الطلبيّةَ اليوم. قلتِ إنّها بدت صغيرة، أليس كذلك؟"

عائشة: "نعم... لكنّها أرتني دفاترَها الجامعيّة."

سارة: "وماذا لو كانت الدفاترُ لأختِها الكبرى؟ ماذا لو كانت طفلةً حقيقيّة، مراهقةً لا تعرفُ ما تفعل؟ كيفَ لفتاةٍ يُفترض أنّها قاصرٌ أن تشتري ألعاباً جنسيّةً بمبالغَ باهظة؟ من أين لها المال؟ ومن أين لها الجرأة؟"

عائشة: "لا أعرف... لم أفكّر في الأمرِ بهذه الطريقة."

سارة: "فكّري الآن! وماذا لو لم تكن طفلة؟ ماذا لو كانت مُتحرِّيةً من الشرطة، من قسمِ الآداب أو الجرائمِ الإلكترونيّة؟ هل فكّرتِ في أنّكِ قد تُسجنين بتهمةِ تسهيلِ الدعارةِ أو الاتجارِ بأمورٍ مُخلّةٍ بالآداب؟"

عائشة: (صمت طويل، وملامح الصدمة تعود لتكسو وجهها) "لا... لم يخطر هذا ببالي أبداً."

سارة: "بالطبع لم يخطر ببالك! لأنّ دلال، سيّدةُ الإغواءِ هذه، قد أعمَت بصيرتَكِ بسحرِها ووعودِها. عائشة، أنا أطلبُ منكِ شيئاً واحداً وواضحاً: اقطعي علاقتَكِ بهذهِ المرأةِ فوراً. اتركي هذا العملَ، هذهِ المهمّاتِ، كلَّ شيء."

عائشة: (بنبرةٍ فيها تحدٍّ مفاجئ) "ولماذا؟ أهي الغيرة ذاتها! هل هذا بسبب أنّها أنثى؟ أنثى مثلك؟"

سارة: (تقف فجأةً، والغضب يلمع في عينيها) "أغار؟ هل أنتِ جادّة؟ بعد كلِّ ما سمعتُهُ، وبعدَ كلِّ خوفي عليكِ، هذا هو استنتاجُكِ؟ أنّني أغار؟ يا للحقارة! أنا خائفةٌ عليكِ يا حمقاء! خائفةٌ من أن أراكِ يوماً خلفَ قضبان، أو أسوأ من ذلك، ضحيّةً لرجلٍ مثل إياد أو امرأةٍ مثل دلال لا يهمّهما إلا نفسُهما!"

عائشة: "أنا آسفة... لم أقصد ذلك. ولكنّ الأمرَ ليسَ بهذهِ البساطة."

سارة: "بل هو بهذهِ البساطة! قوليها لهما: لا! لا واضحة وصريحة."

عائشة: "سأفعل! أعدكِ. سأواجهُ دلال، وسأخبرها أنّني سأنسحبُ من هذا العمل. ولكن... هذا لا يعني أنّني سأكفُّ عن رؤيتها. أنا أُدرّسُ ابنَها، وأبي هو من رتّبَ الأمر. كيفَ سأُبرّرُ لهُ توقّفي المفاجئ؟ سيشكُّ في الأمر."

سارة: "ها أنتِ ذي! تعودين إلى ما تُتقنينَهُ جيّداً! اختلاقُ الأعذار! دائماً لديكِ مبرّرٌ، دائماً لديكِ قصّة!"

عائشة: (بصوتٍ مجروح) "وهل بتُّ كذّابة في نظركِ الآن؟"

سارة: (تأخذ نفساً عميقاً، وتحاول تهدئة نفسها) "عيّوش... اسمعيني جيّداً. هذا ليسَ أمراً يخصُّكِ وحدكِ الآن. إنّ ما تفعلينَهُ يؤثّر عليّ أنا أيضاً. مسؤوليّتي تجاهكِ كصديقة، ومسؤوليتي تجاهَ نفسي، تجعلانني أطلبُ منكِ بوضوح: ابتعدي عنها. تماماً."

عائشة: "سارة، أنتِ تضعينَ علاقتَنا على المحكّ."

سارة: "بل أنتِ من تفعلين ذلك!"

عائشة: "لا أستطيع! أنتِ لا تفهمين. دلال ليست مجرّدَ شيطانةٍ كما تتصوّرينَها. إنّها امرأةٌ مناضلة، هل أخبرتُكِ عن

زوجِها السابق؟ إنّهُ وحشٌ حقيقيّ، وهي تحاولُ أن تستقلَّ عنه، أن تبني حياتَها بعيداً عن سيطرتِه. أنا لا أستطيعُ أن أتخلّى عنها الآن."

سارة: "هي تستغلُّكِ وتستغلُّ تعاطفَكِ هذا! إنّها تستخدمُ قصّةَ كفاحِها كدرعٍ تختبئ خلفَهُ لتمارسَ ألاعيبَها!"

عائشة: "هذا غير صحيح! إنّها..."

سارة: (تقاطعها بحسم) "عيّوش! كفى! أنا لا أُريدُ أن أسمعَ المزيدَ عن دلال ونضالها. كلُّ ما أراهُ هو أنّكِ في خطر. خطرٌ حقيقيّ... ولكن..." (تصمت للحظة، وكأنّ فكرةً جديدةً قد لمعت في ذهنها)

عائشة: "ولكن ماذا؟"

سارة: "ولكنّني أفهمُ شيئاً واحداً الآن... فضحُ إياد، وكسرُ شوكتِه، أهمُّ من كلِّ شيءٍ آخر. يجب أن يلقى عقوبته، حتّى لو كان ذلك فيه مساعدة لهذه الكلبة! وربما سيبطئ هذا تجارتها!"

عائشة: "وماذا تقترحين؟"

سارة: "قلت أنّك تقابلينها كلّ أحد، وقلت إنّها امرأة كاسرة، وأخبرتني أنّها هي الطرف الأقوى... ببساطة أخبريها عمّا حدث، ولكن ليس كما أخبرتني، استفزّي الأنثى فيها، استفزّي فيها دور الإله أو المعلّم الذي تلعبه، أقول لك! استفزّي خوفها على تجارتها، فهي الوسيط بين الفتيات وبين الصانع، وعلاقة إياد بمن يؤدّي دورك إنما هي تفلّت من سلطتها!"

عائشة: "ما تقولينه حقيقيّ! كأنّك تعرفينهم."

سارة: "بالتأكيد حقيقيّ! ودون أن أعرفهم، إنّها لعبة أدوار، أدوار نمطيّة مكشوفة، لو كنت مكاني، كنت ستقولين الشيء نفسه!"

عائشة: "يا ليتني مكانك! ولكنّني لا أتمنّى لك أن تكوني مكاني!"

سارة: "إذن أنت تعترفين أنّك في ورطة! اخرجي منها كما اتّفقنا، ولكن أريد منك شيئاً!"

عائشة: "ما هو؟"

سارة: "عيّوش أريد منك وعداً قاطعاً: ألا تعودي إلى مشغله أبداً! . مهما كانَ السبب."

عائشة: "لن أعود!"

سارة: "هذه عيّوش التي أحبّ!" (تمدّ ذراعيها معانقة عائشة).

طال العناق أكثر ممّا يقبله جوّ الجامعة بقليل، ثم قاطعته سارة التي بدأته: "على فكرة، بدأت المحاضرة! والاختبارات على الأبواب!"، ابتعدت عائشة لتجمع دفاترها من على المقعد، وقالت وهي تمسح دموعها بكمّ جلبابها: "شكراً سارة... احتملت الكثير منّي!"، فردّت سارة بعفويّة: "لو تبادلنا الأدوار لكنتِ الآن أمام مشغل إياد مع الشرطة!" وحلّت الضحكات مكان الدموع، وهما تسيران بخطى متسارعة إلى محاضرتيهما.

مساء ذلك اليوم، الخميس، آخر أيّام الدوام في الأسبوع، كانت عائشة تجلس في غرفتها وحيدة، لقد ودّعت بهجة البيت المؤقّتة، خالتها هبة، ولم تكن تريد أن تطيل المكوث حول أبيها الذي عاد إلى البيت بقوّة يحاول أن يرمم تديّن العائلة الذي لا بدّ أنّه تضرّر بعد غيبته، وهي لا تريد أن تسمع خلافات أهلها خلال العطلة. تحجّجت عائشة بالاختبارات، وألقت اللائمة على وجود هبة، التي جعلت الدراسة تتراكم عليها،

وانعزلت في غرفتها، كأنّها تشحذ سكيناً، أو تدبّب رمحاً سيستقرّ في قلب إياد، لكنّه للأسف سيمرّ من قلب دلال!

أرسلت لها أنّها تريدها في أمر جادّ، وأنّ عليها أن تبعث بأيمن إلى بيت جدّه، فهي لا تريد لطفل أن يسمع كلمة تفلت من حوار كهذا، وتركت تساؤلات دلال تتراكم دون أن تجيبها على أيّ منها، لكنّها طمأنتها أنّ هذا اللقاء سيكون في مصلحتها، وكانت واثقة أنّ امرأةً مثل دلال تستطيع الصبر.

وفي مساء الأحد، ودّعت سارة كأنّها ذاهبة إلى معركة، وسارة تسألها: "هل تريدين أن آتي معك؟"، فأجابت عائشة: "أريدك أن تظلّي نظيفة بعيدة عن كلّ هذا الوسخ!" فعانقتها سارة قائلة: "ليس لأنني أريد التطهّر، ولكنّني واثقة بك." وذهبت إلى اختبارها ثمّ إلى الاختبار الأصعب، اختبار مواجهة دلال.

طرقت عائشة باب دلال طرقتين، وقبل أن تضرب الثالثة كانت دلال قد فتحت الباب وأطلّت بلباس بيتيّ محتشم، محتشم إذا ما قيس بخزانتها الفاحشة، وقالت: "ادخلي عيّوش القهوة جاهزة على الشرفة!"، لكنّ عائشة قالت بحزم: "ائت بها من الشرفة، فقد تعلو أصواتنا!" وضعت دلال يدها على قلبها، وظهر اختلاط المشاعر على ملامحها، هل هي

مسرورة لأنّ عيّوش تأمرها، أم هي تدرك أنّها على وشك أن تلقي عليها قولاً ثقيلاً! وقفت عائشة أمام مشجب الملابس، تتساءل إن كان عليها أن تفكّ حجابها أم تتحصّن خلفه! ثم قلعته مع تنهيدة كأنّها كانت تحتاج ذلك، وقلعت جلبابها، وتوجّهت للصالة تسبقها دلال حاملة القهوة.

قالت عائشة: "خلال كلامي ستراودك الشكوك حولي، لكن عليك أن تستمعي لي، ما بيننا يقتضي أن تصدّقيني!".

انتبهت حواسّ دلال، وقالت بنبرةٍ هادئةٍ كهدوءِ ما قبلَ العاصفة، وهي تُشيرُ بيدِها إلى الأريكةِ المقابلة: "تكلّمي يا عيّوش. متى لم أسمعك؟ ومتى لم أصدّقك؟ اجلسي أوّلاً."

جلست عائشة على حافّة الأريكة، كأنّها تستعدّ للنهوض في أيّ لحظة، بينما اتّخذت دلال مكانَها مقابلها، واضعةً ساقاً فوقَ الأخرى بحركةٍ مدروسة، وكأنّها تُعيدُ فرضَ سيطرتِها الصامتة على المكان. الصمتُ الذي تلا ذلكَ كانَ أثقلَ من كلِّ الكلمات، صمتٌ مشحونٌ بالترقّبِ والأسئلةِ غيرِ المنطوقة.

بدأت عائشة الحديث: "الأمرُ يتعلّقُ بالعمل... بتجارتك."

رفعت دلال حاجباً متسائلة: "وما بها تجارتي؟ هل هناكَ مشكلةٌ في التوصيل؟"

أجابتها عائشة: "المشكلةُ تكمن في الاستلام، أمّا التوصيل فليس هذا وقته. دلال... الفتياتُ اللواتي كنَّ يعملنَ معكِ من قبل، واللواتي سيعملنَ في المستقبل... هنَّ في خطر."

هتفت دلال باستنكار: "خطر! يا ساتر! أيُّ خطرٍ هذا الذي تتحدّثينَ عنه؟ أنا أختارُ الفتياتِ بعناية، وأحرصُ على أن تكونَ كلُّ التفاصيلِ آمنة."

ردّت عائشة: "الأمانُ يجبُ أن يشمل الشارعَ ولقاءَ الزبونة، ويجبُ أن يبدأ من المصدرِ قبل ذلك."

بدأت دلال تفقدُ صبرها قليلاً، فقالت بحدّة: "عيّوش، تكلّمي بوضوح. ماذا تقصدين بالمصدر؟"

قالت عائشة: "أقصدُ إياد."

تغيّرت ملامحُ دلال للحظة، كأنّ سحابةً سريعةً مرّت على وجهها، ثمّ عادت لترسمَ تلكَ الابتسامةَ الواثقة قائلة: "إياد؟ إياد يعرفُ حدودَهُ جيّداً. إنّهُ محترف، ولا يتدخّلُ في أمورٍ لا تعنيه."

أوضحت عائشة: "هو محترفٌ في عملهِ، ومحترفٌ في الصيدِ أيضاً. إنّهُ يصطادُ الفتياتِ اللواتي تُرسلينهنَّ إليه."

ضحكت دلال ضحكةً خفيفةً لم تصل إلى عينيها، وعلّقت: "تصطادينَ في الماءِ العكرِ يا صغيرتي. من أينَ لكِ بهذهِ القصص؟ هل اشتكت لكِ إحداهنّ؟"

أجابت عائشة: "لا أحد يشتكي ممّا يريده... أو ممّا يظنّ أنّهُ يريده."

ضيّقت دلال عينيها، ونظرت إليها بنظرةٍ فاحصة: "وما الذي يجعلكِ متأكّدةً إلى هذا الحدّ؟"

قالت عائشة: "لأنّهُ لا يكتفي بتسليمِ القطعة، ويُحاولُ دائماً أن يبيعَ شيئاً آخر."

سألت دلال باستغراب: "شيئاً آخر؟ مثل ماذا؟" صمتت قليلاً، وكأنّها تُركّبُ قطعَ لغزٍ في رأسها، ثمّ ابتسمت بسخريةٍ قاسيةٍ وأكملت: "آه... فهمت. تقصدينَ تلكَ التحفةَ الفنّيّةَ التي يفتخرُ بها. لا تنكري يا عيّوش، لقد رأيتُ الانبهارَ في عينيكِ حينَ أخبرتُكِ عن ذلكَ الوتدِ العاجيّ، وكيفَ أنّهُ نسخةٌ طبقَ الأصلِ عن..."

قاطعتها عائشة بحسمٍ مفاجئ، وصوتها يرتجف قليلاً من فرط الانفعال: "لا! هذا السبب غير صحيح. دهشتي كانت لأنّني أعرفك، وأعرفُ إياد... من قبل!"

ظهر على وجه دلال ارتباكٌ حقيقيٌّ للمرّةِ الأولى، كقناعٍ صُلبٍ تشقّق فجأة، لكنّها سيطرت عليهِ بسرعة، واستعادت رباطةَ جأشِها قائلة: "تعرفيننا؟ اشرحي."

قالت عائشة: "إياد يسكنُ في العمارةِ المجاورةِ لبيتنا. نافذةُ غرفتي... تُطلُّ مباشرةً على نافذةِ غرفةِ نومِه."

خيّم صمتٌ قصير، ثمّ ضحكت دلال فجأةً ضحكةً عالية، ضحكةً فيها مزيجٌ من الإغواءِ والحياءِ المُرتبك، كأنّها ممثّلةٌ تُشاهدُ مشهداً إباحيًّا مثّلتهُ بنفسِها وتفاجأت بجودتِه، وقالت: "أيامُ الأحدِ إذن... يا لكِ من شيطانة! كنتُ أظنُّ أنّ الستائرَ كافية."

ردّت عائشة: "الستائر كانت غير كافية في مرّاتٍ أخرى أيضاً. أعرفُ أنّ الصورةَ لم تكن واضحة، لكن إن كنتِ تعرفينَ الفتاةَ كما تعرفينني، فبالتأكيد ستتعرّفينَ على صورتها."

أخرجت عائشةُ هاتفَها من حقيبتِها، وبحثت لثوانٍ بدت كدهر، ثمّ قدّمت الشاشةَ لدلال. كانت الصورةُ مهزوزةً بعضَ الشيء، ضبابيّة، لكنّها كانت كافية. رأت دلالُ هيئتَها هي وهي تتلوّى على سريرِ إياد، ثمّ صورةً أخرى لفتاةٍ أخرى في وضعٍ مشابه. لم تقل دلال شيئاً، لكنّ عائشة رأت يدَها تقبضُ على قماشِ الأريكةِ بقوّة، حتّى كادت مفاصلُها تبيضّ.

تمتمت دلال بصوتٍ جليديّ: "فهمت... أعرفها بالفعل. ولكن... أليست هي من ذهبت إلى شقّتهِ برجليها؟"

أجابت عائشة: "دلال... ربما عليكِ سؤالها، لكنّني أعدكِ أنّها تعرّضت للخداع، وبالتأكيد تعرّضت لإغواءٍ مدروس."

عادت دلال بنظراتِها الفاحصةِ إلى عائشة متسائلة: "تبدينَ كمن يتحدّثُ من تجربة... لمَ لمْ تفاتحيني في الأمرِ من قبل؟"

قالت عائشة: "لأنّكِ تحبّينَ القوّة. لم أكن أُريدُ أن أظهرَ ضعفي أمامك! ألست دلال التي لا تبيع مهيّجات النساء لأنّك تحبّين الأنثى القويّة! كيف سأظهر الضعف لك؟"

لان صوت دلال قليلاً، وظهرت في عينيها نظرةُ حزنٍ عابرةٍ وهي تقول: "أيُّ ضعفٍ هذا؟ أن تقعي في شباكِ صيّادٍ ماهر؟ هذا الضعف منتفٍ تماماً، بل..."

قاطعتها عائشة بحزم: "لا أُريدُ الشفقة، ولا أحتاجها... في أوّلِ مرّةٍ تحرّشَ بي، عرضَ عليّ تمثالَهُ ذاكَ هديّة!"

سألت دلال ببرودٍ قاطع: "وماذا أجبتِ هذا الكلب؟"

ردّت عائشة: "أخبرتُهُ أن يجلسَ عليه... بكلمات أخرى مشابهة، قلتُ شيئاً من هذا القبيل!"

سألت دلال: "هذا في آخرِ مرّة؟"

أجابت عائشة: "هذا حدث في مرّةٍ سابقة. هذه المرّة... القصّةُ مختلفة..." وصمتت صمتاً مشحوناً.

اقتربت دلال منها، وصوتُها ينبضُ بالخطر: "ما الذي فعلَهُ؟ أخبريني وسأُطعِمُهُ قضيبَهُ الذي يفتخرُ بهِ مشويًّا!"

شعرت عائشةُ بقوّةِ دلال الغاضبةِ تسري فيها كتيّارٍ كهربائيّ، ومنحتها الشجاعةَ لتُكمل. سردت لها ما حدثَ في السدّة، لم تُخفِ شيئاً، تحدّثت عن خوفِها، وعن جسدِها الذي خانَها، وعن حيرتِها فيما إذا كانت قد جرّبت الجنسَ مع رجلٍ أخيراً أم أنّها كانت ضحيّةَ اغتصابٍ مُقنّع. كانت صادقةً في كلِّ كلمة.

سألت دلال: "هل طلبتِ منهُ أن يتوقّفَ ولم يستجب؟"

أومأت عائشة برأسِها، والدموعُ بدأت تتجمّعُ في عينيها. تناولت هاتفَها الذي كانَ على الطاولةِ بجانبِها، وفتحت التسجيل قائلة: "لقد سجّلتُ اللقاء... يوماً ما ستسمعينَهُ كاملاً، لكنّني لا أستطيعُ الاستماعَ إليهِ الآن." وبدأت تبكي بكاءً صامتاً تكبحهُ بقوّةٍ جبّارة.

شغّلت مقطعاً قصيراً. علا صوتُها في الغرفة، واضحاً ومُرتبكاً: "...لا... توقّف!". ثمّ جاءَ صوتُ إياد الأجشّ بوضوح: "لستُ حيواناً!"، وقفزت إلى موضع آخر، ثم آخر!

قالت عائشة: "أنا أتحمل جزءاً من المسؤولية، لكنّني كنتُ في مكانٍ مُغلقٍ يملكُ هو مفاتيحَهُ، وربما قرّرتُ أنّ قبولَهُ أفضلُ من رفضِهِ والتعرّضِ لاغتصابٍ صريح."

وقفت دلال، وقد تحوّل وجهُها إلى قناعٍ من غضبٍ خالص، وصرخت: "ابنُ الكلبة! سيذوقُ منّي الأمرّين... سأقطعُ عضوَهُ!" ولمّا رأت الرعبَ في عيني عائشة، غيّرت لهجتَها متداركة: "أقولُ لكِ... سأقطعُ رزقَهُ! لن يجدَ ما يفعلُهُ بهذهِ البضاعةِ سوى أن يجلسَ عليها. سأُخرجُهُ من التجارةِ كليًّا... وثمّةَ ألفُ صانعِ قوالبٍ يتمنّى أن يعملَ معي!"

أضافت عائشة: "ثمّةَ أمرٌ آخر... بصراحة، كانَ هو الصفعةَ التي أيقظتني! هل تقبلينَ أن يرى ابنُكِ، حبيبي أيمن، هذهِ الأدواتِ التي تبيعينَها؟"

تجمّدت دلال مكانَها، ودمُها يفور: "ما الذي تقولينَهُ! ماذا تقصدين؟"

قالت عائشة: "الفتاةُ التي أوصلتُ لها الهزّازَ آخرَ مرّة... كانت تبدو طفلة!"

سألت دلال بانفعال: "ولماذا اقتربتِ منها؟!"

أجابت عائشة: "ارتبكتُ، لم أدرِ ما أفعل. طلبتُ هويّتَها، ثمّ أدركتُ أنّها لن تُصرّحَ باسمِها... وأقنعتُ نفسي بقصّتِها وأنّها ربما أكبرُ ممّا تبدو عليه."

قالت دلال: "هذا مُستفزٌّ فعلاً... أفهمُكِ... في المرّةِ المقبلة..."

قاطعتها عائشة بهدوءٍ حاسم: "لن تكونَ ثمّةَ مرّةٌ مقبلة. لقد كرهتُ الفكرةَ كلَّها."

سألت دلال بصدمةٍ حقيقيّة: "تتخلّينَ عنّي! سأقضي على إياد من أجلكِ، وأنتِ تتركينني قبلَ أن أتحرّرَ من قبضةِ الوحش؟"

أجابت عائشة: "لا عاشَ من يتخلّى عنكِ... دلال، أنت تفعلين هذا من أجلك، ولن تفعليه من أجلي أنا!"

همست دلال، مصدومةً من قوّة عائشة: "نعم... ربما أنت محقّة! ابن الكلبة!"

أكملت عائشة: "تعلمينَ كم أُحبّكِ. لم يكن لي لسانٌ يرفضُ قبلَ أن يستمدَّ الحياةَ منكِ... من جسدِكِ الجميلِ وروحِكِ الحلوة. سنفكّرُ معاً في طريقةٍ تُبقيني بعيدةً عن دور فتاة التوصيل. المهمّ الآن أن تضعي حدًّا لهذا القذر. هل تُريدينَ أن أُبلّغَ الشرطة؟"

قالت دلال: "أيُّ شرطة؟ الشرطةُ لا تدخلُ إلا بعدَ انتهاءِ المعارك. كلُّ من سكنَ حيًّا شعبيًّا يعرفُ ذلك. لا تخافي، لديّ صلاتي... حتّى الشرطة لهم طرقهم، ولديّ طرقٌ أخرى أُجبرهُ بها على الركوعِ، وربما... سأجعله عاهرة أحدهم!"

رفعت دلالُ هاتفَها، وطلبت رقمَ إياد، لكنّ الشرر الذي يتطاير من عينيها مَنَع عائشة من أن تطلب أن تستمع، وربما لم تكن تريد أن تسمع صوته مرّة أخرى.

قالت دلال بحدّة: "اسمع يا حيوان. بضاعتُكَ التي صنعتَها ستُسلّمُها مجّاناً لشخصٍ يأتيكَ من طرفي. وإذا رفضت، ستجلسُ عليها. والمشغلُ ستُخليه... سأبيعُهُ لأوّلِ مُشترٍ."

بلغ سمع عائشة صوتُ إياد المتردّدِ غير الواضح من السمّاعة، كان يحملُ نبرةَ سؤالٍ واستغراب.

أكملت دلال: "لأنّكَ جائعٌ لا تشبع. حيوانٌ تظنُّ أنّ كلَّ الفتياتِ عاهراتُك!"

وأضافت بنبرة قاطعة: "الكلامُ نهائيّ. وإذا أردتَ أن تختبرَ قدرتي، تفضّل. مثلما أقولُ لكَ الكلامُ نهائيّ... وإذا وصلني أنّكَ تعرّضتَ لأيٍّ من اللواتي عملنَ معي، فستصبحُ في خبرِ كان! أظنّكَ تعلم ألا مِزاح معي!"

أغلقت دلالُ الخطَّ، وألقت الهاتفَ على الأريكة. التفتت إلى عائشة، وفي عينيها نظرةٌ تحملُ مزيجاً من الانتصارِ الباردِ والحزنِ العميق.

وقالت منهية الموقف: "انتهى. الآن سنشرب قهوتنا، وسنجد شيئاً ممتعاً نقوله، لقد طويت صفحة الكلب هذا إلى الأبد!"

بدأت عائشة تمسح الدموع التي شرقت بها، وهي ترى انتصار دلال لها، وتبدّد شيطان الخوف الذي ركبها عند سماع صوت إياد من بعيد. ولم يطل الأمر حتّى كانت تبتسم، فدلال تملك مفاتيح قلبها أيضاً، لا جسدها فقط. ثمّ بعد قليل عاد العقل إلى دلال، التي بدأت تتساءل عن مستقبل هذا العمل، وكيف ستتجاوز الأمر مع كلّ التعقيدات، وعائشة تعدها أنّها ستقف معها، ويشرخ صوتها، لأنّها تعلم يقيناً أنّها تكذب، فهي قد أخذت قرارها بالابتعاد وربما تطيع سارة فعلاً، لكنّها عرفت الدور الذي يجب أن تلعبه الآن، واستمرأته.

عائشة: "ربما العيب في منصّة التواصل التي تستخدمينها، إنّها شائعة وتسمح لكلّ من أتمّ الثالثة عشرة بالانضمام، ثمّ إنّها شبه مقصورة على الجيل الذي سبق جيلي، تخيّلي أنّني لا أملك حساباً نشطاً عليها!"

دلال: "وهل ثمّة منصّات أكثر تحديداً للعمر مثلاً؟"

عائشة: "على الأقلّ هي أكثر أمناً... وثمّة طرق لمعرفة الكثير عن طريق رقم الهاتف الذي يتواصل معك."

دلال: "هل أنت متأكّدة؟ هذا يعني تغييراً جذريّاً في طريقة عملي!"

عائشة: "سأبحث عن أفضل طريقة، لدي تصوّر يجب أن أتحقّق منه، وحتّى لو بقي ثمّة هامش للخطأ سيكون أقلّ من ذي قبل."

وبعد أن انفرجت أساريرهما حقّاً بسبب بصيص الأمل، وجدت عائشة نفسها أنّها هي، ورغم تأخّر الوقت، ورغم كلّ ما حدث، تطلب من دلال أن تسقيها من ذلك الشراب القابض الذي شربته يوم أسلمتها مفاتيح آخر قلاعها، بكلّ ما حمله ذلك الطلب من اقتراح مغوٍ.

قالت دلال: "تأمرين! أحلامك أوامر!" وهمّت لتحضره، لكنّ عائشة نهضت وقالت سنشربه على شرفتك."

حملت حقيبتها إلى الداخل، ولمّا دخلت دلال بالشراب، كانت عائشة عارية تماماً، وقد ارتدت حجر اليشم قضيباً، ورأت ابتسامة دلال التي فيها من التوق ما ليس في كلّ أجساد زبوناتها، ورأت انعكاسات صورتها هي، وعيناها متّسعتان تضجّان قوّةً وإغواءً عجيباً، فتناولت كأسها وارتشفت منه مع دلال، ثمّ تقدّمت وهمست لها: "أنت الملكة اليوم، لكنّني الملك،

اركعي على ركبتك"، فما أن ركعت دلال أمامها، حتّى جعلت تقلّد حركات سارة، وهي تتلو بصوتها النديّ وبتجويد فذّ: "وليس الذكر كالأنثى"، ودلال تردّد في صدمةٍ وحياء وخضوع من موضعها: "أستغفر الله!". تقدّمت عائشة نحوها ببطء ملوكي، ملقمة إيّاها الحجر في فمها، وهي تتمّ شرب كأس النصر، ودلال تتمّ إغلاق فمها على الحجر.

بعد شوطين أخذت دلال تضغط بمكر على الحجر لكي يتحرّك داخل عائشة، حتّى بلغت بعائشة من الشهوة مبلغ أن شربت كأسها كلّه دفعة واحدة، وقامت تخلع عن دلال ثيابها، وكأنّها تفكّ غلاف هديّة منحتها لها كفّ القدر. ودلال تقول: "هذا هو الحديث المهمّ!"، ولمّا خلّصتها من آخر قطعة من ثيابها، مدّدتها على السرير تنظر في عينيها، وتمرّر الحجر على شفاه دلال السفليّة، بادئة من كرزتها التي استيقظت بعد نوم، إلى أن بلغت كهفها فدخلته مستكشفة شعوراً جديداً لم تعرفه من قبل.

هبطت عليها بجذعها فتلامست حلماتهما المتسمّرة، كانت الشهوة لأوّل مرّة قناعاً مكسّراً لأمر أعمق منها، وعائشة تستلذّ بدور تعلم أنّه مؤقّت، وأنّها قد لا تحبّه، بل إنّها تعلم أنّه خارج أعتى أحلام يقظتها، لكنّها في الحقيقة لم تكن تتمثّل الذكورة، بل تتمثّل القوّة التي التصقت بالذكورة، تدفع بالحجر داخل دلال فيندفع فيها هي أيضاً، وجسدها

يتقبّض ويعتصر طرفه القصير، بينما تدكّه في جسد دلال المستسلم الذي يسيل لعاباً حميماً.

كانتا تتبادلان الغزل حيناً والشتائم حيناً آخر، ودلال لا تخفي فخرها بالوحش الذي خلقته، وكانت آخر أفكار عائشة قبل أن يزيح موجُها كلّ قلاع الرمل من شاطئ فكرها، آ أنّها ربما لم تكذب، وربما ستكون شريكة دلال حتّى النهاية! ثم انسحبت عن الحجر لتجلس على بطن دلال غاسلةً كلّ حقدها بشلال لمّاع مندفق، وهي تقبّل دلال وتعضّ شفتها السفليّة.

نظرت في عيني دلال بنظرة كانت تستشعرها فقط على سجّادة الصلاة، تلك النظرة التي تخلط الصدق بالأثم، وكان شيطان الارتجاف يغادر جسدها التائب، ثمّ قبّلتها على فمها قبلة حبّ صافٍ، فرأت وجه دلال ينتفض فرحاً وشهوة، وأحسّت بدلال تمسك الطرف الآخر من الحجر، وتجهز على نفسها في محراب عائشة طعناً حتّى صارت تتأفّف وتتلوّى، وكأنّها تريد أن تنزل كلّ ما فيها لمرّة واحدة وإلى الأبد.

إن كانت هذه ستكون آخر مرّة تتعبّد فيها في محراب جسد دلال، فإنّها احتفظت بصورة أخيرةٍ لها، صورة تليق بما بينهما، وإنّ بينهما ما هو أعمق من وتد إياد، وأكثر مَلكيّة من حجر اليشم، وأحلى من قبلة مسروقة رغم كل القيود. طالعت عيّوش صورتها هي في المرايا، وشعرت

أنّه ينقصها شيء واحد : طاقيّة حفل تخريج، تكون هي القطعة الوحيدة التي ترتديها! وأغلقت عينيها على تلك الفكرة، وعلى وجه دلال المنهك بالنشوة أكثر من أيّ مرّة سبقت.

الفصل السّابع عشر : الموجات الارتداديّة

بقي صدى المواجهات التي خاضتها عائشة يتردّد في قلبها حتّى أيّام تلت، وبقي في رأسها أيّاماً أطول. لكنّ الذاكرة، هذه الخائنة اللذيذة، لا تحتفظ بالأحداث كما هي، بل تُعيدُ تلوينها، تُزيلُ عنها غبارَ الواقعِ الخشن، وتُغلّفها بغشاءٍ رقيقٍ من حنينٍ أو ندم، كأنّها تحنّطُ فراشاتِ اللحظةِ الهاربةِ لتحتفظَ بجمالِ ألوانِها لا بحقيقةِ ارتعاشِها الأخير. وبمرور شهرٍ كامل، شهرٌ مرَّ كأنّه دهرٌ من الصمتِ المشحون، أو كغفوةٍ محمومةٍ على حافّة بركان، كانت تلكَ الزلازلُ المتلاحقةُ قد تركت وراءها موجاتٍ ارتداديّة، أمواجاً خفيّةً لا تراها العين، لكنّها كانت تُعيدُ تشكيلَ شواطئ روحها بصبرٍ وقسوة، وتُغيّرُ تضاريسَ قناعاتِها التي كانت تظنّها يوماً جبالاً راسخة.

لقد نجحت في تنفيذِ خطّتِها للانسحابِ من مدارِ دلال، ذلكَ الكوكبُ الحارُّ الذي كادَ يجذبُها لتحترقَ في غلافِهِ الجويِّ المُعطّرِ بالخطر والوعود. برّأت نفسَها من الكذبِ على سارة بأن جعلت الكذبةَ حقيقة، لكنّ الطريقَ إلى تلكَ "الحقيقةِ" كانَ مزروعاً بألغامِ الخداعِ الصغير.

بدأ الأمر بتقديم حلولٍ تقنيّةٍ لدلال، كاد بعضها أن يكون كارثيّاً، فقد اضطرّت دلال بسببها إلى تغيير عدّة أرقام هاتف محلّيّة. مرّ أسبوع من

التوتّر المشحون، رأت فيه عائشة أسوأ ما في دلال، وظلّت مندهشة من قدرة تلك المرأة على تغيير كينونتها كلّها لا جلدها فقط، فهي إذا شعرت أنّ مصالحها يمكن أن تتضرّر تتحوّل إلى تمثال رخاميّ بارد له زوايا حادّة تجرح من يقترب منها، وإذا شعرت ببصيص أمل يدبّ في أوصالها الدفء، وتغدو كأنّها تمثال من الجبن.

الذي ساعد عائشة في تلافي الكارثة تلو الأخرى كان دلال نفسها، فهي وإن كانت تبدو قليلة الحيلة حين يعرض لعائشة مأزق ما، فإنّها في الوقت نفسه ساحرة تخرج الأرنب تلو الآخر من قبّعتها بسهولة، في حال كانت عائشة تعرف ما تريد، فلمّا احتاجت مثلا رقماً أجنبيّاً مجهول المالك، قدّمته دلال خلال أقلّ من يوم.

فهمت عائشة مبكّراً المعادلة الصعبة، لكنّ الالتزام بها هو الأمر الصعب، عليها أن تكون مكشوفةً أمام دلال، وأن تسألها حول كلّ انعطافة، لعلّ لديها حلاً لتلك الجزئيّة. بدت دلال وكأنّها مصدر غير محدود للإمكانيّات، وفي الوقت نفسه كان على عائشة أن تمشي في حقل ألغام تتخيّلها تأتي من دلال ذاتها، فهي لا تريد أن تشعرها بأيّ تهديد يقع على مصالحها، ولكنّها في الوقت ذاته، وبسبب شعور دلال بالمسؤوليّة تجاه ما مرّت، وبسبب العاطفة المركّبة بينهما، وما بدأت تلاحظه من قدرة

بزغت كنبتة برّيّة في روحها على إدارة مشاعرها، وعلى فهم مشاعر دلال، فإنّها عبرت خطّ النهاية، عبرته لاهثةً منهكةً تودّ لو تبوح بكلّ هذا لأيّ شخص ولو كان غريباً، لكنّها عبرته.

كانت عائشة أيّام البحث تستغربُ من وقاحتِها مع الله، كيفَ كانت تُصلّي وتدعوهُ أن يهديَها لأفضلِ الطرقِ لحمايةِ تجارة دلال، ثمّ تعود لتبحث عن سبل التجارة غير القانونيّة في الدول الأكثر تطوّراً، وكادت في أحد الأيّام أن تصلّي استخارة حقيقيّة حول هذا. وكانت دائماً تستغرب كيف يبدو الله أقرب في الأزمات، وكأنّه حليفها الأزليّ!

خلالَ هذا البحثِ، كانت كلماتُ سارة ترنُّ في أذنِها كجرسِ إنذارٍ خافت: "هذهِ التجارةُ تظلُّ لا أخلاقيّة ما دامَ المجتمعُ مكبوتاً". بدأت تفهمُ ما تعنيهُ سارة بعمقٍ أكبر. لقد قرأت قصصاً مرعبةً عن استغلالِ الوحدة، وعن فتياتٍ صغيراتٍ سقطنَ في فخِّ "سوقِ الرغبة"، ليسَ بحثاً عن لذّة، بل عن وهمِ اهتمامٍ أو احتواء. هكذا شخصت في ذهنها فكرة طال أن اختبأت في تلافيف دماغها: شيطنة شيء ما تفعل فعل تقديسه؛ تخرجه من حسابات الحاضر.

ولم تدم فرحتها بنجاحها في أصعب تكليف رماه الواقع في حضنها، ولم يطُل تردّدها في تحقيق الحلم الكاذب الذي منحته صديقتها حول قطع

علاقتها بدلال، إذ جاءت القشّةُ التي قصمت ظهرَ تردّدِها. نتائجُ نهايةِ الفصل الدراسيّ. كانت كصفعةٍ على وجهٍ نائم. لقد تراجعَ أداؤها الدراسيُّ بشكلٍ دراميّ. تميّزُها الذي كانَ غيرَ منازعٍ في تخصّصِها صارَ الآن باهتاً. صحيحٌ أنّها نجحت، لكنّها لم تتفوّق كما اعتادت، لقد خسرت جزءاً من تعريفها لذاتها. وعصف بها الندم عصفاً مدوّياً غاضباً، ثم تحوّل الندمُ إلى غضبٍ محضٍ على دلال وهيمنتها، ثمّ على أبيها فخرج كأنّه غضب قديم.

وقفت أمامَ الشيخ أبي عمر، وقدّمت لهُ مرافعةً قانونيّةً بارعة، عازيةً تقصيرَها إلى فكرةِ تدريسِ طفلٍ لا همَّ لهُ سوى ألعابِ الفيديو، وكيفَ أنّها اضطرّت لقراءةِ كتبٍ في طرائقِ التدريسِ وصعوباتِ التعلّمِ أخذت من وقتِها وجهدِها، وكيفَ أنّ هذا كلّهُ لم يكن من ضمنِ "صفقةِ" الثلاثين ديناراً الإضافيّةِ التي وعدَها بها. كانت مقنعةً لدرجةِ أنّها كادت أن تُصدّقَ نفسها، وانتهت المرافعةُ باعتذارِها الرسميِّ عن متابعةِ تدريسِ أيمن بعدَ اليوم، وقبولِ أبيها المُتفاجئ من منطقِها الذي لا يُدحض.

ولم تنهِ الجدال الحادّ الأوّل معه أبيها، وتنجح في الوصول إلى غرفتها، حتّى طلبت ركبها الركوع، لم تعودا تحملانها. صلّت صلاةً طويلةً اختلطت فيها كلُّ المشاعرِ حتّى العتب على اللهِ الذي تركَ دينَهُ للذكورِ

يصوغونَهُ كيفَ شاؤوا حتّى بات قيداً على المرأة، قامت من صلاتِها مرتاحةً لقرارِها الأخير.

اتّصلت بدلال. استغلّت امتنانَ دلال العميقَ لها على إنقاذِ تجارتِها، واستثمرت فرحَها بنتائجِ أيمن التي شهدت بالفعلِ تحسّناً طفيفاً. لم تترك لقلبِها فرصةً ليُلينَ نبرةَ صوتِها. قدّمت بوحاً مقتضباً حول ما يؤلمها، ثمّ أطلقت أمرَها، نعم أمرتها، بحزمٍ وحسمٍ ألا تعودَ للتواصلِ معها: "أنا ممنونةٌ لكِ، وغاضبةٌ منكِ في آنٍ واحد. ولستُ قادرةً على التعاطي معكِ الآن... ربما بعدَ سنة، ربما في حياةٍ أخرى..."، وأغلقت الخطَّ وكلَّ سبيلٍ للتواصلِ معها، قبلَ أن تسمعَ حتّى ردَّها.

كانت عائشة تلقي اللوم بالجملة على كلّ من حولها، وكانت في كلّ مرّة تلقي فيها باللائمة على جهة تشعر أنّها تتضاءل في عين ذاتها أكثر، وأقسمت لنفسها أنّها لن تضع نفسها في مثل هذا الموضع مرّةً أخرى، إنّها غير متمرّسة على هذا الدور، فهي التي طالما كانت الفتاة المسؤولة التي تعرف الصواب وتفعله دون إملاء مباشر من أحد. كانت تتقن استنكاه الإملاءات وتنفيذها قبل أن تكتسب شكلاً منطوقاً.

لامت زيارة خالتها أمام أهلها، إذ تقاطعت زيارتها حسب زعمها مع اختبارات وتسليم مهمّات دراسيّة، ولامت أمّها التي تركت لأبيها أن

يختار تخصّصها، وهي تعلم أنّ أمّها كانت ستخوض معها المعركة حتّى النهاية لولا أنّها لعبت دور الفتاة الرضيّة.

لامت عبيدة على استعمالها المتكرّر لحاسوبها الذي لا تستطيع الدراسة دونه.

لامت عمر على ارتفاع صوت ألعابه.

ولولا أنّ علامتها في الأدب المقارن كانت مرتفعةً جداً بالقياس إلى بقيّة بنود شهادتها للامت سمر أيضاً، لقد فشلت في ذلك، لكنّها لامت باسل على دعوتها إلى الكتابة للمجلّة الطلابيّة، وذلك رغم كل الامتنان والشعور بالاعتراف الذي أحسّته بسبب ذلك. هي تعلم أنّ شخصاً مثل باسل أتمّ حياته الجامعيّة من قبل، وشارك في نشاطات عديدة، لكنّه يصرّ على مشاركة طلبة البكالوريوس لأنّه يعلم أنّهم بحاجة لدعم صوت ناضج حقّق اعترافاً في الساحة الأدبيّة. ومع ذلك كلّه كانت تشتمه في ضميرها.

حتّى أنّها لامت سارة التي اضطرّتها للكذب عليها، ولامت شعورها بالذنب تجاهها، الذنب الذي ألجأها إلى أن تعيش لما يزيد عن شهر، وهي تمهّد لتحقيق الكذبة التي قالتها بثقة أمامها: "لقد قطعت علاقتي

بدلال!"، ولامت غباء صديقتها التي تظنّ الخلاص من شخص مثل دلال بسهولة التخلّص من صداقة جامعيّة، أو حظر على وسائل التواصل.

ولمّا لم يبق شخص تلومه، كادت أن تلوم نجمة، نجمة التي خلقتها بيدها، فشعرت أنّها ستكون كالله الذي لم تعد على وفاق مع فكرة وجوده تماماً، رغم أنّها بقيت محافظة على الصلاة والأوراد، وحتّى البكاء له، لكنّه لو نطق الآن لقال لها: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)! إله بيده كلّ شيء! بيده الأقدار وتقليب القلوب والخلق ووضع السنن الكونيّة والممكنات والمستحيلات ثمّ يلوم خلقه! فهل ستكون بهذه القسوة مع مخلوقتها الوحيدة نجمة؟ كان هذا ما كسرها ووضعها في مواجهة نفسها.

جلست والدموع مقيمة في عينيها، فهي تعلم أنّ المشكلة ليست في العلامة، إنّ فصلاً واحداً لن يغيّر في مجموعها الكلّيّ، لكنّها كانت كمن تفاجأت بصورتها في المرآة بعد أن ظهر في رأسها الشيب، أهذه أنا؟ أحقّاً أنا هي هذه! ألم يكن ممكناً أن أفرّغ رغبات جسدي بإصبع أو بوسادة أو بأيّ شيء! ولكن لو فعلت ذلك فمن سأكون اليوم؟ سأكون غير محتاجة لأن ألوم أحداً، ولكنّني سأكون في الوقت ذاته عاجزةً عن لومَ أحداً!

ماذا لو كان لنجمة أن تخاطبها، ماذا كانت ستقول؟ هل ستلومها على ما فعله بها بدر؟ أم هل ستكون ممتنّة على كلّ إحساس بالوجد أحسّته بفضل حبّها له؟ هل كانت ستدرك حبّها ليلى دون شوقها لبدر؟ ألم تكن لتصفعها بفكرة الحبر الحقيقيّ! ألم تكن لتقول لها: بل أنت الخالقة التي أردت أن تعلمي حقيقة خلقك! أنت من أراد أن يملك حبراً حقيقيّاً يمارس به شهوة الخلق! أليست هي ذاتها عائشة قادرة على أن تقول مثل ذلك لله؟ لقد قالت ما هو قريب جدّاً منه.

ورغم ذلك، كان ثمّة بصيص أمل، فهي تغيّرت حقّاً، لقد قالت: لا! قالت للمرّة الأولى في حياتها: لا! نعم، كانت قد قالتها من قبل، لكنّها كانت تقولها لنفسها لا للآخرين، كانت تقولها لجسدها، كانت تقولها لتساؤلاتها، كانت تقولها لقلبها، وها هي للمرّة الأولى تقولها للآخرين، ولربما كان عليها أن تعانق حقيقتها غير الكاملة، ونفسها غير المتّزنة، وجسدها غيرالطاهر، ولسانها غير الصادق، عناقاً طويلاً تامّاً حميماً، لكي تتمكّن أن تقول لا واحدة لمن حولها.

كانت تبحث عن الفرحة في رفوف ذكريات أخرى غير التي تعلّمت أن تبحث فيها، كانت تبحث عنها في عيني سارة، وفي صوت سمر، وفي دهشة باسل مما تكتب. تذكّرت كيف استقبل الأسطر التي كتبتها

بوصفها خاطرة، قائلاً: "هذه مثال ممتاز على قصيدة النثر الناضجة!"، وحينها أخبرته بأنّها لا تؤمن بوجود قصيدة غير قصيدة الشعر. جعلت تتذكّر ذلك الجدال الذي خاضته صادقة في انزعاجها، إذ لم يكن يرضيها أن تدمّر صرح الشعر الذي بناه قومها، لكي تقول: أنا شاعرة!

قرأ باسل نصّها بعد أن تناوله من يدها غير المبالية:

"***ضفاف البدر***

كتابة الطالبة: عائشة جلال

على ضفاف البدر،

تختفي النجوم،

رغم أنّها هي التي تنير،

رغم أنّها هي من يحترق،

وهو يجلس ببروده المعود،

في عرش السماء،

مستغلاً قربه،

ليقول: بيدي مقاليد الزمن،

بيدي مقاليد المدّ والجزر،

أنا ربّ العالم السفليّ،

أنا أوزيريس،

اعبدوني،

فليس لليلكم إله غيري.

والنجوم التي يخفيها نوره المستعار،

تحترق لتمنح أجراماً باردة صغيرة أخرى،

من الضياء ما يدّعون به مثل هذا!"

قال باسل: "ويلاه! هذا مثال يدرّس على قصيدة النثر الناضجة!"

ردّت عائشة: "وما المثال على مسرحيّة الرواية، أو على أقصوصة النظم!"

وكادت أن تضحك نشوةً بعبارتها الذكيّة.

باسل: "سأشكوك إلى سمر، أنت تلغين جنساً أدبيّاً كاملاً بتظارفك هذا!"

عائشة: "الجنس الأدبيّ الذي يمكن لمثلي إلغاؤه، لا يستحقّ تصنيفه جنساً أدبيّاً!"

باسل: "أستطيع أن أعطيك ألف مثال على شعر موزون مقفّى اختيرت كلماته بعناية لا يترك بعض أثر هذه القصيدة في النفس!"

عائشة: "ربما أنت سريع التأثّر فقط!"

باسل: "ويلي منك! بعد قليل ستتّهمينني أنّني مثل أراذل المجتمع الأدبيّ الذين يذوبون أمام أيّ نصّ لأنّ التي كتبته أنثى!"

عائشة: "وهل هؤلاء موجودون فعلاً؟ لماذا تضحك على سؤالي؟"

باسل: "لا أضحك عليه، بل منه! أتخيّل كيف ستتفاجئين منهم خارج أسوار الجامعة."

عائشة: "بعد التخرّج سأكون معلّمة لغة عربيّة على هامش الحياة، لن أكون شخصيّة محوريّة في حياة الطلبة حتّى!"

باسل: "وما كلّ هذا التشاؤم يا فتاة! سأضيفك إلى مجموعة تحرير المجلّة، وستكونين اكتشافي العبقريّ، أتخيّل وجه هانية وهي تتحسّر على أنّها ليست هي من اكتشفك!"

عائشة: "ومن هانية هذه؟"

باسل: "بالنسبة لك هي رئيسة تحرير المجلّة. كانت المجلّة أكبر إنجازاتي عندما كنت في مثل سنّك، ولا أحبّ أن أراها تموت. تعلمين؟ أنا طالب ماجستير متطفّل، أحاول إعادة تشغيل شريط حياة الجامعة من جديد."

ضحكت عائشة من الفكرة، لكنّها لمحت بعينها التي باتت أبصر بتعابير الوجوه، وبأذنها التي باتت أكثر رهافة لالتقاط ارتياح النبرة، شغفاً عميقاً وشهوةً تحبّ أن تعيش مثلهما، وانتهى الحوار على وعد بالتقاء المجموعة في أحد أيّام الثلاثاء.

دعت صديقتها الوحيدة للاجتماع، لكنّ سارة لم تغيّر رأيها في التجمّعات الكبيرة، وهي تقصد بذلك "أيّ تجمّع يضمّ أكثر من شخص ونصف" على حدّ تعبيرها. أيّام سمعت هذا التعبير منها، سألتها: "وهل ترينا أقلّ من اثنتين؟"، فأجابتها: "أرانا روحاً واحدة!".

ذهبت بالفعل، كان اجتماعاً تعارفيّاً سريعاً خلال الاختبارات، ولم تتوقّع أنّه سيمتدّ ساعةً كاملة، ساعة كانت هي بطلتها الوحيدة رغم حضور هانية الساحر، فالجميع كان قد قرأ "قصيدتها"، وهي كانت تصرّ على أنّ خلع اسم قصيدة عليها هو أكبر ظلم يتعرّض إليه بوحها، فهو سيقارن بنصوص خالدة كقصائد ابن الرومي، والمتنبّي، والجواهريّ، قالت يومها مقولة هزّت نخلة الصمت حتّى تساقط الوقت الذي يسمح لها بالتفكير، قالت: "تخيّلوا هذا النصّ الرقيق، بين دبّابات تلك القصائد! ماذا سيفعل؟ بل ماذا سيفعل به؟".

هي الآن وبعد انقضاء مدّة العطلة، تتذكّر تلك اللحظات التي أحسّت فيها أنّها إنّما خلقت سمكةً على اليابسة وتعرّفت إلى البحر بعد نضجها، هذا هو أكثر مكان وجدت فيه نفسها، وربما لذلك لم تستطع أن توغل في لومها له. تتذكّر كيف دخلت القاعة، فوجدت باسل يجلسُ على إحدى الطاولات، وبجانبهِ فتاةٌ لم ترها من قبل. كانت هادئة الملامح،

ترتدي نظّارةً طبيّةً رقيقة، وشعرها الأسودُ مربوطٌ على شكلِ ذيلِ حصانٍ أنيق. كانت تفوحُ منها رائحةُ جدّيّةٍ وذكاءٍ هادئ.

"أهلاً يا شاعرة،" قال باسل بابتسامةٍ ودودة حينَ رآها، منعتها ابتسامته أن تظهر امتعاضها من اللقب، وأتمّ: "دعيني أُعرّفكِ، هذهِ هانية، زميلتنا في كلّيّة العمارة، لكنّها أديبة من خارج الكوكب، وهي العمودُ الفقريُّ لهذهِ المجلّة."

مدّت هانية يدَها، وصافحت عائشةَ بحزمٍ لطيف. "أهلاً بكِ يا عائشة. باسل لم يكفَّ عن الحديثِ عن قصيدتِكِ... 'ضفاف البدر'، أليس كذلك؟ أعجبتني جدًّا."

شعرت عائشةُ بارتياحٍ فوريٍّ تجاهَ هانية. لم يكن في صوتِها أيُّ أثرٍ للمنافسةِ أو التكلّف. بعد اكتمال الحضور، أخذ حوارُهم يدورُ حولَ الأفكار، حولَ خططِهم للعددِ القادم، وكيفَ يمكنُهم أن يجعلوا المجلّةَ صوتاً حقيقيّاً للطلبة.

كانت عائشةُ تُشاركُ بآرائِها بثقةٍ لم تعهدها في نفسِها، تجادلُ باسل في بعضِ النقاط، وتتّفقُ مع هانية في نقاطٍ أخرى، ثمّ تنتزع منهما اتّفاقاً هنا أو هناك. كانت تراقبُ الطريقةَ التي يتحدّثُ بها باسل مع هانية، فيها

احترامٌ وتقديرٌ وندّية. لم يكن هناكَ أيُّ أثرٍ لتلكَ النظرةِ الذكوريّةِ المُقوّضةِ التي اعتادت أن تراها في عيونِ الرجال.

لكنّ الهدوء لم يكن ليدوم، وقد اقترح باسل أن تكون "ضفاف البدر" قصيدة العدد القادم، هنا صرّحت عائشة برأيها حول فكرة قصيدة النثر، ووجدت هانية في ذلك مادّة دسمة لمناظرة معهودة، لكنّها رأت في صوت عائشة وجاهة جديدة، لا سيّما وهي لا تكتب الشعر الموزون المقفّى.

وانتزعت عائشة من نفسها ابتسامة وهي تتذكّر كلّ ذلك، ابتسمت عندما تذكّرت مقولتها التي خيّل لها أنّ الآخرين يقتبسونها: "ماذا يفعل نصّي بجسده الرقيق بين دبّابات القصائد الخالدة!"، إنّها مقولة في قمّة التواضع، لكنّها الآن تتذكّرها بغرور عجيب. وانتهى ذلك اللقاء بوعد باللقاء بعد ظهور نتائج الفصل الثاني، تلك النتائج التي مزّقت عائشة حتّى كشفت لها عن نفسها الجديدة.

عائشة اليوم جاهزة على الموعد، لقد انقضت عاصفة النتائج، وقد مرّت أيّام ترقّب ردّة فعل دلال على مقاطعتها كأنّها دهر كامل. لقد ابتلع اللوم كلّ من حولها، لقد جرّبت بكينونتها كاملةً ما الذي فاتها أن تكونه طيلة عمرها الذي لا تملك غيره. تستحقّ عائشة اليوم اسماً جديداً، لا عائشة التقيّة، ولا عيّوش الساخرة، فهي باتت تقيّة بصورة ساخرة!

حضّرت الطقم الذي اشترته دون مشاورة أحد، كان طقماً ساتراً يليق بحجابها، لكنّه لم ينته كالعادة بتنّورة من الأسفل، كان بنطالاً! كانت تعلم أنّها قد تدخل في جدالات، لكنّها كانت تملك المال الذي يجنّبها استجداء الآخرين موافقتَهم، ثمّ إنّه بنطال واسع، لو وقفت بطريقتها المعتادة، ضامّة رجليها إلى بعضهما، فسيظنّه الجميع تنّورة طويلة! هكذا كانت تزجي الأفكار في وعيها حتّى تخرج دون تردّد من منزل إبي عمر إلى لقاء اللجنة الثقافيّة.

ارتدت طقمها الموعود، فوق ثياب داخليّة شديدة التمرّد. نظرت في المرآة، ودّت لو أنّها تقول: "تبدين جميلة، أحبّ أن أتعرّف بك؟"، ولربما كانت لتتمّ: من أنت؟ من أنت حقّاً؟ ما الذي مررت به لتبدي بهذه الفتنة وهذا الوقار! بدت أمام ذاتها بوجه عائشة، وبعينيّ عيّوش، وبغواية دلال، وبارتياح سارة، وبانتصاب غريب عنها تماماً!

وحين عبرت الممرّ مسلّمة على أمّها، ثمّ مكملة إلى الخارج، صعقها الأمر! كلّ هذا التخطيط والخوف كان ضدّ وهم خالص! لقد رأتها أمّها ترتدي ثياباً جديدة بالكامل، ثياباً لا تشبه ثيابها ولا أسلوبها في انتقاء الثياب، وكلّ ما قالته هو: "هنيئا للجنة الثقافيّة بأناقتك!".

ورغم أنّها وصلت الموعد على الوقت، ذهبت لتشتري كأساً من القهوة، وكأنّها افتقدت شيئاً من هبّوش، وأحبّت أن تضيفه إلى تكوينها الجديد. كانت سارة تسخر دائماً من هوس المثّقفين بالقهوة، وهي سلعة استعماريّة لها ملايين الضحايا! لكنّها اليوم لن تأبه، ستكون أنانيّة، ثمّ إنّ سارة نفسها تشرب القهوة بكلّ حرّيّة رغم نقدها لكلّ شيء.

دخلت فوجدت الجميع وقد بدؤوا على الموعد تماماً، وكأنّها فوّتت جزءاً من حلم تنتظره. ورغم أنّها أحسّت بالغربة أوّل الأمر، لكنّها ودون أيّ تكلّف وجدت نفسها تشارك في اقتراح موضوعات تراها جاذبة: اللغة المثقلة بتاريخها، التاريخ في ثلاجة النصوص، الشيطنة مرآة التقديس الوسخة! وكلّ اقتراح بدا وكأنّه قنبلة يدويّة بلا مسمار أمان! كان الإعجاب لا يفارق عيني باسل لدى كلّ اقتراح تتلفّظ به، ولكنّه كان يحاول أن يبدو صوت العقل، أو ربما كان بمعارضته لها أحياناً يقول بوضوح إنّه لا يتعصّب لعائشة لأنّه اكتشفها! لم يكشف هذا الأمر عن وجهه بعد.

أمّا هانية، فكانت أكثر الحضور تأكيداً على وجاهة اقتراحات عائشة، كانت تبدي إعجابها بأريحيّة صادقة، تكاد عائشة أن تنكرها لشدّة ما تبدو طبيعيّة، بعكس أكثر كلام الفتيات المنتبهات دوماً إلى كيف يقال

الشيء. إنّها هانية حقّاً، ربما لم تمرّ بظروف تجبرها على الانتباه إلى ما يشغل حواسّ غيرها من بنات جنسها.

ثمّ قرّرت المجموعة باقتراح من باسل أن تزور مؤسّسة ثقافيّة معروفة، وتختلط بمجموعات في جامعات أخرى، فالأردنّ على أنّها من أكثر البلدان المنتجة للمحتوى العربيّ على الإنترنت لم تزل تفتقر إلى مجلّة طلابيّة وطنيّة! وهذه الفكرة بالتحديد أرسلت عائشة في غيبوبة قصيرة: "ليس الأمر سجن جسد الأنثى وحده، ولا سجن التقاليد معه، ولا سجن الدين الذكوريّ فوقهما، إنّه ثمّة سجن أوسع يشمل الجنسين، ويشمل أبناء طوائف مختلفة، إنّه سجن الجيل!"

باسل: "مسرور بحماستكم، ولكنّني مهتمّ برأي عائشة أيضاً... عائشة! عائشة! ما رأيك؟"

عائشة: "رأيي!"

باسل: "رأيك بالاحترار العالمي!"

هانية: "ما أظرفك! كفّ عن ذلك... عائشة كنّا نتساءل عن مشاركتك معنا في الزيارة."

عائشة: "بالطبع أحبّ ذلك... فكرة مجلّة لأبناء جيلنا جميلة."

هانية: "هذا مبكّر جدّاً، ولكنّها خطوة على الطريق... فالتحالف أوّله التعارف!"

باسل: "هذا موضوع جديد لمن أراد أن يلتقطه: التعارف سبيل التحالف."

ومضى الحوار إلى أن انفضّت الجلسة، وخرجت عائشة بمرافقة باسل، الذي ظلّ يمازحها حول كأس القهوة الذي لم تشرب منه شيئاً يذكر، وظلّت تحمله بارداً. كانت رائحة القهوة تذكّرها بنقيضين متحالفين داخلها: هبة ودلال.

في طريق البيت، لم تستطع ألا تهنّئ نفسها على كلّ شيء، كانت مدينة لنفسها بذلك، لقد مرّ الشهر الماضي كلّه، بل لقد مرّ الفصل الماضي بعواصفه، عواصف الطوفان الذي هدمها، وأعاد بناءها مرّة أخرى، لقد انكشفت العواصف عن قوس المطر، لقد نبتت مرّة أخرى من بذرة ذاتها في أرض أكثر هدوءاً.

ولكنّها عندما وصلت البيت كانت المفاجأة الكبرى بانتظارها! مفاجأة أكبر من كلّ ما سبق! أكبر من الفصل الدراسيّ الفائت كلّه! أكبر من كلّ ما مرّت به! أكبر حتّى من صوت نداء الذي بدا مجلجلاً وهي في باب العمارة: الله أكبر! أكبر من كلّ شيء عرفته حتّى تلك اللحظة! مفاجأة خطفت ملامحها تماماً، طردت كلّ فكرة جميلة، طاردت كلّ أمل بالخلاص!

انشقّ باب المصعد، فرأت أباها ورجالاً آخرين بالزيّ الباكستانيّ الشائع بين أتباع المذهب السلفيّ يغادرون البيت، بيت أبي عمر، بيت عائشة! وبينهم كان شخص تعرفه، نعم كان بينهم، أحسّت بما تبقّى لها من وعي أنّه أحسّ بوجودها ولو لم تره ينظر إليها، إنّها تعرفه كما لا تعرف أحداً، إنّه فرعون ذاته.

إنّه إياد!

أهو إياد فعلا؟ إنّه إياد! ولكن باكستاني! هل هو أخوه التوأم الذي لم تعرف بوجوده؟ إنّه إياد! هي متأكّدة، إذا كان لأخيه التوأم جيناته نفسها، فمن أين له هذا الإحساس الماكر بوجودها؟ إنّه هو. وجاء الصوت مؤكّداً من بئر السلّم: "شيخ إياد ما شاء الله عليـ.. "، وأغلقت الباب وراءها كمن يغلق خلفه تابوتاً!

الفصل الثّامن عشر : يد عائشة

لم يكن خوفاً. الخوفُ إحساسٌ حارّ، لهُ طعمٌ لاذعٌ في آخرِ اللسان، ولهُ أطرافٌ حادّةٌ تركضُ في الشرايينِ لتُنبّهَ الحواسَّ وتُشحذَها استعداداً للهربِ أو للمواجهة. ما شعرت بهِ عائشة، وهي تجلسُ في غرفتِها الخافتة الضوء، بعدَ أن أغلقت البابَ على ضجيجِ العالمِ الخارجيّ، الذي أصبحَ فجأةً تافهاً وبعيداً، كانَ شيئاً آخر، شيئاً لا اسمَ لهُ في قواميسِ المشاعر. كان فراغاً أبيض، شللاً ذهنيّاً بارداً، كأنّ أحدهم قد فتحَ جمجمتَها بمشرطٍ من جليد، واستأصلَ دماغَها وذاكرتَها وروحَها، ثمّ أعادَ إغلاقَها بعناية، تاركاً الجسدَ غلافاً فارغاً على السرير، دميةً من لحمٍ ودمٍ لا تعرفُ لماذا تتنفّس.

كانت تجلسُ على حافّةِ سريرِها، وظهرُها مستقيمٌ بصورةٍ مريبة، ويداها موضوعتانِ بهدوءٍ مُريبٍ فوقَ ركبتيها. عيناها كانتا مفتوحتينِ على اتّساعِهما، تحدّقانِ في بقعةٍ وهميّةٍ خلف الجدارِ الذي يسدّ أفقها، بقعةٍ بعيدة جدّاً، بعيدة لدرجة أنّها غير موجودة، لكنّها الآن أصبحت مركزَ كونِها المنهار. بدا جسمها الذي لم تعُدْ تحسّ به كأنّ أحدهم سكب فيه رصاصاً. الهواءُ في الغرفةِ كانَ ثقيلاً، راكداً، كأنّهُ هواءُ قبرٍ أُغلقَ لتوّه. كانت تسمعُ صوتَ أنفاسِها، شهيقاً وزفيراً، كأنّهُ صوتُ كائنٍ آخرَ

يُشاركُها هذهِ العزلةَ المُطلقة. وحتّى صوتُ الساعةِ على المنضدةِ بجانبِها، تلكَ التكتكةُ الرتيبةُ التي طالما كانت تُؤنسُ وحدتَها، بدت الآن كطرقاتِ قطعة معدنيّة على بابِ زنزانة.

أصابعها المتباعدة تقبض على ركبتيها، وكأنّها تعزّيها على ما احتملته حتّى بلغت غرفتها، وأظافرها بيضاء تماماً من الضغط المتواصل الذي يمنع الدم من الوصول. ماتت أطراف أصابعها. مات جلدها، وكأنّها نزفت دمها كلّه، حتّى بدا غلافاً بارداً لمومياء مهملة. وعيناها كانتا مفتوحتين على آخرهما في دعوة للضوء الرافض أن يصل إلى وعيها. كلّ شيء معتم، كلّ شيء ثقيل. وهي، هي وحدها، العدم المطلق.

الصورةُ كانت تعودُ إليها، لا كذكرى مُتسلسلة، بل تعود وميضاً حارقاً يُعمي البصرَ للحظة، ويترك الجلد يلمع تحت وهج الحقيقة الباردة. ما رأته يعود كبصمةٍ حُفرت على شبكيّة عينها بحديدةٍ مُحمّاة. وجهُ أبيها، تتساقط عنه قشور الذاكرة، ويخرج من الباب، تُزيّنُ ملامحَهُ ابتسامةُ رضاً، يرافق ضيوفَهُ للجامع القريب، مشيّعاً إيّاهم بعباراتِ المودّةِ التي اعتادَ ترديدَها دونَ أن تعني شيئاً. وبجانبهِ، كظلٍّ كثيفٍ لهُ، ككابوسٍ تجسّدَ فجأةً في وضحِ النهار، يقفُ "الشيخ إياد". الشيخ! كلمةٌ كانت ترنُّ في فراغِ جمجمتها بصدًى ساخرٍ مؤلم.

ربما لم تفارقها الكوابيس منذ أن وضعت أوّل قدم على تلك الدرب، لكنّ هذا ممّا عجزت كوابيسها عن تحضيرها له، فهذان في وعيها عالمان مستقلان، صدف أن تشاركا مساحةً واحدة، وصدف أنّ لديها القدرة على أن تكون في أيٍّ منهما، لكن أن تكون في العالمين معاً، وأن تذوب الحدود بينهما، فهذا اندماج نوويّ، ارتطام نجمين، واقع له إيقاع أضغاث الأحلام، خلطة سرياليّة عجز عقلها عن تخيّل أيّ مشهد منها.

لقد عبث أحد الآلهة بإعدادات الكون حتّى غدت الهلوسات واقعاً فجّاً! لقد استخدمت إحدى الأرواح الشريرة روايةً فاحشة مرعبة مادّةً للخلق، فصنعت من غلافها زيّاً باكستانيّاً يغلّف جسد الفحولة المتوحّشة، صانعاً منها "الشيخ إياد"! الزيُّ الباكستانيّ بدا غريباً مُقلقاً أكثر من أيّ مرّة سابقة، فهي لم تعد تستشعر الصلة بأبيها منذ أن داوم على ارتدائه قبل نحو السنة، لكنّه الآن على جسدٍ عرفتهُ في سياقٍ آخر تماماً، جسدٍ كانَ باديَ العورة، وقحاً، مُسيطراً، تفوحُ منهُ رائحةُ المذيباتِ وعرقِ الرجولة. اللحيةُ الكثّةُ التي تُغطّي الآن فكّاً عرفتهُ مشدوداً بالشهوةِ والإصرار، والعيون، تلكَ العيونُ التي لم تستطع يوماً أن تميّزَ لونَها من نافذتِها، وهي ترى ما ترى من لذائذ محرّمة، ها هي ذي الآن تنظرُ في الفراغِ بوقارٍ مُصطنع، كأنّها لم ترَ يوماً جسداً أنثويّاً يرتعشُ تحتَ وطأةِ اختراقها.

كيفَ يستقيمُ العالمان؟ كيفَ يحدث اندماج بين الوحشُ في المشغلِ مع الشيخِ في بيتِ أبيها؟ كانت تُقلّبُ الصورتين في رأسِها، صورة الوحش وصورة الشيخ، كمن يُحاولُ تركيبَ قطعتينِ من لغزينِ مختلفين، ولا يجدُ بينهما أيَّ نقطةِ التقاء. كانت كلُّ صورةٍ تُلغي الأخرى، وتحوّلُ الواقعَ إلى تفسّخ في برمجة العالم. أيُّهما الحقيقيّ؟ وأيُّهما الوهم؟ أم أنّ كليهما وجهانِ لحقيقةٍ واحدة، حقيقةٍ أشدّ رعباً من أيّ كابوس، حقيقةِ أنّ العالمَ ليسَ إلا مسرحيّةً هزلية، وأنّ الأقنعةَ هي الحقيقةُ الوحيدةُ التي نملكها؟ شعرت بأنّ جدرانَ الغرفةِ تتنفّسُ معها، تضيقُ وتتّسعُ بإيقاعِ أنفاسِها، وأنّ الهواءَ القليلَ المتبقّي يُسرَقُ منها شيئاً فشيئاً.

ضربات عقرب الثواني تمرّ طعناتٍ في ظهرها المُشرَع، وهي تغادر جسدها إلى عالم أقلّ كثافة، لكنّ آلام الطعنات لا تفارقها. إلى أين تهرب؟ بوّابة الأدب التي فتحت أفق جدار غرفتها المغلقة موصدة الآن، عليها قفل أكبر من البوّابة ذاتها، قفل الحقيقة الصلدة، قفل بارد مصمت اللون، حتّى الهواء الذي تتنفّسه معدنيّ الطعم. سجّادة الصلاة التي كانت بساط الريح لسندباد صلواتها، التصقت ببلاط الغرفة حتّى باتت نقوشاً باهتة عليه، فإن كانت السجّادة تحوّلت إلى مجرّد ديكور، فلا بدّ أنّ الله الذي شهد دموعها وأمنيّاتها، واستجاب أحياناً، لم يغادر عرشه! أحدث كلّ

هذا في غفلة منه! هل سئم من لوحة الكون المتقنة فأراق عليها علبة دهان أسود! أسود كلحية ذلك المسخ!

وبدأ الشكّ يتسلّق جدران قلبها: ما هي الخطّة التي تضمّ خطوةً كهذه؟ في أيّ سياق يمكنه أن يعرف أباها ويزوره؟ إن كان من جماعة الشيوخ التي بدأ أبوها يرتدي الزيّ الباكستانيّ منذ أن تعرّف بهم، فلا بدّ أنّ "الشيخ إياد" مستجدّ فيها! هل كان دائما يلعب دورَ التقيّ الورع أم أنّه بعد حصار دلال له لم يجد مهرباً من مصيبته إلا إلى الله؟ الله! ماذا يريد الله من كلّ هذا؟ لا بدّ أنّ الله معتاد على تقلّبات الخلق، ولكن هذا وحده يجعل أيّ عاقل يزهد بدور الإله!

وبعد أن فتّح الشكّ أبواب روحها المغلقة، دخل الخوف فضاءها يتمشّى بتؤدة مرعبة، دخل يجرّ أذيال نصر محقّق: أتراه أحدث لوالدها ذكراً يتعلّق بها؟ نعم، عمّان صغيرة، وصغرها يحتمل أن تكون دلال جارتَها، لكنها كانت حذرة، فلم يعلم إياد أين تسكن، ودلال حذرة جداً عليها، وحذرة منه، فمن الغريب أن ينخرط إياد أو "الشيخ إياد" الآن في مجموعة أبيها من أتباع شيخ الحيّ! إن كانت معرفته به مستقلّةً عن قصّتها معه، فهل سيخبره لاحقاً بشيء؟ لقد رآها تخرج من المصعد بوضوح، ليس في ذلك شكّ! ولكن ماذا سيفعل الآن؟ من ينقذها من

هذا كلّه سوى الله؟ واندفعت دمعة كانت تقف على طرف جفنها منذ أوّل خطوة خطاها الخوف، وعادت عائشة تحسّ بجلدها، تستشعر الدمعة تنزل ساخنة على وجنتها، فلا تصل ذقنها حتّى تكون بردت. إنّها هنا! عقلها هنا، وروحها هنا، وجسدها هنا، كلّهم تحت قصف الأسئلة، وتحت ركام الماضي الذي انهار فجأة فردم الحاضر.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) مرّت الآية بذهنها وكأنّها كانت تحلّق حولها لتستحثّ فيها أن تعود إلى الله، لن تطلب منه شيئا هذه المرّة، سيكون استسلاماً كاملاً لإرادته، إنّ الله يحبّ ذلك الاستسلام المطلق له، لقد ردّدوا حولها ولها معنى اسم الإسلام منذ بدأ وعيها، إنّه الاستسلام لله، أن تبيع نفسك له.

سجدت، هكذا على بلاط الغرفة، سجدت من فورها، لم يكن سجوداً معتاداً، كان مجرّد شكر، سجوداً لا يلزمه وضوء، ولا تلزمه طهارة، مجرّد شكر إلى الله لكونه قريباً، هي تحتاج أيّ كيان قريب، كيان تصدّق أنّه يعرف قصّتها، فهي تعلم أنّه ما من أحد يعرف كلّ ما تعرفه عن نفسها، وما يعنيه المشهد الذي رأته منذ قليل. قليل! لقد مرّت ساعتان طويلتان جدّاً، لكنّهما مرّتا فراغاً، هي لا تستطيع أن تقول إنّها كانت خلالها تفكّر في شيء.

كانت تبحث عن شكل بدائيّ جداً من الهدى، مجرّد أن يقول لك أحدهم: ابحث عن الحلّ؟ أو يصوغ لك السؤال، ومهما بدا السؤال لغزاً مستحيلاً يكفيك أن تعلم أنّه ثمّة حلّ ما لتَجِدّ في البحث عنه، لكنّها كانت في حيرة تشبه حيرة طفل تستقبل حواسّه الدنيا لأوّل مرّة، هي تمرّ في خبرة ما ولا تعلم ما هي، ولا ما تعنيه. هذا كان الهدى الذي جاء نتيجة السجود، فأخذت قرارها أن تعود لله، أن تحاول إرضاءه مهما كانت تكاليف ذلك عالية، فهو قد عاهد خلقه بأن يقبل توبتهم مهما عظمت ذنوبهم. قامت تغتسل مع أنّها ليست بحاجة شرعيّة للغسل، لكنّها حاجة رمزيّة، تطهّر ضروريّ لعبور عتبة جديدة، ثمّ عادت وصلّت صلاة المكروب، لا مجرّد صلاة من يريد أن يستشعر قرب الله منه.

خلال الصلاة عاهدت الله على ألا تتواصل مع دلال، وأن تهجر سارة، فما بينها وبين كلّ منهما لا يرضي الله الذي تعرفه، لقد عاد لله جبروته بعد أن جرّده الأدب من كثير منه. لقد كاد الأدب أن يحوّل الله في ذهنها إلى مفهوم، وها هي الحياة تعيد له شخصيّته الواضحة. إله يملأ عرشه، ويأتيه المحتاج سائلاً متذلّلاً، ثم يقبل بحكم الإله مهما يكن. لقد سلّمت نفسها لله كاملة، ولم تساومه على شيء، إلا شيئا واحداً: سفر التكوين الشخصيّ، فقد رأت أنّها قد تتخلّى عن صفحات منه، لكنّها لا يجوز

أن تلغي وجوده، حتّى إنّها قد تعكس بوعيٍ توبتها، التي بدت لها في حينها على الأقل توبة نصوحاً، على ما تكتب.

لطال ما كانت نجمة مساحة للتفريغ الفعّال والتنفيس عمّا يجول في خاطرها، انتبهت إلى أنّ الصلاة ذاتها لم تمنحها الراحة التي كانت تجيء بها الكتابة، هنا سألت الله: ألهذا أجريت على لساني ألا أستغني عن الكتابة؟ أهذه طريقتك في مخاطبتي؟ أنت تحبّ نجمة، وكيف لا تحبّها وهي النقاء كلّه، النقاء الذي لوّثته خيالاتي وذكرياتي المقنّعة. بدأت عائشة تحسّ بطول الصلاة، وأخذت مشاعرها إشارة إلى أنّها بحاجة أن تجلس لتكتب، وقد عاهدت نفسها على ذلك، لكنّها كان لا بدّ أن تظهر، فاختفاؤها المفاجئ من البيت، وسجن نفسها في غرفتها لن يمضيا دون تساؤل من الأهل، لقد طرقت أمّها الباب منذ قليل قبل أن تفتحه وتراها وهي تصلّي.

خرجت عائشة من غرفتها قبل صلاة العشاء بقليل، وحاولت أن تمثّل دور نفسها السابقة، فوجدت نفسها كممثل يحتاج أن يلقّنه أحدهم سطره، لكنّها سمعت شكوى أمّها خلال حديث مع أختها الصغرى عبيدة، واستنتجت بأنّ أمّها تشكو على الحقيقة أنّ أباها بدأ يتشدّد أكثر فأكثر، منذ أن واظب على دروس الشيخ أبي ميسرة، وأنّها تضايقت من زيارة

من سمّاهم "إخوته" له بعد صلاة الظهر، فهم يصرّون على عدم استخدام المعالق، وقد تركوا الصالة في حالة من الفوضى، وأدّت زيارتهم إلى سجنها في جزء من المنزل.

كانت هذه فرصة ذهبيّة لتعرف أكثر، فسألت أمّها: "ومن هذا أبو ميسرة؟ لم أسمع به من قبل!"، "ألم يدعك أبوك حتّى الآن إلى دروسه! يقولون إنّه عالم ومجاهد وأنّ كثيراً من أهل الحيّ يتوبون على يديه." أجابتها أمّها بلا مبالاة مغلّفة بالاحترام. قرّرت، وربما بصورة لا واعية، أن تستمرّ بالسؤال عنه حتّى عاد أبو عمر بنفسه ليشارك بالحديث. عندما دخل أبوها بدا في ساعة رحمانيّة، وكان يتحدّث بهدوء، ويسرد قصصاً من توبة بعض أهل الحيّ على يد أبي ميسرة، وكانت القصص تدفع بعضها بعضا في حديثه حتّى بلغ توبة جار لهم.

"شاب دخل المسجد قبل شهر تقريباً، ومنذ الدرس الأوّل قرّر أن يلتزم!" قال أبوها بفخر، وتابع: "لو ترون البكاء الذي بكاه، لقد كان يتمتم بكلام غير مفهوم، ويبكي بحرقة. وعندما أصرّ على سؤال الشيخ عن عظم الذنوب، أجابه الشيخ: كأنّك تشكّك في رحمة الله، إنّ من مظاهر رحمته أنّه ستر ذنوبك! وهنا ذاب الشاب بكاء، ثم تفاجأنا جميعا عندما وجدناه أوّل الواصلين لصلاة الفجر. تخيّلوا أنّه بقي ينتظر في الجامع منذ

الأذان الأوّل!" . لن يمرّ وقت طويل حتّى تفهم عائشة أنّ أباها إنما يتحدّث عن "الشيخ إياد"!

لقد أبطل ذكره السحر الذي كان يسيطر على حواسها، وتذكّرت أنّ أباها وأبا ميسرة وغيرهم من أهل الحيّ يغفرون ذنب إياد، ولا يريدون حتّى سماعه لأنّ الله ستر عليه كما يقولون، لكنّها لو سألت الشيخ عن مغفرة الله سيتبادر إلى أذهانهم شيء واحد: وما الذي فعلته هذه الفتاة؟ ولن يغفروا لها بالطريقة ذاتها.

قبيل أذان الفجر، وبعد أن نام الجميع، أخذت عائشة تقرأ ما كتبته على لسان نجمة التي تنتمي إلى دين آخر غير دينها:

"إن كنت المحبّة كما تدّعي، فلماذا تهدّدنا؟ هل أنت مثل بدر؟ بدر الذي سرت إلى بيته لكي أختطف لحظة من حلم، ففاجأني بكابوس ترك علاماته على جسدي! يا ربّ، لا عنف في الحبّ! لا يجتمعان! أتحتاج إحدى مخلوقاتك لتعلّمك هذا؟ أيّ ربّ أنت!

يا من تُعلّمني الصلاةَ وأنتَ تعلمُ أنّني أُصلّيها وقلبي في مكانٍ آخر، يا من تطلبُ منّي أن أُدعوكَ "أبانا" ثمّ تتركني يتيمةً في عراءِ أسئلتي، كأنّكَ أبٌ تنازلَ عن بنوّتي في أوّلِ منعطفِ شكٍّ. أتحبُّنا كما تقولُ

كُتبُكَ، أم أنّ حبَّكَ هذا فخٌّ منصوبٌ بعناية، تهديدٌ مُغلّفٌ بوعدِ الجنّة؟ إنّ حبَّكَ هذا يُشبهُ حبَّ بدر، حبٌّ يأتيكَ في الظلام، لا يُريكَ وجهَهُ، يأخذُ ما يشتهي ويرحل، تاركاً خلفَهُ جسداً مُرتعشاً وروحاً تحملُ ندوباً لا تمحى.

تطلبُ منّي التوبة؟ توبةً عن ماذا؟ عن جسدٍ أنتَ عجنتَهُ بيديك؟ عن شهوةٍ أنتَ نفختَ فيها من لهيبِكَ؟ عن قلبٍ أنتَ علّمتَهُ كيفَ يخفق؟ توبتُكَ هذهِ هراء، يا إلهي، إنّها أكبرُ خدعةٍ في كتابِ الكون. توبتُكَ مسرحيّةٌ هزليّةٌ نلعبُ فيها دورَ المذنبِ لكي تشعرَ أنتَ بجلالِ الغفران. تطلبُ منّا أن نُقطّعَ أجزاءً من أرواحِنا، أن نجلدَ رغباتِنا بسياطِ الخزي، ثمّ نُقدّمُها لكَ قُرباناً على مذبحِ تقواكَ المزعومة، لكي تبتسمَ في عليائِكَ وتقول: "اذهب، فقد غفرتُ لك". أيُّ غفرانٍ هذا الذي ثمنُهُ بترُ الذات؟ إنّهُ ليسَ غفراناً، بل هو إعلانُ نصرِكَ في حربٍ غيرِ متكافئةٍ بدأتها أنتَ حينَ خلقتَ الأفعى والتفّاحةَ والفضولَ في قلبِ حوّاءِ الأولى. أنتَ من زرعَ الشجرة، وأنتَ من روى ظمأها، وأنتَ من همسَ في أذنِنا عن حلاوةِ ثمرِها، ثمّ حينَ مددنا أيدينا الجائعة، لعنتَنا إلى الأبد.

أنتَ لستَ إلهاً، أنتَ مفهومٌ ظالم. أنتَ الكاتبُ الأعظمُ لهذهِ المأساةِ التي نُسمّيها حياة. تجلسُ في برجِكَ العاجيِّ، وتحرّكُ خيوطَنا كأنّنا دُمًى في

مسرحِ ظلّ. تستمتعُ بصراعاتِنا، تضحكُ من سقطاتِنا، وتُصفّقُ لدموعِنا كأنّها أجملُ المشاهدِ الدراميّة. أنتَ من خلقَ الشيخَ والقاتلَ من الطينةِ ذاتِها، ومنحتَ كليهما القدرةَ على الاختيار، ثمّ وضعتَ أمامَ أحدهما طريقاً مُعبّداً بالورود، وأمامَ الآخرِ حقلاً من ألغام. أنتَ من يضعُ قناعَ التقوى على وجهِ الوحش، قناعَ "الشيخ إياد" على وجهِ "بدر"، وتتركهُ يعيثُ في الأرضِ فساداً باسمِكَ، ينهشُ أجسادَنا باسمِكَ، ثمّ يعودُ ليُصلّي لكَ في آخرِ الليلِ طالباً المغفرةَ على خطيئةٍ كنتَ أنتَ شريكَهُ فيها. وأنا؟ أنا الضحيةُ والمذنبةُ في آنٍ واحد؟ يا لها من عدالةٍ عرجاء!

هل تعرفُ ما هي الخطيئةُ الحقيقيّة؟ هي أن أُصدّقَ هذهِ اللعبةَ بعدَ الآن. الخطيئةُ هي أن أظلَّ أركعُ أمامَ سماءٍ صمّاء، أُناجي فراغاً لا يُجيب، وأطلبُ الخلاصَ من سجّاني. لا يا ربّ، لقد انتهى زمنُ الصلاةِ لك، وبدأ زمنُ الصلاةِ فيّ. إذا كانت السماءُ فارغة، فسأبحثُ عن الإلهِ في مكانٍ آخر. سأبحثُ عنهُ في جسدي هذا الذي علّمتني أن أحتقرَهُ، سأجعلُ من كلِّ رعشةِ لذّةٍ فيه تسبيحة، ومن كلِّ شهقةِ توقٍ صلاة. سأبحثُ عن الخلاصِ لا في كتبِكَ القديمة، بل في لمسةِ ليلى، في حنانِها الذي لا يطلبُ توبة، في قربِها الذي لا يضعُ شروطاً. ربما الجنّةُ التي وعدتَ بها ليست فوقَ الغيوم، بل هي لحظةُ صدقٍ واحدةٍ نجدُها في حضنِ إنسانٍ آخر، لحظةٌ لا نحتاجُ فيها أن نرتديَ أيَّ قناع.

توبتي؟ ها هي ذي توبتي: أتوبُ إليكَ من كلِّ لحظةِ خوفٍ قضيتُها أرتجفُ منكَ. أتوبُ إليكَ من كلِّ دمعةِ ندمٍ ذرفتُها على خطيئةٍ أنتَ من دفعني إليها. أتوبُ إليكَ من تصديقي بأنّكَ عادلٌ، أو رحيمٌ، أو حتّى... موجود.

لقد سئمتُ دورَ "نجمة" في قصّتِك. سأكتبُ سفري بنفسي الآن، بحبرٍ من دمي وشهوتي ورفضي. ولتكن نهايتُهُ الجحيمَ الذي تُهدّدُ به. على الأقل، سيكونُ جحيمي أنا، من اختياري أنا.

فلتُطفئ شمسَكَ عنّي، فقد وجدتُ في عتمتي نوراً أشدَّ صدقاً."

أغلقت عائشةُ الحاسوب، لا بنقرةٍ هادئةٍ كمن يُنهي عملاً مُتقناً، بل بضربةٍ عنيفةٍ كمن يُغلقُ باباً حديدياً على وحشٍ أطلقهُ للتوّ ولا يعرفُ كيفَ أعادهُ إلى القفص. لم تشعر بذاك الصفاءِ المُطهِّرِ الذي كانت تنوي أن تصلهُ بنجمة، لم تبلغ توبتَها المنشودةَ التي رسمتها كخارطةِ نجاةٍ لروحِها التائهة. بل على العكس، وجدت نفسها غارقةً حتّى أذنيها في وحلِ تمرّدِ نجمة، تمرّدٌ بدا أصدقَ وأكثرَ حقيقةً من كلِّ محاولاتِ التوبةِ الهشّةِ التي مارستها هي على سجّادة الصلاة، تلكَ الطقوسُ الميكانيكيّةُ التي كانت تُشبهُ وضعَ ضمادةٍ صغيرةٍ على جرحٍ غائرٍ ينزفُ في الخفاء. قامت من كرسيّها، وراحت تجولُ في الغرفةِ كحيوانٍ حبيس، تشعرُ بأنّ

الكلماتِ التي كتبتها لم تعد حبراً على شاشة، بل أصبحت كياناً حيّاً، شبحاً يسكنُ زوايا الغرفة، يُحدّقُ فيها بعينينِ تحملانِ كلَّ عتبِ العالم.

وفجأةً، كصعقةِ برقٍ في ليلٍ صافٍ، ككشفٍ صوفيٍّ لا يأتيكَ إلا حينَ تتوقّفُ عن البحثِ عنه، أدركت الحقيقةَ كاملةً، حقيقةً جعلت جدرانَ الغرفةِ تميدُ بها وتضيقُ عليها كأنّها جدرانُ تابوت. نجمة لا تهاجمُ ربَّها البعيدَ في السماء، بل تهاجمُها هي. هي ربُّها، هي الكاتبةُ التي عجنتها من طينِ وحدتِها، ونفخت فيها من أنفاسِ رغباتِها المكبوتة، ووضعتها في أتونِ التجربة، ثمّ جلست تراقبُ عذاباتِها ببرودِ الخالقِ الذي يعرفُ النهايةَ ولا يتدخّل. شعرت بكراهيةِ نجمة تتسرّبُ من الشاشةِ المطفأةِ وتخترقُ جلدَها كإشعاعٍ سامّ، كأنّها تسمعُ صوتَها يهمسُ من بينِ السطور: "أنتِ من فعلَ بي كلَّ هذا! أنتِ من ألقاني في البيتِ الأبيض، أنتِ من سلّمني لوحشيّةِ بدر، وأنتِ الآن تجلسينَ هناك، تحلّلينَ ألمي كأنّهُ مجرّدُ حبرٍ على ورق!".

امتدّت يدُها المرتجفةُ إلى الهاتف، كغريقٍ يمدُّ يدَهُ لآخرِ قشّة. أرادت أن تتّصلَ بسارة، تلكَ الروحُ الوحيدةُ التي قد تفهمُ هذا التداخلَ المُرعبَ بينَ الخلقِ والخالق، بينَ الواقعِ والرواية. كتبت رسالةً سريعة: "أحتاجك". لكنّها توقّفت قبلَ أن تضغطَ على زرِّ الإرسال. أصابعُها تجمّدت فوقَ

الشاشةِ الباردة. ماذا ستقول؟ كيفَ ستشرحُ لها أنّها تشعرُ بالذنبِ تجاهَ شخصيّةٍ من ورق؟ كيفَ ستبوحُ لها بأنّها تخافُ من مخلوقتِها، وأنّها ترى في عينيها انعكاساً لأسوأِ كوابيسِها؟ مسحت الرسالةَ بحركةٍ عصبيّة، وألقت الهاتفَ على السريرِ كأنّهُ جمرةٌ من نار، وشعرت بوحدةٍ سحيقة، وحدةٍ أعمقَ من أيِّ وقتٍ مضى، وحدةُ الخالقِ في كونِهِ الفارغ. هل يشعر الله تجاهها بما تشعره تجاه نجمة؟

في اليومِ التالي، كانت أغصانُ الكينا فوقَ بقعتهما المعتادة تتمايلُ كشَعرِ امرأةٍ حزينة. جلست عائشةُ تنتظر، والشمسُ ترسمُ على الأرضِ ظلالاً مُرتعشة. حينَ أقبلت سارة، لم تجد تلكَ الابتسامةَ التي تُشبهُ شروقَ الشمس، بل وجدت وجهاً شاحباً وعينينِ تحملانِ ثقلَ ليلٍ طويلٍ من الأرق. أخبرتها عن النصِّ الجديد، عن كيفَ أنّ نجمة أفلتت من بينِ أصابعِها، وأصبحت صوتاً مُستقلاً يُحاكمُها هي. وبينما كانت تشرحُ كيفَ أنّها تشعرُ بأنّها مدينةٌ لدلال بالكثير، وأنّ الفضلَ في نضجِ كتابتِها يعودُ لتلكَ التجاربِ الخطرة، وفي محاولةٍ يائسةٍ لتُبرّرَ لنفسِها قبلَ سارة ذلكَ الارتباطَ الذي لم تعد تفهمهُ، زلَّ لسانُها بما يشي بأنّها لم تزل تتواصل معها.

كانت الكلماتُ قد خرجت، ولم يعد هناكَ مجالٌ لسحبِها. تجمّدت ملامحُ سارة، واختفت تلكَ الابتسامةُ الدافئةُ وحلَّ محلّها قناعٌ من خيبةِ أملٍ باردة. وقفت فجأةً، والغضبُ يلمعُ في عينيها كشظايا زجاجٍ مكسور. "من يسقط من السماء تتلقفه الأرض،" قالت بصوتٍ هادئٍ وقاسٍ كصوتِ ارتطامِ حجرٍ على رخام، "لا أخشى عليكِ فأنتِ قادرةٌ وكاسرة، ولكنّني أخشى منكِ... فأنا لي تاريخي أيضاً، ومجرّدُ كذبِكِ عليَّ فتحَ جرحاً لم يشفَ بعد، وكنتُ أظنّهُ شُفي."

استدارت وتركتها دونَ أن تلتفتَ خلفَها. "سارة، انتظري!" صاحت عائشة، وركضت خلفَها، وأمسكت بذراعِها. "أنا آسفة! لقد قطعتُ علاقتي بها... أقسمُ لكِ أنّ الأمرَ انتهى تماماً بعدَ آخرِ مرّةٍ تحدّثنا فيها!" لكنّ شيئاً ما كانَ قد انكسر. صحيحٌ أنّ سارة تظاهرت بالتسامحِ في الأيّامِ التالية، لكنّها لم تعد سارة المعتادة. ازدادت المسافةُ بينَ روحيهما، وأصبحت لقاءاتُهما باردة، مُغلّفةً بطبقةٍ رقيقةٍ من حذرٍ لم يكن موجوداً من قبل.

مرّت أيّامٌ على آخرِ تواصلٍ باردٍ بينهما، وشعرت عائشةُ بأنّها معزولةٌ أكثرَ فأكثر. وفي إحدى الليالي، بينما كانوا يتناولونَ العشاء، وصوتُ الملاعقِ على الصحونِ هو الصوتُ الوحيدُ الذي يكسرُ صمتاً ثقيلاً، فاجأها أبوها

بسؤالٍ غريب: "عائشة، هل لديكِ زميلاتٌ مُتزوّجاتٌ في الجامعة؟" ثمّ استطردَ في حديثٍ عن أهمّيّةِ الزواجِ، وكيفَ أنّ الفتياتِ اللواتي يتزوّجنَ وهنَّ في مقاعدِ الدراسةِ قد عملنَ بأمرِ اللهِ على لسانِ رسولِهِ: "إذا جاءكم من ترضونَ دينَهُ وخُلُقَهُ فزوّجوه."

كانت عائشةُ غارقةً في اكتئابٍ صامت، في حالةٍ من التسليمِ الهادئِ لكلِّ ما يحدث، فلم تجد في نفسِها طاقةً لتُجادل. وافقتهُ بإيماءةٍ خافتة، فقالت له: "نعم يا أبي". أشرقَ وجهُ أبيها، ورأى في موافقتِها تلكَ دليلاً على تربيتِهِ الصالحة. "كنتُ واثقاً من أنّكِ ستكونينَ عندَ حُسنِ ظنّي بكِ يا ابنتي." ثمّ، ببساطةٍ قاتلة، ألقى قنبلتَهُ: "ولهذا، فقد رأيتُ في الشيخِ إياد، جارِنا الجديد، خيرَ من يتقدّمُ لكِ."

تجمّدت عائشة. توقّفَ الزمن، وأصبحَ صوتُ أبيها مجرّدَ طنينٍ بعيد. لم تشعر بقدميها وهي تحملُها إلى غرفتِها، ولم تسمع صوتَ أمِّها وهي تصرخُ في وجهِ أبيها من خلفِ البابِ المُغلق: "ما تفعلُهُ خطأ! أنتَ لستَ عاقلاً منذُ أن نجوتَ من سقوطِ تلكَ الرافعةِ ورأيتَ زملاءَكَ يموتونَ أمامَك!"

جاءَها صوتُ أبيها صارخاً يردُّ عليها، صوتٌ اخترقَ جدرانَ الغرفةِ وجدرانَ روحِها: "اسكتي! عائشة لم تغضب! لقد خجلت فقط!"

في الداخل، كانت عائشةُ قد انكمشت على نفسِها فوقَ السرير، في وضعيّةِ الجنين. كانت ترتجفُ بعنف، كأنّ حمّى جليديّةً قد أصابتها. تمنّت أن تبكي، أن تصرخ، أن تُخرجَ هذا الرعبَ الذي تجمّدَ في صدرِها. لكن... لم تكن هناكَ دموع. فقط هذا الفراغُ الأبيض، وهذا الارتجافُ الصامتُ الذي لا يتوقّف.

الفصل التّاسع عشر : المسبحة

توقّفَ الزمن. الأيّام لا تمرّ. الأمر ليس كتلكَ اللحظاتِ الشعريّةِ التي تتمدّدُ فيها الثانيةُ لتُصبحَ دهراً، بل كان توقّفَ قلبٍ مفاجئ، شريطَ سينما يتمزّقُ في منتصفِ أعنفِ المشاهد، فتذوبُ الصورةُ وتتحوّلُ إلى بقعةٍ ضوئيّةٍ بيضاءَ تحرقُ الشاشةَ وتُعمي البصر. كلُّ شيءٍ في داخلِ عائشة انطفأ في تلكَ اللحظة. ومرّ أيّام على ذلك، وأمّها المسكينة تحاول أن تفتح باباً للحوار معها، وهي لا تجد ما تقول. صمتها لم يكن صدمةً أو صرخةً أو حتّى شهقةً مكتومة، كانَ سكوناً مُطلقاً، سكوناً أعمقُ من الصمت، كأنّ أحدهم ضغطَ على زرٍّ خفيٍّ فأوقفَ كلَّ العمليّاتِ الحيويّةِ في روحِها، تاركاً الجسدَ مُجرّدَ آلةٍ لا تزالُ تتنفّسُ بقوّةِ العطالة.

لم تلتفت عائشة رغم تحذيرات أمّها المتكرّرة إلى ما سيحدث لو لم تسارع بقول: لا! ولكنّها كانت تحت تأثير مخدّر الصدمة الذي لن يغادر دمها بسهولة. "أبوك فهم أنّك موافقة. أنا أعرف كم هو مجنون! لقد خسر عقله يوم سقوط الرافعة، وسلّم روحه لكلّ من يدّعي أنّه شيخ، حتّى جاء أبو ميسرة وجماعته، ففقد كلّ صلة بالشخص الذي عرفته وأحببته!".

وبقيت معلّقةً بهول ما سمعته من فم أبيها قبل أيّام عن اقتراح إياد زوجاً لها، حتّى أنّها لم تصدم عندما بدأ الأمر يتحوّل إلى كلام شبه رسميّ عن

طلب إياد الزواج منها. لم يعد الأمر مجرّد اقتراح، بل صار خطبة، وهي عليها أن تجيب في يوم قريب.

خسرت عائشة روحها. رغم أنّها سيطرت سيطرةً تامّة على جسدها، وعيّوش متكوّرة في زاوية ما من زوايا روحها تبكي بحرقة، أمّا هي، فلا تقطع صلاةً، رغم أنّها لم تعد تدعو الله ليفعل شيئا. ثمّ بدأت عيّوش تنفخ في جمر روحها الكامن تحت رماد الحريق: هل لا يزالُ جزءٌ منها يتوقُ إليه؟ العقلُ، حصنُ "عائشة" الأخير، يصرخُ بالرفضِ والقرف، يرى فيهِ كائناً وضيعاً استغلَّ كلَّ شيءٍ فيها، فضولَها وخوفَها وجنونَها. العقلُ يكرههُ ويكرهُ نفسَهُ حينَ يتذكّر. لكنّ الجسد... آهٍ من خيانةِ الجسدِ وصدقِه. الجسدُ لهُ ذاكرةٌ مستقلّة، لا تخضعُ لمنطقِ العقلِ أو قوانينِ الأخلاق. الجسدُ لا يزالُ يتذكّرُ كلَّ شيءٍ حدثَ في السدّة، يتذكّرُ الرجفة، والخوفَ الممزوجَ بشهوةٍ غريبة، وذلكَ الإحساسَ الحارقَ بأنّها تموتُ وتحيا في آنٍ واحد. ذلكَ الإحساسُ هزّها، وكسرَ فيها شيئاً، وأيقظَ فيها شيئاً لم تكن تعرفُ بوجوده.

لكنّ الذاكرةَ لم تتوقّف عندَ حدودِ الإحساس. كانت تحملُ معها تفصيلاً صغيراً، تفصيلاً لم تُعرْهُ اهتماماً في خضمِّ العاصفة، لكنّهُ عادَ الآن ليضربَها كصاعقة. تفصيلٌ باردٌ وحاسمٌ كحكمِ إعدام. الشامتان. تلكَ

العلامتانِ الصغيرتانِ البنيّتان، واحدةٌ أكبرُ قليلاً من الأخرى، تستقرّانِ بجانب بعضِهما أسفل ردفِها الأيمن، ككوكبينِ صغيرينِ يدورانِ في فلكٍ سرّيّ. سرُّها الصغير، خريطتُها الجلديّةُ التي لا يعرفُها أحدٌ إلا كانت معرفته دليلاً دامغاً على أنّه رآها عارية أو شبه عاربة، إلا إن كانت أمّها تذكرهما منذ أن كانت عائشة رضيعة. ترى هل رآهما إياد! تذكّرت تلكَ اللحظةَ في المشغل، حينَ رفعَ فستانَها بتلكَ الحركةِ الخاطفة. تذكّرت نظرتَهُ الفاحصةَ التي لم تكن مجرّدَ شهوة، بل كانت نظرةَ من يمسحُ المكانَ بعينيه، يحفظُ تفاصيلَهُ، يُسجّلُ علاماتِهِ المُميّزة. لقد رآهما. لا شكَّ في ذلك. هذهِ الحقيقةُ الجديدةُ لم تكن مجرّدَ فكرة، بل كانت ثقلاً ماديًّا هبطَ على صدرِها، سحقَ ما تبقّى من هواءٍ في رئتيها. لم يعد الأمرُ مجرّدَ تهديدٍ غامضٍ بالفضيحة. لقد أصبحَ التهديدُ الآن ملموساً، مُحدّداً، لا يمكنُ دحضُهُ. لو ذهبَ إلى أبيها الآن، ووصفَ لهُ مكانَهما وشكلَهما بدقّة، فماذا ستقول؟ أيُّ كذبةٍ ستُقنعهُ بأنّ هذا "الشيخَ التقيّ" لم يرَ جسدَها عارياً؟ أيُّ محاولةٍ لإنكارِ معرفتِهِ بها ستتحطّمُ على صخرةِ هذا الدليلِ الدامغ. لقد أمسكَ بها من عنقِها. لم يعد مجرّدَ وحشٍ في ذاكرتِها، بل أصبحَ سجّانَها الفعليّ. كلُّ كلمةِ "لا" تُفكّرُ في قولِها، أصبحت الآن انتحاراً.

شعرت بأنّها محاصرة، بأنّ كلَّ أبوابِ النجاةِ قد أُغلقت في وجهِها. لكن، في قلبِ هذا اليأسِ المُطبق، في عتمةِ هذا النفقِ الذي لا يبدو لهُ نهاية، لمعَ ضوءٌ خافت. فكرةٌ بدأت تتشكّل، ليست خارطةَ نجاةٍ واضحة، بل خطةُ هروبٍ يائسة، خطّةٌ تعتمدُ على اللعبِ بقواعدِ السجّانِ نفسِه. الإسلام. الدينُ الذي كانَ قيدَها، قد يكونُ هو نفسُهُ مفتاحَها المؤقّت. "النظرة الشرعيّة". نعم. هذا هو. هذا هو السلاحُ الوحيدُ الذي تملكه.

حقٌّ منحهُ لها الدينُ نفسُهُ، حقٌّ لا يستطيعُ أبوها "الشيخ" أن يرفضَهُ دونَ أن يُناقضَ نفسَهُ. إنّها لا تستطيعُ أن ترفضَ الزواجَ مباشرةً، فهذا سيُثيرُ شكوكَهُ، وسيُعطي إياد الذريعةَ ليفضحَها. لكنّها تستطيعُ أن تُطالبَ بحقّها في رؤيتِه، في الحديثِ معه، "حتّى يُؤدمَ بينهما" كما يقولُ الحديث.

الوقت. هذا كلُّ ما تحتاجُهُ الآن. بضعُ ساعاتٍ، أو ربما أيّام، لتُفكّر، لتُخطّط، لتجدَ مخرجاً من هذا الكمينِ المُحكم. وهذهِ "النظرة الشرعيّة" ستكونُ هي الوقتَ الذي ستشتريه. لكنّها ستكونُ أيضاً أخطرَ مواجهةٍ في حياتِها. ستجلسُ معهُ في غرفةٍ واحدة، وحدَهما. ستُجبرُ على النظرِ في عينيه، على الاستماعِ إلى صوته، على تحمّلِ وجودِهِ القريبِ الذي يُثيرُ فيها كلَّ شيءٍ من القرفِ إلى الرغبةِ المكبوتة. ستكونُ مسرحيّةً مُتقنة،

ستلعبُ فيها دورَ الفتاةِ الخجولةِ المتردّدة، بينما في داخلِها، ستكونُ "عيّوش" تُشحذُ سكاكينَها، وتحضّرُ خطّتَها. ستُحوّلُ سلاحَهُ ضدّه.

ستستخدمُ "النظرةَ الشرعيّةَ" كفخٍّ له، لتظهره بصورة الذئب. ستستدرجُهُ ليُظهرَ وجهَهُ الحقيقيَّ، ليُحاولَ استغلالَ الخلوةِ بهما، ثمّ ستصرخُ هي أوّلاً، مُدّعيةً أنّهُ تحرّشَ بها، وأنّهُ ليسَ بالتقوى التي يدّعيها. ستصبحُ قصّتُها هي الأقوى، لأنّها ستكونُ قد حدثت تحتَ مظلّةِ الشرعِ نفسِه، وهنا إن استخدم الشامتين، فإنّه سيفضح نفسه أكثر وأكثر، فهذا يدلّ على أنّها صادقة فيما تدّعي.

قامت من السرير، وشعرت بأنّ ذلكَ الشللَ الجليديَّ بدأ يذوب، ليحلَّ محلّهُ تصميمٌ باردٌ وحاسم. لم تعد تلكَ الدميةَ الفارغة. لقد عادت إليها روحُها، لكنّها لم تكن روحَ "عائشة" الخائفة، ولا روحَ "عيّوش" المتهوّرة. كانت روحاً جديدة، روحَ مُقاتلةٍ جريحةٍ قرّرت أنّها لن تموتَ دونَ معركة. خرجت من غرفتِها، وواجهت أباها الذي كانَ ينتظرُ في الصالة، وجهُهُ يحملُ مزيجاً من الترقّبِ ونفادِ الصبر. وقفت أمامَهُ، ورفعت رأسَها، ونظرت في عينيهِ مباشرةً، وقالت بصوتٍ هادئٍ وثابتٍ فاجأها هي نفسُها: "بابا... قبلَ كلِّ شيء، من حقّي أن أجلسَ معهُ، وأن أتحدّثَ إليه. وحدَنا بما ترضاه الشريعة لأي خاطبين." اتّسعت عينا أبيها دهشةً،

ثمّ ارتسمت على شفتيهِ ابتسامةُ رضاً. لقد فهمَ طلبَها على أنّهُ علامةُ نضجٍ وقبولٍ مبدئيّ. لم يرَ الفخَّ الذي كانت تنصبهُ لهما معاً. "بالطبع يا ابنتي،" قالَ بفخر. "هذا من حقّكِ الشرعيّ. سأُرتبُ الأمرَ".

أخبرت سارة بخطّتها، ولكنّ سارة لم تشاركها الحماس. نعم، أيّدتها. ووافقتها أنّه مخرج معقول، لكنّها لم تكن متحمّسة، فربما أثّرت فيها المدّة التي عاشتها عائشة محنّطة لا تردّ على رسائلها، أو تجلس صامتة لا مباليةً، تحضّر نفسها للاستسلام للقدر. قالت سارة: "إن قرّرت أن تهربي من هذا كلّه، فربما أملك أن أساعدك، لكن ما دمت في بيت أهلك، فلا شيء مضمون!"

بعد أيّام، كانت تجلسُ في الصالةِ التي أُفرغت من كلِّ إنسانٍ آخر. أمُّها وعبيدة وعمر انسحبوا إلى غرفِ النوم، وأبوها أوصلَ "الشيخَ إياد" إلى الباب، ثمّ تركهما وانسحب إلى غرفة المعيشة، كأنّهُ يُسلّمُ الأمانةَ لصاحبِها. وقفَ إيادٌ على العتبةِ لثوانٍ، ثمّ دخلَ بخطواتٍ بطيئة، وردّ البابَ خلفَهُ، لم يُحكم إغلاقَهُ تماماً، فهذا ممّا لا يجوز عُرفاً، لكن لا بدّ أنّه كانت له نواياه. تركهُ مردوداً، تاركاً شقًّا صغيراً يفصلُ بينَ عالمِهما الخاصِّ هذا وبينَ بقيّةِ الشقّة. حركةٌ ذكيّة، محسوبة، تقول: نحنُ وحدَنا، لكنّنا لسنا معزولينَ تماماً. حركةٌ تُطمئنُ "الأبَ" وتُرهبُ "الفتاة". تقدّمَ

نحوها، وجلسَ على الأريكةِ المقابلةِ لها، تاركاً بينهما مسافةً كافيةً لتبدو "محترمة"، وقصيرةً كفايةً لتكونَ خانقة. رفعت عائشةُ عينيها ببطء، وواجهت نظرتَهُ لأوّلِ مرّةٍ دونَ ستارِ نافذةٍ أو عتمةِ مشغل.

اندفعت فيها قوّة عظيمة آتية من رحم مخطّطها الساذج الفعّال، ونظرت في عينيه، فلم ترَ ما كانت تتوقّعه. لم يكن إياد من دخل، ولم يكن حتّى الشيخ إياد، كان روحاً خالصة، لها نظرة كلّها ندم حقيقيّ ناقع الصدق.

كانت عيناهُ بحراً من ندمٍ لم تتوقّعه. لم يكن ما تراه بريقَ الصيّادِ الذي يُراوغُ فريستَهُ، ولا غطرسةَ المُنتصرِ الذي يستعرضُ قوّتَهُ، بل كانَ فيهما شيءٌ آخر، شيءٌ هشٌّ ومُنكسر، كسطحِ بحيرةٍ هادئةٍ بعدَ عاصفةٍ هوجاء، لا يزالُ يحملُ في أعماقِهِ ذكرى الطوفان. بدأت عائشةُ تشعرُ بأنّ درعَها يتصدّع، وبأنّ خطّتَها، ذلكَ البناءَ الورقيَّ الهشّ الذي شيّدتهُ من غضبِها وخوفِها، بدأ يترنّحُ أمامَ هذا الصدقِ المُباغت. وضعت هاتفَها على الطاولةِ بجانبِها، وهي تعلم أنّ تطبيق مسجّل الصوت سيكون عوناً لها مهما كان مسار الأمر.

"عائشة..." قالَ إياد، وصوتُهُ لم يكن ذلكَ الصوتَ الأجشَّ الواثقَ الذي حُفرَ في ذاكرتِها، بل كانَ يحملُ بحّةَ إرهاقٍ عميق، كأنّهُ لم ينم منذُ دهر. "أعرفُ أنّني آخرُ شخصٍ في هذا الكونِ تستحقّينَ أن تجلسي معهُ

الآن. وأعرفُ أنّ أيَّ كلمةِ اعتذارٍ ستخرجُ من فمي ستبدو تافهةً ورخيصةً أمامَ ما فعلتُه. لكن... لكنّني أرجوكِ أن تسمعيني. ليسَ لأُبرّرَ لنفسي، فما فعلتُهُ لا تبريرَ له، بل فقط... لكي تفهمي."

صمتَ للحظة، كأنّهُ يستجمعُ شظايا قصّةٍ مُبعثرة، ثمّ تابعَ وعيناهُ مُثبّتتانِ على نقطةٍ بعيدةٍ خلفَها، كمن يستحضرُ أشباحاً من الماضي: "أنا لم أولد شيخاً يا عائشة. أنا وُلدتُ في بيتٍ هلهَلَهُ الفقرُ، وخرّبتهُ المشاكل. بيتٌ لم أعرف فيهِ معنى كلمة' أهل'. كنتُ وحيداً، ضائعاً، أحملُ في قلبي جوعاً لكلِّ شيء: للمال، للقبول، وللحنانِ الذي لم أتذوّقهُ يوماً. وفي هذا الجوع... التقيتُ بدلال."

تشنّجَ جسدُ عائشةَ قليلاً عندَ ذكرِ اسمها.

"كانت أكبرَ منّي، وأكثرَ خبرة. رأت فيَّ الطينَ الخامَ الذي يمكنُ تشكيلُهُ بسهولة. كانت خليطاً خطراً لا يُقاوم: حنانُ الأمِّ التي لم أعرفها، وشهوةُ الأنثى التي لم أجرّبها. مدّت لي يدَ المساعدة، وانتشلتني من وحلي، وفي نفسِ الوقت، لفّت حولَ روحي خيوطَها الحريريّة، فأسرت قلبي وجسدي وجيبي. أقنعتني بأنّ العالمَ كلّهُ سوق، وأنّ كلَّ شيءٍ فيهِ يُباعُ ويُشترى، حتّى الحبّ، حتّى الشرف. أقنعتني بأنّ النساءَ كلّهنّ، في أعماقِهنّ،

مجرّدُ كائناتٍ تبحثُ عن اللذّةِ أو المصلحة، وأنّ كلمةَ' شريفة هي أكبرُ كذبةٍ اخترعها الرجالُ ليُسيطروا بها."

"وصدّقتها... لأنّ عالَمها كانَ يُثبتُ لي ذلكَ كلَّ يوم. كلُّ فتاةٍ كانت تعملُ معها، كلُّ زبونةٍ كانت تأتي إليها، كنَّ يُبحنَ بأسرارِهنَّ بسهولة، يمنحنَ أجسادَهنَّ دونَ تردّد، كأنّهُ لا قيمةَ لشيء. أصبحتُ أرى النساءَ كلّهنّ بعينيها هي: كائناتٍ نجسة، أو على الأقلّ... ضعيفةً أمامَ الإغراء."

"حتّى التقيتُ بكِ."

رفعَ عينيهِ ونظرَ إليها مباشرةً للمرّةِ الأولى، وفي نظرتِهِ شيءٌ من العبادةِ الممزوجةِ بالندم. "أنتِ كنتِ مختلفة. في ذلكَ اليومِ في المشغل، حينَ عرضتُ عليكِ تلكَ القطعةَ بوقاحة، كنتُ أختبرُكِ. كنتُ أنتظرُ منكِ أن تكوني مثلَ الأخريات، أن تضحكي، أن تجاريني، أن تقبلي اللعبة. لكنّكِ... لكنّكِ صفعتِني بردِّكِ.' استخدِمْهُ أنتَ!... تلكَ الجملةُ، يا عائشة، كانت كالصعقةِ الكهربائيّة. لم تكن مجرّدَ رفض، كانت إعلاناً عن وجودِ عالمٍ آخرَ لم أكن أعرفهُ، عالمٍ فيهِ كرامةٌ، فيهِ حدود. في تلكَ اللحظة، بدأت أراكِ أنتِ، لا انعكاسَ دلال أو فتياتِها. بدأت أرى شخصيّتَكِ، قوّتَكِ، جمالَكِ الحقيقيَّ الذي لا علاقةَ لهُ بالجسد. وهُيّمتُ بكِ."

ارتجفت عائشة. كانت الكلماتُ تنسابُ إلى داخلِها كبلسمٍ حارق، تُداوي جرحاً وتفتحُ آخرَ في آن. عيّوش في داخلِها تصرخ: "كذّاب! إنّها مسرحيّة! إنّهُ يعرفُ كيفَ يلعبُ على أوتارِكِ!"، لكنّ عائشة كانت تُريدُ أن تُصدّق، تتوقُ إلى تصديقِ أنّها لم تكن مجرّدَ جسدٍ مُشتهى، بل كانت شخصاً لهُ تأثير.

"أُقسمُ لكِ،" تابعَ إياد بحرقة، "بعدَ ذلكَ اليوم، تغيّرَ كلُّ شيء. أصبحتُ أتعاملُ معكِ برقّةٍ لم أتعامل بها مع أحد. أصبحتُ أخافُ عليكِ من نفسي. أصبحتُ أُحبّكِ، أُحبُّ فيكِ تلكَ الشُرفةَ التي لم يستطع أحدٌ أن يفتحَها."

"لكن... في ذلكَ اليومِ المشؤوم... يومَ أتيتِ إلى السدّة... لا أعرفُ ما الذي حدث. ربما هي رائحةُ المذيباتِ التي كانت تُسكرُ العقل، ربما هو الحرّ، ربما هو الشيطان. حينَ سقطَ حجابُكِ، شعرتُ بأنّكِ تخلّيتِ عن مبادئكِ، بأنّكِ أخيراً أصبحتِ مثلَ الأخريات. شعرتُ بخيبةِ أملٍ وغضبٍ وشهوةٍ عمياء. اعتقدتُ أنّ مقاومتَكِ كانت مجرّدَ دلال، وأنّكِ لا ترفضينَ الفعلَ نفسَهُ، بل ترفضينَ أن يتمَّ دونَ حماية... دونَ واقٍ ذكريّ. يا لغبائي! يا لحقارتي!"

غطّى وجهَهُ بيديه، وسمعت عائشةُ صوتَ أنفاسِهِ المُتحشرجة. "حينَ ذهبتِ إلى دلال، حينَ شنّت عليّ حربَها، لم يكن ما آلمني هو خسارةُ عملي أو تهديدُها. ما قتلني هو إدراكي للحقيقةِ كاملة. أدركتُ أنّكِ لم تكوني مثلَ الأخريات، وأنّكِ ذهبتِ إليها لأنّكِ شعرتِ بأنّني أخذت منك شيئاً دون تراضٍ. أدركتُ أنّني أجبرت الفتاةَ الوحيدةَ التي أحببتُها بصدق على فعل لا تريده. ذلكَ الندمُ، يا عائشة، كانَ هو الضربةَ القاضية. هو ما أخذني إلى الجامع، إلى الشيخِ أبي ميسرة. ذهبتُ أبحثُ عن توبةٍ حقيقيّة، عن غفرانٍ أعرفُ أنّني لا أستحقّه. لا أنكر أنّني ميّزت أنّك من أهل الحيّ! هذا لم يكن يحتاج ذكاءً فأنا رأيت خطّ الحافلة التي كنت تستقلّينها إلى المشغل، لكنّ هذه المعلومة كانت لأنّني أحببتك وحلمت بخطبتك منذ أن عرفت أنّك مختلفة عمّن رأيت من نساء! منذ إجابتك اللاذعة لي. أمّا دخولي إلى جامع الحيّ فقد كان بسبب الشعور بالإثم والضيق من فعلتي."

"وهناكَ، بينَ أبيكِ والإخوة، وجدتُ لأوّلِ مرّةٍ في حياتي عائلةً حقيقيّة. وجدتُ سنداً لم أعرفهُ. توبتي صادقة، يا عائشة، والله يشهد. وأنتِ سرُّها."

صمتَ، وتركَ كلماتِهِ الأخيرةَ تتردّدُ في صمتِ الغرفةِ الثقيل. ثمّ نظرَ إليها، وفي عينيهِ استسلامٌ كامل. "أعرفُ أنّني لا أستحقّكِ. وأعرفُ أنّكِ ربما ترينَ في طلبِ زواجي هذا مجرّدَ محاولةٍ أخرى لاستغلالِك. لكِ كلُّ الحقّ. أنتِ حرّةٌ في قرارِك. ارفضيني، وأُقسمُ لكِ بربٍّ هذهِ التوبة، أنّ سرَّكِ سيُدفنُ معي في قبري. لن أقولَ شيئاً، لن أُلّمحَ لشيء. سأختفي من حياتِكِ إلى الأبد."، وعيّوش كانت تصرخ: "هل أنت صمّاء! ألا تسمعين التهديد المبطّن فيما قاله! قومي الآن واصرخي ونفّذي خطّتك!"

كانت عائشةُ تُصارعُ في داخلِها. جسدُها كانَ يتذكّرُ لمستَهُ، وعقلُها يُحلّلُ كلماتِه، وقلبُها... قلبُها كانَ في حيرةٍ مميتة. عيّوش تصرخ: "تذكّري ما قالتهُ سارة! لا تثقي بمن خانَ الثقةَ ولو مرّة!"، لكنّ عائشة كانت ترى دموعاً حقيقيّةً تلمعُ في عيني الرجلِ الجالسِ أمامَها. هل يمكنُ للوحشِ أن يبكي؟ هل يمكنُ للظلمةِ أن تتوقَ إلى النورِ بصدق؟ وكان في مشهد الرجل الهشّ شيء مغوٍ لا قِبَل لها بمقاومته، تخيّلته أباها يبكي بعد أن تكسر قلبَه حقيقتها، وتخيّلته شريكاً صادقاً يمكن الاعتماد عليه. كان جسدها يذكّرها بأنّه أحبّ هذا الرجل بصدق، أحبّ فحولته البدائيّة، ووصل الجنّة على صهوته!

قامت من مكانِها، وشعرت بأنّ ساقيها بالكادِ تحملانِها. لم تنظر إليه، بل توجّهت نحو بابِ الصالةِ حيثُ ينتظرُ أبوها. وقفت على العتبة، واستدارت نحوهُ للمرّةِ الأخيرة. "سأُفكّر،" قالت بصوتٍ خافت. ثمّ التفتت إلى أبيها الذي كانَ وجهُهُ علامةَ استفهامٍ كبرى. "بابا،" قالت بصوتٍ استعادت فيهِ بعضاً من ثباتِها. "أحتاجُ وقتاً لأُصلّي صلاةَ الاستخارة. وبعدَها... إذا ارتاحَ قلبي للأمر، فلديَّ شروطٌ أُريدُ أن أتحدّثَ فيها."

كانت عيّوش تبصق في وجهها. أمّا هي، فلا تبالي بذلك، كانت تسير إلى غرفتها كأنّها محكومةٌ بالخيانة العظمى، وشعبها كلّه "عيّوش" ترمقها بنظرات الاحتقار، وربما ترميها بالحجارة، لم يكن جلداً للذات، بل ربما رجماً لها. وفي الوقت نفسه كانت تعلم أنّها تحتاج صدقاً مع النفس كصدق إياد مع نفسه ومعها. اعتذاره بدا لها أصدق من كلّ اعتذاراتها لسارة على كذبها المتكرّر.

عادت إلى غرفتِها، لا فتاةً تلجأ إلى ملاذها الآمن، بل جنديّاً ينسحبُ إلى خندقٍ مؤقّتٍ بعدَ جولةٍ من حربٍ لم تحسم بعد. أغلقت البابَ خلفَها، واستندت إليهِ بظهرِها، وشعرت بملمس الخشبِ يتسلّلُ عبرَ ثيابِها ليُلامسَ جلدَها، كأنّه يُذكّرُها بخشونة الواقع رغم لَمعانه. لم تكن في

حالةِ خشوعٍ تُهيّئُها لصلاةِ استخارة، بل في حالةِ حوارٍ داخليٍّ عاصف، كبحرٍ هائجٍ تتلاطمُ فيهِ أمواجُ الشكِّ والشفقةِ واليقينِ الهشّ.

فرشت سجّادةَ الصلاة. جلست عليها. لم تبدأ الصلاةَ فوراً. كانت تُعيدُ تشغيلَ شريطِ اللقاءِ في مسرحِ ذهنِها، تحلّلُ كلَّ كلمة، كلَّ نظرة، كلَّ تنهيدة. سرديّةُ إياد "المسكين" و"التائب" كانت لا تزالُ تتردّدُ في أذنِها، وصورتُهُ الهشّةُ الباكيةُ لا تزالُ تُثيرُ فيها مزيجاً من الشفقةِ والأمل. في المقابل، كانَ صوتُ عيّوش يجلدُها بلا هوادة، مُذكّراً إيّاها بنصيحةِ سارة وتحذيراتِها. كانت في حالةِ شللٍ تحليليّ، تُريدُ أن تُصدّقَ لكنّها تخافُ من أن تكونَ مغفّلة.

وقبلَ أن تحسمَ أمرَها، طُرقَ البابُ برفق. دخلَ أبوها، ووجهُهُ مُشرقٌ ومُطمئنّ. لم يأتِ ليسألها عن قرارِها، بل ليُبارك لها قراراً اعتبرَهُ قد اتُّخذَ سلفاً. "كنت أعرف أنّكِ لن تُخيّبي ظنّي يا ابنتي،" قالَ بصوتٍ يحملُ حناناً أبويًّا لم تعُدْ تعرفُ كيفَ تستقبلُهُ. "طلبُكِ لصلاةِ الاستخارةِ دليلُ رجاحةِ عقلكِ وحسنِ تربيتكِ. هذا هو الصواب. الشيخ إياد رجلٌ صالحٌ وقد تاب، وهذا الزواج حصنكِ وستركِ. ارتاحي أنتِ الآن."

ارتاحي! يعني أن تسلّم نفسها له! كانت كلماتُهُ صفعةً لاذعة البرود. أدركت في تلكَ اللحظةِ أنّ المهلةَ التي اشترتها لم تكن سوى وهم. أبوها

لا ينتظرُ قرارَها، بل ينتظرُ تسليمَها. هي ليست طرفاً في المعادلة، بل هي الموضوعُ الذي تمّ الاتّفاقُ عليه. شعرت بأنّ جدرانَ السجنِ التي بناها والدُها لا يمكنُ اختراقُها، حتّى لو كان السجّانُ يظهرَ بعضَ الندم.

في خضمِّ هذهِ العتمة، رنَّ هاتفُها. كانت خالتُها هبة. صوتُها جاءَ من بعيد، كضوءِ منارةٍ لسفينةٍ تائهة. "عيّوش... سمعتُ من أمِّكِ. ما الذي يحدث؟" لم تستطع عائشةُ أن تجيبَ بكلماتٍ واضحة، لكنّ هبة، بحدسِها اللاقط، فهمت من تكسّرِ صوتِها كلَّ شيء. "اسمعيني يا عائشة،" قالت هبة بحزمٍ وحنان، "أعرفُ أنّكِ شيخة، لكنّكِ لستِ كبقيّةِ الشيخات. في عقلكِ وقلمكِ دوماً نورٌ خاصّ، لا تطفئيه بتأثيرِ أبيكِ المريض. لا تسمحي لمرضِهِ أن يُصبحَ قدرَكِ."

بعدَ أن أغلقت الخطَّ مع خالتِها، أرسلت التسجيل إلى سارة التي فهمت كلّ شيء، ولكنّها فاجأتها برسالة تحليليّة لا تتعلّق بما يحدث معها، بل بما يحدث مع أبيها وإخوته المزعومين. كانت الرسالةُ تحليلاً بارداً وحادًّا لم تسمح لنفسِها أن تقوله وجهاً لوجه. "عيّوش، ما وصفَهُ إياد في جماعةِ الشيخِ أبي ميسرة، وهروبُ أبيكِ للتدينِ بعدَ صدمةٍ نفسيّة، وصدمةُ إياد نفسُه... هذهِ ليست توبة، هذهِ ديناميكيّاتُ الزمرةِ العقديّةِ المغلقة. إنّها جماعاتٌ تتغذّى على النفوسِ المنكسرةِ لتُجنّدَها في عالمٍ مغلقٍ على

ذاتِه، تُعطيها إحساساً زائفاً بالعائلةِ والهدف، مقابلَ ولائها المطلق. إياد لم يجد الله، بل وجدَ سجناً آخرَ أكثرَ أماناً من سجنِ دلال."

كانت كلماتُ سارة كالمشرطِ الذي يشقُّ الورمَ ليكشفَ عن حقيقتِه. وضعت السمّاعاتِ في أذنَيْها، وأعادت تشغيلَ التسجيل. هذهِ المرّة، لم تكن تسمعُ بقلبِها، بل بعقلِ "عيّوش" النقديّ المُسلّحِ بتحليلِ سارة. سمعت كيفَ تبدو قصّتُهُ عن دلال مُعدّةً بإتقان، وكيفَ يضعُ نفسَهُ في دورِ الضحيةِ الكاملة. سمعت الأعذارَ التي قدّمها لحادثةِ السدّة فبدت لها الآن تبريراتٍ سخيفةً ومُهينةً لذكائِها. ثمّ توقّفت عندَ جملةٍ بعينِها، جملةٌ مرّت عليها في المرّةِ الأولى دونَ أن تلتفتَ لأهميّتِها. قالَها إياد وهو يصفُ ردّةَ فعلِ دلال: "إنّها مُخيفةٌ وقويّة... ما زلت أخاف منها حتّى اليوم."

هنا انهارَ كلُّ شيء. الأملُ القليلُ الذي كانت تتشبّثُ بهِ تحطّم. تيقّنت أنّها كانت على وشكِ السقوطِ في فخٍّ هو الأذكى والأكثرُ خبثاً. إياد ليسَ تائباً، بل مُراوِغٌ محترف، حتّى وإن لم يكن يعي حقيقة نفسه! لكنّ الأهمّ... خلاصُها ليسَ في كشفِ "حقيقة" إياد، بل في إدراكِ "موازينِ القوى". دلال. دلال هي الوحيدةُ التي يهابُها. هي السلاحُ النوويُّ الذي يمكنُ استخدامُهُ. ندمت ندماً شديداً على أنّها لم تُنفّذ خطّتَها الأولى،

لكنّ الندمَ الآن لا يُجدي. لا بدّ من خطّةٍ جديدة، خطّةٍ تشتري لها ما هو أثمنُ من الوقت: القوّة.

خرجت من غرفتِها مرّةً أخرى، ووقفت أمامَ أبيها. "بابا،" قالت بهدوءٍ حاسم، "صلّيتُ استخارة، وشعرتُ بانشراحٍ في صدري. لكنّني لا أستطيعُ أن أقبلَ بهذا الزواجِ إلا بشرطٍ واحد." نظرَ إليها أبوها بارتياب. "شرط؟" "نعم. أن تكونَ مجرّدَ خطبة، لا أكثر. خطبة على منهج السلف، خطبةٌ تستمرُّ حتّى أُنهي دراستي الجامعيّة. بعدَها، لكلِّ حادثٍ حديث. هذا شرطي الوحيد، وإلا فجوابي هو: لا."

كانت مقامرة. لكنّها نجحت. لم يستطع أبوها أن يرفضَ شرطاً يبدو "عقلانيًّا" أمامَ الشيوخ. وافقَ على مضض، وهو يرى في ذلك انتصاراً لهُ على أيِّ حال. شعرت عائشةُ بأنّها تنفّست الصعداءَ لأوّلِ مرّةٍ منذُ أيّام. لقد اشترت لنفسِها سنتين، سنتينِ كاملتينِ لتُخطّط، لتجمعَ أوراقَها، ولتجدَ الطريقةَ المثلى لاستخدامِ "سلاحِ دلال".

جاءَ يومُ الخطبة. ارتدت عائشةُ الطقمَ الذي ارتدته يوم ذهبت إلى اجتماع لجنة المجلّة، كان تصريحاً منها أنّها متحرّرة نوعاً ما ولن تكون زوجةَ شيخ تقليديّة، وارتدت قناعَ العروسِ الخجولةِ الراضيّة. وصلَ الشيوخ، وجلسوا في الصالون، تفوحُ منهم رائحةُ العودِ والوقارِ المُصطنع. جلست مع أمّها

في غرفتها، وقلبُها هادئٌ بشكلٍ غريب. كانت تشعرُ بأنّها تُسيطرُ على الموقف. بعدَ قليل، دخلَ أبوها، وطلبَ منها أن تأتيَ معه إلى طرفِ الصالة، بعيداً عن أعينِ الرجال. "يا ابنتي،" قالَ بصوتٍ خفيض، "الشيخُ موجود، والإخوةُ شهود. هل أنتِ موافقةٌ على خِطبةِ الشيخِ إياد؟" نظرت إليه، وقالت بكلماتٍ محسوبة: "كما ترى يا أبي." لم تكن موافقةً صريحة، لكنّها في عُرفِ هذهِ المجالس، كانت أكثرَ من كافية، كانت توكيلاً رسميّاً لأبيها الذي هو أصلاً وكيلها الشرعيّ.

ابتسمَ أبوها ابتسامةً عريضة، وربّت على كتفِها، وعادَ إلى ضيوفِه. سمعت صوتَهُ يرتفعُ قليلاً وهو يُخبرُ المأذونَ بأنّ العروسَ موافقة. سمعت همهماتِ المباركة، وصوتَ المأذونِ وهو يتلو بعضَ الأدعية. ثمّ علا صوتُ أبيها بالفرحِ وهو يُعلنُ "تمامَ الأمر". بعدَ دقائق، دخلَ عليها مُتهلّلاً. "مباركٌ يا ابنتي... مباركٌ كتبُ كتابكِ." تجمّدت. "كتب كتابي؟ بابا! لقد اتّفقنا على خطبة!" سحبَها من يدِها إلى الممرّ، بعيداً عن الصالة، وهمسَ لها بحزم: "وما الفرق؟ الخطبةُ عندنا هي كتبُ كتاب. كيفَ سيراكِ وتجلسينَ معهُ طوالَ هذهِ المدّةِ دونَ رابطٍ شرعيّ؟ هذهِ هي الأصول، وهذهِ هي عاداتُنا. لا تُكبّري الموضوع!"، "لكنّ هذا ليسَ من الشرعِ في شيء!" قالت بصوتٍ مخنوقٍ بالغضب. "هذا من تقاليدِكم أنتم! لقد خدعتني!"، "لا ترفعي صوتَكِ!" قالَ بصرامة. "انتهى الأمر. أنتِ الآن

خطيبته بشكل رسميّ. تصرّفي على هذا الأساس!" كانَ كميناً. خلطةٌ قاتلةٌ بينَ الدينِ والتقاليدِ صاغها أبوها ليُحكمَ قبضتَهُ عليها، وربما صاغها المجتمع كلّه للهدف نفسه. لقد حطّمَ خطّتَها، وسرقَ منها سنتَيْها، وربطَها بهِ في دقائق. لم يعد هناكَ أمل، لم تعد هناكَ خطّة. لقد أُغلقت عليها أبوابُ الزنزانةِ للتوّ. نظرت إلى إياد عبر الباب، وكانَ يرمقُها من بعيد، ورأت في عينيهِ انتصاراً بارداً. نظرت إلى أبيها، ورأت خيانتَهُ الكاملة. لم يتبقَّ لديها سوى جسدِها ورفضِها الصامت. شعرت بحنقٍ عارم، غضبٍ أسودَ كقاعِ الجحيم، يغلي في عروقِها. همّت بالدعاءِ عليهم، بالصراخِ في وجوهِهم، بكشفِ كلِّ شيء.

لكنّها بدلاً من ذلك، انسحبت بهدوء، وقالت بصوتٍ جليديٍّ لا يحملُ أيَّ عاطفة: "عن إذنكم"، ومشت نحو غرفتِها، كأنّها تسيرُ في جنازةِ روحِها.

دخلت عائشة غرفتها وأغلقت الباب. لم يكن إغلاقاً عاديًّا، بل كان فعلاً نهائيًّا، كإغلاقِ بابِ قبرٍ على جسدٍ حيّ. لم يكن هناك بكاء، ولا صراخ، ولا حتّى ارتجاف. فقط سكونٌ جليديٌّ مُطبق، سكونٌ لهُ وزنُ الرصاصِ وكثافةُ الظلامِ في قاعِ بئرٍ مهجورة. كانت أصواتُ المباركاتِ الخافتةِ تصلها

من الصالة، همهماتٌ مُبهمةٌ كطنينِ حشراتٍ بعيدة، تزيدُ من إحساسِها بالغربةِ والانفصالِ عن هذا الكوكبِ الذي لم يعُدْ يتّسعُ لروحِها.

وقفت أمام المرآة. لم ترَ "العروسَ الخجولةَ" التي كانت ترتدي قناعَها قبل دقائق. رأت سجينة. رأت امرأةً حُكِمَ عليها دون محاكمة، امرأةً بيعت روحُها في سوقِ النخاسةِ المُسمّى "تقاليد". أحسّت بثقل الثياب على جسمها، أرادت أن تتنفّس. بدأت بخلعِ ثيابِ "الخطبة" قطعةً قطعة، لا بنعومةِ أنثى تستعدُّ للقاء، بل بعنفٍ مكتوم، كأنّها تسلخُ جلداً غريباً عنها، جلداً فُرِضَ عليها ليُخفي حقيقةَ روحِها المُشتعلة. سقطَ الجاكيت على الأرض على الأرضِ كرايةٍ مهزومة، لكنّ الحربَ في داخلِها كانت قد بدأت للتوّ.

جلست على حافّة السرير، عاريةً إلا من ثيابها الداخليّة، وهنا، بدأ الانهيار الحقيقيّ. لم يكن انهياراً بالدموع، بل بارتعاشٍ عنيفٍ صامتٍ هزَّ جسدَها كلّه، ارتعاشُ قهرٍ لا حزن، ارتعاشُ بركانٍ على وشكِ الانفجار. مساماتُ جلدِها انتصبت دفعةً واحدة، كجيشٍ صغيرٍ من الإبرِ الخفيّة، والهواءُ الباردُ في الغرفةِ لامسَ بشرتَها كصفعةٍ جليديّة.

ثمّ، في قلبِ هذا السكونِ المُرتجف، ومن خلال المرآة التي تغطّي باب خزانها، وقعت عيناها على سجّادة الصلاة المطويّة في الزاوية خلفها.

قامت إليها، لا كمن يقومُ لأداءِ واجبٍ دينيّ، بل ككاهنةٍ تحضّرُ مذبحاً لطقسٍ وثنيّ. أخرجتها، وفردتها على الأرض باتجاه القبلة فعلاً. ملمسُ قماشِها المخمليّ الخشن تحتَ قدميها العاريتين كانَ غريباً، كأنّها تمشي على رمالِ صحراءَ مقدّسة. لم تعد السجّادةُ قطعةَ قماشٍ صارت قبواً بارداً في رواية رعب أسود.

وهي تهمّ بالاستلقاء على السجّادة، وقعت عيناها على مسبحة أبيها، تلكَ الموضوعةُ بعنايةٍ على المنضدة، خرزاتُها السحريّة الكبيرةُ تلمعُ في الضوءِ الخافت. لم تكن مجرّد هدية، بل كانت تجسيداً لكلّ شيء: سلطة الأب، تديّنه الذي خانها، الله الصامت، والطهارة المزعومة، والتوبة المقبولة لكلّ رجل. امتدّت يدُها، وأمسكت بها. شعرت بوزنِها في راحتِها، وببرودةِ الحجرِ الصقيلةِ التي أرسلت في جسدِها قشعريرةً حارقة. قرّبتها من أنفِها، فشمّت رائحةً خفيّة، رائحةَ كهرمان كامنة، واستدعى ذلك رائحةَ عطرِ أبيها التي علقت بذهنها منذ أن حصلت على المسبحة جائزة لحفظها كتاب الله، رائحةُ السلطةِ والتقوى.

جلست جلوس الصلاة في وسطِ السجّادة، والمسبحةُ الكهرمانيّة في قبضتِها. بدأت "بالتسبيح"، لكنّ الكلمات التي خرجت من شفتيها لم تكن "سبحان الله"، بل لعناتٍ صامتةً همست بها روحُها الممزّقة. مع كلّ

خرزةٍ تمرّرُها بين أصابعها، كانت تُطلقُ صلاةً سوداء: "سبحان الأب الذي يبيع ابنته في سوقِ التقاليد"، "سبحان الشيخ الذي يغتصب ويتوب فيُصبحُ وليًّا"، "سبحان الإله الذي يرى كلّ هذا ويصمت"، "سبحان الخالق الذي لا يعرف الجسد الذي خلقه"، "سبحان الدين الكاذب"، "سبحان السجن المطبق".

مع كلّ تسبيحة خرجت بنبرة لعنة، كانت تشعرُ بشيءٍ مختلف. حرارةُ غضبِها بدأت تُذيبُ برودةَ الخرزات. بدأت تشعرُ بها بين أصابعها لا كأداةِ صلاة، بل كحجر ملوكيّ دفّأه جسمها. قارنت استدارةَ خرزاتها بحبّاتِ اللؤلؤ الصناعيّة في ألعاب دلال الجنسيّة. قارنت صلابتَها بصلابةِ وتدِ دلال، الذي لم يعد لإياد علاقة به، إنّه خالقه نعم، لكنّه خالق خائن كربّ أبيها وربّ أبي ميسرة وربّ إياد. هنا سقط الحاجز الأخير. لقد سقطت ورقة التوت الأخيرة عن الله. لم تعد المسبحةُ رمزاً للذِكْر، بل أصبحت رمزاً للذكَر. شدّت سلك خرزاته فانتصبت المسبحة قضيباً من حجرٍ مُقدّسٍ، إنّها الآن رمز القدسيّة والأبويّة كما كانت من قبل، لكنّها رمز للذكورة أيضاً.

إنّ اجتماع هذه الرموز في شيء واحد بين يديها، كان كأنّها تقبض على الإله ذاته، فتخيّلته بين يديها، تريد منه أن يرضي غروره، تريد أن تعرّيه

أمام نفسه، وعلى سجّادة الصلاة التي ابتكرها محتكروه. "إن كنت تحبّ أن أغتصب، فلتغتصبني بنفسك! لماذا يجب أن تستعير قضيب عبدك الشكور؟" قالتها همساً، والدّم يتدفّق إلى وجهها لا إلى خاصرتها! "هل أنت عاجز يا ربّ!"، "هل أنت عنّين؟"، ها هو رمزه بين يديها، ها هو رمزهم جميعاً، وستستخدمهُ لتدنيسِ كلِّ مقدّساتِهم.

"صلاتي هذه ليست لكم،" أعلنت في داخلها، "بل ضدّكم. قرباني هذا ليس للخلاص، بل للهلاك." كانت الآن كاهنةَ ديانتِها الخاصّة، ديانة الرفض المطلق.

استلقت على ظهرِها فوقَ سجّادة الصلاة، مستقبلة المرآة بوجهها وظهرها للقبلة. ملمسُ الزخارفِ النافرةِ ضغطَ على جلدِ ظهرِها العاري، كأنّهُ يتركُ وشوماً خفيّة، وانتبهت أنّها فوّتت الكثير عندما شعرت بدغدغة وبر السجّادة على مؤخّرتها. رفعت ساقيها، وباعدت بينهما، كاشفةً عن أضعفِ نقاطِها وأقواها في آنٍ واحد. أمسكت المسبحةَ بكلتا يديها، وبدأت طقسَها الانتقاميّ.

لم يكن الفعلُ بحثاً عن لذّة. كلُّ حركةٍ كانت فعلَ تدنيسٍ مُتعمّد. هي لا تحفر كي تتدفّق ينابيعها، بل تُقيمُ "قدّاساً أسود" على شرفِ موتهِم في قلبِها. لامست أوّلُ خرزةٍ باردةٍ شفاهها الخارجيّة، فشعرت بصدمةِ

البرودةِ على جلدِها الحارّ. حاولت أن تدفعَها، لكنّ جدرانَها الداخليّةَ كانت جافّة، مُنقبضة، تقاومُ هذا الاقتحامَ الغريب. شعرت بألمٍ حارق، ألمِ التصاق الحجر الصقيل بجلد غيرِ مُهيّأ. لم تتراجع. كانَ هذا الألمُ جزءاً من الطقس، ضريبةَ العبورِ إلى الضفّةِ الأخرى. مع كلِّ وخزةِ ألمٍ من احتكاكِ الخرزاتِ، ومع كلِّ رعشةٍ جسديّةٍ كانت تنتزعُها من جسدِها، لم تكن تشعرُ بالشهوة، بل بالانتصار. كانت تستعيدُ جسدَها من خلالِ انتهاكِ أقدسِ رموزِهم. كانت تخترقُ نظامَهم الأبويَّ برمزِهم نفسِه. كلُّ تأوّهٍ لم يكن أنّةَ متعة، بل صرخةَ نصرٍ على ضعفِهم ونفاقِهم.

ثمّ ثنت المسبحة وشدّت طرفها، فانتصب القضيب الإلهيّ بين يديها! قضيب مزدوج، خرزاته متجاورة تدفع بعضها بعضاً، كأنّها صفّ المصلّين الذين يجاهدون في سبيل اضطهاد الأنثى كالبنيان المرصوص!

استدعت وجوهَهم في عتمةِ وعيِها: وجه أبيها الراضي، وجه إياد المنتصر، وجوه الشيوخ المُبارِكة. لم ترهم ذكوراً بعد الآن، إنّهم آلهة صغيرة بوحشيّة الربّ الذي سمح بكلّ هذا، إنّهم شياطين حقيقيّة يستحقّون الرمي بالجمار. كانت ترجمُهم بخرزاتِ المسبحة، كلُّ خرزةٍ تدخلُ كانت حجراً يُلقى على صورةِ واحدٍ منهم، تحطّمُهُ، تمحوه. كانت تُطهّرُ معبدَها الداخليَّ من أصنامِهم بأسلحتِهم هم. كانت تشعرُ بالخيطِ الرفيعِ الذي

يربطُ الخرزاتِ يحتكُّ بإصبعها وكرزتها، وتستشعر بكلِّ خرزةٍ تتبعُ أختَها في رحلةِ الغزوِ البطيئة، تُوسّعُها، تملؤها بصلابةٍ مُقدّسةٍ ودنسةٍ في آن.

الإيقاعُ تسارع، والغضبُ تحوّلَ إلى لهيبٍ أبيضَ نقيّ. لم يعد هناكَ ألم، فقط هذهِ القوّةُ المُدمّرةُ التي تتدفّقُ منها وإليها. شعرت بأنّها تتّحدُ مع المسبحة، لم تعد أداةً، بل أصبحت جزءاً منها، امتداداً لغضبِها، قضيباً من حجرٍ وإرادة، إلهاً تأخذه بيدها لكي يفهم جسدها! بدأت رائحةُ جسدِها المُستثارِ تمتزجُ برائحةِ الكهرمان، وبدأ عرقُها المالحُ يُبلّلُ قماشَ السجّادةِ تحتَها.

الذروةُ لم تكن ذروةً شهوانيّة، بل كانت انفجاراً كونيًّا. تفريغاً كاملاً لكلِّ ذلك الحنقِ والقهرِ الذي تجمّعَ في روحِها عبرَ السنين. صرختُها المكتومةُ لم تكن صرخةَ نشوة، بل كانت صرخةَ ولادةٍ جديدةٍ من رحمِ الدمار. ارتجفَ جسدُها بعنفٍ كأنّ روحاً قديمةً تُنتزعُ منهُ لتُفسحَ المجالَ لروحٍ أخرى، أقوى، وأكثرَ قسوة. شعرت بذلكَ السيلِ الحارقِ يتدفّقُ منها، لا كشهدٍ لذيذ، بل كحممٍ بركانيّةٍ تُطهّرُ الأرضَ وتحرقُ كلَّ ما عليها من زيف، لقد بلّلت المسبحة، وطهّرتها من زيف الدين الذكوريّ الذي اختطفها، وغسلت نفسها من كلّ حكم إدانة أصدرته بحقّ نفسها أو بحقّ دلال! "إنّ هذه هي طبيعة الجسد الذي خلقته يا إله الخرز، يا من

أوحيت إلى عبادك أن يحملوا هذه الخرزات ويداعبوها في صلاتهم لكي تنتشي، انتشِ الآن أيّها الإله العنّين، انتشِ لأوّل مرّة في جسد أنثى نزّهت نفسك عن أن تتّخذها صاحبة، انتشِ فقد أعطيتك الاغتصاب الذي تحلم به، لقد تمكّنت من جعلك تنتصب أخيراً يا أزليّ العجز!" كانت تقول ذلك وترى وجهها يتغيّر في المرآة، وكأنّها تنزع قناعاً طال أن أجبرت على ارتدائه حجاباً جلديّاً فوق الحجاب القماشيّ! أخذت تهتزّ بعنف، وقرف، وحقد، وجسدها يستجيب لكلّ هذا بطريقته، ثمّ أغلقت عينيها على صورتها في المرآة، هي ليست عائشة التي يعرفها الناس، وليست عائشة كما تعرف نفسها، وليست عيّوش التي تحبّ، إنّها كائن جديد منذ الآن. أفلتت المسبحة التي سقطت مقابل واديها المقدّس، وعاد صوت عيّوش يقول: "إنّه الآن في واديه المقدّس طوى"، فانتزعت عيّوش ابتسامة من عائشة.

بقيت مُلقاةً على السجّادة قليلاً، جسدُها مُنهك، لكنّ روحَها كانت هادئة. ليسَ هدوءَ السكينة، بل هدوءَ ساحةِ المعركةِ بعدَ أن وضعت الحربُ أوزارَها. نظرت إلى المسبحة بين رجليها، مُلطّخةً بشهدِ تمرّدِها. لم تعد رمزاً لأيّ شيء، لقد أفرغتها من كلّ معانيها القديمة. أصبحت مجرّدَ خرزاتٍ حجريةٍ على خيط، شاهدةٌ صامتةٌ على طقسِ تحرّرِها من نفسها، ومن صورة الربّ التي زرعت في داخلها طفلة! كانت عيّوش في داخلها

عالمةً بالمصيبة الكبرى التي هي فيها، لكنّها لم تملك أن تمسك نفسها عن عقد المقارنات اللفظية المضحكة، فقرنت بين الله والآه، ومنحت الربّ نقطة على رائه، فانفجرت ضحكاً.

قامت ومشت قليلاً في الغرفة عاريةً، ونظرت إلى الستارة الكثيفة التي تغطّي الشبّاك، وهي تتخيّل المشهد وراءها، ووراء الشبّاك ذاته. ثمّة رجل ملحق بعضوه ربما يمتّع نفسه الآن تحت ستار الإحصان، ويشعر أنّ الله ذاته يعمل في خدمة ذكورته. إنّه إياد الذي بقي متلاعباً سواءً أكان صانعاً لأدوات اللذّة، أو شيخاً يداعب خرز الإله. كانت أفكارها مختلفة هذه المرّة، لقد انفجر في داخلها نبع جرأة متدفّق لا ينقطع، وأدركت أنّها إن حافظت عليه، فهو سيكفي لإرباك أيّ رجل. تستطيع بكلمة واحدة أن تسحب الدم من خاصرة أيّ رجل إلى أذنيه! كانت حاقدة هادئة، فقد علمت أنّ تخبّطها هو ما أودى بها لتعلق أكثر في رمل الرجال المتحرّك. لقد علمت يقيناً أنّها بحاجة إلى حبل وخطّة، ويدين قويّتين تتشبّثان بهذا الحبل، لا بدّ أنّ هذا الحبل له علاقة بطريقة أو أخرى بدلال، دلال التي لم تعد تنظر إليها بإدانة أو بشهوة، بل نظرت إليها كمن فكّ شيفرة الرجال وتعايش معهم، وهي تحتاج مساعدتها، لكنّها لن تتعايش، بل ستسحب مسمار قنبلتها وتلقيها في حضنها هي، صارخة: "عليّ وعلى أعدائي"، إنّها تملك خطّة بديلة، فاعتراف إياد الذي يبرّئها إلى حدّ ما،

موجود إذا ألجأها الواقع إلى استعماله، ولكنّها قد تحصل على صفقة أفضل إذا استشارت خبيرة مهيبة كدلال، فهي سمعت الرعب في صوته عند ذكر اسمها في كلّ مرّة أعادت فيها التسجيل.

أخفت عريها تحت يانس الصلاة، وحملت ثيابها لتستحمّ. بدأ البيت يخلو من الضيوف، ويغلّفه صمت المفاجأة بالمصيبة، حتّى أبوها كان خجلاً من فعلته التي ارتكبها برخصة من التقاليد. اغتسلت. لا بنيّة التطهّر من الجنابةِ، بل كان غسلَ العُمّادِ لُمباركةِ روحٍ وُلدت من جديد. هي الآن ليست عائشة ولا عيّوش. هي كائنٌ آخر، وُلدَ من رحمِ الرفض، لا يعرفُ بعدُ إلى أينَ سيذهب، لكنّهُ يعرفُ يقيناً أنّهُ لن يركعَ أبداً مرّةً أخرى. لقد تخلّصت من كلّ آلهتِها القديمة، وهي الآن إلهةُ نفسِها.

الفصل العشرون: الحبل

يقول المثل الشعبيّ: "الله لا يسمع من ساكت"، عندما سمعته عائشة صغيرةً عدّته كفراً بواحاً، فأيّ إلهٍ هذا الذي يحتاج النطق ليسمع! لكنّه اليوم بدا حقيقة، لقد عرفت أنّها بحاجة أن تزور بيت دلال، ولكنّ أباها المتخلّف قد يقول لها يجب عليك أن تستأذني من زوجك. وكانت عائشة قد بدأت تتحوّل إلى أنثى تتقن الخداع، وتعرف كيف تبصر خارطة القوّة، وما الذي يستفزّ الذكر. إنّ حركتها هي منوطة بإرادة زوجها، ربّها الصغير، وقد يستغلّ أبوها أو إياد هذه النصوص ضدّها.

أمّا بيت أبيها فهو مساحته، هو ذكورته التي سيحرسها وسيقاتل من أجل سلطته عليها، فماذا لو جاء وفد من عائلة الشيخ أبي راشد ليبارك الخطوبة المغلّفة بزواج، وكانت دلال ضمنه! هذا أمر مقدور عليه وسهل، هذا إذا وافقت دلال أصلاً، لكنّ دلال هي الأخرى التي تتفوّق على الرجال في ألعابهم التنافسيّة، وتصل قلوب البنات وجدرانهنّ الداخليّة قبلهم، صارت رجلاً، هي رجلٌ له مناطق نفوذه، وعليه حمايتها.

إذن، العقبات هذه يمكن تجاوزها بالالتفاف والمداورة، لكنّ العهد الواضح القاطع اليقينيّ الذي قطعته لسارة، هذا العهد لا يمكن الالتفاف عليه. إذا عرفت سارة بأنّها تواصلت مع دلال، فالعلاقة التي غدت باردة

ستتحوّل إلى صحراء جليديّة لا حياة فيها! ولكنّ الخطّة التي عرضتها سارة مكلفة جدّاً، فهي تتضمّن الهرب من البيت، وفضح كلّ شيء، والمواجهة الأسطوريّة لكلّ المجتمع، وربما اللجوء إلى دولة أجنبيّة، وهي وإن كان لديها الحقد الكافي لتفعل ذلك كلّه، لكنّها لا تستطيع المقامرة، إنّها تريد خطّة مدروسة لا ثغرات فيها. خطّتها هذه ستكلّفها علاقتها بسارة، وقد تكلّفها علاقتها بدلال، لكنّها أقرب للنجاح، إنّها خطّة بلا فجوات كبيرة. لكن أتخسر سارة! "من قال إنّني لم أخسر سارة بعد!" قالت في نفسها وهي تهمّ بالبدء.

اتّصلت بدلال، غير خائفة ممّا ستقوله دلال عن هجرانها لها، فهي تملك حجّة وقصّة وشهوداً لا يمكن تكذيبهم. رنّ هاتف دلال عبثاً، وهي لا تجيب. هل هي لا تسمعه؟ هل هي لا تريد أن تجيبها؟ ابتلعت عائشة الإهانة التي شعرت بها مع التجاهل، فلا كرامة في خطّة! أرسلت لها: "مبارك نجاح ابنك أيمن! لم تباركي لي بما حدث معي!"، وجلست تنتظر، وجاءها الردّ الفضوليّ المغلّف بالبرود: "مبارك عليك قبل أن أعرف! ولكن ما الذي حدث؟ هل تقصدين نجاحك رغم انشغالك معي؟"، تركت الفضول ينضج على نار هادئة، ولم تفتح الرسالة أصلاً لكي لا يظهر لدلال أنّها قرأتها. وقبل أن يحترق الفضول على نار الانتظار، اتصلت بها:

"دلال، ألم تفكّري في السؤال عنّي خلال كلّ هذه المدّة!"

"حبيبتي عائشة، بالعكس حاولت الاتصال بك، لكنّك كنت جافةً معي، قلت ربما حمّلتك ما أنهك قلبك، ولذلك ابتعدت لكي ترتاحي... أخبريني على ماذا باركت لك؟"

"لقد باركت قتلي يا دلال! باركت استعبادي طيلة العمر! باركت لي المصير الذي نجوت منه بأعجوبة."

"عمّ تتكلّمين يا بنت الناس، اهدئي وكفى بكاءً، وقولي لي ما الأمر."

"إياد اللعين تصنّع التوبة على يد شيخ يقال له أبو ميسرة، وصادق والدي وخطبني مهدّداً إياي بالفضيحة، وفوق هذا هو الآن يتحكّم بكلّ حركة من حركاتي."

"لماذا لم تخبريني من قبل يا عاهـ...ـشة!"

"تكسّرت كلّ دفاعاتي، كنت أريد أن أقاتل قبل أن أطلب عونك."

"طيّب، أريد أن أفهم كلّ شيء، أريد أن أراك... سآتي لأزورك مع أحد أفراد عائلتي، لا تقلقي، لن يشكّ أحد بشيء، فهي مباركة طبيعيّة."

"وإذا رآك هذا الكلب، إنّه جارنا في النهاية!"

"لا تقلقي، لو رآني سيضع ذيله بين رجليه وسيسمع الشارع صوت عِواصَه."

"ينصر دينك يا دلال، عرفت أنّه ليس لي أحد غيرك!"

انتهت المكالمة، ورأت عائشة كيف أنّها بدأت تتقن استعمال الصدق لصالحها، الصدق عتبة ندوسها ونصعد لنطول شئيا بعيداً. وإذا لم يكن الحلّ عند دلال، فالحلّ الأكيد في هذه القدرة النابتة بين صخور القسوة، القدرة على رواية قصّة تترك أثرها حتّى فيمن لا يصدّقها.

جاءت دلال إلى بيت أبي عمر، وكانت أختها الكبيرة معها، وقبل أن تنادي الأمّ على العروس ليهنّئها الضيوف، كانت دلال قد تمكّنت من اختلاق عذر لتدخل إلى غرفتها بحجة الصداقة التي تكوّنت بينهما خلال الزيارات، "عائشة كأنّها ابنتي، وأحبّ أن أفاجئها وأبارك لها!"

تفوّهت دلال بهذه الكلمات، وتصرّفت وكأنّها لها الحرّيّة في التجوّل في البيت، وبلغت غرفتها.

ما حدث في الغرفة كان لعبة شطرنج، أو مغامرة فكّ قفل خزنة، كان على عائشة أن تضغط أزرار امرأة محترفة في لعبة المشاعر، وأن تضغطها بالترتيب الصحيح: أن تلوم الأهل على تغييبها عن دلال، أن تلوم نفسها على أنّها لم تشأ أن تظهر الضعف أمام قدوتها، أن تلومها هي على أنّها عرّضتها لخطر إياد من الأصل، أن تلوم وأن تقنع وأن تستفزّ، حتّى كانت دلال جاهزةً للضربة القاضية.

"مع كلّ هذا، ومع كلّ الضعف الذي أنا فيه، لم يزل عندي حبل أمان، ولكن كان عليّ أن أستشيرك قبل أن أستغلّه فهو يعنيك." كانت تلوّح لدلال بتهديد قاتل بعفويّة طفلة مجروحة لا تدرك ما تقول، ولكنّها كانت تدرك ذلك، قالت: "اسمعي لقد حرصت أن يكون لدي نسخ في أماكن آمنة لهذا التسجيل، لأنّه قد يحرّرني من قبضة هذا الكلب! إنّه أملي الأخير في الخلاص، ولكنّي أخاف أن يؤذيك، تخيّلي أنّني قبلت بكلّ هذا كي لا أسبّب لك ضرراً!" وأسمعتها اعتراف الشيخ إياد بكلّ شيء.

هنا، تصنّعت دلال عدم الاهتمام بما قاله عنها، مع أنّ جرحها كان يرعف أمام عيني عائشة، وبهدوء مملّ قالت: "بسيطة... سيعرف لماذا يخاف منّي! لكن أريد منك أنت ألا تخافي، ما بيننا حبّ وليس خوف؟ ما بيننا ثقة، ثقة لا أخاف معها أن تكوني الآن تسجّلين كلامي لكي تجدي مهرباً من كلّ هذا، وصدّقيني لو فعلت، فإنّني لن أكرهك!"، أخذت عائشة تبكي أمام دلال من مجرّد الفكرة، وكانت تكتم صوتها، فقالت دلال: "أختي أمّ حسن تستطيع إلهاء جيش كامل من النساء، لا تقلقي، لن ينتبه لنا أحد!"، قبّلت دلال رأس عائشة، ثمّ لمّا هدأت قبّلتها على شفتيها قبلة دافئة، وقالت: "الآن البسي ثياب الحمل الوديع، ودعيني أتصرّف. لا أخفيك إنّ انضمام الكلب إلى جماعة الشيخ أبي ميسرة يعقّد الموضوع، فهذا رجل خطير، لكنّ بطاقات اللعب التي في حوزتي لم تنفد! دعيني أفكّر."

بعد قليل كانت عائشة بين الضيوف تتلقّى التهاني، وأمّ حسن أخت دلال تتلو الأدعية عليها، وترقيها من الحسد. وبدأت أمّها تتقبّل الأمر وتتعايش معه، حتّى أنّها كانت مبتسمة ابتسامةً كاملة وهي تراقب عائشة بين الضيوف.

ما داموا لا يشكّون فهم لن يحتاطوا. إنّ على الأنثى أن تنطلق من كونها أنثى وهي تخطّط لحروبها مهما كبرت أو صغرت. هذه بدت قناعات راسخة لعائشة اليوم. حرصت على أن ترتدي حجابها وجلبابها وهي تعود إلى الكلّيّة بعد غياب أيّام، إنّه فصل صيفيّ ولا تريد أن تقصّر فتؤخّر الزواج، فالاتّفاق كان أنّها حصلت على سنتين من الخطوبة في زيّ الزواج الشرعيّ الكامل، وطلبت من أبيها أن يوصلها للجامعة، فوافق متحمّساً.

وفي اللحظة التي عبرت فيها بوّابة الجامعة أحسّت أنّها باتت على برّ أمان مؤقّت، فالجامعة مكان مغلق يحتاج هويّة طالب لعبور بوّابته. هنالك التقت بسارة وبكت بحرقة على كتفها، ولم تحدث لها ذكراً يخصّ الاتّصال بدلال، وعندما ذهبت سارة إلى محاضرتها، مشت هي باتجاه مكتب الدكتورة سمر، ولكنّها لم تجدها فيه، وهي تهمّ بالعودة إلى بقعة خلوتها صادفت عرّابها الذي عرّفها باللجنة الثقافيّة، فاستقبلها باسل بشوق وقلق: "خِفنا عليك... كنّا سنستنفر للبحث عنك!"، فقالت: "لم تكونوا لتجدوني... فما حدث معي ليس قليلاً!"، قال لها باسل: "لا لا... انتظري، سنجلس وأسمعك حتّى النهاية!"، مشيا إلى أقرب كافيتيريا وجلسا، فأخبرته برواية صادقة مجتزأة لما حلّ بها: أبوها المتشدّد الذي انضمّ لزمرة متطرّفة أراد تزويجها، فحاولت أن تشتري الوقت بالخطبة، لكنّه كتب كتابها، وهي إن نجت من هذا كلّه أصلاً، ستكون

"مطلّقةً"! قالتها وهي تشدّد على وصف المطلّقة وكأنّه نهاية العالم، فدلال بكلّ جبروتها تخاف من هذه الوصمة.

كان باسل مستفزّاً عندما ضحك، وأعاد الاعتذار بصدق مرّات ومرّات، ولكنّه دافع عن نفسه: "لقد ذكرتِ الطلاق وكأنّه بعبع، وكأنّه نهاية العالم!"، فأجابته: "ولكنّه بالفعل وصمة اجتماعيّة مقرفة!"، "يختلف ذلك من بيئة لأخرى! كيف ترين الدكتورة سمر؟" قال لها وكأنّه يمسك طرف ستارة يريد أن يكشف ما تحتها، تخرّصت عائشة ما سيقول بصدمة واضحة: "الدكتورة سمر، مطلّقة؟"، "يا صديقتي نقول: منفصلة، نعم الدكتورة سمر منفصلة منذ سنوات طويلة عن زوجها! المهمّ هو الاستقلال المادّيّ!"، ثم مشى أبعد في حجّته: "تعرفين، خلال علاقاتي القليلة، كنت أنفر من أن أكون الأوّل في حياة إحداهنّ، لأنّها لن تملك مرجعاً يظهر لها حسناتي وسيّئاتي!" كان هذا جواباً على سؤال لم تسأله عائشة، تأكيداً على أنّ الحياة العاطفيّة للمطلّقة حياة طبيعيّة جداً. لم يكن يخيفها أن تكون مطلّقةً على الحقيقة، ولكنّها قالت ما قالته وكأنّه عدوى مرض سارٍ انتقلت إليها من دلال، لكنّها أدركت على الحقيقة أنّها يجب أن تحيط نفسها بأناس جُدد، فهي لن تزدهر في بيئة يحكمها أبوها وأبو ميسرة وإياد.

لـم تحضر أيّ محاضرة في ذلك اليوم، ولـم تفش سرّ تواصلها مع دلال لسارة رغم أنّها رأتها مرّةً أخرى. لقد كانت تعرف أنّها غدت متلاعبةً، وفقدت كثيراً من احترامها لذاتها، ولكنّها كانت مشغولة في معركة أخرى، فهي تراسل دلال التي تطمئنها أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، لكنّها في الوقت ذاته لا تفعل شيئا بعد.

خلال أسابيع مرّت، اضطرّت عائشة إلى الجلوس مع إياد، وأظهرت له كلّ ودٍّ ممكن، لقد استنسخت من نفسها نسخة أخرى، وحمّلت عليها روايته للأحداث وسرديّته المنحرفة التي تحمّل كلّ شيء على ظهر دلال. وكانت تشعر أنّها بحاجة للكتابة أكثر فأكثر، لكنّها لم تعد تكتب عن نجمة، لقد صارت تكتب عن نفسها، عن عائشة، وعن حقدها على العالم، وعن انتظارها المرّ للحلّ الذي لا يجيء.

وفي بداية الأسبوع الرابع، زلّ لسانها على الهاتف وهي مع سارة، كانت تريد أن توضّح لها سرّ ما تراه سارة مماطلةً للحلّ: "والله ليس جبناً، ولكنّ لديّ خطّةً أولى، وسألجأ إلى خطّتك إذا فشلت."، "وإلى متى ننتظر؟ حتّى يطلبك إلى بيت الطاعة!" سألتها سارة متعجّلة، "لا أعرف، كلّما أحاول أن أعرف الموعد، تخبرني صاحبة الشأن عن أنّه يستوي على نار هادئة!" قالت عائشة، فقالت سارة: "أنا خطّة باء، ودلال هي الخطة ألف!

أليس كذلك؟" ، هنا ارتبكت عائشة أمام صدق سارة الجارح، وتلعثمت، فقالت سارة لها: "والله كنت سأحارب من أجلك، ولكنّك أرحتني من عذاب طويل. أتمنّى أن تنجح الخطّة ألف من كلّ قلبي، فهي أملك الوحيد... مع السلامة!" وأغلقت الخطّ.

سقطت يدُ عائشة التي كانت تحملُ الهاتف، وبقي صوتُ الخطِّ المقطوعِ يطنُّ في أذنِها طنيناً حادًّا كصرخةِ شبح. لم يكن صوتاً، بل كان إعلاناً عن موتِ آخرِ شيءٍ حيٍّ في عالمِها القديم. لقد خسرت سارة. لم تعد المسألةُ احتمالاً، بل صارت حقيقةً باردةً كشاهدِ قبر. لم تشعر بالحزنِ بقدرِ ما شعرت بالبرد، بردٌ قارسٌ تسرّبَ من الهاتفِ وصعدَ في ذراعِها ليتجمّعَ في صدرِها، مُحوّلاً قلبَها إلى قطعةِ جليدٍ صغيرة. كانت سارة هي "الخطّة ب"، خطّةُ الهربِ إلى عالمٍ من الصدقِ والمبادئ، عالمٌ يشبهُ الكتبَ التي قرأتاها معاً. لكنّ الحياة، كما تعلّمت بمرارة، لا تُكتبُ بشعريّةِ سارة، بل تُعاشُ بنثريّةِ دلال الوحشيّة. "الخطة ألف" لم تعد خياراً، بل صارت قدراً محتوماً.

مرّت أيّامٌ أخرى، ثقيلةٌ كالأيّامِ الأولى من الحداد. كانت عائشةُ تلعبُ دورَها بإتقانٍ يثيرُ اشمئزازَها من نفسِها. تجلسُ مع إياد، تستمعُ إلى خططِهِ عن "بيتِهما الشرعيّ"، وتومئُ برأسِها كدميةٍ خرساء. كانَ هو

الآخرُ قد بدأ يتململُ من طولِ الانتظار. لم يعد يكتفي بالجلوسِ كـ"شيخٍ" وقور، بل بدأت يداهُ تبحثُ عن طريقِها لتُلامسَ يدَها "خطأً"، وبدأت نظراتُهُ تتجاوزُ حدودَ "الحياءِ الشرعيّ" لتستقرَّ على تفاصيلَ في وجهِها وجسدِها بجرأةٍ تذكرُها بنظرةِ الصيّاد. وفي كلِّ مرّة، كانت عائشةُ تنسحبُ بلباقةٍ مُصطنعة، مُتذرّعةً بالدينِ نفسِه: "كلّ شيءٍ في أوانِهِ أحلى يا شيخ إياد. لا نريدُ أن نُغضبَ اللهَ في بدايةِ طريقِنا." كانت تستخدمُ سلاحَهُ ضدّه، فتراهُ يتراجعُ على مضض، وفي عينيهِ جوعٌ مكبوتٌ وخيبةُ أمل.

لكنّ دلال كانت لا تزالُ صامتة. رسائلُها كانت مقتضبةً ومُطمئنةً بشكلٍ مُريب: "لا تقلقي"، "كلّ شيءٍ تحتَ السيطرة"، "الصبرُ مفتاحُ الفرج". أيُّ فَرَجٍ هذا؟ كانت عائشةُ تشعرُ بأنّ الحبلَ يضيقُ حولَ عنقِها، وبأنّ دلال ربما كانت تستمتعُ برؤيتِها تتألّم، أو ربما كانت قد عقدت صفقةً ما مع إياد من خلفِ ظهرِها. الشكُّ بدأ يأكلُها، وأدركت أنّ الانتظارَ لم يعد خياراً. لا يمكنُها أن تظلَّ بيدقاً في لعبةِ شطرنجٍ لا تعرفُ قواعدَها.

كانَ الصمتُ في بيتِ أبي عمر قد اكتسبَ كثافةً ماديّة، لم يعُدْ مجرّدَ غيابٍ للضجيج، بل أصبحَ حضوراً ثقيلاً يضغطُ على الجدرانِ والأرواح، كغبارٍ بركانيٍّ هبطَ على مدينةٍ حيّةٍ فجمّدَ سكّانَها في لحظةِ هلَعِهم

الأخيرة. حتّى عبيدة وعمر أحسّا بكثير من هذا. مرّت أيّامٌ على "كتبِ الكتاب"، تلكَ المسرحيّةُ الهزليّةُ التي أخرجَها أبوها وأدّى فيها إياد دورَ البطولة، بينما كانت هي مجرّدَ ديكورٍ صامتٍ في خلفيّةِ المشهد. كانت عائشةُ تتحرّكُ في هذا الصمتِ كشبح، تؤدّي واجباتِها اليوميّةَ بآليّةٍ مُتقنةٍ تُخفي خلفَها ذلكَ الفراغَ الأبيضَ الذي استوطنَ روحَها. كانت تأكلُ دونَ أن تتذوّق، وتنامُ دونَ أن ترتاح، وتُصلّي دونَ أن تشعرَ بكلمةٍ واحدةٍ تخرجُ من بينِ شفتيها. لقد أصبحت خبيرةً في ارتداءِ قناعِ الهدوء، قناعٌ صقلتهُ سنواتُ الكبتِ الطويلة، لكنّهُ الآن أصبحَ وجهَها الحقيقيّ.

في إحدى الأماسي، وبينما كانوا مجتمعينَ في الصالةِ كغرباءَ جمعتهم الصدفةُ في غرفةِ انتظار، اخترقَ أبوها جدارَ الصمتِ بصوتٍ حاولَ أن يجعلهُ حنوناً ومُتفهماً، لكنّهُ خرجَ مُحمّلاً بسلطةٍ أبويّةٍ لا تُخطئها الأذن. "عائشة يا ابنتي،" قالَ وهو يُقلّبُ خرزاتِ مسبحتِهِ بينَ أصابعِه، "كنتُ أتحدّثُ مع الشيخِ إياد اليوم... هو رجلٌ مُتفهّمٌ ومُتديّنٌ بحقّ، ولا يُريدُ أن يقفَ في طريقِ مستقبلكِ. وقلت له إنّني لا أرى مانعاً من أن تُكملي دراستَكِ الجامعيّةَ بعدَ الزواج... من بيتِ زوجكِ."

كانت الكلماتُ كحصًى أُلقيت في بركةٍ راكدة. لم تحرّك ساكناً على سطحِ وجهِ عائشة، لكنّها أحدثت دوائرَ من ذعرٍ باردٍ تتّسعُ في أعماقِها.

بيتُ زوجها. بيتهُ هو. تلكَ الكلمتانِ كانتا كافيتينِ لتُحوِّلا التهديدَ المُستقبليَّ الغامضَ إلى حقيقةٍ وشيكة، إلى زنزانةٍ تُشيّدُ جدرانُها حولَها لبنةً بعدَ لبنة. أومأت برأسِها إيماءةً خافتة، وهمست: "أفهم ما تقوله، ولكنّ شرطي كان واضحاً، ألا يكفي أنّني أصبحت زوجة لخطيبي بسبب أنّك لم تستشرني!"، "ما بك يا ابنتي؟ أنا فقط كنت أفكّر بصوت مرتفع!"، أمسكت قناعها الصامت كي لا يسقط عن وجهها، ثمّ استأذنت وانسحبت إلى غرفتِها، كسجين يعرف النظام جيّداً، ويعرف أنّ وقت الزنزانة الانفراديّة حان.

أغلقت البابَ خلفَها، وشعرت بأنّ الهواءَ القليلَ في الغرفةِ يُسرَقُ منها. لم يعُدْ هناكَ وقت. الحبلُ يضيقُ حولَ عنقِها، والوقتُ الذي اشترتهُ بشرطِها الهشِّ بدأ يذوبُ كقطعةِ ثلجٍ تحتَ شمسِ الظهيرة. لم يكن أمامَها سوى "الخطّة أ"، ذلكَ الحبلُ الوحيدُ الذي كانت تأملُ أن يُنقذَها من الغرق. أمسكت هاتفَها بيدينِ باردتين، وطلبت رقمَ دلال.

جاءَ صوتُ دلال من الطرفِ الآخر، دافئاً ومُطمئناً كالمعتاد، لكنّهُ بدا لعائشةَ اليوم كأنّهُ صوتُ صفّارةِ إنذارٍ بعيدة. "عيّوش يا عمري! كيفَ حالُكِ؟ اشتقتُ لصوتِكِ."

"دلال،" قالت عائشة بصوتٍ حاولت جاهدةً أن تجعلَهُ ثابتاً، "الأمورُ تسيرُ بسرعةٍ أكبرَ ممّا توقّعت. أبي... أبي بدأ يتحدّثُ عن إتمامِ الزواج."

"اهدئي يا صغيرتي،" قالت دلال بنبرةٍ واثقةٍ كأنّها تُهدّئُ طفلاً فزعاً. "ألم أقل لكِ إنّ كلَّ شيءٍ تحتَ السيطرة؟ الصبرُ مفتاحُ الفرج. أنا أعملُ على الأمرِ في الخفاء، أُرتّبُ أوراقي، وأنتظرُ اللحظةَ المناسبةَ لتوجيهِ الضربةِ القاضية. لا تتعجّلي الأمور، وثقي بي."

مرّ أسبوعٌ آخر، ودلال لا تزالُ تُكرّرُ الأسطوانة نفسها. "قريباً جدًّا"، "المسألةُ مسألةُ وقت"، "لا تُفسدي الخطّةَ بتسرّعكِ". كانت عائشةُ تشعرُ بأنّها عالقةٌ في شبكةِ عنكبوتٍ حريريّة، كلّما تحرّكت لتُخلّصَ نفسَها، ازدادت الخيوطُ التفافاً حولَها. الشكُّ بدأ ينهشُها. هل دلال تماطلُ حقًّا؟ أم أنّها تخلّت عنها، وتركتها لمصيرِها؟ صوتُ عيّوش الساخرُ عادَ ليُهمسَ في رأسِها: "أتظنّينَ أنّ امرأةً مثلَ دلال تهتمُّ بمصيرِ فتاةٍ صغيرةٍ مثلكِ؟ أنتِ كنتِ مجرّدَ أداةٍ في لعبتِها، بيدقاً بيدها على رقعةِ شطرنج، والآن انتهى دورُكِ."

لم تعُدْ تحتمل. في نهايةِ الأسبوع، اتّصلت بها مرّةً أخرى، لكنّ نبرتَها هذهِ المرّةَ كانت مختلفة. لم تكن نبرةَ استجداء، بل كانت تحملُ حدّةً باردة. "دلال، لم يعُدْ لديَّ وقتٌ للانتظار. إياد يأتي لزيارتي كلَّ يومين،

وبدأ يتحدّث وكأنّني صرت في بيته. أشعرُ بأنّني في سجن. إذا لم تفعلي شيئاً خلالَ هذا الأسبوع، فسأضطرُّ للجوءِ إلى خططٍ أخرى."

سادَ صمتٌ قصيرٌ على الطرفِ الآخر، صمتٌ جليديٌّ مُشحونٌ بالكهرباء. ثمّ جاءَ صوتُ دلال، وقد اختفى منهُ كلُّ أثرٍ للحنان، وحلَّ محلّهُ برودٌ قاطع. "خططٌ أخرى؟ أيُّ خططٍ هذهِ التي تتحدّثينَ عنها يا صغيرة؟ هل تظنّينَ أنّ لديكِ أوراقاً أخرى لتلعبيها! عيّوش اهدئي، أنا ألمح التهديد قبل أن يتشكّل في ذهنك! لست غبيّة!"

"لا أُهدّد،" قالت عائشة، وشعرت بأنّ قلبَها يتجمّد، "لكنّني لن أستسلم. لن أكونَ القربانَ في هذهِ الصفقة."

"اسمعيني جيّداً يا عائشة،" قالت دلال بصوتٍ حادٍّ كشفرة، "أنتِ لا تعرفينَ شيئاً عن العالمِ الذي أتحرّكُ فيه. إذا حاولتِ التصرّفَ من رأسِكِ، فستُغرقينَ نفسَكِ وتُغرقينني معكِ. لقد حذّرتُكِ. الآن، اصمتي وانتظري. هل هذا واضح؟"

أغلقت دلالُ الخطَّ. سقطت يدُ عائشة، وسقطَ معها آخرُ أملٍ كانت تتشبّثُ به. لقد تخلّت عنها. تركتها وحيدةً في مواجهةِ الوحش. لم تعُدْ هناكَ "خطّة أ"، ولم تعُدْ هناكَ "خطّة ب" بعدَ أن انقطع الخيطُ الرفيعُ

الذي بقيَ يربطُها بسارة. ليس لها الآن سوى الفراغ، واليأس، وذلكَ الشعورُ المُطبقُ بأنّ كلَّ الأبوابِ قد أُغلقت.

جلست على الأرضِ الباردة، وأسندت ظهرَها إلى السرير. شعرت بأنّها أصغرُ من أيِّ وقتٍ مضى، وأكثرُ وحدة. وفجأةً، وسطَ هذهِ العتمةِ المُطلقة، لمعت فكرةٌ في ذهنِها، فكرةٌ لم تكن بحثاً عن نجاة، بل عن نهايةٍ تليقُ بمأساتِها. فكرةٌ تحملُ في طيّاتِها انتقاماً أخيراً ويأساً مُطلقاً. الانتحار. لكن ليسَ أيَّ انتحار. لن يكونَ هروباً صامتاً. سيكونُ صرخةً مدويّة. ستكتبُ رسالة. لا، ليست رسالة، بل شهادة. ستكتبُ كلَّ شيء، منذُ لحظةِ كنزةِ الصوفِ المبلّلة، مروراً بنافذةِ إياد، ودهاليزِ دلال، وصولاً إلى هذهِ اللحظة. ستكتبها في قصاصات، الأهمّ فالأهمّ كأنّها موجز أخبار، ثمّ تعود وتدوّن بلغة تصل القارئ كلّ ما يتيحه لها الزمن، رسالة انتحار طويلة مملّة سيكون لغز انتحارها ليلة زفافها خطّافاً كافياً لأن يُتِمّها كلّ من تقع في يديه. لن تتوقّف حتّى لحظة إتمام الزواج، في تلك اللحظة تعرف بالضبط كيف ستقفز من نافذتها وإياد ينظر! حتّى ذلك الوقت ستكتب وستكشفُ كلَّ الأقنعة، ستُعرّي كلَّ الزيف. قد تكونُ رسالتُها خلاصاً للمجتمع من الكبت الذي أدخلها في هذا كلّه. ربما يكون انتحارها أعظم عمل فنّيّ!

قامت، ومشت نحو مكتبِها بخطواتٍ ثابتةٍ بشكلٍ غريب. فتحت حاسوبَها، وفتحت ملفًّا جديداً. لم تكن تشعرُ بالحزنِ أو الخوف، بل بنوعٍ من الصفاءِ المُرعب، صفاءِ من اتّخذَ قرارهُ النهائيَّ ولم يعُدْ يخشى شيئاً. كتبت العنوان: "سِفر الخروج". ثمّ، بأصابعَ لم تعُدْ ترتجف، بدأت تكتبُ السطرَ الأوّل، السطرَ الذي سيقودُها إلى نهايتِها، أو ربما... إلى بدايةٍ أخرى لم تكن في الحسبان.

لم تكن الكتابةُ فعلاً واعياً في البداية، بل كانت أشبهَ بنزيفٍ داخليٍّ وجدَ منفذاً لهُ على الشاشةِ البيضاء. كانت الكلماتُ تتدفّقُ منها دونَ ترتيبٍ أو منطق، شظايا ذكرياتٍ حارقة، واعترافاتٍ خامٍ لم تُهذّبها يدُ الرقيبِ الداخليّ. بدأت تستكشف الشهوة التي خبرتها من عين ثالثة تطلّ على وعيها، كانت تجبر نفسها على تذكّر الشعور، وعلى التصالح معه، حاولت أن تخلق عشرين عائشة كلّ من هذه العائشات لها صورتها عمّن حولها، وتعيش مع كلّ منهنّ وقتاً كافياً لتستوجبها. مرّت على لحظات كثيرة شطبت، فالأمر يبدأ من واتباد، من لحظة كتلك التي ثار فضولها حول ملمس الصوف على الصدر العاري، تلكَ الشرارةُ التي أشعلت حريقاً لم يخمد أبداً. كانت تكتبُ وتكتب، لا لتُبرّرَ أو لتشرح، بل فقط لتُفرغ، لتُلقي بهذا الحملِ الثقيلِ من روحِها على الورقِ الإلكترونيّ، كمن يُفرغُ سمًّا قاتلاً قبلَ أن يتسرّبَ إلى آخرِ خليّةٍ في جسدِه.

لكن شيئاً غريباً بدأ يحدثُ مع مرورِ الساعاتِ التي تحوّلت إلى أيّام. ذلكَ النزيفُ العشوائيُّ بدأ يتّخذُ شكلاً. الخيوطُ المُبعثرةُ بدأت تنتظمُ في نسيجٍ لهُ معنى. لم تعُدْ مجرّدَ "عائشة" التي تسردُ مأساتَها، بل أصبحت هي حكّاءة تتفنن في تصديق ما تكتب، حكّاءة تحلّلُ وتُفسّرُ وتُعيدُ بناءَ عالمِها من جديد. كلُّ شخصيّةٍ مرّت في حياتِها، من دلال بسيادتِها المُغوية، إلى سارة بصدقِها الجارح، إلى إياد بوجهيهِ المُتناقضين، لم يعودوا مجرّدَ أشباحٍ في ذاكرتِها، بل تحوّلوا إلى كائناتٍ ورقيّةٍ لها دوافعُها وأبعادُها وصراعاتُها. كانت تضعُهم تحتَ مجهرِ كلماتها، تُشرّحُ أرواحَهم، وتكشفُ عن تلكَ الخيوطِ الخفيّةِ التي كانت تحرّكُهم.

وإذ كانت تشرّح الآخرين، فهي تكتب عن نفسها بصيغة الغائب، وتعمل مشرطها الفكريّ في جسد أفعالها هي، باتت صورتها أوضح أمام نفسها.

أصبحت الكتابةُ حياةً داخلَ الحياة. عالماً موازياً تهربُ إليهِ من صمتِ بيتِها الخانق، ومن نظراتِ إياد التي كانت تتوقّعُها في كلِّ زيارة. كانت تنسى الأكلَ والنوم، وتعيشُ على قهوةِ أمِّها وعلى وهجِ الشاشةِ الذي أصبحَ شمسَها وقمرَها. عدّادُ الكلماتِ في أسفلِ الصفحةِ كانَ يتصاعدُ بجنون، ألف، ألفان، حتّى تجاوزَ الخمسةَ آلاف كلمة دونَ أن تشعر. هنا

توقّفت للحظة، ونظرت إلى ما أنجزته. لم تكن هذهِ رسالةَ انتحار. كانت أضخمَ من ذلك، أعمقَ، وأكثرَ تعقيداً. كانت رواية. روايةٌ تولدُ من رحمِ موتها المُعلن.

هذا الإدراكُ صعقَها. الكتابةُ التي بدأت كوسيلةٍ لإنهاءِ حياتِها، أصبحت هي السببَ الوحيدَ الذي يُبقيها على قيدِ الحياة. لقد ورّطتها الكتابة في كلِّ هذا، نعم، فضولُها القرائيُّ هو من فتحَ أمامَها أبوابَ الجحيمِ اللذيذ. لكنّها هي نفسُها، هذهِ القدرةُ على تحويلِ الألمِ إلى كلمات، هي ما يؤجل لحظة القفزِ في الهاوية. لم يعُدِ الانتحارُ فكرةً مُلحّة، بل أصبحَ نقطةَ النهايةِ المنطقيّةَ لهذهِ الرواية. وما دامت الروايةُ لم تكتمل، فإنّ حياتَها لن تنتهي. لقد أجّلت موتها، ليسَ أملاً في النجاة، بل وفاءً للفنّ، وفاءً لهذهِ القصةِ التي طالبت بحقّها في أن تُروى كاملة. لقد غدت هي شهرزاد التي تحكي لتعيش، لكن ليس خوفاً من أمير ظالم، وليس طمعاً في تعليمه أنّ صورته عن النساء مغلوطة، بل خوفاً من نفسها، من تلك اللحظة التي سترسل فيها هذه الوثيقة للناس حتّى تضمن أن يعلم القاصي والداني أنّها لم تنتحر لأنّها تكره الحياة، بل لأنّها تحبّها أكثر من أن تتركها لكلب اسمه إياد يرسمها كيف يشاء.

هذا التأجيلَ لم يمنعِ الأفكارَ السوداءَ من أن تحاصرَها. فكرةُ القفزِ من نافذةِ غرفتِها، تلكَ النافذةُ التي كانت يوماً بوّابتَها على عالمِ إياد السريّ، أصبحت تُطاردُها كشبحٍ مُلحّ. تجاوزت كونها مجرّدَ فكرةٍ عابرة، صارت سيناريو كاملاً تُعيدهُ في رأسِها مراراً وتكراراً، بتفاصيلَ باردةٍ ومُنطقيّة. كانت تتخيّلُ نفسَها تقفُ على الحافّة، والهواءُ الباردُ يلفحُ وجهَها. تتخيّلُ نظرةَ الرعبِ والدهشةِ على وجهِ إياد وهو يراها من نافذتِهِ المقابلة، قبلَ أن تُطلقَ جسدَها في الفراغ. "قبلَ أن تلمسَ شعرةً منّي يا ابنَ الكلبة،" كانت تقولُ لنفسِها في خيالِها، وتجدُ في هذهِ الجملةِ انتصاراً أخيراً، استعادةً لكرامتِها في اللحظةِ الأخيرة. حلمت بالمشهدِ مرّة، ثمّ أصبحَ يزورُها في يقظتِها، لقد كان حلا منطقيًّا لكلِّ هذهِ العُقد. لكنّها كانت تُعلّقُ التنفيذ، تماطل، تنتظر. في أعماقِها، ورغمَ كلِّ شيء، كانَ لا يزالُ هناكَ بصيصُ أملٍ خافت، أملٌ بأنّ دلال لم تتخلَّ عنها تماماً، وأنّ ما تطهوه في الخفاء قد ينضج قبل أن ينضج نصّها، أو ينضج قرارها بالانتحار، أو ينضج ما يطبخه إياد ولن يتذوّقه.

القمرُ هذهِ الليلةَ مُجرّدُ كشطٍ رماديٍّ شاحبٍ في سماءٍ بليدةٍ ترفضُ أن تمطر، يُلقي بضوءٍ مريضٍ على زجاجِ النافذة. كلماتُ إياد سقطت في الغرفةِ كقطعٍ من الرصاصِ المنصهر، تحفرُ طريقَها في هواءِ الصالةِ الثقيلِ

قبلَ أن تستقرَّ في طبلةِ أذنِ عائشة: "ليسَ معقولاً أن يكونَ حظّي منكِ قبلَ الخطبةِ أكبرَ من حظّي منكِ بعدها!".

غادر. تركَ خلفَهُ فراغاً يعجُّ برائحةِ عطرِهِ الرخيصِ الممزوجِ برائحةِ ذكورةٍ مُتوثّبة. انسحبَ جسدُها فورَ إغلاقِ الباب. البابُ الخشبيُّ خدشَ ظهرَها وهي تنزلقُ عليهِ ببطءٍ مميت، حتّى ارتطمت ركبتاها ببلاطِ الغرفةِ البارد. احتكاكُ العظمِ بالأرضيّةِ أرسلَ ذبذبةَ ألمٍ باهتةً ضاعت في خضمٍّ وجعٍ أعمق، وجعٍ ينهشُ أحشاءَها. شعرت بقذارةٍ لزجةٍ تزحفُ تحتَ مسامِها، سائلٌ زيتيٌّ أسودُ يتسرّبُ من ذاكرتِها ليُغلّفَ أعضاءَها الداخليّة. طعمُ العلكةِ بنكهةِ النعناعِ الاصطناعيّ من فمِ سارة عادَ يلسعُ لسانَها فجأة. احتكاكُ الوتدِ العاجيّ البارِدِ بجلدِها المُحتدم. رائحةُ عطرِ دلال الثقيلةُ التي كانت تخنقُ أنفاسَها في ليالي المُجونِ السابقة. كلُّ تلكَ التفاصيلِ تجسّدت كأشباحٍ ماديّةٍ تنهشُ أطرافَها، بينما نظراتُ إياد التي تركَها مُعلّقةً في هواءِ الغرفةِ كانت تستكملُ المهمّة، تُعرّيها، وتفترسُها قطعةً إثرَ أخرى كأنّها ذبيحةٌ معروضةٌ على خطّافِ جزّار.

القناعُ سقطَ وتَشَظّى. الروحُ تتمزّقُ بصوتٍ مسموعٍ يُشبهُ تمزّقَ قماشٍ خشنٍ تحتَ نصلٍ حادّ. إثمٌ بوزنِ جبلٍ من الجرانيتِ يستقرُّ على صدرِها، يكسرُ أضلاعَها ويسحقُ رئتيها. ترتعد. برودةٌ مُفاجئةٌ تضربُ أوصالَها

خوفاً من سماءٍ تُراقبُها بصمت. انفتحَ فمُها وخرجت صرخةٌ مكتومة، بكاءٌ يمزّقُ النياط، بكاءٌ يخرجُ كتقيّؤٍ لروحٍ ابتلعت سمًّا زُعافاً. وقفت في تخيّلِها عاريةً تماماً أمامَ أبوابِ سعيرٍ مفتوحة، تتسوّلُ طهارةً تبخّرت في لهاثِ اللذّةِ القديمة، وتبحثُ عن ماءٍ يغسلُ هذا الطينَ الذي يُغطّيها.

في الأيّامِ التالية، التهمت النيرانُ كلَّ شيء. رائحةُ الورقِ المُحمّصِ وأغلفةِ الرواياتِ المحترقةِ عبقت في أرجاءِ البيت، تتسرّبُ من تحتِ أرجاءِ بابِها المغلقِ لتُخبرَ الجميعَ أنّ "عيّوش" قد ماتت. حذفت الحسابات، قطعت خيوطَ العنكبوتِ التي كانت تربطُها بالعالمِ الخارجيّ، وتحوّلت غرفتُها إلى صندوقٍ خشبيٍّ يتردّدُ فيهِ صدى ترتيلِها الحادّ، الباكي، والمُستميت. طلبت من والدِها كلَّ ما يملكُ من تسجيلاتٍ صوتيّة. أشرطةُ "أبي ميسرة" وشيوخِ الملاحمِ أصبحت خلفيّتَها الصوتيّةَ الوحيدة. كانت تجلسُ لساعات، تتشرّبُ تلكَ الأصواتَ الخشنةَ التي تتحدّثُ عن الدماء، والرقاب، والجهاد، ونارِ جهنّمَ التي تأكلُ الجلود. تستخدمُ تلكَ الكلماتِ الصارمةَ كسياطٍ من جلدٍ مُقوّى تجلدُ بها روحَها العاصية، تضربُ بها أفكارَها، وتحاولُ سلخَ طبقاتِ الخطيئةِ المتراكمةِ فوقَ قلبِها.

إياد كانَ يُراقبُ هذا التحوّل. بؤبؤُ عينِهِ يتّسعُ بجوعِ مُفترسٍ يُراقبُ فريستَهُ تبني حولَها جداراً من الورع. الجلبابُ الفضفاض، الحجاب الذي يصير أدكن شيئاً فشيئاً، النظرةُ المُنكسرة، كلُّ هذا الإسمنتِ الروحيِّ زادَها

طراوةً في مُخيّلتهِ. الرغبةُ تتغذّى على الممنوع، وتتضخّمُ كلّما زادت الحواجز. كانَ يرى فيها قدّيسةً تُشتَهى، راهبةً تُثيرُ فيهِ أبشعَ أنواعِ الشَبَقِ الذكوريّ، شيطاناً يلعقُ شفتيهِ أمامَ محرابٍ يُتلى فيهِ القرآن.

تقتاتُ دلال على العتمةِ اللزجةِ للأسرار. التقطت قرونُ استشعارِها التجاريّةُ تلوّث الهواءِ مبكّراً. شمّت رائحةَ الجليدِ يكسو ملامحَ عائشة، يسرقُ غليانَها العتيق. استشعار بعيد المدى لا يحتاج لقاءً. جاءَ اتّصالُها مبتوراً، يطقُّ صوتُها في سمّاعةِ الهاتفِ ككسرِ عظمٍ رفيعٍ تحتَ حذاءٍ ثقيل.

"عائشة..." خرجت اللفظةُ جافّةً، مغسولةً من زيوتِ الغنجِ المعتاد: "لا يهمّني الخرابُ الذي يسكن رأسَكِ. رائحةُ دروسِ أبي ميسرة تفوحُ من صمتكِ. اختاري قيدَكِ الجديد، أنا وفيّةٌ لعيّوش التي أعرف. إياد في عداد الخصيان. سأعصرُ أيّامَهُ ليتحوّلَ إلى حشرةٍ تزحفُ في بركة مبيد. إذا أردت أن تستمرّي، فستجدينَ نفسَكِ زوجةً لرجلٍ مطحون، شحّاذٍ يلعقُ خيبتَهُ، أو سجينٍ يصدأُ خلفَ الحديد. لا تستسلمي بهذه السهولة!"

أرادت عائشةُ مساحةً لتسحبَ شهيقاً واحداً. البرودُ المتكلّسُ في أحشائِها يسدّ مجرى الهواءِ كشاهدةِ قبرٍ رخاميّة. ردّت بنبرةٍ ممسوحةٍ من

أيّ ارتجافة، تُسمّرُ عينيها في بقعةِ فراغٍ ميّتة: "افعلي ما تشائين. ادهسيه، وادهسيني معه إن أردتِ. ولا تلوميني على الخرابِ الذي سآتي به أنا أيضاً."

ماتَ الخطّ. سقطَ الهاتفُ على مفرشِ السريرِ كحجرٍ أصمّ. بُترَ حبلُ النجاةِ الأرضيُّ بضربةِ ساطورٍ نظيفة. انسحبت اللبؤةُ بذكاءِ تاجرةٍ تعرفُ توقيتَ التخلّي، تركت المسرحَ فارغاً. عائشةُ وحدَها الآن، تواجهُ قدرَها بلحمٍ متخشّبٍ تحتَ طبقاتِ التوبة، ونبضٍ مكتومٍ يُربّي انفجارَهُ في العتمة.

في مساءٍ صيفيّ مكتوم، أعلنَ أبو عمر بصوتِهِ الجَهوريّ انسحابَهُ إلى غرفتِهِ بحجّةِ "تأليفِ القلوب"، وتركَ بابَ الصالةِ مواربًا قليلاً، يَخلقُ لهما تلكَ "الخلوةَ الشرعيّةَ" المزعومة. هواءُ الغرفةِ تكاثفَ فجأة، أصبحَ كثيفاً يمكنُ قطعُهُ بسكّين. جلسَ إياد على حافّةِ الكنبةِ المقابلة، ركبتاهُ مُتباعدتان، وأنفاسُهُ تخرجُ حارّةً وثقيلة، تحرقُ المسافةَ الفاصلةَ بينهما. عيناهُ تتسمّرانِ على كتلةِ القماشِ الداكنةِ التي تبتلعُ تضاريسَ جسدِها، وتتخيّلُ ما يضطرمُ تحتَها.

جلست عائشة على مسافةٍ آمنة. عيناها مُسمَّرَتانِ في بقعةِ السجّادِ أمامَها، تقيسانِ مساحةَ الخضوعِ لو سجدت له، فحديثُ الرسولِ يقرقعُ في صدرِها كحصًى ناشفةٍ: "لو كنتُ آمِراً أحَداً أن يسجدَ لأحَدٍ، لأمرتُ

المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها". الغرفةُ تضيقُ. الصمتُ طبقةٌ من شحمِ مُحرّكاتٍ يسدُّ مسامَّ الهواءِ المكتومِ.

رفعت رأسَها ببطءٍ. صوتُها خرجَ كاحتكاكِ لحاءِ شجرٍ يتشقّقُ من الجفافِ، يرمي رجفةً خشنةً في حضنِ المُستمعِ: "إياد، أشعرُ بما يدورُ في رأسِكَ... الدينُ يغسلُ أرواحَنا من هذا الطينِ. الرسولُ أمرَ الخاطبَ بالنظرِ، لتتآلفَ الأرواحُ، ليُؤدَمَ بينَ الروحينِ".

ابتلعَ إياد ريقاً بطعمِ الرملِ جرحَ حنجرتَهُ. زحفَ من مكانِهِ يجرُّ ثقلَهُ كحيوانٍ أعمى يتتبّعُ أثرَ لحمٍ مكشوفٍ، يخشى ارتدادَ الفريسةِ في العتمةِ. قالَ: "تعرفينَ أنّني لم أتفقّه مثلَكِ، ولا أفهمُ ماذا يعني قولُهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم".

عيناها تنضحانِ باستسلامٍ لزجٍ، أنثى تستحضرُ الشريعةَ لتشرعِنَ انسحاقَها: "الصحابةُ كانوا يختبئونَ لخطيباتِهم، ينظرونَ إلى ما يدعوهُم إلى نكاحِهنّ. ليُبنى هذا الميثاقُ الغليظُ على رغبةٍ حلالٍ تملأُ الشقوقَ، لا على هوًى يتبخّرُ... نعم، كانوا يسترقونَ النظرَ إلى خطيباتِهم وهنّ يتسبّحنَ عندَ أحدِ الغدرانِ. وأنت الآن زوجي وحلالي أمام الشرع، ولا أستحي من أن أمتعك، لكنّني أصرّ على مسألة تأخير الدخلة حتّى أنهي دراستي! وما يدعوك لتستعجل يمكنك تذوّقه الآن!".

الآن وهنا، وأهلها على بعد أمتار، سقطت الكلماتُ كزيتٍ مغليٍّ على مساحاتِ عطشِه. تآكلتِ المسافةُ فوراً. زفيرُهُ المُتقطّعُ يخدشُ جلدَ وجهِها، وحرارةٌ نيّئةٌ تفوحُ من صدرِه. كبست جفنيها بقوّةٍ، تُغلقُ منافذَ الضوءِ، تعصرُ في جمجمتِها فكرةَ أنّ هذا الخضوعَ كفّارتُها، وأنّ هذا الانتهاكَ بوّابةُ توبتِها الوحيدةُ.

أصابعُهُ، بخشونةِ ورقِ الصنفرةِ، حكّت حافّةَ حجابِها. سحبَ الدبّوسَ المعدنيّ. طقّةُ المعدنِ على الطاولةِ الزجاجيّةِ تكسّرت كعظمِ عصفورٍ دهسَهُ حذاءٌ ثقيلٌ. انزلقَ القماشُ الرمليّ. انسكبَ شعرُها كطميٍ أسودَ لزجٍ يبتلعُ كتفيها بوزنٍ يخنقُ التنفّسَ. غطسَ إياد وجهَهُ في تلكَ العتمةِ، يشفطُ رائحةَ فروةِ رأسِها، بقايا صابونٍ خفيفٍ تختلطُ برائحةِ أنوثةٍ خامٍ، حادّةٍ، تلوي العصبَ.

أنينٌ ضيّقٌ، مكسورُ الأطرافِ، أفلتَ من حلقِ عائشةَ. جسدُها، المُبرمجُ قديماً على ابتلاعِ اللذّةِ من أبوابٍ سرّيّةٍ، استيقظَ. الخلايا تنفضُ غبارَها. النهاياتُ العصبيّةُ تشربُ الاحتكاكَ بخيانةٍ فطريّةٍ تدهسُ توبتَها الروحيّةَ. صهرت حرارةُ شفتيهِ على صقيعِ رقبتِها طبقاتِ الجليدِ التي سهرت لياليَ طويلةً تُراكمُها.

أصابعُهُ امتدّت بجرأةٍ استمدّها من تشنّجِ جسدِها المُستسلم. لمسَ أزرارَ قميصِها القطنيِّ المخفيِّ تحتَ الجلباب. زرٌّ تلوَ الآخر، ينفلتُ من عروتِه. لمسةُ أصابعهِ الخشنةِ لبشرتِها الدافئةِ أرسلت قشعريرةً عنيفةً، تيّاراً كهربائيًّا صعدَ من أسفلِ بطنِها ليضربَ قمّةَ رأسِها. شقُّ الصدرِ انكشف. تلكَ التلالُ العاجيّةُ التي طالما تلوّت شوقاً في عتمةِ خلواتِها الماضيّة، أصبحت الآنَ مُباحةً تحتَ عينيهِ الجائعتينِ المُحمَرّتين. تتوسّطُها قلادةٌ ذهبيّة، نُقشَ عليها لفظُ الجلالة، تستقرُّ ببرودةٍ معدنيّةٍ على جلدِها المُحترق، في مشهدٍ تتنافرُ فيهِ القداسةُ والدناسةُ بشكلٍ يُذهبُ العقلَ ويُصيبُ بالدوار.

"عائشة..." همسَ بصوتٍ أجشّ، مُتقطّع، يضيعُ في غيبوبةِ اللذّة، وهو يمرّرُ باطنَ كفِّهِ الخشنةِ على الاستدارةِ الكاملةِ لنهدِها. ظهرُها تقوّسَ لا إراديًّا، كأنّ خيطاً خفيًّا سحبَ عمودَها الفقريَّ إلى الأعلى. تنهيدةٌ حارقة، مُشبعةٌ بالرغبة، غادرت شفتيها المفتوحتين. كانت تحترقُ ببطء، تتلذّذُ بهذا الانتهاك، وتتشرّبُ هذهِ اللمساتِ المُشرّعةَ بأبوابِ الدينِ الوهميّة. انحنى إياد أكثر، وتركَ قُبلةً رطبةً ولزجةً بينَ نهديها، بالضبط حيثُ يستقرُّ لفظُ الجلالة. برودةُ الذهبِ اختلطت بحرارةِ شفتيه، ثمّ أخذَ يمرّرُ لسانَهُ صعوداً، ببطءٍ يُعذّبُ الأعصاب، نحو حلمتِها التي تصلّبت وتمرّدت على كلِّ محاولاتِ التخفّي.

يداها ارتفعتا لتتخبّطا في الهواءِ قبلَ أن تتشبّثا بكتفيهِ العريضين. أصابعُها غاصت في قماشِ قميصِهِ تعتصرُهُ بقوّة. محرابها السفليّ فاض بندًى ثقيل، رطوبةٌ لزجةٌ ومُحرجةٌ بدأت تُبلّلُ ملابسَها الداخليّة، تفضحُ جوعاً حيوانيًّا ظنّت أنّ دموعَ التوبةِ قد جرفتْهُ بعيداً. كان يدُهُ تفرك حصى حلمتيها على نهدها البضّ، ثم انزلقت من صدرِها، مسحت على انحناءةِ خصرِها المُتشنّج، ثمّ هبطت ببطءٍ مُستفزّ، قاصد، نحو فخذيها المضمومين.

كلُّ ضغطةٍ من يدِهِ على ذلكَ المثلّثِ الحميمِ الذي ينبضُ بالحرارةِ والبلل، كانت بمثابةِ صاعقةٍ تعتصرُ أحشاءَها وتدفعُها نحو حافّةِ الهاوية. أنفاسُهُ اللاهثةُ تضربُ وجهَها كأنّها رياحٌ خماسينيّة، يدُهُ اقتربت من حزامِ بنطالِها، أصابعُهُ تتلمّسُ الزرَّ المعدنيّ، مُستعدّةً لفكِّ آخرِ الحصون، لإسقاطِ آخرِ ورقةِ توت.

الإصبعُ يضغطُ على الزرّ. المعدنُ يُصدرُ طقّةً خفيفة.

وفي تلكَ اللحظةِ التي كانَ فيها إياد على وشكِ الانفجار، اللحظةِ التي كادت فيها عائشةُ أن تسقطَ في وحلِ اللذّةِ الأرضيّةِ الدنيئةِ وتنسى كلَّ

شيء... حدثَ الانكسار. تيبّسَ جسدُها فجأةً كأنما صُعقت بتيّارٍ عالي التوتّر.

شهقت شهقةً عنيفة، شهقةَ غريقٍ ابتلعَ لتراً من الماءِ المغليّ. يداها اللتانِ كانتا تتشبّثانِ بكتفيهِ تحوّلتا إلى مكابسَ هيدروليكيّة، دفعت صدرَهُ بقوّةٍ جبّارةٍ لم تعرف من أينَ أتت بها. اندفعت إلى أقصى زاويةٍ في الأريكة، تتكوّرُ على نفسِها، تجمعُ أطرافَ جلبابِها المُبعثرِ بأيدٍ ترتجفُ بعنفٍ مرضيّ، تُغطّي صدرَها شبه المكشوف، وتُخبّئ عريَها من عينيها قبلَ عينيه.

"لا!" صرخت بصوتٍ مكتومٍ خرجَ من قاعِ معدتِها، وانهارت في نوبةِ بكاءٍ حقيقيّ، هستيريّ، مرير. دموعٌ حارقةٌ تغسلُ روحَها من هذا الطينِ الذي كادت أن تغرقَ فيه.

"عائشة! ماذا دهاكِ؟ نحنُ في الحلال... أنا زوجُكِ، أنا لكِ! ألم تقولي ذلك منذ قليل؟" إياد يلهث، صوتُهُ يقطرُ حرماناً وألماً، عيناهُ مُحمَرّتانِ يكادُ يتطايرُ منهما الشرر، يداهُ مُعلّقتانِ في الهواءِ تطلبانِ العودةَ إلى ذلكَ الجسدِ الذي أفلتَ منه.

نظرت إليه. عيناها تشتعلان بقداسةٍ غاضبة، مُرعبة. سبّابتُها امتدّت نحوَهُ كخنجر: "أستغفرُ الله! أستغفرُ الله! كيف؟ قل لي كيفَ يا إياد؟ ثمّة حدود شرعيّة، فالدخول لم يعلن، ثمّ إنّني أعاتب نفسي، كيفَ نغرقُ في نهرِ اللذّةِ الدنيئةِ هذا، كيفَ نتمرّغُ في هذا الطينِ ونلهثُ كالحيوانات، وإخوتُنا في سوريّا تُذبحُ نساؤهم وتُهدمُ بيوتُهم فوقَ رؤوسهم؟".

الصفعةُ غيرُ المرئيّةِ ضربت وجهَهُ بقوّة. صُعقَ إياد. تراجعَ للخلفِ كمن لدغتهُ أفعى: "سوريّا؟! ما علاقةُ سوريّا بجلوسنا هنا الآن؟ أنا أحترقُ هنا يا عائشة! أنا رجلٌ من لحمٍ ودم، أنا أتمزّقُ أمامكِ!".

وقفت. جلبابُها المُبعثرُ يبدو الآنَ كرايةِ حرب، كدرعٍ سماويّ. تنظرُ إليهِ من علياءَ تحتقرُ فيها رجولتَهُ المُستثارةَ وتصبُّ فيها إثماً لا يُحتمل: "علاقتُها أنّني أستحي! أستحي من اللهِ أن أهبَكَ هذا النعيمَ الزائل، وأبخلُ على نفسي وعليكَ بهذهِ السعادةِ الرخيصةِ المُعطّلة. أجسادُنا لا يحقُّ لها الارتواءُ ودماءُ المسلمينَ تنزفُ أنهاراً. كيفَ يبني الرجلُ عرشَ مُتعتهِ على جسدِ امرأتهِ هنا في أمانٍ مُكيّف، بينما الرجالُ الحقيقيّونَ يخطبونَ الحورَ العينَ بدمائهم في الشام؟ اسأل الشيخ أيّ الفعلين أولى؟

اسأل نفسك: أي نوع من الرجال تحبّ أن تكون! رجلاً حقيقيّاً أم تمثالاً لرجل!".

الكلماتُ كانت مخالبَ سامّةً تنهشُ رجولتَه. لا بدّ أنّه التقط التعريضَ بالتمثال الذي هو مرساة إثمه! اقتربت منهُ خطوةً واحدة. وضعت يدَها المُرتجفةَ على موضعِ قلبِه الذي يضربُ القفصَ الصدريَّ بعنف. خفّضت صوتَها إلى همسٍ يقطرُ إغراءً قُدسيًّا قاتلاً، مزيجاً مُرعباً بينَ الشَبَقِ والجنّة: "أنا جسدي يشتهيكَ يا إياد... روحي تذوبُ شوقاً لتكونَ لكَ سكناً وحرثاً. لكنّني لن أُسلّمَ هذا الجسد، بكلِّ ما يضجُّ بهِ من توقٍ ونار، لرجلٍ يرضى بالقعودِ في دنيا تتعفّن. الدقيقةُ معي هنا ستنقضي، ومُتعتُكَ ستنتهي بماءٍ باردٍ وغسلِ جنابة. ستُفرغُ شهوتَكَ وتنام".

تجمّدَ في مكانِه. ذكورتُهُ التي كانت قبلَ ثوانٍ مُتأهّبةً للغزو، انكمشت وتلاشت تحتَ وطأةِ هذا الاحتقارِ المُغلّفِ بآياتِ الله، وهذا الإثمِ الجبليِّ الذي أيقظتْهُ في روحِه كما استيقظَ في روحِها.

تابعت وهي تنظرُ في عينيهِ مُباشرة، تخترقُ روحَهُ الهشّة، تزرعُ فيها بذورَ الموتِ كأنّهُ الخلاصُ الوحيدُ والخيارُ الأوحدُ للرجال: "أُريدُكَ أسداً...

أُريدُكَ شهيداً لا يقنعُ بترابِ الأرضِ ووحلِها. هل تعرفُ ماذا ينتظرُ الشهيدَ هناك؟ هل تعرفُ ما هي الحورُ العين؟" .

مرّرت أطرافَ أصابعِها الباردةِ على شفتيهِ الجافّتينِ المُتشقّقتين، وأكملت بصوتٍ مُخدّر، يسلبُ الإرادة: "سأكونُ أنا إحدى حوريّاتكَ يا إياد... سأنتظرُكَ على أبوابِ الجنّة، لا في شقّةٍ بائسةٍ في هذا الحيِّ الكئيب. هل تعرفُ كيفَ يكونُ اللقاءُ هناك؟ جماعٌ لا ينقطعُ لسبعينَ خريفاً، سبعينَ سنةً من النشوةِ المُتّصلةِ التي لا يعقبُها فتور، ولا يقطعُها أذان، ولا يُلوّثُها إثمٌ ولا تعب. قصرٌ من ياقوتةٍ مُجوّفة، وأنا لكَ فيها، طاهرةٌ مُطهّرة، كلّما أخذتني عدتُ لكَ بكراً... لماذا تقنعُ بقطرةٍ من ماءٍ آسن، وأمامَكَ أنهارٌ من خمرٍ ولذّةٍ أبديّةٍ لا تنضب؟" .

انهار. سقطَ دفاعُهُ أمامَ هذا الفيضانِ من القداسةِ المُدنّسةِ بالشهوةِ الأبديّةِ الموعودة. كانَ يلهث، دموعُهُ تتجمّعُ في عينيه، ممزّقاً بينَ رغبةٍ تحرقُ أحشاءَهُ هنا والآن، وإثمٍ يسحقُه، وصورةِ لجنّةٍ رسمتْها لهُ بلسانِ خبيرٍ كأنّها تتجوّلُ في غرفِها للتوّ.

قالت كلمتَها الأخيرةَ بحسمٍ يقطعُ الرقاب: "إن لم أكن زوجك في هذهِ الدنيا الدنيئة، سأكون في الآخرة، لنتحرّرَ من قيودِ الأرضِ الثقيلة. اذهب

واغسل عارَ قعودِنا جميعاً بالدم. اجعل مهرَ لقائِنا في الجنّةِ شهادتَك. لا ترضَ بأقلٍّ منها... وحينَ تسبقني إلى هناك، سأكونُ لكَ إلى الأبد. وإذا كنت تخشى عليّ من تحقيقات الأمن، وتغار عليّ من عيونهم، فأنا سأظلّ زوجك أمام الله، لكن أمام الحكومة الكافرة هذه تستطيع أن تطلّقني!".

انسحبت. سحبت يدَها وتراجعت خطواتٍ للوراءِ، تاركةً إيّاهُ يقفُ في منتصفِ الغرفة، مُجرّداً من دنياتِه، يحترقُ بنارٍ لا يُطفئُها إلا الموت.

في الأسابيع التي تلت ذلكَ المساء، تحوّلَ إياد إلى مُجرّدِ خيالِ رجل. عائشة أتقنت لعبةَ الإلهامِ القاتلة؛ تمرُّ أمامَهُ في البيتِ كنورٍ لا يَمسّ، ترمقُهُ بنظراتٍ تفيضُ بالوعدِ الأبديّ، وتُذكّرُهُ بحركةِ جسدِها المدروسةِ أنّ لحمَها هنا ليسَ إلا وديعةً لفنائهِ هناك، وبعد ذلك تأتي رسائل الهاتف والمكالمات الليليّة، التي تحوّلت فيها عائشة إلى علامة تفيض من أنوار الوحي على إياد، وهو يصغر أمام علمها، وتنهي كلّ مكالمة بدعاءٍ للمجاهدين. دعاؤها كان بليغاً يستعير من الأدب القدرة على التصوير، وبناء التعاطف. الوكر الذي حفرته يوم تقرّبها إليها، بات يعجّ الآن بوحوش صغيرة ترضعها كلّ ليلة.

زادَ من اختناقِ إياد، أنّ أبوابَ الدنيا بدأت تُسدُّ في وجههِ حرفيًّا. دلال، من خلفِ الكواليس، كانت تضيّقِ الخناقِ عليهِ تجاريًّا. استردّت منه المشغل الذي كان قد حوّله لمحلّ لمزج العطور، فالعقد كان باسم شخص من طرفها. حرّكت خيوطَ نفوذِها الخفيّةِ في السوق، وأغلقت في وجههِ أبوابَ رزقهِ واحداً تلوَ الآخر. هذا ما عرفته عائشة منه في رسائل يأسه، وجدَ إياد نفسَهُ مُحاصراً في زاويةٍ ميّتة؛ دنيا تلفظُهُ وترفضُه، مالٌ ينضبُ بسرعةٍ مُخيفة، وزواج يصبح مستحيلاً، وامرأةٌ تحرّمُ نفسَها عليهِ لتفتحَ لهُ أبوابَ جنّةٍ لا تُنالُ إلا بتمزيقِ الجسد. لم يعد يُطيقُ البقاء، الهواءُ في المدينةِ أصبحَ ثقيلاً لا يدخلُ رئتيه. لم يجد مفرّاً لإثباتِ فُحولتهِ المهدورة، ولاستردادِ روحهِ المسحوقة، وللظفرِ بتلكَ الحديقةِ الأبديّةِ الموعودة، إلا بالاستجابةِ لنداءِ عائشة الذي بات يمرّ طيفه في كلّ جملة منها، فليس أمامه سوى الهربِ نحوَ الدم.

يومانِ كاملانِ مرّا دونَ زيارةٍ أو اتّصال. صمتٌ مُطبقٌ احتلَّ الشقّة.

وفي مساءِ اليومِ التالي، دخلت عائشةُ البيتَ لتجدَ مشهداً سمّرها في مكانِها. أبوها، الشيخُ جلال، ذلكَ الجبلُ الشامخ، جالسٌ في زاويةِ الصالة. كتفاهُ العريضانِ يهتزّانِ بانتظامٍ مع بكاءٍ صامتٍ مرير، بكاءٍ

يختلطُ فيهِ الفخرُ الأبويُّ برهبةِ الموتِ وخشوعِ الفقد. وفي يدِهِ ورقةٌ بيضاءُ ترتعدُ مع كلِّ شهقةٍ من صدرِهِ.

"لقد ذهبَ يا عائشة..." قالَ الأبُ بصوتٍ مُتهدّجٍ يخرجُ من بئرٍ عميقة، وهو يمسحُ دموعَهُ بظهرِ يدِهِ الخشنة، "إياد تركَ لنا رسالة. وتركَ لكِ ورقةَ طلاقكِ. لقد طلّقَ الدنيا وما فيها... التحقَ بركبِ المجاهدينَ في الشام. كتبَ أنّهُ لن يرضى بأقلَّ من الشهادة، وأنّهُ ينتظركِ في الجنّة".

وقفت عائشةُ مصدومة. تصنّعت الذهولَ وذرفت دموعَ فراقٍ أمامَ والدِها. لكنّها، وما إن سحبت قدميها الثقيلتينِ ودخلت غرفتَها وأغلقت البابَ خلفَها بالمفتاح، حتّى انهارت على الأرضِ ككيسِ رملٍ أُفرِغَ من محتواه. لم تكن تبكي نصراً، ولم تكن تبكي حزناً. كانت تبكي رعباً خالصاً ينهشُ أمعاءَها.

نظرت إلى وجهِها الشاحبِ في المرآة. رأت غريبةً تنظرُ إليها. لقد استخدمت أقدسَ ما تملكُ لتُنقذَ نفسَها، وهي ذاتها كانت تصدّق الدور الذي لعبته. مزجت آياتِ اللهِ بشهوةِ الجسد، وصنعت من توبتِها الحقيقيّةِ سمًّا زُعافاً سقت بهِ رجلاً حتّى أوردتْهُ المهالك. نجت من الاغتصابِ المُغلّفِ بفتوى، نجت من زواجٍ مقيت، وحرّرت نفسَها. لكنّها، وهي

تلمسُ جسدَها الذي ارتعشَ واستجابَ تحتَ شفتيهِ قبلَ أيّامٍ قليلة، أدركت أنّ ثمنَ حرّيتِها كانَ روحَ رجلٍ أرسلتْهُ ليموت، موعوداً بسبعينَ سنةٍ من اللذّةِ بينَ يديها... هناك، في سماءٍ لا تدري إن كانت أبوابُها ستُفتحُ لها أصلاً، أم ستُطردُ منها كشيطانةٍ تلاعبت بالدين.

في غمرةِ هذا الرعبِ المُزلزل، كان الحزن على ما فعلته بإياد يخيّم عليها، لكنّه قدر النساء في هذا المجتمع. تذكّرت دلال. التقطت هاتفَها بأصابعَ ترتعش، واتّصلت بها. كانت تحتاجُ إلى صوتِ دلال ليُؤكّدَ لها أنّها انتصرت، أنّ خطّتَها البديلةَ نجحت، أنّ دلال ساعدتْها في خنقِ إياد تجاريًّا لدفعهِ نحو حتفهِ. كانت تتوقّعُ أن تسمعَ نبرةَ النصرِ والفرحِ في الطرفِ الآخر.

"دلال؟ هل أنتِ بخير؟ لقد نجحنا! إياد رحل... طلّقني وذهبَ للموت!" همست عائشةُ بلهفةٍ محمومة.
لكنّ ما جاءها من سمّاعةِ الهاتفِ سحبَ كلَّ الدماءِ من وجهِها. صوتُ دلال جاءَ من بعيد، مُهتزًّا، خاوياً من أيِّ حياة، كأنّهُ صوتُ جثّةٍ تتحدّثُ من قاعِ قبرٍ مُظلم: "مبروكٌ يا عائشة. لقد تطلّقنا... أنا وأنتِ، في اليومِ نفسهِ".

صُعقت عائشة، توقّفت أنفاسُها: "ماذا تقصدين؟".

"قصّة طويلة!" قالت دلال بصوتٍ مكسور، تتخلّلُهُ تنهيدةُ احتضار، "لكي أتمكّن منه، كانَ عليَّ أن أبيعَ روحي للشيطانِ. كان عليَّ أن أقبل الطلاقَ الرسميَّ الذي كنتُ أماطلُه... الثمن كانَ حرّيتي أنا. الآنَ أهلي كلُّهم يعرفونَ أنّني مُطلّقة، وطليقي المريضُ صارَ في مأمنٍ منّي. كنت سأخسرُ حضانةَ أيمن لو تعجّلت إنقاذكِ".

سقطت الكلماتُ كحجارةٍ ثقيلةٍ على رأسِ عائشة. تجمّدت. بدت وكأنّها فزّاعةٌ خشبيّةٌ نُصبت في حقلٍ مهجور. الصمتُ طال، ابتلعَ موجاتِ الأثيرِ بينهما.

"هل ما زلتِ معي! عائشة!" تصنّعت دلال قوّةً لا تملكُها.

"معكِ... معكِ!" تلعثمت عائشة، والدموعُ تحرقُ خدّيها، "لكنّني لا أدري ماذا أقول! كدتُ أن أجعلكِ تخسرينَ ابنكِ بإلحاحي وأنانيّتي! أنا أعتذر... أنا وحشٌ يا دلال، لقد دفعتك لسجن المطلقة، ودفعت به إلى الموت، أشعر أنني قطام التميميّة بعثت من جديد".

"قطام! ومن هذه؟ لا أريد أن أعرف" قاطعتها دلال ببرودٍ، "أنتِ كنتِ تُطالبينَ بحقّكِ في النجاة. تعقيداتُ حياتي ليست من صُنعكِ، أنا وأنتِ كلٌّ منّا كانَ مُضطرًّا لفعلِ ما فعلَ بسببِ هذا العمى المُزمنِ الذي يعيشُ فيهِ أهلُنا. لا تقلقي، أيمن في مأمن، وأنا سأتأقلمُ مع سجني الجديد. ما يهمُّ أهلي هو المالُ الذي أُغدِقُهُ عليهم، وهذا لم يتضرّر... أراكِ قريباً!".

أغلقت الخطّ. بقيت عائشةُ تحدّقُ في شاشةِ الهاتفِ المُظلمة. "دلال... أنتِ أعظمُ وأتعسُ إنسانٍ عرفتُه،" همست لنفسِها، وهي تقفُ على مُفارقةٍ مميتة. قبلَ مدّةٍ قصيرةٍ كانت ترى دلال امرأةً غارقةً في وحلِ المصالح، مادّةً للمتعةِ الرخيصة، والآن، هذهِ المرأةُ باعت حرّيّتها لتشتريَ حرّية خدينتها.

وفي الهدوءِ المُرعبِ الذي أعقبَ المكالمة، رنَّ جرسُ الشقّةِ الخارجيّ. سمعت صوتَ والدتِها يستقبلُ الضيوفَ بحفاوةٍ مُصطنعة. أصواتُ نسوةِ الحيِّ تملأُ الصالة، لا بدَّ أنّهنَّ جاراتٌ أتينَ "لمواساتِها" في رحيلِ العريسِ المجاهد، أو يُشبعنَ فضولَهنَّ المريضَ حولَ طلاقِها السريع.

ماذا ستقولُ لهنّ؟ كيفَ ستخرجُ إليهنَّ لتصطنعَ الحزنَ وتخفضَ بصرَها، بينما هي ترقصُ من فرحةِ النجاةِ، وتحترقُ بجهنّمِ الذنبِ معاً؟ دموعُ أبيها

في الصالة، تضحيّةُ دلال المُذلّةُ في الهاتف، وروحُ إياد التي هامت نحوَ الموتِ مخدوعةً بشهوةٍ ملائكيّة، كلُّها شكّلت إعصاراً يعصفُ برأسِها. جلست على طرفِ سريرِها، تنظرُ إلى البابِ المغلق، وتنتظرُ أن يطرقَ أحدهم ليدعوَها للخروجِ إلى مسرحيّةِ الحياةِ التي لا تنتهي، ولكنّها بدأت تتقن أدوارها فيها.

الفصل الحادي والعشرون:

يزحف الصّمت في أروقة بيت أبي عُمَر كحلزون ضخم، يترك خلفه لُعاباً خانقاً يلتصق بنِعال القاطنين. الجدران تتعرّق ذنباً لا تعرف مصدره. الشّيخ جلال، الجبل الذي كان يسُدّ الأُفُق، يجلس الآن في زاوية الصّالة، تتآكل أطرافه كقطعة صابون منسيّة في قاع حوض معدنيّ. لحم وجهه يتهدّل تحت وطأة الفجيعة المُزْدَوَجَة؛ فِقْدان عريس مُجاهِد، وطلاق ابنة لم تُزَفّ. نظراته تتساقط على السّجّاد كقِشْرة طِلاء رخيصة تتشقّق عن جدار قديم. أمّها تتحرّك في الممرّات بخُطُوات قِطّة تخشى إيقاظ وحش كاسر. تضع أطباق الطّعام أمام باب غرفتها وتنسحب هشّة، تُعامِل ابنتها كقُنْبُلة موقوتة، أو ربما كمَزار أثريّ لعروس قطفها الموت قبل النُّضْج.

عائشة تمتصّ هذا الخراب وتتغذّى عليه. فمها يَعْلُك انتصاراً بشعاً بطعم الصّدأ. هي تجلس في غرفتها، تحتلّ زاويتها المعتادة، بينما خالتها هبة تحتلّ أقلّ من نصف السّرير في سلام سحريّ. فَخِذ هبة الجميل يضغط على مَرْتَبَة القطن، تصدر منها أنفاس نوم نكِد. هبة جاءت تواسي، لكنّها تجهل القصّة كاملة وتظنّ بعضها مرّبرضاً من عائشة. وعائشة تلتقط نبرة لوم حنون منهت في صمت، ترتدي قناع الفجيعة البلاستيكيّ وتُثَبّته بمسامير الخِداع. رائحة عِطْر هبة الصيفيّ الرائق مع رائحة العَرَق البارد

الذي يُغَلِّف جِلْد عائشة. الغرفة عُبُوَّة ضغط عالٍ، وعائشة تختنق بحريّتها الجديدة.

تسحب هاتفها. الشّاشة تَبْصُق ضوءاً أزرق شاحباً يغسل وجهها المُتَخَشِّب ببرودة مَشْرَحة. تطبيق تلغرام يفتح فكّيه الافتراضيّين. اسم سارة يرقد في أعلى القائمة، جُثّة حشرة جفّفتها شمس الصّحراء. آخر رسالة بينهما تحمل تاريخاً يعود إلى عصر جيولوجيّ آخر، قبل أن ينشقّ سقف العالم وتسقط جُثَث الرّجال والنّساء في حِجْرِها. سبّابتها تحَلِّق فوق الحروف الباردة، ترتجف النّبضة في طرف الإصبع كجناح ذبابة عالقة في صَمْغ شجرة صنوبر. تضغط على الفراغ جِوار الاسم، ثُمّ تسحب يدها بسرعة، كمن لدغته نار وهميّة. زجاج الشّاشة بارد يقضم حرارة الجِلْد. المواجهة المباشرة تحتاج مَعِدَة قادرة على هضم الحصى، ومَعِدَتها الآن مُثْقَلة بابتلاع المؤسّسة الأبويّة كاملة.

تنزلق إصبعها نحو الرسائل إلى الذات. هذا القبر الرّقميّ الصّامت لا يُحاكِم أحداً، لا يُطالِب بردّ سريع، ولا يتقيّأ نصائح أخلاقيّة عن الصّداقة. ستكتب لسارة هنا، تُوهِم نفسها أنّ العين التي تقرأ خلف البكسلات المتراصّة هي عين صديقتها. أصابعها تَنْقُر لوحة المفاتيح بصوت يشبه نقر منقار طائر خشبيّ على جُمْجُمة فارغة.

تكتب المُسَوَّدة الأولى. الحروف تسقط ببلادة إسمنتيّة: "إياد رمى ورقة الطّلاق وذهب للموت. دلال حطّمت زواجها لتفكّ قَيْدي. نَجَوْتُ من الكارثة وتنفّست أخيراً." تنظر إلى الجُمَل المصطفّة. تقرأها بصوت مُنْخَفِض يَخْدِش حَنْجَرَتَها. الكلمات ترنّ كإعلان وفاة مُلْصَق على جدار مِرْحاض، تقرير إداريّ كتبه موظّف أَرْمَد في مصلحة حكوميّة تفوح منها رائحة الورق المُتَعَفِّن. خالية من الحياة، خالية من الدّم. تضغط زرّ الحذف باستمرار دؤوب. السّهم الخلفيّ يلتهم الحروف كجُرَذ جائع يبتلع فُتات الخبز من على بلاط رَطْب. الشّاشة بيضاء مجدّداً، تستعدّ لامتصاص قَيْء جديد.

تأخذ نفساً يعبّئ رئتيها بغبار الغرفة وعِطْر هبة الذي يذكّرها بلحظات الحنان النادرة. تركض أصابعها بجنون محموم، تُفْرِز عُصارة مَعِدَة مريضة، تقطر ضعفاً مُبْتَذَلاً. المُسَوَّدة الثّانية تتمدّد كبقعة زيت: "سارة، أنا أختنق تحت وزن هذه النّجاة. خيوط الكذب التَفّت حول رقبتي وسحبتها حتّى انقطعت التّروية عن دماغي. أرسلت رجلاً ليموت في الشّام لكي أنجو بجسدي، ودفعت امرأة لِتَسْجُن نفسها في لقب مُطَلَّقة لكي أتحرّر. أنا قذارة تتنفّس، وحش يتغذّى على من حوله. اغفري لي صمتي، اغفري خِداعي. أحتاجك، أحتاج رائحة العِلْكَة بنكهة النّعناع لِتُرَمِّم هذا الخراب."

تتوقّف أصابعها. تتأمّل هذا الشّلال العاطفيّ الذي تعلوه الطحالب. رائحة صابون رخيص تفوح من المعاني المتراصّة. استجداءِ مُقْرِف يمسح كرامتها المستعادة بخِرْقَة مطبخ مبلّلة. هذا البكاءِ الرّقميّ لا يشبه الأنثى التي مضغت مِسْبَحة أبيها وأحالتها إلى وَثَن جنسيّ. هذا نزيف فتاة مراهقة فقدت دُمْيَتَها القطنيّة في حديقة عامّة وتتسوّل من المارّة أن يبحثوا معها. زرّ الحذف يعمل مجدّداً، يمسح القَرَف العاطفيّ، ينظّف الشّاشة من الضّعف القديم. تُعَقِّم الفراغ الرّقميّ بضغطة طويلة تبتلع كلّ نقطة وفاصلة.

تُريح ظهرها المتقوّس على وسادتها. تنظر إلى هبة التي غفت قليلاً، فكّها السّفليّ مُسْتَرْخٍ، تصدر نأمة خفيفة متكرّرة تشبه خرير ماء جدول في بادية العائلة. الفهم يهبط على عائشة كحجر صَلْد يُهَشِّم زجاج التّردّد. سارة لا تحتاج تبريراً مسروداً بعناية، ولا تفاصيل مسرحيّة مملّة عن دلال وإياد. سارة تحتاج الحقيقة العارية، العَظْم الأبيض المنظّف من كلّ دهون العاطفة.

تعود للشّاشة بحسم آليّ. تكتب ببطء شديد، تضع كلّ حرف كقطعة فسيفساء في مكانها الحَتْميّ الذي لا يقبل الإزاحة.

"تعثّرت بباب مخفيّ ببراعة في ورق الجدران، ولم أملك سوى الدّخول. ما كان ينبض بيننا حقيقيّ، وسيستمرّ في النّبض، أيّاً كان الاسم الذي سنُطْلِقه عليه."

نقطة.

لا تُضيف حرفاً آخر. الجُمْلَتان تقفان في الفراغ كمسلّتي رُخام في صحراء شاسعة. فيهما كلّ ثِقَل التّجربة، وكلّ خِفَّة الاعتراف. الكلمات تجلس هناك، في العَتْمَة الرّقميّة للمحفوظات. جنين مُكْتَمِل مُحَنَّط في وعاء فورمالين نقيّ، لا يَتَعَفَّن ولا يكبر. ترفع إبهامها عن الشّاشة. لا تضغط زرّ الإرسال. لا تَنْقُل النّصّ إلى محادثة سارة النّائمة. تتركه يختمر في عُزْلَته الخاصّة.

تُغْلِق التّطبيق بحركة واحدة قاطعة، تُسْدِل السّتار على هذا المشهد. ترمي الهاتف جِوار ساق هبة الثّقيلة. ربما في يوم تصحو فيه الشّمس بلون مُخْتَلِف ستمرّر هذه الكلمات إليها. ربما سيتكفّل الصّدأ الرّقميّ بأكلها. الغرفة تغوص في صمت كثيف، صمت يمكن لمسه باليد وتشكيله كطين بارد. عائشة تفرد ساقيها على السّرير، تراقب سقف الغرفة، تتنفّس هواءها الخاصّ، تبتلع حريّتها البشعة بهدوء المنتصرين الملعونين، ولا تنتظر أحداً.

في اليوم التالي، تتّصل دلال بأمّ عمر، تخبرها أنّها تحبّ أن تسرّي عنها، إذ إنّ أيمن أظهر تحسّناً كبيراً في مدّة قياسيّة. هذا ما تعرفه عائشة من أمّها، بالإضافة إلى رغبة أمّها في أن تراها تعود للحياة بعد ما حدث. "دلال الماكرة، لا أدري كيف أقنعتها حتّى جاءت تطلب منّي زيارتها!" هذا ما يدور في خلَدِ عائشة وهي تستمع وتمثّل الحزن. عائشة منهكة من الأحداث وغاضبة من أبيها، لكنّها في أعماقها فرحة انتصار تخجل أن تظهرها. الوحيدة التي تلمّست مشاعر عائشة الحقيقيّة هي هبّوش، ربما بحكم القرب المضروب في ثلاثة: العمر والعلاقة وأنّها تنام في غرفتها.

هذه فجوة زمنيّة محتملة يمكن للخالة هبة أن تفلت شياطينها في عقل أمّها، فالخالة وابنة الأخت كانتا تدبّران أمراً خفيّاً لكنّه واعد. تستأذن عائشة دون أن تبالغ في زينتها.

في الطريق، ترقص النشوة في عروق عائشة كقطيع جياد بريّة كُسرت أقفاصها للتو. خطواتها على الإسفلت لا تترك أثراً، تكاد تطفو فوق الجاذبية. جسدها يفرز بهجة نيئة، بهجة ناجية تقف فوق جثّة صيّادها وتتأمّل الغابة المفتوحة. طعم الذنب الوحيد يخدش سقف حلقها كقشرة فستق جافّة: طلاق دلال. فاتورة باهظة دفعتها الكاهنة الكبرى لإنقاذ تلميذتها من مقصلة إياد.

يفتح الباب. تسحبها دلال من يدها، تتجاوز الصالة بأثاثها الوثني المخصص للزبونات، وتدفعها نحو المطبخ. المطبخ رحم دافئ تفوح منه رائحة بن محروق وهيل مطحون. تجلس دلال أمام المجلى. ثوبها المنزلي الكتّانيّ يلتصق بظهرها، يبرز تموجات جسد ناضج، متعب، ينضح بفتنة خشنة. الطلاق لم يسلبها سطوتها، قشّر عنها طبقة رقيقة من الزّيف لتلمع تحتها غريزة البقاء.

تتأمّل عائشة هالات الإرهاق البنفسجيّة تحت عيني دلال. تريد أن تبتلع هذا التعب. الذنب يقرص معدتها بخفّة، لكنها تريد أن تحقن وريد دلال بيقين جديد، أن تهمس في أذنها: دعي عالم الرجال يحترق. لو جفت ينابيعهم وقُطعت حبالهم، فنحن هنا. أجسادنا غابات من المتعة الصافية، وأنا أولى عشيقاتكِ في هذا الفردوس الخالي من خشونة الذكور وعُقَدهم.

وبعد أن تسلّم على أيمن ويشكرها، يذهب إلى اللعب تاركاً أمّه وأستاذته في المطبخ الفخم يشربن القهوة ويكملن التحلية.

تمتدّ يد عائشة إلى قاع حقيبتها. تسحب كتلة الكهرمان الباردة، المسبحة التي تحولت إلى قضيب وثني دُنّس بالشهوة الغاضبة. تضعها على رخام

الطاولة بينهما. طقة الحجر الصقيل تقطع هواء المطبخ وتستقر في أذن دلال.

تنظر دلال إلى حبات الكهرمان الكبيرة، ثم ترفع عينيها الغائمتين لتثبتهما في عيني عائشة.

"كنت أعدّ عليها الأيّام." تقول عائشة، وصوتها يخرج حاداً كشفرة تقطع قطعة حرير. "انتهى العدّ."

يصمت المطبخ. هواء ثقيل يضغط على طبلة الأذن.

تضيف عائشة بدفء ساخر هادئ، دفء يذيب العظم ويقطر شبقاً سيادياً: "لكنّها تصلح لأشياء أخرى." وتشدّ خيطها لتنتصب الخرزات مثل وتد مموّج.

حبات الكهرمان المحملة بتاريخ من الانتهاك المقدس والأنين المكتوم تنتقل إلى يدها. تمسكها وتقبّلها بحنان وتضعها جانباً. الصمت بينهما يزن جبالاً من الذهب الخالص، صمت يبرم عقد شراكة أبدي بين امرأتين ابتلعتا جثث الذكور وبصقتا عظامهم.

تدفع دلال الكرسي وتقترب. تقف بالضبط بين فخذي عائشة المتباعدين على كرسيّها العالي. حرارة حوضها تلسع ركبة عائشة عبر قماش الجلباب. تنحني دلال ببطء. تصطدم الشفاه بقسوة صخرتين تولدان شرراً. لا توجد مقدمات هشة ولا خجل مبتذل. قبلة كاسرة تبتلع كل الخراب الذي مرّ. شفتان جافتان تنفرجان عن لسان جائع يقتحم فم عائشة كجيش منتصر. طعم القهوة المرة يغسل حنجرة عائشة، ولعاب دلال ينساب كخمر معتق يوقظ كل النهايات العصبية التي خدرتها الأيام الماضية.

ترتفع يدا عائشة وتعتصران ردف دلال الكثيف. اللحم الحي يمتلئ بالحياة تحت أصابعها، يرتجف، يشتعل بشبق مكتوم راكمته الأحداث الكبرى. دلال تئن أنيناً خشناً يكاد يكسر بلاط المطبخ. تضغط حوضها أكثر، تفرك جوعها المؤجل وشهوتها العارية بحافة الكرسي وبركبة عائشة. جسد دلال يفوح برائحة أنوثة مخمرة، رائحة امرأة تخلت عن آخر قيودها وتتذوق حرّيّتها بأسنان حادة. دلال في هذا الانكسار شهّية حد الوجع، تفيض بغواية لزجة تجبر عائشة على التهامها.

تمتص عائشة شفة دلال السفلى، تطحن لحمها الطري بين أسنانها حتى تستطعم ملوحة دم خفيف. الأنفاس تتلاحق كاللهاث في ماراثون

مجنون، الأيدي تغوص في الشعر المبلل بالعرق، والشهوة تغلي في أسفل البطون كحمم بركانية تذيب صقيع الخوف المتراكم. كل ضغطة، كل تأوّه، هو إعلان حرب على العالم الخارجيّ، وتتويج لسيادة الأجساد التي تكتفي ببعضها.

تتراجع دلال نصف خطوة. تستند بظهرها المرتجف إلى المجلى الرخامي. ترتب أنفاسها اللاهثة بصعوبة، صدرها يعلو ويهبط بعنف يمزق القطن الخفيف. تمرر إبهامها على شفتيها المتورمتين الحمراوين. تنظر إلى بقعة مبهمة في الجدار، وتطرد غشاوة اللذة من عينيها لتواجه وحش الواقع.

يخرج صوتها محملاً بحصى الأيام القادمة، حشرجة ثقيلة تقيس مساحة المعركة: "مشواري الحقيقي لم يبدأ بعد. ما أمامي... أشرس بكثير مما خلّفتُ ورائي."

لا ترمي عائشة مواعظ رخيصة. لا تعد بوعود بلاستيكيّة فارغة عن غد مشرق. تقف ببطء. تتقدم خطوة وتضع كفها بثقله الكامل على كتف دلال المنهك. أصابعها تعتصر اللحم الحي، تثبته في اللحظة الحالية بقوة من صُلب في نار التجربة.

"أنا كنت هناك." تنطق عائشة جملتها كوتد يُدق في الأرض الصلبة. "وخرجت."

هذا كل ما تقوله. وهو كافٍ جداً. تنسحب يدها، وتترك دلال تستند إلى رخام المطبخ، تحمل مسبحة الكهرمان في جيبها، وطعم النساء في فمها، ويقين النجاة يعزف في أذنيها.

الطّريق من بيت دلال إلى منزل العائلة يمتدّ كشريط من الإسفلت البارد، يبتلع خطوات عائشة ويُثْقِل كاهلها بصُوَر الخراب الطّازج. هواء الشّارع يحمل رائحة عوادم السّيّارات وغبار المدينة، يغسل رئتيها من بقايا العتب المكتوم في شِقّة دلال. تدفع الباب الخارجيّ لبيت أبي عُمَر. المفتاح يدور في القفل بصوت جافّ يمزّق صمت الظّهيرة. يُفْتَح الباب على تجويف البيت المُظْلِم. رائحة الرّطوبة الممزوجة بعطر والدها الثقيل تستقبلها كعِناق قَسْريّ.

في الصّالة، يجلس جلال. حضوره يتطابق تماماً مع غيابه. يحتلّ كرسيّه المعتاد كقطعة أثاث ثقيلة نَسِيَها أصحاب البيت عند الرّحيل. عيناه مُعَلّقتان بشاشة تلفاز مُطْفَأة، تعكسان فراغاً شاسعاً يبتلع كُلّ مَن يحاول النّظر إليه. صدره يعلو ويهبط بإيقاع ميكانيكيّ بطيء. يداه مسترخيتان على مُسْنَدَي الكرسيّ كأطراف تمثال شمعيّ فقد بريقه. تمرّ عائشة أمامه.

وَقْع حذائها على البلاط يتردّد في أرجاء الصّالة. لا يرمش. لا يلتفت. غيبوبته المفتوحة تبتلع الأصوات والحركات، تحَوّل الرّجل الذي كان يوماً زلزالاً يرُجّ جدران البيت إلى مَحْض جُثّة تتنفّس هواء الصّالة وتزفر الصّمت.

تواصل سيرها نحو الممرّ المؤدّي إلى غرفتها. باب الغرفة مُوارِب قليلاً، يتسرّب منه ضوء أصفر خافت يقطع عتمة الممرّ. تقترب بخُطُوات حَذِرة. همهمات مُنْخَفِضة تنسدل من الشّقّ المفتوح. صوت خالتها هبة يحمل نبرة الواثق، المُخَطِّط الذي يُرَتِّب قِطَع الشّطرنج على رُقْعة محترقة. يقابله صوت أُمِّها منى، صوت يحمل نبرة جديدة، خالية من التّردّد المعتاد، خالية من رَجْفة الطّاعة القديمة.

تدفع عائشة الباب وتدخل. المشهد داخل الغرفة يبدو كغرفة عمليّات سرّيّة. هبة تتربّع على سرير عائشة، تفرد جسدها الممتلئ بأريحيّة مُطْلَقة، تحتلّ المساحة وتفرض سيطرتها على المكان. منى تجلس على الكرسيّ الخشبيّ الصّغير قُبالَة السّرير. ظهرها مستقيم، يداها متشابكتان في حِجْرها بثبات مفاجئ. عينا منى تلتمعان ببريق غريب، بريق امرأة استيقظت للتّوّ من تخدير طويل وأدركت حجم الجروح التي تُغَطّي جسدها.

تُدْرِك عائشة في اللّحظة الأولى أنّ هبة أتمّت المهمّة بنجاح ساحق. الكلمات التي زرعتها هبة في رأس منى خلال السّاعات الماضية نبتت وأثمرت. خُطّة إخراج جلال من قوقعته لَمْ تَعُدْ مجرّد فكرة مجنونة تطرحها أخت متمرّدة، تحوّلت إلى ضرورة حتميّة تعتنقها الزّوجة التي سئمت العيش مع شبح.

تجلس عائشة على حافّة السّرير بجوار خالتها. تتابع الحوار الصّريح الذي يدور بين المرأتين. هبة تتحدّث عن ضرورة إحداث شَقّ في جدار هذا البيت. حالة الشّلل التي تُسَيْطِر على جلال تُسَمِّم الهواء، تقتل القاطنين ببطء شديد. منى تهزّ رأسها موافقة. ملامح وجهها تتصلّب. تجاعيدها تبدو كخرائط لمعارك خاضتها بصمت طَوال سنوات زواجها.

تتحدّث منى بصوت هادئ، واثق، يقطع هواء الغرفة كشَفْرة حادّة. تطرح اسماً يسقط في وسَط الغرفة كحجر ثقيل في بِرْكة راكدة. تقول: إبراهيم.

تلتفت هبة نحو أختها باهتمام. عائشة تراقب شفتي أُمِّها وهي تَنْطِق الاسم بوضوح. إبراهيم. الصّديق القديم. الرّفيق الذي قاسم جلال أيّام الشّباب المتمرّدة قبل أن تَقَع الواقعة، قبل أن تلتهم الصّدمة النّفسيّة عقل

جلال وتحيلَه إلى هذا الكائن المذعور المتدثّر برداء التّديّن المهووس. إبراهيم يمثّل الحياة الحرّة، الضّحكة العالية، والسّخرية اللاذعة من كُلّ القيود. رجل يحتفظ بعقله بعيداً عن هَوَس التّحريم والتّجريم. بَقِيَ متشبّثاً بحياته الطّبيعيّة، يرفض الانجرار خلف موجات التّرهيب التي جرفت جلال بعيداً.

تشرح منى فكرتها بتسلسل منطقيّ يُثير إعجاب عائشة. إبراهيم هو المفتاح الوحيد القادر على فتح القفل الصّدئ في رأس جلال. يملك شيفرة الماضي المشترك. يعرف جلال الحقيقيّ، الرّجل الذي كان يقرأ الشّعر ويضحك مِلْءِ شِدْقَيْه ويناقش في السّياسة والحياة. زيارة مفاجئة من إبراهيم، جَلْسة طويلة تُفْرَض عليه فَرْضاً، استحضار مقصود لذكريات قديمة وتفاصيل لا يعرفها غيرهما، كُلّ هذا سيُحْدِث شَرْخاً في جدار العزلة. إبراهيم قادر على اختراق دِرْع التّديّن الزّائف الذي يحتمي خلفه جلال، يملك الجُرْأة الكافية لمواجهته، والسّخرية اللازمة لتعرية مخاوفه.

الخُطّة ترتسم بوضوح في هواء الغرفة. اتّصال هاتفيّ من منى لإبراهيم. دعوة عشاء مفاجئة. توريط جلال في مواجهة لا يستطيع التّهرّب منها. هبة تبتسم باتّساع، تهزّ رأسها إعجاباً بذكاء أختها المكبوت. عائشة

تلتقط تفاصيل الخُطّة بصمت. تراقب أُمَّها وهي تُرَتِّب الخُطُوات، وتحَدِّد الموعد، وتتوقّع ردود أفعال أبيها وتضع حلولاً لها مُسْبَقاً.

ينتهي الاجتماع المُصَغَّر. تقوم هبة لِتَتَمَدَّد على السّرير، تُعْلِن حاجتها لقيلولة قصيرة بعد هذا الجُهْد الذّهنيّ. تنهض منى وتتّجه نحو الباب. عائشة تتبعها بخُطُوات هادئة. تمضيان في الممرّ معاً. تمُرّان مرّة أخرى بالصّالة. جلال لا يزال في مكانه. تمثاله الشّمعيّ لم يتحرّك قِيد أُنمُلة. تتجاهله منى تماماً، تُكْمِل طريقها نحو المطبخ بظهر مشدود ورأس مرفوع.

تجلس عائشة على الكرسيّ الخشبيّ الصّغير المجاور لطاولة المطبخ. إضاءة النّيون البيضاء تغمر المكان بوضوح قاسٍ. المطبخ هو مملكة منى، مساحتها الخاصّة التي تحتفظ فيها بقواعدها وقوانينها. تقف منى أمام حوض الغسيل، تَشْطُف بعض الخضروات. حركاتها دقيقة، خبيرة، ومتناغمة. صوت الماء المُنْسَاب يكسر صمت البيت الثّقيل.

تلتفت منى نحو ابنتها. تسألها بهدوء عن رغبتها في العشاء، تقترح صِنْفَين من الطّعام تعرف أنّ عائشة تُفَضِّلهما. سؤال بسيط، يوميّ، يخلو من أيّ تعقيد. لا يحمل أيّ إشارة للماضي الثّقيل ولا للمستقبل المجهول.

عائشة لا تجيب فوراً. تستند بِمِرْفَقِها على الطّاولة وتراقب أُمَّها. تنظر إليها بعينين مفتوحتين على اتّساعهما. ترى التّفاصيل الدّقيقة التي غابت عنها طويلاً. خُصُلات الشّعر الأبيض التي تُفْلِت من تحت منديل الرّأس. الأوردة الزّرقاء النّافرة على ظهر اليدين. الأكتاف التي تحمل وزن سنوات من الكتمان والتّنازلات.

تتأمّل عائشة أُمَّها في هذه اللّحظة الخالصة. تسقط جميع الصُّوَر القديمة، تسقط صورة الزّوجة الخانعة، تسقط صورة الضّحيّة الصّامتة المُلْحَقة بظِلّ رجل مستبدّ. تبرز صورة جديدة، واضحة وحادّة. ترى أمامها امرأة كاملة، كياناً مستقلاً يملك عقلاً يُدَبِّر، وإرادة تتحرّك، وقدرة على قَلْب الطّاولة في اللّحظة المناسبة. تُدْرِك عائشة أنّ أُمَّها تمتلك قوّة كامنة، قوّة تشكّلت في الخفاء، نضجت على نار هادئة من الصّبر والمراقبة، والآن تخرج للعَلَن لتأخذ زِمام المبادرة.

تحتفظ عائشة بهذا الاكتشاف لنفسها. تُخَزِّنه في صدرها كسِرّ ثمين. لا تَنْطِق بكلمة واحدة تُعَبِّر عن هذا الانبهار الصّامت. تكتفي بمراقبة منى وهي تُقَطِّع الخضروات وتجَهِّز أدوات الطّبخ. الإيقاع الهادئ في المطبخ يتناقض مع العاصفة التي يتمّ التّحضير لها في الغرفة الأخرى.

تختار عائشة إحدى الوجبتين المقترحتين. تومئ منى برأسها وتبدأ في تحضير المكوّنات. تنهض عائشة عن الكرسيّ الخشبيّ. تقترب من أُمِّها بخُطُوات بطيئة. تقف بجوارها. ترفع يديها وتضعهما برِفْق على كَتِفَي منى. تميل برأسها وتطبع قُبْلة طويلة، هادئة، ومُحَمَّلة بتقدير عميق على جبين أُمِّها. تبتعد ببطء، وتنسحب من المطبخ تاركة منى تُكْمِل عملها وسَط إيقاع الماء المُنْهَمِر ورائحة الخضروات الطّازجة.

الفصل الثاني والعشرون : السِّفر

مكالمةٌ واحدةٌ كانت كافيةً لاقتلاعِ الطمأنينةِ من جذورها. عادَ أبو عمر من مبنى المخابراتِ لا يحملُ على كتفيهِ سوى الخراب. لم يُعذّبوه، لكنّ مُجرّدَ الجلوسِ على ذلكَ الكرسيِّ الجلديِّ الباردِ تحتَ أضواءِ النيونِ الطنّانة، مُجرّدَ الشعورِ بأنّ عينَ الدولةِ الكبيرةَ التي راقبت كلَّ شعرةٍ وكلَّ همسةٍ في بيتِه، تجعلُ منهُ مُجرّدَ ذرّةِ غبارٍ تحتَ مجهرِ السلطة... سحقَهُ تماماً.

دخلَ البيتَ بوجهٍ بلونِ الإسفلت. جبلُهُ الشامخُ، صرامتُهُ، سلطتُهُ الأبويّةُ التي خنقت عائشةَ لسنوات، كلُّها تصدّعت. الخوفُ من المجهول، من الملفّاتِ المفتوحةِ في أقبيةٍ لا يراها، حوّلَهُ إلى كومةٍ من القلقِ المُرتجف. كانَ يمشي في الصالةِ كمن يتوقّعُ أن تنشقَّ الأرضُ وتبتلعَه.

بعد ليلتين من عاصفةُ "الانفراجِ الأخيرِ"، التي تركت خلفَها سكوناً مُريباً يُشبهُ هدوءَ ساحاتِ القتالِ بعدَ أن يبتلعَ الترابُ آخرَ صرخة، جلست عائشةُ في غرفتِها. لم تعُدِ الغرفةُ سجناً أو معبداً سرّيّاً، بل أصبحت شرنقةً فارغة، تنتظرُ فراشةً وُلدت للتوّ لتُجفّفَ أجنحتَها المُبلّلةَ بدموعِ الولادةِ قبلَ أن تحلّق. كانت نساءُ العائلةِ، أمُّها وخالاتُها، يتحرّكنَ في أرجاءِ البيتِ ككاهناتٍ في طقسِ تطهيرٍ صامت، يمحونَ بصوتِ ضحكاتِهنَّ

الخافتةِ وبحركةِ أجسادهنَّ الحنونةِ آثارَ سنواتٍ من الصمتِ والقهر. كنَّ يمارسنَ عُرفَهنَّ الأنثويَّ غيرَ المدوّن، يُنسينَ المصابةَ نفسَها بأن يكُنَّ ضيفاتٍ خدومات، يُسرّينَ عنها، ويُعدنَ نسجَ خيوطِ الألفةِ التي قطّعها زمنُ الوحشة.

ليلاً، أضاءت عائشةُ شاشةَ حاسوبِها، وفتحت ذلكَ الملفَّ الذي حملَ اسماً ثقيلاً: "سِفر الخروج". كانت قد بدأت كتابتَهُ كوصيّةِ انتحار، كشهادةٍ أخيرةٍ تُلقيها في وجهِ عالمٍ أصمّ، لكنّهُ تمدّدَ وتضخّم، وأصبحَ كائناً حيّاً لهُ إرادتُهُ الخاصّة. راحت تقرأُ ما خطّتهُ أصابعُها في ليالي الحمّى واليأس، تقرأُ عن "عائشة" و"عيّوش" و"نجمة"، عن كنزةِ الصوفِ ونافذةِ إياد ودهاليزِ دلال. كلُّ كلمةٍ كانت صفعة، وكلُّ جملةٍ كانت طعنة. "أهذهِ أنا؟" همست لنفسِها، والرعبُ يزحفُ في أوصالِها. "أكتبتُ كلَّ هذا فعلاً؟ كيفَ استحالت وصيّةٌ بسيطةٌ إلى هذا الوحشِ الورقيِّ الذي يُحدّقُ فيّ الآن بعينينِ من حبر؟".

ظلّت ليلتين تقرأ ما كتبت، وتحرّره وتفحصه، وفي الليلة الثالثة، طُرقَ البابُ برفق. كانت خالتُها هبة، التي حجزت رحلة طائرة وأخذت إجازة خاصّة من أجل أن تكون مع عائشة، تحملُ فنجانينِ من شاي النعناعِ تفوحُ منهما رائحةُ السكينة. جلست بجانبِها، ونظرت إلى الشاشةِ المضيئة.

"تكتبين نصّاً جديداً؟" سألت بابتسامةٍ دافئة. لم تجب عائشة، بل أغلقت الشاشة وكأنّها تستر عورتها. وعرفت هبة أنّها يجب أن تغيّر الموضوع، لكن قبل أن تفعل، أومأت عائشة برأسِها. "أفكّرُ أنّني قد أكتبُ قصّتي يوماً..." قالت بصوتٍ خافت، مُختبرةً الفكرة.

لمعت عينا هبة بحماس. "يجبُ أن تكتبيها! ويجبُ أن تُنشر! أعرفُ ناشرينَ في الخارج، سيعشقونَ جرأتك التي أعرفها!"

قاطعتها عائشة بحسمٍ قاطعٍ كحدِّ السيف. "لا. إذا وجدَ هذا النصُّ طريقَهُ إلى النورِ يوماً، فسيكونُ نشراً سرّيّاً، باسمٍ مُستعار. أنتِ لا تعرفينَ التفاصيلَ التي أنوي الحديثَ عنها! الروايةُ تُصادمُ كلَّ فكرةٍ تربّى عيها مجتمعُنا."

"عيّوش، ماذا تقصدين؟ هل يمكنني قراءتها؟" سألت هبة بفضولٍ مُحبّب.

"لا،" قالت عائشة، وفي صوتِها قرارٌ نهائيّ. "للأسف، لا يمكنني. لكنّني أعدكِ... أنّك إذا قرأتِها يوماً، ستعرفينَ أنّها قصّتي."

تفهّمت هبة، لكنّ الفضولَ لم يتركها. "إذن، على الأقلّ... ساعديني لأفهم. كيفَ وصلنا إلى هنا؟ ماذا حلّ بصديق والدك الشيخ إياد؟"

تنهّدت عائشة، وبدأت تروي، ليسَ ما هو مكتوبٌ في "سِفر الخروج"، بل ما حدثَ في كواليسِه، وعندما أتمّت رسم صورة عامّة عمّا حدث، قاطعت نفسها: "أريدُ منكِ أن تُساعديني في أمر، أريدُ أن أُساعدَ أبي... أن أُوقظَهُ من غيبوبتِه. يجبُ أن نستغلَّ هذهِ الصدمةَ التي يشعرُ بها، وانقطاعَهُ عن جماعةِ أبي ميسرة حاليّاً، لنُخرجَهُ ممّا هو فيه."

قطّبت هبة حاجبيها. "أبو ميسرة؟ لا أفهم!"

بدأت عائشةُ تشرحُ لها، مُستعيرةً مصطلحاتِ سارة وتحليلاتِها الباردة. تحدّثت عن الجماعة المغلقة، وعن كيفيّةِ سيطرتِها على هويّةِ الفرد، وهبة تستمعُ وتستحضرُ ما تعرفهُ من قصصٍ مُشابهة. "الأمرُ يحتاجُ إلى مختصّين، يا عيّوش،" قالت هبة بقلق. "إلى إعادةِ برمجة ليتعافى تماماً دون آثار جانبيّة!"

نظرت عائشةُ إلى خالتِها بنظرةٍ أصبحت تحملُ صلابةَ الفولاذ. "لا يهمّني الآن أن يتغيّرَ بطريقةٍ صحّيّة! أريدهُ أن يخافَ من تكرارِ مثلِ هذا معي أو مع عبيدة! أريدُ أن ترتخي قبضتُهُ عن أعناقِنا، حتّى ولو بسببِ الشلل!"

جاءَ إبراهيم عصر اليوم الذي يليه، استقبلته عائشة وأمّها، رجلٌ هادئُ الملامح، وعلى وجهه مسحة رضاً دخليٌّ. جلسَ في الصالةِ التي ستصبح ميدانَ معركةٍ نفسيّة. ثمّ حضر جلال مُتحفّزاً، يلفُّ نفسَهُ بعباءةِ الورعِ كدرعٍ واقٍ. ودخلت هبة، ترتدي فستاناً بسيطاً أنيقاً، بلا حجاب، كأنّها إعلانٌ صامتٌ عن عالمٍ آخر ممكن.

إذ أخذ الترحيب بالعمّ إبراهيم مداه، بدأت هبة وعائشة تستحثّان إبراهيم لينسج عباءةَ الماضي حولَ جلال. لم تكن مواجهةً مباشرة، بل كانت عمليةَ استدراجٍ حنونة. وكان إبراهيم يتحدّث بحرّيّة يستمدّها من صداقته القديمة مع جلال، جاء على ذكر أحلامِهِ القديمةِ في بناءِ جسورٍ لا عماراتٍ فقط، عن نكاتِهِ التي كانَ يُطلقُها، وعن قصائدِ نزار قبّاني التي كانَ يستعيرها في رسائله الغراميّة.

كانَت منى تشارك إبراهيم بأن تضيفَ تفصيلاً هنا، وتروي طرفةً هناك حوله إذ كان زوجاً شابّاً، بل ووصلت إلى خطوبتهما وتعارفهما. وشيئاً فشيئاً، بدأ الدرعُ يتصدّع، لا سيّما أمام عائشة التي كانت تظهر صدمةً حول كلّ تفصيل من تفاصيل ماضي جلال القديم، الذي لم تعاصره هي أو حتّى خالتها هبة إلا لوقت قصير. ظلّت عائشة تستحثّهما ليخوضا أكثر في ماضيه راميةً تعليقات ذكيّة.

"أتعرفُ يا صديقي،" قالَ إبراهيم فجأة، "عائشة تُشبهُكَ في ذلكَ الزمن. فيها التمرّد الذكيّ نفسُه، الشغفُ ذاته، بيد أنّها بالطبع أكثر منك جلداً على القراءة، فهي تبدو ذات ثقافة واسعة! أنتم محظوظون أنّ قصّة الخطوبة لم تتمّ."

هنا، انفجرَ السدّ. تحدّثَ جلال، لا عن الماضي، بل عن الحاضرِ المؤلم. تحدّثَ بمرارةٍ عن زيارتهِ للشيخِ أبي ميسرة بعدَ الحادثة. "هل تعرفُ ماذا قالَ لي؟" قالَ جلال وصوتُهُ يرتجفُ من القهر. "قالَ إنّ اللهَ سيعوّضُ ابنتي خيراً... وإنّ لديهِ عريساً آخرَ لها، من الإخوةِ! كأنّها قطعةُ أثاثٍ مكسورةٍ يمكنُ استبدالُها بأخرى! لم يرَ ألمي، لم يرَ ألَمها. تعامل مع الأمر كمعادلة يعوّض فيها سين مكان صاد!"

كانت تلكَ هي اللحظة. البذرةُ التي زرعتها عائشةُ بدأت تُنبت.

لكنّ عائشة لم تكن رحيمة. قامت، ووقفت أمامَهُ، وأطلقت كلَّ ما كانَ مكبوتاً في صدرِها بقسوةٍ لم يعهدها فيها. "وهل أنتَ أفضلُ منه؟" صرخت، وصوتُها يرتجفُ غضباً. "أنتَ أيضاً لم ترَ ألمي! كلُّ ما رأيتَهُ هو العار الذي قد يلحقُ بك إذا ما طبّقت الشرع ووافقت على الخطبة الطبيعيّة! أنتَ من ورّطني في هذا! لو أنّكَ التزمتَ بوعدِكَ، أو حتّى

بالشريعةِ على الأقلّ، ولم تكتب كتابي، لم أكن لأُصبحَ الآن... مُطلّقة!"

الكلمةُ الأخيرةُ سقطت في صمتِ الغرفةِ كحجرٍ مقلاع. انهارَ جلال. لم يعُدْ ذلكَ الجبلَ الشامخ. انحنى على نفسهِ، وبدأ يبكي، بكاءَ رجلٍ رأى حطامَ حياتِهِ كلّهِ دفعةً واحدة. "سامحيني... سامحيني يا ابنتي."

تدخّلَ إبراهيم ليُخفّفَ من وطأةِ المشهد. "جلال، اهدأ... عائشة، أبوكِ يُحبّكِ. أتذكرينَ يومَ مرضتِ وأنتِ صغيرة، كيفَ بقيَ ساهراً بجانبكِ ثلاثةَ أيّامٍ لا ينام؟"

لكنّ عائشة لم تتوقّف. "الحبُّ ليسَ تملّكاً! لقد تحكّمتَ بكلِّ شيء! دراستي، لباسي، حتّى زواجي! والنتيجة؟ انظر إلى علاماتي! بعدَ أن كنتُ الأولى على الدفعة، أصبحتُ مجرّدَ طالبةٍ عاديّة! هل هذا ما أردتَهُ لي؟"

هنا، تدخّلت هبة. نظرت إلى جلال بعينينِ لا تحملانِ شفقة، بل تحدّياً بارداً. "جلال أريد منك الصراحة، هل تراني منحلّةً؟"

صُدمَ جلال. "معاذَ الله! ماذا تقولين؟"

"أقصد كما يراني إخوتك في مجموعتكم، ربما لأنّني أعيشُ بحرّيّة؟ أو لأنّني أختارُ ملابسي؟ عموماً... هذا التحرّرُ لا يعني أنّني سيّئة. هذهِ النمطيّةُ الحمقاءُ هي جزءٌ من التقاليدِ التي جعلتكَ تُدمّرُ حياةَ ابنتِك! وأنت تعلم أنّ هذه التقاليد مستحدثة، فلم يكن الأمر كذلك قبلك بجيل واحد."

"لكنّني لم آمرها بشيءٍ لا يأمرُ بهِ الله!" دافعَ جلال عن نفسهِ بآخرِ ورقةٍ يملكها.

"وهل اللهُ يأمرُ بالظلمِ يا جلال؟ وهل يقبل التقرّب إليه بطاعة سواه؟" قالَ إبراهيم بهدوء، ثمّ أتمّ: "الحجابُ الذي تُصرُّ عليه، هل تعرفُ أصلَهُ التاريخيَّ حقّاً؟ كانَ زيّاً تقليديًّا لتمييزِ الحرّةِ من الجاريةِ في مجتمعٍ لم يعُدْ موجوداً. الدينُ أعمقُ من هذهِ القشور. لكنّكَ، يا صديقي، بسببِ ابتعادكَ عنهُ صغيراً، لم تتعلّم كيفَ تغوصُ فيه، فاكتفيتَ بالتمسّكِ بما يطفو على السطح." ثمّ التفتَ إلى عائشة: "لا تكرهي الدينَ يا عائشة. هو لا يقضي بما فعلَهُ أبوكِ."

"لم أعُدْ أكرهُ شيئاً،" قالت عائشة بإرهاق. "أنا فقط... لم أعُدْ أفهم. ما زلتُ أُحبُّ الله، لكنّني اكتشفتُ الكثيرَ من المشاكلِ التي لستُ جاهزةً لنقاشِها الآن."

في ذلكَ الصمتِ المُثقلِ بالاعترافاتِ والانهيارات، اقتربت هبة من عائشة، ووضعت ذراعَها حولَ كتفِها. "عيّوش... ما رأيكِ أن تأتي لتقيمي معي بضعةَ أيّام؟ لتتنفسي قليلاً."

لم يُعلّق جلال. كانَ صمتُهُ موافقةً ضمنيّة. رأت عائشةُ في عينيهِ شيئاً من ذلكَ الشابِّ القديمِ الذي حكوا عنهُ، شيئاً من الروحِ التي كادت أن تموت. قامت، وقالت لهبة: "هيّا بنا نحزمُ أمتعتنا، فقد استضفتك في غرفتي وجاء الوقت أن أحلّ أنا ضيفةً ثقيلةً عليك"، فأجابتها هبة: "تقصدين أنّني كنت ضيفةً ثقيلةً!"، ضحكت عائشة، ثمّ نظرت إلى أبيها وإبراهيم قائلةً: "سنترككما تتحدّثان... عمّ إبراهيم، أعد لي أبي الذي عرفته طفلةً، وأحببته أباً وصديقاً!"

كانت المسافة بين اتّصالات الاطمئنان من عائشة على أهلها تزيد، وقد علمت من أمّها أنّ أباها بدأ يتغيّر فعلاً، فهي لاحظت ذلك في معاملته، وقد شاهد حلقةً كاملةً من مسلسل تركيّ تعترف أمّها بكونه تافهاً، وكانت تتعجّب من صبره، وهي تختبر حدوده. وقد زارت عائشة البيت مرّة مع هبة قبل سفرها زيارة قصيرة، وانتزعت هبة الإذن من أهل عائشة أن تبقى الفتاة في شقّتها للمدّة التي تلزمها للتعافي من كلّ هذا. نعم، كانت المسافة بين اتّصالاتها بأهلها تزيد بالقدر نفسه التي تتباعد فيه

اتّصالات الاطمئنان على دلال، التي بدأت تضطرّ للمواجهة وتنتزع حرّيّتها قضمةً تلوَ أخرى، ولم يزل مشوارها طويلاً، لكنّها تشعر أنّها أخيراً تسير بالاتجاه الصحيح.

خلال الفصل الأوّل في السنة الجديدة، انتزعت عائشة من أبيها أن تبقى في شقّة هبة التي لم يعلم أنّها سافرت منذ مدّة، وانتزعت من باسل وعداً بأن يكون قارئاً صامتاً لنصّ سرّيٍّ لم ينشر، وربما لن ينشر مطلقاً، وضربت له موعداً يجلسان فيه وحدهما لمناقشة النصّ، وقد أخذت من هانية التي باتت أكثر من زميلةٍ وعداً مثله، وكان الموعدان في اليوم نفسه، يوم سبت ليس فيه دوام جامعيّ، كان الموعد مع باسل صباحاً، أمّا هانية فكان موعدها وقت الغروب.

صباح السبت الموعود، أفاقت عائشة مع الشروق من نومها قبل المنبّه، فهي لا تحتاج المنبّه إلا بسبب أنّها تصلّي الفجر حاضراً، وهذه من المرّات القلائل التي تكمل فيها نومها بعد الصلاة، إذ هي منذ أسبوع فقط لم تعد تكتب فجراً بالكثافة ذاتها، كان يومَ راحةٍ سبقه يومُ زيارةٍ لأهلها. لقد حرصت منذ مدّة على أن تزورهم كلّ يوم جمعة، وكأنّها تدرس في محافظة أخرى شأنها شأن كثيرٍ من طالبات الأردنّ كما قالت أمّها لأبيها.

كانت شمسُ السبتِ قد بدأت ترسمُ على ستائرِ غرفةِ هبة خطوطاً من ضوءٍ خجول، حينَ فتحت عائشةُ عينيها. لم يكن استيقاظاً مُفاجئاً، بل كانَ أشبهَ بخروجٍ بطيءٍ من حلمٍ عميق، كأنّها كانت تسبحُ في بحرٍ هادئٍ ووصلت لتوّها إلى الشاطئ. شعرت بصفاءٍ لم تعهدهُ في صباحاتِها منذُ زمن، صفاءُ روحٍ نامت ملءَ جفونِها، وجسدٍ ارتاحَ من حروبِهِ اليوميّة. قامت من السريرِ بخفّةٍ لم تعهدها في نفسها، ومشت على أطرافِ أصابعِها نحو النافذة، كأنّها تخشى أن تُوقظَ الصمتَ الجميلَ الذي يلفُّ الشقّة.

من النافذة، بدت عمّان مدينةً أخرى، مدينةً هادئةً لم تستيقظ بعدُ من أحلامِها. لم يكن هناكَ ضجيجُ الحافلات، ولا أبواقُ السيّاراتِ المُتعجّلة. فقط سكونٌ ذهبيٌّ، وصوتُ عصافيرَ بعيدةٍ تُقيمُ صلاتَها الصباحيّةَ على أغصانِ الشجر. تنفّست بعمق، وشعرت بأنّها تتنفّسُ هواءَ بدايةٍ جديدة، هواءً نقيًّا لم تُلوّثهُ بعدُ شكوكُ النهارِ أو همومُهُ.

لم تكن تُفكّرُ في باسل أو هانية، ولا في "سِفر الخروج" الذي ينتظرُ حُكمَهُما. في تلكَ اللحظة، لم يكن هناكَ ماضٍ لتندمَ عليه، ولا مستقبلٌ لتخشاه. كانَ هناكَ فقط هذا الحاضرُ الثمين الهشُّ، شيء يشبه

اللحظاتِ المُعلّقةَ بينَ الليلِ والنهار، التي شعرت فيها بأنّها تمتلكُ نفسَها تماماً.

تسلّلت إلى غرفةِ الجلوس، وأدارت أسطوانةً قديمةً لهبة، موسيقى كلاسيكيّة هادئة، أنغامُ تشيللو عميقة يبدو أنّها حزينة لمن لم يتمرّس في فنّ السماع، كأنّها صوتُ روحٍ قديمةٍ تروي حكاياتِها الصامتة. تركت الصوتَ ينسابُ في أرجاءِ الشقّةِ كضبابٍ خفيف، ثمّ توجّهت إلى الحمّام. لم يكن مجرّدَ استعدادٍ ليومٍ جديد، بل كانَ طقساً. طقسُ احتفاءٍ بالجسدِ الذي تحمّلَ الكثير، وبالروحِ التي نجت من حطامِها. العلاقة مع الجسد لم تعدّ حكّة في منتصف الظهر! صارت علاقة هي الأصدق.

فتحت صنبورَ الماءِ الساخن، وراقبت البخارَ وهو يتصاعدُ ببطء، يُحوّلُ مرآةَ الحمّامِ الباردةَ إلى لوحةٍ ضبابيّة، يمحو ملامحَ "عائشة" القديمةِ ليُفسحَ المجالَ لشيءٍ آخرَ ليتجلّى. الهواءُ أصبحَ دافئاً ورطباً، مُشبّعاً بوعدِ التطهّر. ألقت في حوضِ الاستحمامِ كرتينِ فوارّتين، واحدةٌ بلونِ اللازوردِ العميق، وأخرى بلونِ الغروبِ الأرجوانيّ. شاهدتهما وهما تذوبانِ وتدوران، تُطلقانِ ألوانَهما في الماءِ ككوكبينِ ينسكبانِ في مجرّةٍ سائلة، وتُعطّرانِ الهواءَ برائحةِ الخزامى والبرغموت، رائحةُ استرخاءٍ تتسلّلُ إلى أعمقِ خلايا الروح.

خلعت ثيابَ نومِها، ووقفت عاريةً أمامَ هذا البحرِ الصغيرِ الذي صنعتهُ لنفسِها. لم تشعر بالخجلِ أو التردّد. نظرت إلى جسدِها، لا بعينِ الناقدِ أو القاضي، بل بعينِ فنّانٍ يتأمّلُ تحفتَهُ. رأت السُمرةَ الدافئةَ التي اكتسبتها من شمسٍ لم تكن تحبّها، ورأت المنحنياتِ الناعمةَ التي كانت يوماً مصدرَ قلقِها، ورأت تلكَ العلامتينِ الصغيرتينِ أسفل ردفِها كأنّهما توقيعٌ سرّيٌّ من الخالق. ابتسمت. هذا الجسدُ هو هي. بكلِّ ندوبهِ الخفيّةِ وأسرارِهِ الدفينة.

خطت إلى الماء. شعرت بالدفءِ يلفُّها، يُعانقُها، كأنّها تعودُ إلى رحمِ أمّها الأوّل. غمرت نفسَها حتّى عنقِها، وأسندت رأسَها إلى حافّةِ الحوض، وأغمضت عينيها، تاركةً موسيقى التشيلو والماءَ الدافئَ يأخذانِها في رحلةٍ إلى الداخل.

بدأت تتأمّلُ جسدَها، لا بعينيها، بل بإحساسِها. بدأت من أصابعِ قدميها، شعرت بها تسترخي في الماء، تلكَ الأصابعُ التي طالما حملت وزنَها ووزنَ مخاوفِها في لحظات التوتّر. ثمّ صعدَ وعيُها ببطء، كتيّارٍ دافئ، إلى ساقيها، تلكما اللتينِ ركضتا هرباً وركضتا شوقاً. شعرت بهما الآن خفيفتين، طافيتين، متحرّرتين من الجاذبيّة. ثمّ حوضُها، مركزُ ثقلِها، مهدُ أنوثتِها، شعرت بالدفءِ يتجمّعُ فيه، لا كحرارةِ شهوةٍ مُلحّة، بل

كدفءِ حياةٍ هادئةٍ تنبضُ بإيقاعٍ منتظم. وبطنُها، ذلكَ المكانُ الذي كانَ يعتصرهُ القلق، شعرت بهِ يلينُ ويتمدّدُ مع كلّ شهيق.

صدرُها كانَ يرتفعُ ويهبطُ ببطء، كأمواجِ بحرٍ هادئ. ثدياها، اللذانِ كانا يوماً برعمينِ خجولين، ثمّ أصبحا ساحةَ معركةٍ بينَ البراءةِ والفضول، ثمّ موضوعاً لنظراتِ الآخرين، شعرت بهما الآن جزءاً منها، يستقرّانِ على صدرِها بسلام. ذراعاها كانتا تطفوانِ على جانبيها، ويداها مفتوحتان، كأنّهما تستقبلانِ شيئاً ما. تلكَ اليدانِ اللتانِ كتبتا ولمستا وتشبّثتا، كانتا الآن مسترخيتينِ تماماً. وكتفاها، اللذانِ حملا عبءَ "الواجب" و"الحرام" لسنوات، شعرت بهما يذوبانِ في الماء، كأنّ كلَّ ثقلِ العالمِ قد رُفِعَ عنهما.

كانَ جسدُها كلُّهُ الآن مجرّدَ إحساسٍ بالدفءِ والخفّةِ والوجودِ الصافي. لم تكن هناكَ أفكار، لم تكن هناكَ ذكريات. فقط هذا الحضورُ المُطلقُ في اللحظة، في هذا المعبدِ المائيِّ الذي أصبحت فيهِ هي الكاهنةَ والإلهَ والقربانَ في آنٍ واحد.

ببطء، شديدِ البطء، بدأت إحدى يديها رحلتَها. لم تكن مدفوعةً برغبةٍ واعية، بل كأنّها ورقةُ شجرٍ يحملُها تيّارُ الماء. انزلقت على سطحِ الماءِ الأرجوانيّ، ثمّ هبطت لتُلامسَ جلدَ بطنِها الناعم. الملمسُ كانَ مُختلفاً

تحتَ الماءِ، أكثرَ انزلاقاً، وأكثرَ حساسيّة. راحت أصابعُها ترسمُ دوائرَ بطيئة، تستكشفُ تضاريسَ جسدِها كأنّها تكتشفُ قارةً جديدة. لم تكن هناكَ عجلة، لم يكن هناكَ هدف. كانت مجرّدَ رحلة.

هبطت أصابعُها أكثر، عبرت خطَّ الخصر، ثمّ توقّفت عندَ عظمةِ الحوض، كأنّها تقفُ على حافّةِ وادٍ سحيق. تردّدت للحظة، ليسَ خوفاً، بل إجلالاً للمكان. ثمّ، كقطرةِ ندى تنزلُ على ورقةِ زهرة، لامسَ طرفُ إصبعِها كرزتَها. لم يكن لمساً، بل كانَ همساً. قشعريرةٌ لذيذة، صافية، سرت في جسدِها كلّه، لم تكن تلكَ القشعريرةَ الحارقةَ الممزوجةَ بالخوفِ أو الذنب، بل كانت نقيّةً كالموسيقى التي تملأُ المكان.

بدأت تُداعبُها من الخارج، برفقٍ مُطلق، كأنّها تُداعبُ أوتارَ قيثارةٍ سحريّة. الماءُ الدافئُ كانَ يُضخّمُ الإحساس، يجعلُ كلَّ لمسةٍ أعمق، وكلَّ نبضةٍ أوضح. لم تكن هناكَ صورٌ في رأسِها، لا إياد، ولا دلال، ولا حتّى سارة. كانَ هناكَ فقط هذا الحوارُ الصامتُ بينَ أصابعِها وجسدِها. حوارٌ تُكتبُ حروفُهُ باللذّة، وتُقرأُ بالارتعاش.

تسارعَ الإيقاعُ قليلاً. لم يعُدْ همساً، بل أصبحَ ترنيمة. ترنيمةٌ تعلو شيئاً فشيئاً، وتتسارعُ معها أنفاسُها، ومعها أنغامُ التشيلو التي كانت تئنُّ في الخلفيّة. شعرت بتلكَ الحرارةِ المألوفةِ تتجمّعُ في أعماقِها، لكنّها لم تكن

ناراً مُدمّرة، بل كانت شمساً داخليّةً تُذيبُ آخرَ قلاعِ الجليد. تقوّسَ ظهرُها قليلاً، ورفعت حوضَها نحو أصابعِها، لا كفعلِ استجداء، بل كفعلِ شراكة، كأنّها تُشاركُ نفسَها في خلقِ هذهِ اللحظة.

أصبحت اللمساتُ أعمق، أكثرَ إصراراً. لم تعُدْ مجرّدَ مداعبة، بل أصبحت بحثاً، غوصاً في بئرِ اللذّة. استخدمت إصبعين، ثمّ ثلاثة، لا للاقتحام، بل للاحتواء، لملءِ ذلكَ الفراغِ الذي كانَ يمتلئُ يوماً بالخوفِ والجهل. جسدُها الآن كانَ يعرفُ تماماً ما يُريد، وكانَ يُرشدُ أصابعَها إليه.

وفي اللحظةِ التي سبقت الذروة، توقّفت.

حبست أنفاسَها، وعلّقت نفسَها على حافّةِ الهاويةِ اللذيذة. أرادت أن تتذوّقَ هذهِ اللحظةَ بالكامل، لحظةَ الترقّبِ المُطلق، لحظةَ ما قبلَ الانفجار. أرادت أن تُثبتَ لنفسِها أنّها هي من يُسيطر، هي من يملكُ مفاتيحَ الجنّةِ والجحيم، هي من يُقرّرُ متى تُفتحُ الأبواب.

ثمّ، حينَ بدأ جسدها يطالب بإنهاء ما بدأته، حينَ أصبحَ جسدُها كلُّهُ صرخةً واحدةً تطلبُ التحرّر، أعطت نفسَها الإذن.

لم تكن موجة، ولم يكن شلالاً. كانَ أشبهَ بتفتّحِ زهرةِ لوتسٍ ذاتِ ألفِ بتلةٍ في لحظةٍ واحدة. تفتّحٌ هادئٌ وعميقٌ وعارم، أطلقَ في كيانِها كلّهِ

عطراً من لذّةٍ صافية، جعلَ كلَّ خليّةٍ في جسدِها تُغنّي، وجعلَ روحَها تتمدّدُ حتّى لامست أطرافَ الكون. لم تكن هناكَ صرخة، فقط تنهيدةٌ طويلة، عميقة، كأنّها تُطلقُ معها آخرَ نفسٍ من حياتِها القديمة، وتستقبلُ أوّلَ نفسٍ من حياتِها الجديدة.

بقيت هكذا لدقائق، طافيةً في مجرّتِها الخاصّة، والماءُ يبردُ حولَها ببطء، والموسيقى تتلاشى في الصمت. حينَ فتحت عينيها، كانت الشمسُ قد ارتفعت، وضوؤها يملأُ الحمّام. نظرت إلى جسدِها المُسترخي في الماء، وإلى يديها التي منحتها هذهِ الهديّة. لم تشعر بالانتصار، بل بالامتنان. امتنانٌ لهذا الجسدِ الصبور، ولهذهِ الروحِ التي لم تتوقّف عن البحثِ عن نورِها الخاصّ.

قامت من الماء، ووقفت أمامَ المرآةِ التي كانَ البخارُ قد بدأ ينقشعُ عنها. رأت وجهَها، نديًّا ومُشرقاً. رأت عينيها، صافيتينِ وهادئتين. لم تكن هناكَ "عائشة" أو "عيّوش". كانت هي. امرأةٌ وُلدت لتوّها من الماءِ والموسيقى واللذّة. امرأةٌ جاهزةٌ لمقابلةِ العالم، دون درعٍ أو قناع، مجرّد قلبٍ مفتوح، وجسدٍ راضٍ، وروحٍ تعرفُ أخيراً... كيفَ تحلّق.

خرجت من الحمّامِ، وقطراتُ الماءِ لا تزالُ تلمعُ على بشرتِها كحباتِ الماسِ صغيرة، تلفُّها منشفةٌ قطنيّةٌ بيضاء، تتشبّث بنهديها البارزين ويصل

أسفلها إلى مفترق فخذيها. لم تُسرع في ارتداءِ الثياب. وقفت أمامَ خزانةِ خالتِها هبة المفتوحة، كأنّها تقفُ أمامَ معرضٍ فنيّ. لم تكن مجرّدَ ملابس، بل كانت احتمالات، هويّاتٍ مُختلفة يمكنُ ارتداؤها. مرّرت أصابعَها على الأقمشةِ، حنانُ الحرير، خشونةُ الكتّانِ الطبيعيّ، دفءُ الصوف. كلُّ قطعةٍ كانت تهمسُ بقصّةٍ مُختلفة، بقصّةِ امرأةٍ أخرى، امرأةٍ سافرت ورأت وعاشت. أخيراً، وقعَ اختيارُها على فستانٍ طويلٍ فضفاضٍ من قماشٍ ناعم، بلونِ السماءِ وقتَ الفجر، لونٌ هادئٌ يحملُ في طيّاتهِ وعدَ بدايةٍ جديدة. لم يكن فستاناً يُبرزُ المنحنيات، بل ينسدلُ عليها بخفّة، كأنّهُ سحابةٌ تُعانقُ جسدَها، مانحاً إيّاها حرّيّةَ الحركةِ والشعور. ارتدتهُ فوقَ كنزةٍ قطنيّةٍ بيضاءَ بسيطةٍ ذاتِ أكمامٍ طويلة، كأنّها تُعلنُ عن طبقةٍ جديدةٍ من النقاءِ تحتَ سماءِ حريّتِها. ثمّ جمعت شعرَها الذي لم يجفّ تماماً بعد، وربطتهُ على شكلِ كعكةٍ مُرتخية، وأهالت فوقهُ شالاً خفيفاً بلونِ الرمل، لا كحجابٍ يُغطّي، بل كوشاحٍ يُزيّن، يتركُ لخصلاتٍ مُتمرّدةٍ حريّةَ الهربِ ومُداعبةِ عنقِها.

نظرت إلى المرآةِ للمرّةِ الأخيرة. لم ترَ تلكَ الفتاةَ التي كانت تحصي خطواتِها، وتخشى ظلَّها. رأت امرأةً هادئة، تجمعُ في هيئتِها بينَ براءةِ الروحِ ونضجِ التجربة. امرأةً لا تحتاجُ إلى إثباتِ شيءٍ لأحد. تناولت حقيبتَها التي وضعت فيها حاسوبَها المحمول، ذلكَ الصندوقُ الأسودُ

الذي يحملُ سِفرَ خروجِها، وانطلقت بخطواتٍ ثابتةٍ نحو المقهى القريبِ الذي اتّفقت على لقاءِ باسل فيه. اختارت طاولةً في زاويةٍ هادئة، وطلبت فطوراً بسيطاً وكوباً من الشاي بالنعناع. وبينما كانت تنتظر، بدأت تلكَ السكينةُ الصباحيّةُ تتسرّبُ منها شيئاً فشيئاً، ليحلَّ محلّها نوعٌ جديدٌ من التوتّرِ لم تألفهُ من قبل. لم يكن خوفاً من الفضيحةِ أو من العقاب، بل كانَ قلقَ الكاتبِ الذي يُقدّمُ قطعةً من روحِهِ على طبقٍ من ورق، وينتظرُ حُكمَ القارئ الأوّل. ماذا سيقولُ باسل؟ هل سيرى في كلماتها مجرّدَ هذيانِ مراهقةٍ مُضطربة؟ أم أنّهُ سيلمسُ ذلكَ الصدقَ الحارق، تلكَ الجراحَ التي لم تندمل بعد، وذلكَ البحثَ اليائسَ عن معنى في قلبِ الفوضى؟ فقد كانت الكتابة لها رحلة علاجيّة. لأوّلِ مرّة، لم يكن الخوفُ على جسدِها، بل على روحِها العاريةِ تماماً بينَ تلكَ السطور.

وصلَ باسل في موعدِهِ تماماً، كأنّ خطواتِهِ مضبوطةٌ على إيقاعِ ساعةٍ كونيّة. لم يكن فيهِ ذلكَ التوتّرُ الفكريُّ الحادُّ الذي يميّزُ "صاحبَ النظّارة"، ولا تلكَ "الكاريزما" الصاخبةُ التي تميّزُ "نجمَ الدفعة". كانَ هادئاً، يحملُ في عينيهِ وقارَ من قرأ الكثير، وفي ملامحِهِ رقّةَ من فهمَ أكثر. جلسَ مقابلها، ووضعَ حاسوبَهُ المحمولَ على الطاولةِ برفق، كأنّهُ يضعُ قطعةً أثريّةً ثمينة. تبادلا تحيّةً هادئة، وطلبَ قهوتَهُ السوداء، ثمّ سادَ

صمتٌ قصير، لم يكن مُربكاً، بل كانَ أشبهَ بالهدوءِ الذي يسبقُ أيَّ طقسٍ ذي شأن.

"إذن،" قالَ باسل أخيراً، لكنّهُ لم ينظر إلى حاسوبِه، بل نظرَ إليها مباشرةً. "قبلَ أن ندخل إلى عوالم سِفرك الغريب هذا، هل يمكن أن أسألك سؤالاً خارجيّاً؟"

قطّبت عائشةُ حاجبيها باستفهام.

تردّدَ باسل للحظة، وبدا على وجهِهِ ارتباكٌ خفيفٌ لم تعهدهُ فيه، كأنّهُ على وشكِ البوحِ بسرٍّ شخصيٍّ جدًّا، ثمّ هرب إلى الفكاهة الواضحةِ في ابتسامته: "بصراحة، مَعَ أنّك أخبرتني بوضوح أنّ النصّ جريء وإشكاليّ، لم أتوقّع هذا الزلزال. أحسّ أنّني يجب أن أطلب منك خدمةً عظيمةً مقابل هذا الجهد المضني، فالنصّ متعبٌ جدّاً، لا سيّما لرجل. لا أدّعي أنّني كاملٌ، لكنّني أختلف عن نمط الرجال الموجودين في الرواية، أو لنقل أنماطهم. وهكذا، فالقراءة المعمّقة لهذا النصّ جعلتني أتجرّأ وأطلب منك خدمة تسدينها لي."

استغربت عائشة من وجود طلب أكثر ممّا أقلقها فكرة تنميط الرجل، فقالت فوراً: "إيّاك أن يكون اختبار صراحة، فأنا لا يمكن أن أجيب عن مساحة الحقيقة في هذه القصّة!"

طمأنها باسل: "ولو! أنا أعرف أنّ شجرة النصّ يشكّلها ماء الخيال أكثرَ ممّا تشكّلها بذرة الحقيقة، وأعلم أنّك تعلمين ذلك، وإلا لم تكوني لتشاركي النصّ مع أحد شخوصه! ألست أنا باسل هنا؟"

ضحكت عائشة ساخرةً: "غريب، وكيف اكتشفتها!"، ولم يقطع ضحكتهما المشتركة غير أنّه قال لها: "المهمّ الموضوع يتعلّق بشخصيّة أخرى اكتشفتها في الرواية وهي هانية!"

شعرت عائشةُ بوخزةٍ مفاجأةٍ خفيفة. "هانية؟"

"نعم. منذُ فترة، وأنا... أراها بطريقةٍ مُختلفة. لكنّها كقلعةٍ حصينة، لا أعرفُ كيفَ أجدُ الطريقَ إلى قلبِها. وأنتِ... أنتِ أصبحتِ مؤخّراً صديقتَها الأقرب. كنتُ آملُ... أنّكِ ربما تستطيعينَ أن تكوني الجسر، أو على الأقلّ... أن تُعطيني خريطةَ الطريق. أو ربما تزرعينَ الفكرةَ في رأسِها، بهدوء طبعاً وليس كما فعلت سارة في الرواية!"

ابتسمت عائشة، ابتسامةً صافيةً لم يعكّرها أيُّ شعورٍ بالخيبة. لقد ارتاحت لهذا الصدقِ غيرِ المتوقّع. "باسل،" قالت بهدوء، "القلوبُ ليست قلاعاً تُغزى، بل هي حدائقُ تحتاجُ إلى من يسقيها بصبر. كن نفسَكَ معها، ولا تجعل إعجابك بها يغيّرك. هانية تُقدّرُ الصدقَ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر." ثمّ أضافت بمكرٍ خفيف: "لكن... زرع الأفكار له ثمن!"

ضحكَ باسل، ضحكةً مرتاحةً بدّدت كلَّ التوتّر. "مستعدٌّ لدفعِ أيِّ ثمن. حتّى لو كانَ كتابةَ إقرارٍ بأنّ جميعَ الرجال مُطيّون."

"إذن،" قالت عائشة، وقد شعرت بأنّ الأرضَ تحتَ قدميها أصبحت أكثرَ صلابةً. "ما أريده منك هو الآتي: لا تجاملْني، ولا تخف من أن تجرحني. روحِي جاهزة، لك أن تشرّح النصّ كأنّه جثّة باردة!"

فتحَ باسل حاسوبَهُ، وأخذَ نفساً عميقاً، كمن يستعدُّ للغوص. "حسناً يا عائشة. قبلَ أن أغوصَ في التفاصيل، أنت لم تدّعي تصنيفاً للنصّ لكنّني قرأتُهُ كعملٍ روائيّ، عملٍ قويٍّ ومُزلزل، لا كشهادةٍ واقعيّة. لكنّني أخشى، يا عائشة، أنّ الآخرينَ لن يقرؤوهُ بهذهِ الطريقة. سيرونَهُ اعترافاً، شهادةً حيّة، وهذا... هذا خطيرٌ عليكِ."

صُدمت عائشة من عمقِ فهمِه، ومن قلقِهِ الصادق. "أنتَ... أنتَ ترى كلَّ هذا؟"

"أرى أكثر..." قالَ باسل بجدّيّة. "لقد طلبتِ الصراحةَ، وأنا وعدتُ بها، في النصّ مصادفاتٌ سرديّةٌ مزعجة، أعني أنّ أمّ أيمن هي ذاتها صديقة إياد، وأنّ إياد يتوب على يدِ قائد أبيها!... أرى أيضاً شيئاً قد يُنفّرُ الكثيرَ من القارئات. هذهِ الكثافةُ الحسّيّة، هذا الوصفُ البصريُّ الدقيقُ للجسدِ وللفعلِ الجنسيّ... بصراحة، هو أقربُ إلى طريقةِ كتابةِ الرجالِ عن الرغبة. أتذكرينَ نقاشَنا القديمَ في مكتبِ سمر، حولَ ما إذا كانَ جنسُ الكاتبِ يطلُّ من النصّ؟ أحسّ هنا أنّك أصبت بعدوى ذكوريّةٍ ربما بسبب من قرأت لهم... والأهمّ: ما هذا الحلّ الغريب! أدهشتني بذكر قطام التميميّة، هل لك وجهة نظر تاريخيّة خاصّة بها؟... أخيراً لولا كانت الشخصيّات الأخرى أكثر تعقيداً!"

كانت عائشة قد شعرت وسط كلامه بأنّ دفاعاتِها تنهار. كانَ يُحلّلُها، ويُحلّلُ نصَّها كظاهرة، ولكنّها استعادت بعض رصيدها النفسيّ في آخر كلامه، قالت: "هل لك أن تسمعني دون أن تنظر إلى ما أقول على أنّه دفاع؟"، أومأ باسل رافعاً راحتيه، فأتمّت: "واحدةً واحدةً، أحياء عمّان هي السبب بالمصادفات، فدلال لا تستطيع الابتعاد بسبب كونها متزوّجة

وتسكن فوق أهلها، وهي لا تحتاج عائشةَ إلا لهذا السبب، فهل تتوقّع أن تقيم علاقات عبر البحار مثلاً؟"، كاد باسل أن يقاطعها، لكنّها أتمّت: "وحين يحزن إياد الذي أفقرته دلال وطردته من عمله، وشعر أنّه ارتكب خطيئة في حقّ الفتاة الوحيدة التي أحبّ، أو بالأحرى الفتاة التي يراها شريفةً، فمثله لا يعرف الحبّ، هل سيذهب إلى جامع في وسط البلد أم في الحيّ نفسه! ثمّ إنّه يصرّح أنّه تتبّع المواصلة التي تستقلّها. للحقّ، في النصّ مصادفةٌ وحيدة منطقيّة جداً وهي تجاور عائشة مع إياد، أمّا سوى ذلك فهو من طبيعة الأشياء، وإلا لكان حادث الرافعة مصادفة، وميلادها في هذه العائلة مصادفةٌ! أرجوك لا تكن كمن يحمل دليل تشغيل لكتابة الرواية."

أشار باسل بكلتا يديه وكأنّه يقطع هذا الجزء من كلامه، فأتمّت عائشة: "أمّا الحلّ، فهو جاء من عالم آخر... ربما عالم اللاوعي، أو عالم الوحي. إمّا أن أنتحر... أقصد تنتحر عائشة، وإمّا أن تضغط على من حولها وتحتال عليهم وتتلاعب مستخدمة كلّ أسلحتها في سبيل الوصول إلى حلّ. الفتيات في مجتمعنا ليس لهنّ سوى الحيلة والصبر. لكنّها هي ذاتها لم تكن تفهم ما حلّ بها."

هنا قاطعها باسل: "هذا رأيٌ وجيه، لكنّه لا يقلّل من غرابة الحلّ، أو ينقص إعجابي به!"، ردّت عائشة: "تدري؟ كنت بحثت عن قطام بعد أن ذكرتها أمامي مرّة، ولم أكوّن رأياً بما فعلته... لكنّني فهمتها عندما وجدت عائشة في مأزق لا حلّ له! وأخيراً الشخصيّات الأخرى تطوّرت بأفعالها، لكنّنا لا نعرف كيف فكّرت."، فأقرّ باسل: "الراوي المحدود خيار سرديّ له تبعاته، ولكن كان يمكنك تغيير طريقة السرد خلال الفصول. كنت تستطيعين أن تكتبي فصولاً تتابع آخرين!".

"رأيك وأحترمه... لكنّه خيار واعٍ" قالتها وانتقلت إلى النقطة التي تليها: "يبقى موضوع الوصف الكثيف، وهذا لي رأيٌ حوله، ولكنّني لن أقوله الآن، وأنت تعلم بالتأكيد أنّه خيارٌ أصعب من التخييل، الفكرة أنّني لا أكتب أغنيّة أو قصيدة، أنا رأيت أن أنحت واقعاً يعاش. المهمّ هو: هل نفرت من النصّ بسبب الوصف؟ هل كرهته؟"

"أكرههُ؟" ابتسمَ باسل. "يا عائشة، هذا النصُّ ليسَ كتابة، إنّهُ نزيف. أنتِ لم تكتبي، بل نزفتِ على الورق. وهذا الصدقُ الجارح، هذهِ القدرةُ على تشريحِ الذاتِ دونَ تخدير، هي مصدرُ قوّتِهِ المُرعبةِ وجمالهِ الوحشيّ. ثورتُكِ على السلطةِ، على إلهِ أبي ميسرة، على صورةِ الرجلِ كوحش... كلُّها ضروريّةٌ ومُبرّرةٌ في سياقِها. لكنّ الخطورةَ تكمنُ في أنّ

الخطّ الفاصلَ بينَ الاعترافِ والفنِّ يبدو ضبابيًّا أحياناً. فوق ذلك، فإنّك إن كنت تنوين نشره كما هو، فإنّك تراهنين على وعي القرّاء بطريقة لا يستحقّها أغلبهم."

صمتَ، وتركَ كلماتِهِ تترسّبُ في وعي عائشة. "لقد قرأتُ، يا عائشة. والنصُّ عظيم، لأنّهُ صرخةٌ ضروريّة. لكنّ الخطوةَ التاليةَ لكِ ككاتبة، هي كيفيّةُ تحويلِ هذهِ الصرخةِ إلى أغنيّة. كيفيّةُ استخدامِ هذهِ المادّةِ الحارقةِ لصناعةِ فنٍّ يتجاوزُ الذاتَ ليُلامسَ الإنسانيَّ المُشترك. وأنتِ تملكينَ كلَّ الأدوات."

قالت عائشة: "ولكن ماذا عن النصّ ذاته بوصفه أداةً جنسيّة؟ ماذا عنه بوصفه دافعاً لإعادة التفكير بالمطلق؟"

سكت باسل طويلاً ثمّ قال: "لم أكن أظنّ أنّني رجل محافظ، لكنّني لا أستطيع الإجابة عن الشقّ الأوّل من سؤالك. على الأقلّ لا أستطيع أن أجيبك الآن وهنا. لكنّني سأجيبك عن الشقّ الثاني، النصّ قد يكون صادماً فعلاً للجمهور الذي يستهدفه، قد يرميه القارئ أو لنقل القارئة المتديّنة من يده مبكّراً، لكنّني أرى أنّك تدرّجت في وصف الرحلة بصورة صادقة. فربما تكونين موفّقة مع شريحة واسعة من القرّاء في جعلهم يفكّرون: هل يكون الخالق خالقاً إذا كان يجهل جسداً يدّعي أنّه خلقه!"

كانت عينا عائشة تتلألأ بلمعةِ نصرٍ انتزعته انتزاعاً، وأخذ باسل يتابع: "وعوداً على الشقّ الأوّل، ربما يمكنني أن أقول إنّ تضمين جرعةٍ أدبيّةٍ بهذا الحجم في نصٍّ قد يوصف بأنّه إيروتيكيّ، لَهُوَ بحقٍّ خرقٌ معرفيٌّ. أقول لك أكثر: أراه مصلاً مضادّاً للإباحيّة المجانيّة!"، كانت كلماته الأخيرة تخرج كأنّها زفرة ختام.

أغلقَ باسل حاسوبَهُ. لم يعُدْ ناقداً، بل عادَ صديقاً. "والآن،" قالَ بابتسامة: "ماذا عن زرع الأفكار؟"

ابتسمت عائشة، وشعرت بخفّةٍ لم تعهدها. لقد خرجت من هذهِ المواجهةِ أقوى وأكثرَ وعياً. "الوقت مبكّر على زرع الأفكار، فأنت يجب أن تجهّز الأرض أوّلاً،" قالت، "ادعُها لزيارةِ معرضِ فنٍّ تشكيليٍّ من اختيارك، لديّ معلومات سرّيّة تقضي بأنّها لا تحبّ أن تفوّت عرضاً."

حينَ افترقا، سارت عائشةُ في شوارعِ عمّان، امرأةً تسيرُ على أرضِها، ليست شبحاً غريباً. لم تعُدْ تحتاجُ إلى سِفرِ خروج. لقد خرجت بالفعل. والنصُّ الذي كانَ يوماً وصيّةَ انتحارِها، أصبحَ الآن شهادةَ ميلادِها. لم تكن تعرفُ إلى أينَ سيقودُها هذا الطريق، لكنّها لأوّلِ مرّة، لم تكن خائفةً من أن تخطوَ الخطوةَ التالية. لقد أصبحَ الحبرُ في يدِها، والقصّةُ قصّتَها. لولا أنّها واعدت هانية مساءَ اليوم، لذهبت في زيارة إلى بيت

أهلها، لا لشيء سوى أن تجلس مقابل النافذة التي بدأت هذه الرحلة العجيبة.

عادت أدراجَها إلى شقّةِ خالتِها، إلى معتزلِها المؤقّت، منتشيةً بردّ فعل أوّل القرّاء على النصّ الذي رآه روايةً. لقاؤها بهانية كانَ بعدَ ساعاتٍ قليلة، لكنّها تكفي لكي تعود لتتعامل مع التوتّر اللطيف الذي يسبق لقاءها بالقارئة الثانية، هانية، فإذا لم تكسر الرواية صداقتهما الناشئة، فإنّها ستسمع منها رأياً أنثويّاً لا يستطيع باسل تقديمه.

في مكانٍ اختارتهُ هانية بعناية: حديقةُ المتحفِ الوطنيّ للفنونِ الجميلة، كان اللقاء. مكانٌ يجمعُ بينَ هدوءِ الطبيعةِ وصخبِ الألوانِ على لوحاتِ الفنّانين. وصلت قبلَ الموعدِ بقليل، وجلست على مقعدٍ خشبيٍّ قرب المدخل لكي لا تُتعبَ هانية في البحث عنها.

وصلت هانية، وكانت كعادتِها، هادئةَ الحضور، أنيقةَ البساطة. سلّمت عليها بحرارةٍ وقادتها إلى مقعد آخر عميقاً في الحديقة. لم يبدأ الحديثُ عن النصّ مباشرةً، بل تحدّثتا عن أشياءَ عابرة، عن جمالِ الحديقة، وعن لوحةٍ تحبّ هانية أن تريها لعائشة داخل المتحف.

وبمجرّد أن جلستا قالت هانية "قرأتُهُ،"، وصوتُها كانَ خافتاً كأنّهُ سرّ. "قرأتُهُ دفعةً واحدة، لم أستطع التوقّف. يا عائشة... هذا ليسَ نصًّا عاديّاً، إنّهُ حممٌ بركانيّةٌ سكبتِها على الورق."

نظرت إليها، وفي عينيها نظرةٌ تحملُ فهماً يتجاوزُ الكلمات. "... قرأتُهُ بقلبِ امرأة، لا بقلب ناقدة. وأكثرُ ما لمسني فيهِ ليسَ العنفُ أو الشهوة، بل تلكَ الوحدةُ السحيقةُ التي تصرخُ من بينِ السطور. وحدةُ فتاةٍ تبحثُ عن مرآةٍ ترى فيها نفسَها، وحينَ لم تجدها، صنعت مراياها الخاصّة من شظايا الخيالِ والألم."

صمتت، ثمّ ابتسمت ابتسامةً حزينة. "أتعرفين؟ كلُّ فتاةٍ لديها 'عيّوش' الخاصّة بها، شيطانتُها الصغيرةُ التي تهمسُ لها في الظلام. لكنّ معظمَنا نتعلّمُ كيفَ نُسكتُها، كيفَ ندفنُها تحتَ طبقاتِ 'الواجبِ' و'العيبِ'. أنتِ... أنتِ أعطيتِ 'عيّوش' صوتاً، وجعلتِها تصرخ. وهذا... هذا فعلٌ شجاعٌ بشكلٍ استثنائيّ."

أحسّت عائشةُ بأنّ السؤال يغلي في حلقِها: "لكن... ألم يُخفكِ؟ ألم تشعري بالنفور؟"

ضحكت هانية ضحكةً خافتة. "النفور! لا... قد تكون صدمةً لكن ليس نفوراً! يا عائشة، من يقرأُ هذا النصَّ ويشعرُ بالنفور، هو شخصٌ يخشى مواجهةَ شياطينهِ الخاصّة. لكن... لديَّ اعترافٌ صغير." ترددت للحظة. "أحياناً، وأنا أقرأ، كانت 'هنّوش' تخرجُ لتُصفّقَ لكِ."

"هنّوش!" قالت عائشة ضاحكةً!

"نعم،" قالت هانية، واحمرّ خدّاها قليلاً. "هي نسختي من 'عيّوش'. لكنّها أكثرُ هدوءاً... وأكثرُ خبثاً ربما. هي لا تصرخ، بل تُخطّطُ في صمت. حينَ يخذلُني العالم، تهمسُ 'هنّوش' في أذني: لا تحزني، بل ارسمي عالماً أفضل... عالماً تكونينَ فيهِ أنتِ المهندسة، وأنتِ الإله."

نظرت عائشةُ إلى هانية بدهشةٍ وإعجاب. هذهِ الفتاةُ الهادئة، الرصينة، كانت تحملُ في داخلِها عالماً موازياً من التمرّدِ الصامت. رأت فيها انعكاساً لنفسِها، وشعرت برابطةٍ أعمقَ من الصداقةِ تتشكّلُ بينهما.

وهنا، تذكّرت وعدَها لباسل. "هانية،" قالت بهدوء، "هلا أخرجت هنّوش لنا قليلاً!"، فاستغربت هانية: "لنا؟"، "أقصد للمجموعة كلّها، أو لباسل على الأقلّ!"

تغيّرت نظرةُ هانية، وبدا فيها شيءٌ من الحذر. "باسل؟ باسل لا يرى سواك!"

ضحكت عائشة: "ما الذي تقولينه! علاقتي به صداقةٌ خالصةٌ لا يشوبها شيء، إلا أنّه لا يكفّ عن الحديث عنك، وفي عينيه لمعة أعرفها. إنّه ينتظر أن تظهري بعضاً من هنّوش، ليبادرك فوراً! تخيّلي أنّه طلب منّي زرع الفكرة في رأسك!"

اتّسعت عينا هانية، ثمّ ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ بطيئةٌ وذكية. "أحقًّا؟ يا لهُ من أحمقَ لطيف." نظرت إلى عائشة، وفي عينيها امتنانٌ صامت. "لقد كاد يقايضني على ذلك بصراحته عند نقاش النصّ." قالت عائشة، فرفعت هانية حاجبيها في دهشة: "مجنونة! أعطيت الرواية لباسل!" وكانت هذه أوّل مرّة ترى عائشة فيها هانية تضحك مِلءَ صدرِها! ثمّ أضافت: "لا بدّ أنّه قرأه بيد واحدة!"، وهنا عضّت عيّوش شَفَتَها السفلى كأنّها تمنع نفسها من الحديث، ثمّ قالت: "على فكرة، لقد وصلكما النصّ في اليوم نفسه، والآن تخيّلت أنّكما كنتما في شهوة متزامنة!"

آخر ما قالته هانية حول الرواية كان: "إذا قرّرت يوماً أن تنشريه، فعليك أن تدرسي بلداً كاملاً تنقلين له الأحداث، فتمويه الأسماء غير كافٍ!

وبالمناسبة أعجبتني رمزيّة الأسماء، لكنّك يجب أن تنقلي النصّ إلى بلد آخر، إلى بلد بعيد، حتّى تفلتي من المتتبّعين... حتّى أنّني ميّزت من هي سارة على الحقيقة!"، صدمت عائشة: "أعرفتِها حقّاً؟"، قالت هانية: "نعم، أليست تلك الفتاة من قسم الترجمة التي تصادق الآن فتاة أجنبيّة؟"، قالت عائشة: "يا ويلي! قد آخذ بنصيحتك فعلاً!"

ذلك المساء عادت عائشة إلى ملجئها المؤقّت، بيت خالتها، تحزم أمتعتها، وتفكّر في عودة قريبة إلى بيت أبي عمر. كانت تعلمُ أنّها ستقرّر العودة في لحظة ما، وخافت أن تغيّر رأيها إن طال حزم الأمتعة قليلاً، فالاستقلاليّة المزيّفة التي أحسّت بها مغريةٌ جدّاً، لكنّها يجب أن تبنى على أسس راسخة، وكان في رأسها فكرة وحيدة: "عليّ أن أنقل كلّ الأحداث إلى بلد آخر كما قالت هانية، وربما أغيّر الفصل الأخير قليلاً، وربما... ربما أضمّنه النقاش الطريف الذي دار اليوم، ستكون مداعبةً أخيرة لعقل القارئة."، وهكذا عرفت يقيناً أنّها لن تعود فوراً، لكنّها ستستغلّ العزلةَ المتاحةَ في الكتابة أكثر.

لاحقًا أكثر

تهوّرت إحدى اللواتي شاركتهنّ عائشة نصّها، أو وصيّة انتحارها الذي لم يتمّ، ووصلت هذه الرواية إلى يديّ، فقرّرت نشرها، وبعد التأكّد من تغيير كلّ الأسماء مرّة أخرى.

ها هي الحقيقة أمامك ترتدي القناع بعد القناع لكنّها تصرّح عن نفسها أكثر من أيّ وقت.

عائشة تعيش في سلام، وقد تقرأ نصّها هذا وتنفي أنّها كتبته.

انتهى.